كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بلا ألقاب

هناك من الناس من يكره اسمه أو لقبه، وربما يكره بعضهم الاثنين معاً. والاسم يأتي رغماً عنا، إذ يطلقه علينا آباؤنا وأمهاتنا، بينما اللقب موروث وثابت في أغلب الأحيان. وسبب تغير الكنية أن الأبناء كانوا أيام زمان، في كثير من المناطق الآسيوية، وربما أمريكا اللاتينية، يكنون أبناءهم بأسماء الآباء، بحيث لا يوجد

لقب أو كنية للعائلة. ولكن، حين ثبتت الألقاب في مجتمعات وتقاليد أخرى، عرف الجميع من أبناء وأولاد عمومة انتسابهم إلى فخذ واحد لهذه القبيلة أو تلك.

من ناحية ثانية، هناك عرف شرقي مألوف هو أن يسمي الولد البكر أول وأكبر أبنائه باسم والده. بالتالي، تجعل هذه الازدواجية الأسماء تتكرر كما هي، أو معكوسة بشكل مربك ومحير، في العائلة ذاتها. بالمقابل، قد تتلاشى ألقاب العائلات، لأن كنية كل فرد هي اسم أبيه، فتشتبك وتتشابه مع كنيات أخرى تتبع لآباء يحملون أسماء مماثلة. هذا عرض لوضعين متباينين، ولكنهما متواجدان معاً هنا أو هناك، حسب أعراف المجتمعات المختلفة.

في رواية غابرييل غارثيا ماركيز الأشهر «مائة عام من العزلة»، سيلاحظ القارئ غير المستعد سلفاً أنه كان في حاجة إلى ورقة وقلم منذ البداية، كي يرسم شجرة عائلة، تتفرع إلى فروع وأغصان والرواية تمضي حتى نهايات الرواية، وإلا فإنه سيضيع في خضم تكرار الأسماء ذاتها جيلاً بعد جيل، وقد أصبح اسم الأب كنية، واسم الابن كنية. وكثيراً ما يسمى الحفيد باسم الجد، فتتكرر الأسماء ذاتها كما هي، وتسبب حيرة لمن لا يدون تسلسل العائلة في شكل شجرة متسلسلة الفروع. يسري الأمر نفسه على بعض السلالات الشرقية، وخاصة العائلات الصينية القديمة، التي تدهش أسماؤها بالتكرار. فالأسماء تتشابه وتعاد جيلاً بعد جيل، ليتيمن الصغار بالكبار، وتكرم إنجازات الأسلاف، ولكن لا بد في هذه الحال – كما في الولايات المتحدة– أن يقال عن الولد «جونيور» أو «الابن» أو «الصغير»، لتفريقه عن الأب.

ولكن ثمة معنى آخر للألقاب يشكل فارقاً ثقافياً/اجتماعياً، ففي المشرق

العربي من الدارج أن يكنى المرء «أبو فلان»، أي باسم ولده الذكر البكر، وأحياناً بالنسبة لبعض المسؤولين خاصة ممن لم يرزقوا بأبناء باسم الابنة. أما في مصر مثلاً، فهذا أمرٌ غير مألوف على الإطلاق، بل يثير الاستغراب، إن لم نقل الاستهجان. لكن للألقاب في عالمنا العربي معنى إضافي آخر، لا علاقة له بالكنية، وإنما بالمكانة الاجتماعية، أو العلمية، وأحياناً السياسية. وما تزال كلمات مثل «الشيخ» تطلق في لبنان حتى على كبار الشخصيات المسيحية، بينما يشير هذا اللقب في بلدان الخليج العربية إلى مكانة اجتماعية أسرية سامية ورفيعة. وقد ورثنا عن العثمانيين «بك» و«أفندي»، وهما ما زالتا تُستخدمان في بلاد الشام، وإن انحسرتا كثيراً عن عهد الطرابيش. أما في مصر، فالكلمة أصبحت «بيه»، و«أفندم». وبالمناسبة، يتفاوت الشغف في استخدام كلمات التبجيل، فنلاحظ استخدام الأشقاء في مصر بكثرة لكلمات المخاطبة المهذبة، مثل «حضرتك» و«سيادتك» و«يا أفندم»، وهو ما يعتبر أمراً غريباً في عرف أقطار عربية أخرى، لا تستسيغ مثل هذا التهذيب الجم، بل تعتبر هذا النوع من الإطناب في المجاملة أقرب إلى النفاق. بينما نجد في مجتمعات أخرى، (ذات البيئة الصحراوية خاصة)، نوعاً من المباشرة في المخاطبة – إن لم نقل الفجاجة- لكنها مصحوبة بطيبة القلب وصدق النية، بحيث يتطابق الظاهر مع الباطن.

ويحرص أشقاؤنا المصريون على استخدام ألقاب الاحترام والتبجيل حتى مع النساء، فهم يستخدمون لقب «أستاذة» مع المرأة ذات المركز المرموق، حتى انتقلت العدوى ودرج هذا الاستخدام في أكثر من قطر عربي بسبب تأثير الدراما السينمائية والتلفزيونية المصرية، وهو لقب أحبه وأحبذه شخصياً، لأن من تلقبن بالأستاذة تتمتعن بالجدارة، غالباً أكثر من الرجال. وربما كانت أصول ذلك الاحترام في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مصر تعود إلى التأثير العثماني أيضاً، إذ إن الأتراك منذ ذلك الحين وحتى اليوم يحرصون على التهذيب الجم، بشكل مبالغ فيه، حتى إننا في طفولتنا كنّا نتذمر من محاولة أهلنا ذوي الأصول الشركسية/ التركية أن يجعلوننا ننادي أشقاءنا وأبناء عمومتنا وخالاتنا الأكبر سناً بلقب «آبه»، وشقيقاتنا وبنات عماتنا وخالاتنا الأكبر سناً بلقب «أبله». كذلك، يتميز اليابانيون بالتهذيب الشديد في المخاطبة، واحترام الأكبر منهم سناً أو مكانة أو علماً، ومن السائد أن تسبق مناداة الاسم كلمة «صن»، تعبيراً عن الاحترام. أما في سورية فاستبدلت كلمة «سيد» غالباً بكلمة «أستاذ»، في حين أن كلمة «أستاذ» عادةً تطلق على المدرس أو المحاضر الجامعي إذا أخذت بحرفيتها، وتستخدم عند الأجانب مع الكنية، وليس مع الاسم الأول. لكن السوريين يطلقون على كل رجل تقريباً لقب «أستاذ»، حتى ابتذل معنى تلك الكلمة، وصار كثيرون يفضلون سواها، وأبرزها لقب «دكتور».

أما بالنسبة للألقاب التي تسبغ على المسؤولين من نواب ووزراء وسفراء، فهي تتفاوت بين قطر وآخر حسب سيكولوجيا التعامل مع السلطة، وبعد الناس أو قربهم منها، اطمئنانهم لها أو خوفهم من بطشها.

في الجزائر، فإن اللقب الدال على الاحترام هو «سي فلان»، وهو كفاية على تمييز مكانة الشخص، وإلا نوديَ باسمه المجرد، أو بأبي فلان. ومثلنا في العالم العربي، فإن الباكستانيين وعديداً من البلدان الآسيوية يستخدمون لقب سيد مع الاسم الأول، على نقيض الأوروبيين والأمريكان حيث يرتبط لقب سيد بالكنية حصراً، وليس بالاسم الأول.

وأولئك المستشرقون أم الزوار الذين يحاولون الانسجام مع دول العالم الثالث التي يزورونها أو يعملون فيها يحاولون التكيف مع هذه العادة، فيقبلون بابتسامة

أن يناديهم الناس «مستر جون» مثلاً. وقد صادفت من هؤلاء الكثير ممن كانوا يأتون عبر مؤسسة «تومسون» للتدريب التلفزيوني والإذاعي للتدريس في «مركز التدريب» التابع لاتحاد الإذاعات العربية في دمشق، إذ كان جميع الطلبة المتدربين من العرب يجمعون بين لقب «سيد» واسمهم الأول.

بالمقابل، فإن بعض الشعوب والثقافات تقلب المناداة بالاسم الأول مع الكنية. وأذكر حادثة طريفة مفادها أن زوجتي سافرت مع صديقة جزائرية في رحلة سياحية إلى الهند، وعندما حاول زوج تلك السيدة الاطمئنان عليهما في الفندق، قيل له إن سيدتين بهذين الاسمين لم تنزلا عندهم. أبلغني ذلك والقلق يساوره. لكنني بمجرد أن اتصلت بالفندق أعطيت كنية زوجتي واسم زوجته الأول، لأنه مسجل أولاً على جواز سفرها، بحيث اعتبره الهنود كنية، فإذا بسنترال الفندق يصلني بغرفتهما، وأطمئن بأنهما على ما يرام.

وأما في المجتمعات الغربية، فإنه من النادر جداً أن ينادى بريطاني أو أمريكي بكلمة «سيد» أو «دكتور»، بل باسمه المجرد فقط، إن لم يكن باختصار اسمه لاسم الدلع، وكل ما عدا ذلك يثير السخرية، حتى بين الطلاب وأساتذتهم، والأبناء وأهاليهم. أما في ألمانيا والنمسا، فيحرصون على اللقب غالباً، خاصة إذا كان علمياً، ويتمسكون به ما أمكن، فلا يرفعون الكلفة إلا مع القلائل من الأصدقاء الخلص والأهل.

خلاصة القول، إن الاحترام في نظرنا هو سلوك أكثر منه ألقاباً. وكم يمكن أن يُسمَى شخص آخر «بك» أو «دكتور» أو «معالي»، وهو يضمر له مشاعر السخرية أو الاحتقار. والأمر لا يعدو فوارق اجتماعية محضة بين بلد وآخر، وثقافة وأخرى، لكن الأهم من استخدام الألقاب تعبيراً عن الاحترام، هو الاحترام نفسه. أما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقب العائلة، فلا يمنع صحة المثل «وردة أنبتت شوكة»، في بعض الأحيان. عندها، أجزم أن الأب سيتمنى لو أن الأرض تنشق وتبلعه، ولا يعرف أحد أن الأبناء غير الصالحين أساؤوا إلى سمعة ذويهم. وربما يصدق العكس، كأن «تخلف شوكة وردة»، ووقتها سيتمنى الأبناء ألاّ يذكر الناس إلى من ينتمون، ويعاملونهم بما يستحقون لقاء جدهم وأمانتهم.

وكم من عائلات عريقة ومحترمة السمعة خلفت أبناء وبنات من الضالين، وكذلك كم برز عباقرة وزعماء من منابت متواضعة ومغمورة دون الاستناد على أمجاد وثروات أهلهم، بحيث يتضاعف احترامنا لعصاميتهم. ولعل سمعة المرء، رجلاً كان أم امرأة، لا تتحقق بصورة جاهزة ومسبقة الصنع، وإنما يصنعها الإنسان بملء وجوده بالعمل الصالح، وهي البذرة الخيرة للمستقبل التي تمنح المرء اسماً ولقباً شرف الخلود.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمة العدد

صون التراث الثقافي غير المادي

د. علي القيّم
رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدعوة من مكتب «اليونسكو» الإقليمي في بيروت، عقدت ورشة عمل تطبيق اتفاقية عام ٢٠٠٣ حول صون التراث الثقافي غير المادي، بمشاركة مجموعة من الخبراء والاختصاصيين من سورية ولبنان، في بلدة برمانا بين (١١ و١٥ تموز ٢٠١١)، وكان لرئيس تحرير «المعرفة» شرف رئاسة الوفد السوري. والمشاركة في فعاليات الورشة المختلفة، ونجدها فرصة

لنشير إلى أهمية هذه الورشة، ودورها في تفعيل عمل اللجان الوطنية في حفظ وصون التراث غير المادي، الذي يعدّ من المصطلحات الجديدة نسبياً، ولكنه قديم قدم الإنسانية، ويشمل مجموعة كبيرة من أشكال التعبير بدءاً بالتقليدي وانتهاءً بالمعاصر، وانطلاقاً من الريفي حتى الحضري، وتعرّف المادة (١و٢) من الاتفاقية التراث الثقافي غير المادي على أنه: يشمل الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية- التي تعتبرها الجماعات والمجموعات والأفراد جزءاً من تراثهم الثقافي، وهذا التراث غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمّي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها..

وتقر الاتفاقية بالاحترام الواجب إيلاءه لجميع أشكال التراث الحي على قدم المساواة ويدور المجتمعات على اعتبارات «ذاتية» في تحديد القيمة التي ينبغي إسنادها إلى عناصر هذا التراث، وهناك سمة أخرى مميزة للتراث الحي وهي طابعه المرن والمتطور باستمرار، وقد تغيّر هذا المصطلح في مضمونه تغيراً كبيراً في العقود الأخيرة، ويرجع ذلك إلى الصكوك التي وضعتها «اليونسكو» ومن المعروف أن التراث الثقافي لا يقتصر على المعالم التاريخية ومجموعات القطع الفنية والأثرية وإنما يشمل أيضاً التقاليد وأشكال التعبير الحيّة الموروثة من أجدادنا والتي تداولتها الأجيال الواحد تلو الآخر، وصولاً إلينا، مثل التقاليد الشفهية والفنون الاستعراضية، والممارسات الاجتماعية، والطقوس، والمناسبات

الاحتفالية، والمعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون، ودورها في إنتاج الصناعات الحرفية التقليدية..

ويشكل التراث الثقافي غير المادي على الرغم من طابعه الهش، عاملاً مهماً في الحفاظ على التنوع الثقافي في مواجهة العولمة المتزايدة، وفهم هذا التراث للمجتمعات المحليّة المختلفة يساعد على الحوار بين الثقافات ويشجع على الاحترام المتبادل لطريقة عيش الآخر..

وهذا التراث شأنه شأن الثقافة عموماً في تغيّر وتطور مستمرين ويزداد ثراءً مع كل جيل جديد، والكثير من أشكاله باتت مهددة ومعرّضة للخطر جراء «العولمة» وتعميم التنميط ونقص الدعم والتقدير والتفاهم، وإذا لم تتوافر له الرعاية المناسبة، فقد يتعرض لخطر الضياع إلى الأبد، ومن أجل صونه نحن بحاجة إلى اتخاذ تدابير تختلف عن تلك التي استخدمت من أجل حفظ المعالم التاريخية والمواقع والأماكن الطبيعية، فمن أجل الإبقاء على التراث غير المادي حياً، يجب أن يظل جزءاً لايتجزأ من ثقافة ما، وأن يمارس ويعلّم بانتظام في المجتمعات المحليّة وبين الأجيال، والمجتمعات والجماعات التي تمارس هذه التقاليد والعادات في كل مكان من العالم لديها أنظمتها الخاصة لنقل معارفها ومهاراتها، وعادة ما تعتمد على النقل الشفهي بدلاً من النصوص المكتوبة، وأنه لا يمكن صون أنشطته بمعزل عن المجتمعات المحليّة والجماعات والأفراد الذين يحملون مثل هذا التراث.

• • •

كيف نستطيع صون وإدارة التراث غير المادي، الذي يتغيّر باستمرار ويشكّل جزءاً لا يتجزأ من «ثقافة حيّة» دون تجميده أو تهميشه، في وقت تواجه بعض عناصره خطر الموت أو الاختفاء، إذا لم يهرع لإنقاذها.. هذه النقاط كانت محاور نقاش وحوار بين المشاركين في ورشة العمل المشترك بين الأشقاء السوريين واللبنانيين، وقد تركزت حول عمليات الصون والإنقاذ ونقل المعارف والمهارات والمعاني وإيصال عناصر التراث من جيل إلى جيل..

إن صون التراث الثقافي غير المادي يعني السهر على بقاء هذا التراث جزءاً فعّالاً في حياة أجيال اليوم ونقله إلى الأجيال المقبلة، وتهدف تدابير الصون إلى بقاء هذا التراث، وتجدده باستمرار ونقله، وتتضمن مبادرات الصون تحديد هذا التراث وتوثيقه، وإجراء بحوث بشأنه والمحافظة عليه، والترويج له ونقله، لا سيما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي، وإحياء مختلف جوانبه، ويعدّ صون هذا التراث أيضاً مصدراً مهماً من مصادر التنمية الاقتصادية، وهذا ليس بالضرورة عن طريق الأنشطة المدرّة للدخل كالسياحة، التي يمكن أن تلحق الضرر بالتراث الحي، بدلاً من ذلك ينبغي التركيز على تعزيز دور التراث الثقافي غير المادي داخل المجتمع، وتعزيز إدماجه في التخطيط الاقتصادي..

السؤال الذي طرح بقوة في هذه الورشة.. من أين نبدأ؟!

إن التراث غير المادي يمكن أن يجمع ويوثق شأنه شأن المعالم التاريخية والأعمال الفنية، وتمثّل الخطوة الأولى لصون التراث الثقافي غير المادي في تحديد أشكال التعبير والمظاهر التي يمكن اعتبارها تراثاً ثقافياً غير ماديّ، ثم تسجّل أو تدرج

في قوائم الحصر، ثم تصبح قوائم الحصر هذه أساساً لوضع تدابير صون لمظاهر وأشكال تعبير التراث الثقافي غير المادي المدرج والموصوف في هذه القوائم، وينبغي أن تشارك المجتمعات المحلية في تحديد وتعريف التراث الثقافي غير المادي، فهي التي تقرر أي الممارسات تشكل جزءاً من تراثها الثقافي..

وينبغي أن تشمل عملية حصر التراث الثقافي غير المادي، جميع أشكال التعبير، بغض النظر عن مدى شيوعها أو ندرتها، ونسبة ممارسة المجتمع المحلي لها، أو مدى تأثيرها عليه، ومن المستحسن أيضاً تحديد عناصر التراث الثقافي الأكثر تعرضاً للضغوط أو التهديد، كذلك يجب معرفة مدى انتشار مظاهر هذا التراث وأشكال تعبيره، وكم عدد المشاركين فيه وما هو تأثيرهم، وبهذا يمكن معرفة مدى قوة وضعف كل منها، وبما أن التراث الثقافي غير المادي عرضة للتغيّر على الدوام، يجب تحديث القوائم باستمرار..

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد حددت اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي أشكال التعبير عن هذا التراث في مجالات عدة، على سبيل المثال لا الحصر:

١- التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كوسيط للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي.

٢- فنون الأداء.

٣- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.

٤- المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.

٥- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

ويجدر القول: إن الكثير من عناصر هذا التراث قد ينتمي إلى مجال أو أكثر من هذه المجالات، وتتمثل الأغراض الرئيسة لهذه الاتفاقية تأمين احترام التراث والإيمان بأهميته..

• • •

يتمثل التوثيق في تسجيل التراث الثقافي غير المادي، في وضعه الراهن، في أشكال مادية، وجمع وثائق تتعلق به، وكثيراً ما ينطوي التوثيق على استعمال شتى وسائل وأشكال التسجيل، وكثيراً ما تكون الوثائق محفوظة في المكتبات أو المحفوظات أو مواقع «الويب» حيث يمكن أن تطلع عليها الجماعات، والمجموعات لديها أيضاً أشكال تقليدية من التوثيق، مثل كتب الأغاني أو النصوص المقدسة، وعيّنات النسيج أو نماذج الكتب أو أيقونات وصور تشكل تسجيلات لأشكال التعبير والمعارف من التراث الثقافي غير المادي، ويتزايد استخدام بعض الاستراتيجيات المشهودة في مجال الصون، مثل الجهود الابتكارية التي تبذلها الجماعات في سبيل التوثيق الذاتي والبرامج الرامية إلى استرداد أو نشر وثائق المحفوظات من أجل تشجيع الإبداع المستمر.

وينبغي أن تكون عملية الحصر عملية تفاعلية بين القمة والقاعدة، تشارك فيها الجماعات والحكومات والمنظمات الدولية غير الحكومية، ومن أجل الوفاء بشرط مشاركة الجماعات ينبغي للدول الأطراف تحديد الإجراءات على النحو التالي:

- تحديد الجماعات أو المجموعات وممثليها على نحو ملائم.

- ضمان ألا يحصر سوى التراث غير المادي الذي تعترف به الجماعات أو المجموعات.

- تأمين الموافقة الحرة والمسبقة والمستنيرة للجماعات أو المجموعات قبل الشروع في عملية الحصر.

- ضمان موافقة الجماعات عندما يشارك أفراد من غير أعضاء الجماعة.

- احترام العادات العرفية فيما يتعلق بالانتفاع بالتراث الثقافي غير المادي.

- إشراك الحكومات المحلية أو الإقليمية بصورة فعّالة.

- اعتماد وتطبيق مدونة سلوك تراعي الدروس، المستخلصة من الممارسات الجيدة حول العالم.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإزاء كمية التراث غير المادي الواجب تحديدها وتصنيفها، قد يتعين تحديد عدد الأولويات.. لذلك ربما يتعين البدء بحصر العناصر التي ترى الجماعات أو من يمارسها أنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لهويتهم، أو أنها تمثل بوجهٍ خاص تراثهم الثقافي غير المادي، وينبغي ألا يُنسى دور وضع القوائم باعتباره تدبيراً يستهدف الصون، لذلك ينبغي الإشارة قدر الإمكان إلى استدامة العناصر التي يتم حصرها وإبراز المخاطر التي تحيق بها، وتترك الاتفاقية صراحة للدول الأطراف حرية الاختيار بين وضع قائمة واحدة أو أكثر، ولكنها لا تذكر المعايير اللازمة لتحديد نطاق كل قائمة في حالة اختيار نظام تعدد القوائم..

وأشكال التراث الثقافي غير المادي لا تقتصر على مظهر واحد بعينه، وبعضها يتضمن عناصر في مجالات متعددة، ونأخذ مثلاً طقساً من طقوس السحر،

فقد يشمل هذا الطقس الموسيقا، والرقص التقليديين والصلوات والأغاني والملابس والأشياء المقدسة، وكذلك الممارسات الطقسية والاحتفالية والإحساس الحاد بالعالم الطبيعي ومعرفته، وفي الوقت نفسه، تعد الاحتفالات تعبيرات معقدة عن التراث الثقافي غير المادي وتشمل الغناء والرقص والمسرح والولائم والتقاليد الشفهية ورواية الحكايات وعروض الفنون الحرفية والرياضة وغير ذلك من التسالي، فالحدود بين المجالات مرنة للغاية وكثيراً ما تتباين بين مجموعة وأخرى، ويصعب، إن لم يكن في حكم المستحيل فرض فئات صارمة من الخارج، فبينما يمكن لمجموعة ما أن تعتبر أشعارها الغنائية شكلاً من أشكال الطقوس، فإن مجموعة أخرى قد تفسرها باعتبارها من أصناف الغناء، وعلى هذا الأساس فإن ما يمكن لمجموعة ما أن تعتبره من أشكال «المسرح» فإن مجموعة أخرى قد تفسره بأنه «رقص» في سياق ثقافي مختلف، وهناك أيضاً اختلافات في الحجم والنطاق والمجالات بما في ذلك «اللعب والألعاب التقليدية» أو «التقاليد المطبخية» أو «تربية الحيوان» أو «الحج» أو «أماكن الذكرى»..

في مجال التراث الثقافي غير المادي، يشمل مجال «التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي» مجموعة هائلة من الأشكال المحكية، منها: الأمثال، والفوازير والحكايات والأغاني وقصص البطولات والأساطير والقصائد الملحميّة والتعويذات وأغاني الأطفال والصلوات والأناشيد والأداء المسرحي وغير ذلك.. وتستخدم التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي لنقل المعرفة والقيم الثقافية والاجتماعية والذاكرة الجماعية، وهي تؤدي دوراً شديد الأهمية في الحفاظ على الثقافة النابضة بالحياة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبعض أنواع التعبير الشفهي يمكن أن تستخدمها مجموعات بأكملها في حين أن أنواعاً أخرى تقتصر على مجموعات اجتماعية خاصة، أو على الرجال دون النساء، أو على النساء دون الرجال، أو حتى على المسنين، وفي كثير من المجتمعات يعتبر أداء التقاليد الشفهية مهنة عالية التخصص، وينظر المجتمع المحلي للمؤدين المحترفين بكثير من الاحترام، باعتبارهم حُماة الذاكرة الجماعية، ويوجدون في المجتمعات المختلفة في جميع أنحاء العالم..

ونظراً لأن التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي تنتقل بالكلمة المحكيّة، فإن أسلوب روايتها كثيراً ما يختلف، فالقصة عبارة عن مزيج، يختلف باختلاف نوعها وسياقها ومؤديها، من الإخراج والارتجال والإبداع وهذا المزيج يجعلها شكلاً من أشكال التعبير الحي المليء بالألوان، لكنها في الوقت نفسه ضعيفة تستند في هويتها على سلسلة لا تنقطع من تقاليد تتناقل عبر أجيال المؤدين.. وهنا تلعب اللغة دورها، باعتبارها واسطة لنقل التراث غير المادي، واللغات المختلفة، تتحكم في كيفية رواية القصص والأشعار والأغاني كما تؤثر في مضمونها، واندثار لغة ما يقود حتماً إلى فقدان دائم لما لديها من تقاليد شعبية وأشكال تعبير شفهي، والأداء المستمر أمام الناس يساعد على صون اللغة وليس القواميس وكتب القواعد، وقواعد البيانات، فاللغات تعيش في الأغاني والقصص والفوازير والأشعار، لذلك فإن الصلة وثيقة وقوية بين حماية اللغات وتناقل التقاليد الشفهية وأشكال التعبير الشفهي..

ويبقى الجانب الأهم والأشد أهمية في عملية صون التقاليد الشفهية وأشكال

التعبير الشفهي، هو الحفاظ على دورها في حياة المجتمع اليومية، دون انقطاع تنتقل من جيل إلى آخر، وهنا يمكن استخدام «تكنولوجيا» المعلومات للمساعدة على صون هذه التقاليد بكمالها وثرائها كله، بما في ذلك تنوع النصوص وتباين أشكال الأداء، ويمكن اليوم تسجيل خصائص التعبير الفريدة، من قبيل تنظيم عدد كبير جداً من الأنماط المتباينة على وسائط سمعية أو بصرية حديثة، وكذلك شأن التفاعل بين المؤدين والمتفرجين والعناصر غير اللفظية من القصص، بما في ذلك الحركات والإشارات، ولعل الموسيقا هي الشكل الأكثر عالمية من أشكال فنون الأداء، فهي موجودة في المجتمعات كافة، وأغلبها يوجد كجزء أساسي من أشكال الأداء الأخرى بما في ذلك الطقوس أو احتفالات الأعياد أو التقاليد الشفهية، ويمكن للموسيقا أن توجد في سياقات شديدة التنوع (رقص- مسرح- طقوس) وكثيراً ما تكوّن خصائص أساسية للترويج الثقافي الذي يرمي إلى اجتذاب السياح وكثيراً ما يظهر في برامج مشغلي الجولات السياحية..

المرتكزات الأساسية للتخطيط لإدارة الأزمات

د. محمد سعيد الحلبي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة

لا يخفى على المتابع لسير الأحداث خاصة السياسية منها ما للأزمات بكل أنواعها من دور في تاريخ الشعوب والمجتمعات سواء على صعيد الهدم أو البناء، وقراءة متأنية لدور الأزمة بشكل عام يفضي بنا إلى تلمس خيط يقودنا إلى حقيقة مفادها أن المجتمعات التي اعتمد الهرم القيادي فيها على فرق خاصة وكفوءة في التعامل مع الأزمات كانت أصلب عوداً وأكثر

* مستشار وباحث في التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية.

العمل الفني: الفنان مصطفى الصافي.

قدرة على المطاوعة والاستمرار من قريناتها التي انتهجت أسلوباً مغايراً تمثل بالتصدي المرتجل والتعامل بطرق غير مدروسة سلفا مع بؤر الصراع والتوتر ما أدى بالتالي إلى ضعفها وتفككها فالأزمات ظاهرة ترافق سائر الأمم والشعوب في جميع مراحل النشوء والارتقاء والانحدار.

ولو أمعنا النظر في ثنايا الأحداث التاريخية الكبرى لوجدنا أن الأزمة على مرَّ العصور تتوسط المراحل المهمة في حياة الشعوب، فبين كل مرحلة ومرحلة جديدة ثمة أزمة تحرك الأذهان وتشعل الصراع وتحفز الإبداع وتطرق فضاءات بكر تمهد السبيل إلى مرحلة جديدة، غالبا ما تستبطن بوادر أزمة أخرى وتغييرا مقبلا آخر، وكان لنمو واتساع،المجتمعات ونضوب الموارد المتنوعة وشدة المنافسة السياسية والاقتصادية الكلمة الفصل في طول حياة الأزمات إلى حد أصبح تاريخ القرن السابق على سبيل المثال يشكل سلسلة من أزمات تتخللها مراحل قصيرة من الحلول المؤقتة، ومن هنا فقد نشأت أفكار جدية من أجل دراسة وتحليل الأزمة ومحاولة الخروج منها بأقل الخسائر وتأخير الأزمة اللاحقة أن تعذر تعطيلها.

ويرى شير مهورن (schermehorn) أن الأزمة الإدارية إنما هي مشكلة غير متوقعة قد تؤدي إلى كارثة إن لم يجر حلها بصورة سريعة.

وعرفها (اللوزي) بأنها كل موقف أو حدث يؤدي إلى إحداث تغيرات إيجابية وجادة في النتائج وهي حدث أو تراكم لمجموعة من أحداث غير متوقع حدوثها تؤثر في نظام المؤسسة أو في جزء منه وهي من الناحية العملية انقطاع عن العمل كليا أو جزئيا لمدة تطول أو تقصر لسبب معين يتبعها تأثر الكيان وتحوله.

الأسباب المؤدية إلى نشوء الأزمات

أولاً: الأسباب الإنسانية وتشمل:

١- سوء التقدير والاحترام.

٢- حب السيطرة والمركزية الشديدة.

٣- تعارض الأهداف والمصالح.

ثانياً: الأسباب الإدارية و تشمل:

١- سياسات مالية مثل ارتفاع التكاليف وضعف قدرة الرقابة.

٢- عدم التخطيط الفعال.

٣-اتخاذ القرارات بشكل عشوائي.

٤- عدم وجود أنظمة حوافز ناجحة.

٥- عدم توفر الوصف الوظيفي الجيد للمهام والواجبات.

وعلى أية حال فإن الأزمة هي حالة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انتقال من مرحلة إلى أخرى يصاحبها نقص شديد في المعلومات وحالة من عدم التأكد، وهي مفتاح التطور والتغيير نحو الأفضل أو التقهقر والهلاك.

وعليه فلابد من تنصيب برنامج أو أكثر، يتم تشغيله في ظروف الطوارئ، إذا ما أراد القائمون على الواقع السياسي والإداري تفادي مصير التقهقر والهلاك على أقل تقدير، وبرنامج من هذا القبيل هو عبارة عن منهج يمثل تقنية تستخدم لمواجهة الحالات الطارئة التي لا يمكن تجنبها وإجراء التحضيرات اللازمة لها قبل وقوعها. وهو بمعنى أكثر دقة أشبه بمحاولة تجميع المعلومات اللازمة عن مسببات الأزمة ومن ثم تحليلها واتخاذ القرار المناسب بشكل سريع وفاعل.

خصائص الأزمات الإدارية ومواصفاتها:

١- المفاجأة العنيفة والشديدة لدرجة أنها تكون قادرة على شد الانتباه لجميع الأفراد والمنظمات.

٢- التشابك والتداخل في عناصرها وعواملها وأسبابها.

٣- عدم التأكد وعدم توافر المعلومات مما يسبب الأخطاء في اتخاذ القرارات وبالتالي تفاقم وتدهور الأوضاع.

٤- غالباً ما يصاحبها أمراض سلوكية

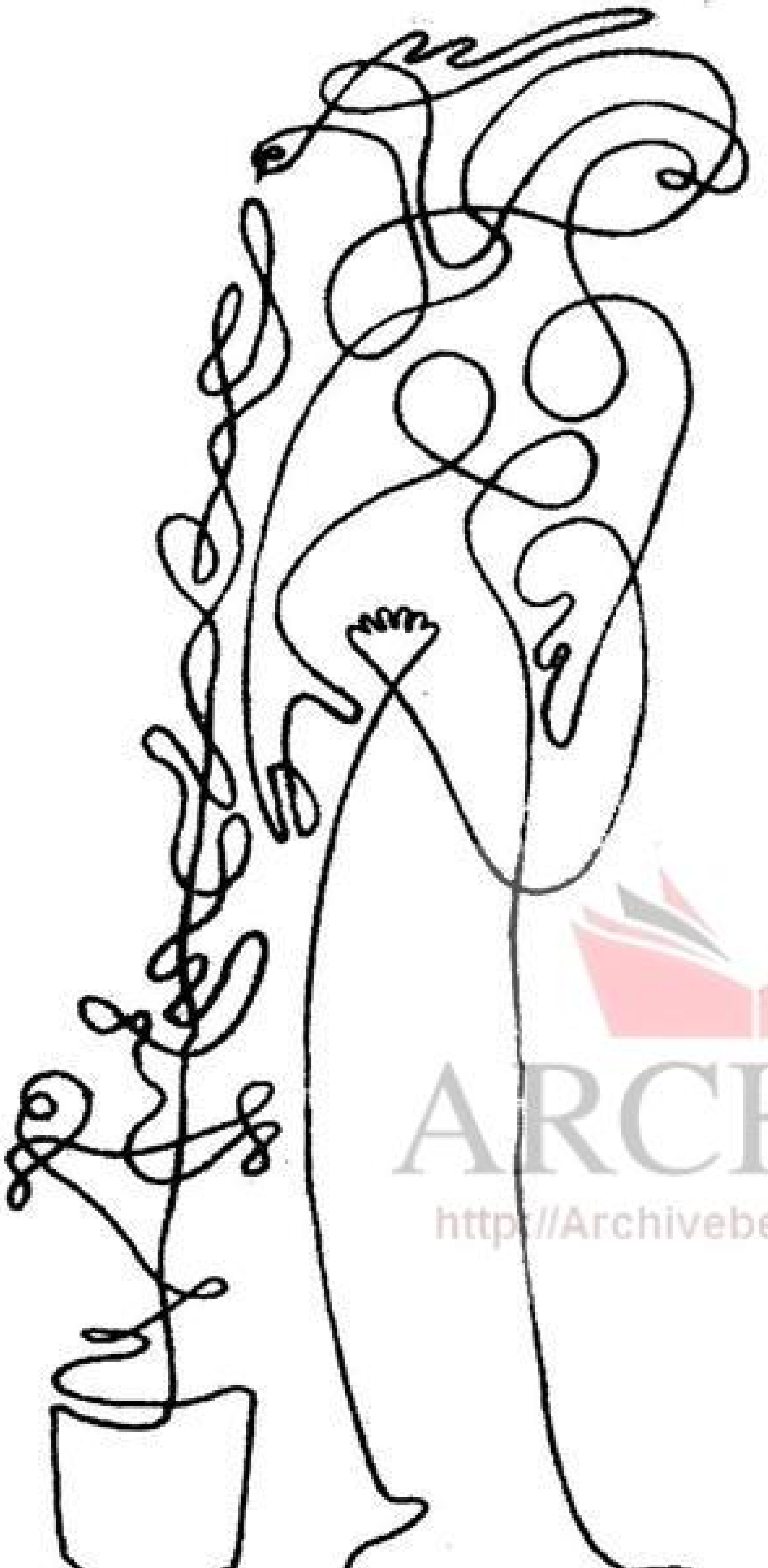

غير مستحبة كالقلق والتوتر وحالات عدم الانتباه واللامبالاة.

٥- وجود مجموعة من الضغوط المادية والنفسية والاجتماعية تشكل في مجموعها ضغطاً أزموياً على الجهاز الإداري.

٦- ظهور القوى المعارضة والمؤيدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(أصحاب المصالح) ما يفاقم، من شدة الأزمة.

مراحل الأزمة وإدارتها

تقسم مراحل الأزمة ومن ثم إدارتها إلى:

١- مرحلة الصدمة:

وهو ذلك الموقف الذي يتكون نتيجة الغموض ويؤدي إلى الإرباك والشعور بالحيرة وعدم التصديق لما يجري وهي مرحلة تتناسب عكسياً مع مدى معرفة وإدراك الإنسان.

٢- مرحلة التراجع:

تحدث هذه المرحلة بعد حدوث الصدمة، وتبدأ بوادر الاضطراب والحيرة بالظهور بشكل متزايد ويصاحب ذلك أعراض منها زيادة حجم الأعمال التي لا جدوى منها (الأعمال الفوضوية).

٣- مرحلة الاعتراف:

وهنا تتجلى عقلانية التفكير -فيما بعد امتصاص- الصدمة حيث تبدأ عملية إدراك واسعة ومراجعة للأزمة بغية تفكيكها.

٤- مرحلة التأقلم:

حيث يتم استخدام استراتيجيات معينة إضافة إلى استخدام الموارد البشرية والمادية في المنظمة للتعامل والتخفيف من آثار الأزمة. وما لم يتم التعامل بذكاء وحذر في هذه المرحلة فإن الأمور سوف تتجه بخط بياني نحو الكارثة. وقد أطلقت على هذه المرحلة تسميات أخرى من أبرزها، مرحلة الإنذار المبكر أو مرحلة اكتشاف إشارات الخطر، وهي بهذا المعنى أولى خطوات إدارة الأزمة تليها مجموعة أساليب وقائية وسيناريوهات معينة تتابع أحداث الأزمة وتحدد لكل فرد في فريق الأزمة دوره بمنتهى الوضوح. وتهيئ وسائل عمل تحد من الأضرار وتمنعها من الانتشار.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى المرحلة التالية من مراحل إدارة الأزمة ألا وهي مرحلة استعادة النشاط وتشتمل على إعداد وتنفيذ برامج قصيرة وطويلة الأجل سبق وأن تم اختبارها بنجاح على أزمات مشابهة وعادة ما تكتنف هذه المرحلة، روح الحماس التي تقود إلى تماسك الجماعة وتكاتفها في مواجهة الخطر.

أساليب حل الأزمات والتعامل معها

هناك نوعان من أساليب حل الأزمات الأول معروف متداول، ويصطلح عليه بالطرق التقليدية،والثاني عبارة عن طرق لا تزال في معظمها،قيد التجريب ويصطلح عليها بالطرق غير التقليدية:

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

أولاً: الطرق التقليدية:

وأهم هذه الطرق:

١- إنكار الأزمة:

حيث تتم ممارسة تعتيم إعلامي على الأزمة وإنكار حدوثها، وإظهار صلابة الموقف وأن الأحوال على أحسن ما يرام وذلك لتدمير الأزمة والسيطرة عليها. وتستخدم هذه الطريقة غالباً في ظل الأنظمة الدكتاتورية والتي ترفض الاعتراف بوجود أي خلل في كيانها الإداري.

وأفضل مثال لها إنكار التعرض للوباء أو أي مرض صحي وما إلى ذلك.

٢- كبت الأزمة:

وتعني تأجيل ظهور الأزمة، وهو نوع من التعامل المباشر مع الأزمة بقصد تدميرها.

٣- إخماد الأزمة:

وهي طريقة بالغة العنف تقوم على الصدام العلني العنيف مع قوى التيار الأزموي بغض النظر عن المشاعر والقيم الإنسانية.

٤- بخس الأزمة:

أي التقليل من شأن الأزمة (من تأثيرها ونتائجها). وهنا يتم الاعتراف بوجود الأزمة ولكن باعتبارها أزمة غير هامة.

٥- تنفيس الأزمة:

وتسمى طريقة تنفيس البركان حيث يلجأ المدير إلى تنفيس الضغوط داخل البركان للتخفيف من حالة الغليان والغضب والحيلولة دون الانفجار.

٦- تفريغ الأزمة:

وحسب هذه الطريقة يتم إيجاد مسارات بديلة ومتعددة أمام قوة الدفع الرئيسية والفرعية المولدة لتيار الأزمة ليتحول إلى مسارات عديدة وبديلة تستوعب جهده وتقلل من خطورته.

ويكون التفريغ على ثلاث مراحل:

أ- **مرحلة الصدام:** أو مرحلة المواجهة العنيفة مع القوى الدافعة اللازمة لمعرفة مدى قوة الأزمة ومدى تماسك القوى التي أنشأتها.

ب- **مرحلة وضع البدائل:** وهنا يقوم المدير بوضع مجموعة من الأهداف البديلة لكل اتجاه أو فرقة انبثقت عن الصدام. وهذه العملية تشبه إلى حد ما لعبة البلياردو.

ج- **مرحلة التفاوض مع أصحاب كل فرع أو بديل:**

أي مرحلة استقطاب وامتصاص وتكييف أصحاب كل بديل عن طريق التفاوض مع أصحاب كل فرع من خلال رؤية علمية شاملة مبنية على عدة تساؤلات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مثل ماذا تريد من أصحاب الفرع الآخر وما الذي يمكن تقديمه للحصول على ما تريد وما هي الضغوط التي يجب ممارستها لإجبارهم على قبول التفاوض؟

٨- عزل قوى الأزمة:

يقوم مدير الأزمات برصد وتحديد القوى الصانعة للأزمة وعزلها عن مسار الأزمة وعن مؤيديها وذلك من أجل منع انتشارها وتوسعها وبالتالي سهولة التعامل معها ومن ثم حلها أو القضاء عليها.

ثانيا: الطرق غير التقليدية:

وهي طرق مناسبة لروح العصر ومتوافقة مع متغيراته وأهم هذه الطرق مايلي:

١- طريقة فرق العمل:

وهي من أكثر الطرق استخداماً في الوقت الحالي حيث يتطلب الأمر وجود أكثر من خبير ومتخصص في مجالات مختلفة حتى يتم حساب كل عامل من العوامل و تحديد التصرف المطلوب مع كل عامل.

وهذه الطرق إما أن تكون مؤقتة أو تكون طرق عمل دائمة من الكوادر المتخصصة التي يتم تشكيلها، وتهيئتها لمواجهة الأزمات وأوقات الطوارئ.

٢- طريقة الاحتياطي التعبوي للتعامل مع الأزمات:

حيث يتم تحديد مواطن الضعف ومصادر الأزمات فيتم تكوين احتياطي تعبوي وقائي يمكن استخدامه إذا حصلت الأزمة. وتستخدم هذه الطريقة غالباً في المنظمات الصناعية عند حدوث أزمة في المواد الخام أو نقص في السيولة.

٣- طريقة المشاركة الديمقراطية للتعامل مع الأزمات:

وهي أكثر الطرق تأثيراً وتستخدم عندما تتعلق الأزمة بالأفراد أو يكون محورها عنصر بشري. وتعني هذه الطريقة الإفصاح عن الأزمة وعن خطورتها وكيفية التعامل معها بين الرئيس والمرؤوسين بشكل شفاف وديمقراطي.

٤- طريقة الاحتواء: أي محاصرة الأزمة في نطاق ضيق ومحدود ومن الأمثلة على ذلك الأزمات العمالية حيث يتم استخدام طريقة الحوار والتفاهم مع قيادات تلك الأزمات.

٥- طريقة تصعيد الأزمة:

وتستخدم عندما تكون الأزمة غير واضحة المعالم وعندما يكون هناك تكتل عند مرحلة تكوين الأزمة فيعمد المتعامل مع الموقف، إلى تصعيد الأزمة لفك هذا التكتل و تقليل ضغط الأزمة.

٦- طريقة تفريغ الأزمة من مضمونها:

وهي من أنجح الطرق المستخدمة حيث

يكون لكل أزمة مضمون معين قد يكون سياسياً أو اجتماعياً أو دينياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو إدارياً وغيرها، ومهمة المدير هي إفقاد الأزمة لهويتها ومضمونها وبالتالي فقدان قوة الضغط لدى القوى الأزموية ومن طرقها الشائعة هي:

أ- التحالفات المؤقتة

ب- الاعتراف الجزئي بالأزمة ثم إنكارها.

ج- تزعم الضغط الأزموي ثم توجيهه بعيدا عن الهدف الأصلي.

٧-طريقة تفتيت الأزمات:

وهي الأفضل إذا كانت الأزمات شديدة وخطرة وتعتمد هذه الطريقة على دراسة جميع جوانب الأزمة لمعرفة القوى المشكلة لتحالفات الأزمة وتحديد إطار المصالح المتضاربة والمنافع المحتملة لأعضاء هذه التحالفات ومن ثم ضربها من خلال إيجاد زعامات مفتعلة وإيجاد مكاسب لهذه الاتجاهات متعارضة مع استمرار التحالفات الأزموية. وهكذا تتحول الأزمة الكبرى إلى أزمات صغيرة مفتتة.

٨- طريقة تدمير الأزمة ذاتيا وتفجيرها من الداخل:

وهي من أصعب الطرق غير التقليدية للتعامل مع الأزمات ويطلق عليها طريقة (المواجهة العنيفة) أو الصدام المباشر وغالبا ما تستخدم في حالة عدم توفر المعلومات وهذا مكمن خطورتها وتستخدم في حالة التيقن من عدم وجود البديل ويتم التعامل مع هذه الأزمة على النحو التالي:

أ- ضرب الأزمة بشدة من جوانبها الضعيفة.

ب- استقطاب بعض عناصر التحريك والدفع للأزمة

ج- تصفية العناصر القائدة للأزمة

د- إيجاد قادة جدد أكثر تفهما

٩- طريقة الوفرة الوهمية:

وهي تستخدم الأسلوب النفسي للتغطية على الأزمة كما في حالات فقدان المواد التموينية حيث يراعي متخذ القرار توفر هذه المواد للسيطرة على الأزمة ولو مؤقتاً.

١٠- احتواء وتحويل مسار الأزمة:

وتستخدم مع الأزمات بالغة العنف والتي لا يمكن وقف تصاعدها وهنا يتم تحويل الأزمة إلى مسارات بديلة ويتم احتواء الأزمة عن طريق استيعاب نتائجها والرضوخ لها والاعتراف بأسبابها ثم التغلب عليها ومعالجة إفرازاتها ونتائجها، بالشكل الذي يؤدي إلى التقليل من أخطارها.

أما إذا كانت الأزمة ناتجة عن مسبب

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

خارجي فيمكن عندئذ استخدام الأساليب التالية:

أ- **أسلوب الخيارات الضاغطة:** مثل التشدد وعدم الإذعان والتهديد المباشر.

ب- **الخيارات التوفيقية:** حيث يقوم أحد الأطراف بإبداء الرغبة في تخفيف الأزمة ومحاولة إيجاد تسوية عادلة للأطراف.

ج- **الخيارات التنسيقية:** أي استخدام كلا الأسلوبين الأخيرين، أي التفاوض مع استخدام القوة.

ختاماً فإن ما قدمناه يمكن أن يصلح دليلا يسلط الضوء إلى حد ما على مفاصل الأزمة خاصة الإدارية أو السياسية منها، الأمر الذي يؤدي إذا ما تمّ التعاطي مع أبرز مفرداته إيجابياً من قبل صناع القرار إلى وضع تصور أولي لحل الأزمات التي تواجه الطاقم السياسي بين الحين والآخر، لاسيما وأن سلسلة الأزمات في البلاد يبدو أنها مرشحة للاتساع من حيث المدى والنوع مع الأخذ بنظر الاعتبار، ملفات لم تزل تنتظر الحسم السياسي وأخرى في طور التشكل أو الاستفحال.

مصادر البحث

١- علي أحمد فارس - مركز المستقبل للدراسات والبحوث، ٢٠١٠م.
٢- محمد بركات- ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر الخير العربي الثاني، بيروت، ٢٠٠٩م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدراسات والبحوث

شعر حديث لا ينسى

جميل حسن ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعر الجيد عندي هو ما يبقى أثرهُ الممتع وصداه الطيب في نفس قارئه طويلاً، تلقفته الذاكرة واحتفظت به ليرافقها على دروب الحياة لا يفارقها.

وشعرنا الحديث غنيٌّ بمثل هذا. سمعنا ذلك الجيد أو قرأناه فحفظناه أو حفظنا منه ما أغنى تراث محفوظاتنا، وما زال معيننا الذي منه نمتح لأحاديث سمرنا أو لدعم ما نكتب وإغنائه بالشواهد والعبر.

✿ أديب وشاعر من سورية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وبعد أن كبرنا وبدأنا نعي أنّ الإنسان موقف، وأن الشعر خلق فنيٌّ متبادل بين القول والقائل فهو إذاً موقف أيضاً وقد تفاوت شعراؤنا الحديثون في مواقفهم بين ملتزم فكرة أو عقيدة في الحياة، ومتشبه به، ومنصرف عنه إلى التجويد الفني من دون أن يعبأ الأمس شعره الحياة أو حوّم فوق واقعها ووقائعها. بدأنا نشعر بمسؤوليتنا ونتحمل التبعات.

ولسوف أحاول في هذا الحديث أن أستذكر ما يمكن استذكاره واضعاً في حسابي أن الجمال الفني أهمُّ ما يطلبه قارئو هذا الزمان، وأنا أعلم بسبب خبرة السنين الطويلة التي عشتها أن الشعر إذا جمع بين الجمال والموقف الشجاع كان أكثر جذباً لشبابنا وتأثيراً بهم لأنهم في صميمهم ينتظرون من الحياة أن تقدم لهم الإبداع الأصيل بعد أن أوشك الجيل يضيع بين بهر الآلة الحديثة، وأدوات حضارتها التي أصبحت شغلاً شاغلاً لأبنائنا وأترابهم، وهذا الركام الهذياني الذي يحمل زوراً اسم الشعر، (فالخطايا تدفقت طوفانا).(1)

والإخلاص للحقيقة والأمة يستدعي أن نظل بين هؤلاء الشباب نصدقهم وندفعهم ما أمكننا إلى التماهي مع هموم أمتهم وطموحاتها ولغة الإبداع عندها غير يائسين ولا قانطين نقلب أكف الندم والحسرات بعد فوات الأوان. ومن دون أن نصادر وعيهم ونتحول إلى واعظين ومرشدين نحمل مسبحة الدراويش ونتجول بينهم منفوشي الريش مغرورين نخاطبهم بأننا الأوعى والأنضج و (الأفهم) ويا لبؤسنا حينذاك، وبؤس ما ننتجه من نتاج.

-١-

في عام الهزيمة الأولى لطبقتنا السياسية عام ١٩٤٨ الذي سميناه عام النكبة الذي فيه أخوينا أرض فلسطين وأخليناها للمغامرين الغزاة الأوائل من يهود الخزر ونصبنا للذين هجّرناهم من أبنائنا خيام الذل والعار في ضواحي مدننا تاركيهم لخبز وكالة الغوث وحروفها (برامجها الأميركية).

في ذلك العام طلع علينا شاعرنا الفذ المرحوم ((عمر أبو ريشة)) بهذه القصيدة التي حفظناها كلها، وإن هي تآكل بعضها من الذاكرة، وهي بعنوان ((بعد النكبة))(2) وفيها يبدو جليا أن الشاعر جمع بين الفن والموقف أي ما تسميه لغة النقد الحديث (بين الفن والالتزام):

أمتي هل لك بين الأممِ
منبر للسيف أو للقلمِ

أتلقاك وطرفي في مطرق
خجلاً من أمسك المنصرمِ
ويكاد الدمع يهمي عابثا
ببقايا كبرياء الألمِ
أين دنياك التي أوحت إلى
وتري كلّ يتيم النغمِ

o o o

أمتي كم غصّة داميةٍ
خنقت نجوى عُلاك في فمي
أي جرح في إبائي راعفِ
فاته الآسي فلم يلتئمِ
ألإسرائيل تعلو رايةٌ
في حمى المهد وظل الحرمِ(3)
كيف أغضيت على الذلّ ولم
تنفضي عنك غبارَ التهم
اسمعي نوح الحزانى واطربي
وانظري دمع اليتامى وابسمي

ولم يُلقِ المسؤولية جزافاً ويكتفِ، فهو يعلم من المسؤول عن هزائمنا كلها، وهو المشهود له بالتصدّي لكلّ فساد أو جريمة ترتكب في حق الوطن لا يخاف ولا يجامل، وكان الصوت شبه الوحيد بين الشعراء الذي لم يكن يسكت ولم يكن يذعن. كان يشاركه في ذلك المرحوم نديم محمد غير أنه لم تتح له المنابر التي أتيحت لعمر، ولا حضور المحافل التي كان يدعى إليها عمر، فبقي شعره وقفاً على مسامع خاصته وجلسائه. وسليمان العيسى، غير أنه كان شاباً طالعاً على الحياة، وكان صوت البعث المخيف وقتها، فكانت المحافل تتحاشاه، وبقي صوته وقفاً على رفاقه البعثيين.

ويستأنف شاعرنا أبو ريشة فيعيد على المسامع ما كان أسمع الناس شبيهاً به في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، فيصفع وجوه المسؤولين بالمقارع، متابعاً مخاطبة الأمة، فيقول:

ودعي القادة في أهوائها
تتفانى في خسيس المغنمِ
ربَّ وامعتصماه! انطلقت
ملء أفواه البنات اليتّمِ
لامست أسماعهم لكنها
لم تلامس نخوة المعتصمِ
أمتي كم صنمٍ مجدّته
لم يكن يحمل طهر الصنمِ
لا يُلام الذئب في عدوانه
إن يك الراعي عدوَّ الغنمِ
فاحبسي الشكوى فلولاك لما
كان في الحكم عبيدُ الدرهمِ

والحقيقة كنا، ونحن طلاب في الثانوي، نحفظ بعض هذا الشعر غير ما قرأناه فيما بعد عندما نُشرت القصيدة، فإما أن يكون ما حفظناه من تصحيفات بعضهم حيث كانت المناسبة تستدعي ذلك، وإما أن الشاعر نظر في الشعر نظرة نقدية فأحبّ أن ينقذه من خصوصية المناسبة أو إسفاف التعبير. إذ ما كنا نحفظه كان مخصصاً جداً يتناول شخص رئيس الوزراء حينها وهو (جميل مردم بك) وقريبه (فؤاد مردم) الضابط الذي ارتكب جريمته المشهورة حيث اشترى شحنة أسلحة للجيش من إيطاليا وشحنها في سفينة وأرسلها لتذهب إلى العصابات الصهيونية بينما كان يقضي هو ليلة حمراء مع عاهرة يهودية دُست إليه لتلهيه ويحدث ما حدث. وقد ثارت يومها زوبعة في البلاد، وأحيل الضابط إلى القضاء فحكم حكماً دون مستوى الجريمة بكثير بدل أن يعدم من فوره كما كان الشعب يطالب وينتظر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والروايـة التي حفظناهـا يومها وعُدل عنها هي ما يلي:

أوَ تحـمـي أمـة عزتـهـا
وبـهـا مـثـل جـمـيـل المـردمِ؟
إن أرحـام الـبـغـايـا لم تـلـد
مجـرمـاً في شـكـل هـذا المجـرمِ

ربِّ وامعتصماه!....

في تلك الأثنـاء كان الشاعر الفلسطيني المنكوب المرحوم عبد الكـريم الكرمي (أبو سلمـى) قد أشـرك الجيوش مـع الزعماء السياسيين في الجريمة بقوله:

زعـمـاءُ مـزّقـوا (تـاريـخـنـا)
ومـلـوك (شـرّدونـا) دون ذنـبِ[4]
وجـيـوش غـفـر الله لـهـا
سلمت (أوطـانـنـا) من دون حربِ
حـين هـزّت لـلـوغـى رايـاتـهـا
حكمت فيـه على تشـريد شعبِ

بينما بـرّأ أبو ريشـة الجيوش من ذنب العار الـذي ألبسوه، فميـزّ واعتبر الجيش ضحية وكبش فداء للفضيحة، فقال:

أيـهـا الجـنـديُّ يـا كـبـش الـفـدا
وشـعـاع الأمـل المـبـتـسـمِ
مـا عـرفـت الـبـخـل بـالـروح إذا
طلبتـهـا غـصـص المجـد الظمي
بـورك الجـرح الـذي تحـمـلـه
شـرفـاً تحـت ظـلالِ الـعـلـم

وكان الجرح جرحين: جرحاً من رصاص الغزاة، وكان في تقديرنا هو الأسهل: وجرحاً مـن غـدر الزعمـاء وتآمرهم وهـو الأمر والأنكى.

-٢-

من الصّعب، بل من غير المقبول أن نحاور ذاكرتنا بما تحتفـظ به من شعرنا الحديث مـن دون أن نسألها أيـن شعر بدوي الجبل وهو أمير (الكلاسيكية) في شعرنا الحديث، أو ما اصطلح علـى تسميته بـ (الكلاسيكية الجديدة). فهو في ديباجته المشرقة ولفظته الفخمـة وعبارتـه الجزلة وأدائـه المحكم، وصورته المترفة يـكاد يشكل مَعْلماً متفردا. لكن لم ينسَ نقادُ الأدب أن يذكروا من عيوب هذه المدرسـة الأسلوبية أنها لا تعبأ بالواقع ولا يعنيها مـن الشعر إلاّ أن يحقق جماليته بالشروط التي أوجزناها آنفاً.

فبـدوي الجبل هـذا الشاعـر الضخم صاحب قصيدة ((خالقـة)) و ((السراب)) وباقي القصائد الوجدانية المعتبرة من آيات الفن الإبداعـي الأنيق يقف على قبر هنانو عـام ١٩٤٤م أو قل في إحياء ذكرى المجاهد المعروف، ويخاطبه فيقول:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبا طارقٍ! هذي سراياك أقبلت
يرفُّ على أعلامها العز والنصرُ
فمرْ نسمعِ الدنيا عُلاك وينطلق
إلى الفتح بعد الفتح عسكرك المجرُ

وواحسرتا! حيث كانت بلاد ((أبي طارق)) مراح ومغدى جيش الانتداب الفرنسي مردفاً بالجيش الإنكليزي بعد هزيمة قوات (فيشي) وانتصار الحلفاء على جيوش دول المحور.(٥)

تمم ذلك التبجّح بقوله:

أتعلم أن الشام فكت إسارها
وأضحت فلا قيدٌ هناك ولا أسر
يدير أمور الناس فيها موفقاً
(معاوية) الدنيا وصاحبه (عمرو)(٦)

فلو قرأنا هذا الشعر قراءة من يجهل تاريخ المنطقة لوجدناه من بديع ما يقال.

وكذلك فعل في رثائه لرئيس الوزراء اللبناني آنذاك (رياض الصلح) الذي اغتاله السوريون القوميون انتقاماً لزعيمهم الذي حكم بالإعدام وصدّق الحكم يومها رياض الصلح. وقصة أنطون سعادة مع الحكم في لبنان بما يمس محاولة الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح، ولجوئه إلى سورية للاحتماء بقائد أول انقلاب عسكري الزعيم حسني الزعيم الذي غدر ببلده، ووقع على امتياز شركة (التابلاين) لمد خطوط نقلها إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي السورية، والتي كان الشارع الوطني في سورية قد قاومها ورفضتها الحكومة السورية مستجيبة لضغط الشعب السوري في كل فئاته وانتماءاته.

وقد قال البدوي في تلك القصيدة بنفس التبجح الذي قاله في (هنانو):

سالف الشرق ملك قحطان
واليومُ لقحطان، والغدُ المأمولُ
وله هذه الجبالُ المنيفات
وتلك الربا، وهذي السهول
قد ورثنا البحار عن عبد شمسٍ
وعليها الغزاةُ والأسطولُ

ومرة أخرى نقول: (واحسرتا!) إذ لم يكن في بحرنا المتوسط إلا الأسطول الأمريكي.

ونراه يعرّج على السوريين القوميين فيهاجمهم في تعاليمهم الفلسفية التي بالغوا فيها فقال:

بئس قومية يؤرخها الظنُّ
ويبني أحسابها التأويل
كيف تسمو على الشعوب ثمالاتٌ
شعوبٍ وعابرون فلول(٧)

وكأن الشاعر لم يكن يدرك أن تلك الشعوب هي تراث المنطقة التي تمازجت حضاراتها حتى تجمعت أخيراً بالحضارة العربية ورسالتها الإسلامية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد فعل الفعل ذاته في رثاء الملك غازي (فالبدوي لم يرث إلا عظماء عصره)، فقال:

زهوة الفتح والشباب النجيد
من سقى الفجر من دماء الشهيد
دمُ غازي يا حمرة الفجر فاسقي
وارشفي من ضيائه واستزيدي
غرسٌ في الجنان، فالحور يطفرن
على ميعة الضياء الجديد
وحنت فاطم تضم فتاها
لهفة الأمّ فوجئت بالوليد[٨]

ويلتفت إلى غازي (الشهيد) فيخاطبه قائلاً:

قل كما قال للغمامة هارون
وفي الجو دمدماتُ الرعودِ[٩]
قل لها: أيها الغمامة جودي
شاطئ الرافدين أو لا تجودي[١٠]
حومي ما أردتِ شرقاً وغرباً
في تخوم الكون الفسيح المديد
وامطري أين شئت فالكون ملكي
وبنوه قبائلي وجنودي

أنقول ثالثة: (واحرقتا) كان التاج الهاشمي في العراق من إنتاج البريطانيين، تنفيذاً لاتفاقية (سايكس/بيكو) بين فرنسا وبريطانيا ذاك الشاعر الكبير الذي حدا لركاب الأسر الحاكمة والرؤساء هو صاحب قصيدة (السراب)

ومنها:

ويح السراب على الصحراء تسلمهُ
رمالُها السمرُ من تيه إلى تيه
يزوّر الماء للسقيا ولهفته
حرّى إلى منهلٍ يحنو فيسقيه
جلا النمير فما ابتلت جوانحه
من النمير، ولا ابتلت مآقيه
أيامه خِدَعٌ للركب ضاحكة
سخراً، وللعدم القاسي لياليه
ألا يمل السراب الغمر وحدته
ألا يحن إلى نعمى تندّيه
لهفي عليه أسيراً في يدي قدر
يميته كلَّ ليلٍ ثم يحييه
هذي مراعيه عطل من بشاشتها
حنت لشبابة الراعي مراعيه
هيمان، لهفان، لا مأوى لوحشته
قلبي الذي وَسِعَ الأكوان يُؤويه

وهو صاحب قصيدة (خالقة) التي تغنيها (فيروز)، ومنها:

من نعمياتك لي ألفٌ منوّعةٌ
وكل واحدة دنيا من النورِ
و زار طيفك أجفاني فعطّرها
يا للطيوف الغريرات المعاطير
أخادع النوم إشفاقاً على حلمٍ
حانٍ على الشفة اللمياء مخمورِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلقتني من صبابات مدلهةٍ
ظمأى الحنين إلى دلٍّ وتغريرِ
فكيف أغفلت قلبي من تجلّده
لما توليتِ إبداعي وتصويري
وكيف تشكين من حبي غوايته
وأنتِ كوّنت إبداعي وتعبيري
يا طفلة الروح حبّات القلوب فدى
ذنبٍ لحسنك عند الله مغفور
لو كنت في جنة الفردوس واحدة
من حورها لتجلى الله للحورِ
عندي كنوز حنان لا نفاد لها
أنهبتها كلّ مظلومٍ ومقهورِ
تاهت عن العنق الحالي فأرشدها
إلى سناه حنين النور للنورِ

فهل لا تقترب -عزيزي القارئ- هذي القصيدة من تهويمة صوفية، ثمّ... ألا يبدو بدوينا هنا وكأنه بدويان شاعران مختلفان، اللهمّ إلاّ في الديباجة الشعرية واللفظة المصنوعة من العجين الفاخر المطواع؟

- ومثل (سراب البدوي) في الخيال البديع والأناقة، وروح الحياة التي تعمر الشعر قصيدة ((النهر الخالد)) للشاعر المصري محمود حسن إسماعيل، والتي يغنيها (محمد عبد الوهاب):

مسافرٌ زاده الخيالُ
والسحرُ والعطر والظلالُ
ظمآن، والكأسُ في يديه
والحب والفنُّ والجمالُ
شابت على أرضه الليالي
وضيعت عمرها الجبالُ
ولم يزل ينشد[11] الديارا
ويسألُ الليل والنهارا
يا واهب الخلد للزمان
يا ساقي الحب والأغاني
هات اسقني واسقني ودعني
أهيمُ كالطير في الجنانِ
سمعت في شطك الجميلِ
ما قالت الريح للنخيل
يسبّح الطير أم يغني
ويشرح الحب للخميل
وأغصنٌ تلك أم صبايا
شربن من خمرة الأصيلِ

-٣-

- وما أراه يسوغ لذاكرتنا أن تسوح في شعرنا الحديث فتتنقل من شاعرٍ إلى شاعر، وتتجاوز الشاعر الذي كان شعره -ونحن طلاب- ملء أسماعنا، وملء أبصارنا، وملء أفواهنا. رفيقنا وأستاذنا وصديقنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شاعر البعث -كما سميناه- الشاعر سليمان العيسى، وإن كنا اختلفنا معه في فترة من فترات علاقتنا ببعضنا.

((فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية))

أتصوره الآن وهو يلقي علينا (أولنا) قصيدة في مكتب الحزب في باب الحديد في حلب، وهو غرفة في عيادة الرفيق الدكتور عبد الخالق مرعشي -رحمه الله- وكان يومها دور الشاعر في شرح مبادئ حزبنا، فوقف وقال: اسمعوني. أنا لست رجل محاضرات حزبية، أنا شاعر، وهذه قصيدة مني، وأتحفنا بقصيدة وانصرف.

وأتصوره، وقد كنت رئيس اللجنة الثقافية في دار المعلمين بحلب، وهو يلقي علينا بناء على دعوة اللجنة مختارات من شعره التي صفق لها مديرنا المحبوب المرحوم عمر فوزي عيسى، وكان الشاعر مبحوح الصوت بسبب (رشحة) ألمت به.

وأتذكره... وأتذكره. وليس هنا مجال تذكره، بل لأقول إنّ أول قصيدة أحفظ للآن بعض أبياتها التي لا أذكر أني رأيتها منشورة في أيٍّ من دواوينه. والأبيات هي ما يلي:

أقسم النخل لن يظلل إلاّ
ظبية حرّة الهوى أو كميا
أبت الضمر الصوافن أن تعلي
عليها إلا السريا السريا[١٢]
وقديماً لم تحمل البيد إلاّ
شاعراً فوق ظهرها أو نبيا
وقديماً تاه الجمال، ولم لا
إنه كان بالظبى محميا
لا تخال في حسناء ما فتئ البعث
على اللطف والجمال وصيا

- وأتذكر أني كنتُ وبعض رفاقنا من طلبة دار المعلمين نزوره في قبوه في حي الجميلية، فقال لنا: (لو سبقتم ساعة لالتقيتم بالدكتور وهيب الغانم العائد في إجازة قصيرة من بطاح فلسطين أشعث أغبر)- وكان الدكتور متطوعاً في جيش الإنقاذ مع عميد البعث آنذاك المرحوم ميشيل عفلق وبعض الرفاق (وقد حكى لنا الأعاجيب من بطولات المجاهدين ومهازل الحكام، وفور مغادرته كتبت له هذه القصيدة)، وقرأها علينا في المسودة، وأذكر منها مايلي:

يا أخا الروح، ولي من نشوتي
ما يعيد الليل سحراً عجبا
عد إلى الكأس نهدهد جرحنا
ونرحْ فيها شباباً متعبا
أوَ ما مضّك من أمتنا
غيهب يصدم فيها غيهبا[١٣]

وذئـــاب مـــزّقـــت تـاريـخـنـــا
ورمـــــت في كـل صـــدر مخلبـا
وعـــبـــاديــد تـســمـوا قــادةً
هـــل عـــرفـت الـعـبـد إلا ذنـبـا

وقد نُشرت هـــذه القصيـــدة في ديوانه الأول ((مع الفجــر)). والذي -كما قال لنا يومها- قدّمه مخطوطـــاً إلى الشاعر (عمر أبـــو ريشة)، وعندما طلبه منه فاجأه بقوله: لقد ضاع. (ثم وجد فيما بعد)، وقال الشاعر يومها:

مـــا ضــــاع ديـــــواني، ولـكـنـــه
فـجـر شـبـابـي مـن يـد الـعـمـر ضـاعْ

وكان شاعر البعث يومها جريئاً فلا يهاب الطبقـــة السياسية لا في بلده ولا في أي بلد من بلدان العروبـــة. لذلك عندما مرّ الأمير السعودي في بـــيروت ألقى الأخطل الصغير أمامه قصيدة يخاطبه فيها: (أبا العروبة)، فتصدى له شاعرنا، وقال قصيدته المشهورة التي منها:

يـا شـاعـر الأرز! قـد عـفـرّت عـزتـه
لـلـصـبـح لا لـلـمـسـاء الـكـالـح الـقـبـل
أبــو الـعـروبـة؟ سـلْ عـنـه ثـمـانـيـةً
مـن المـلايـين لم يـكـسـوا ولا انـتـعـلوا
سل الجـزيـرة هل جـاعـت وهل عـريـت
إلاّ لـيـغـرق في لـذاتـه رجـل؟
خـلّ الـولـيـد! وخـلّ الـعـاص نـاحـيـة
أسطورة الفتح بالظهران تكتمل[١٤]
كم أقـسـمـوا بـالـدم المـثـآر لـو طـرفـت
عين على القدس في ساحاته قتلوا
ومُـــزق الـقـدس أشـلاءً مـبـعـثـرة
فاسأل، ولو خجل التاريخ. فافعلوا؟

وفي غرفة التحقيق في الشعبة السياسية قال:

١- مـــن أنـــت؟ دحـرجـه المحـقـق
عـــبـر هـــمـهـمـة ســـؤالا
٢- وعـلـى مكدّسة من الأوراق
في عـــيـــنـــيـــه جـــالا
٣- فـــإذا المـــراد عـقـيـدتـي
يـــا لـلـضـحـى فـضـح الـظـلالا
٤- خـــذهـــا إذن أرجـــوعـــة
ســـحـــراً عـلـــى وتـــري حـــلالا
٥- أنـــا شـــاعـــر ومـــدرس
يـرضـي الـبـلاغـة حـيـث صـالا
٦- أنـــا وحـــدة يـــا سـيـدي
عـــربـيـة تـــأبـــى انـفـصـالا
٧- في الـشـــوك عـشـنـاهـا،
وفـــوق الـصـخـر أعـــوامـــاً طـــوالا
٨- وعـــلـــى الحـصـــير، حـصـير
آبـــائـــي تـلـقـنـت الـنـضـــالا

- وقـــد تحـــوّل الشاعر منـــذ منتصف حياتـــه إلى كتابة الأناشيـــد للأطفال فأنتج

منها كماً هائلاً معظمه شعر موفق يساير أعمار الطفولة ويستميل عواطف الأطفال وينمي خيالاتهم نائياً بهم عن لغة الوعظ والإرشاد، من مثل قوله:

أرسم ماما أرسم بابا بالألوان
أرسم علمي فوق القممِ أنا فنان
أنا صياد اللون الساحر
أرض بلادي كنز مناظر

وقد عدنا، والتقينا في سبعينيات القرن الماضي في توجيه مادة اللغة العربية، هو موجه أول، وأنا موجه اختصاصي في الساحل، واستأنفنا الصداقة رغم خلافنا الشديد في المواقف.

-٤-

- لا تعرف الذاكرة حدوداً ولا مسافات ولا أزمنة، فهي تجتاز المحيطات والقارات في مثل لمح البصر من دون أن تبرح مكانها، وكذلك تفعل ذاكرتنا اليوم، فقد قفزت بنا إلى أمريكا الجنوبية، وتحديداً إلى البرازيل حيث الأكثرية من ((عنادلنا المهاجرة))[١٥]: (الشاعر القروي -إلياس فرحات- فوزي المعلوف- جورج صيدح إلخ...).

وقد تختار الذاكرة لأكثر من شاعر من هؤلاء، وتبدأ بالشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) الذي حمل من لبنان إلى هناك قوميته بين جناحيه، وعندما حطّ، حطّ بها بين عينيه وفي شغاف قلبه، وعلى حرّ لسانه، ورأس ريشته.

ويبدو أنه كان وسيماً فعشقته فتاة أوروبية، فكتب لها:

ولو لم تكوني فرنجيةً لكنتِ سعادي قبل سعادْ
ولكنني عربي الهوى عربي المنى عربي الفؤاد
لعمرك يا (مود) لولا ذووك لما فرّق الحب بين العباد
واني حرام عليَ هواك، وفي وطني صيحةٌ للجهادْ

وهو القائل:

هبوا لي ديناً يجعل العرب وحدة[١٦]
وسيروا بجثماني على دين برهم

وقد اشتهرت بيننا منذ بواكير الصبا قصيدته التي نظمها للثائر الكبير المرحوم (سلطان الأطرش) على أثر الانتصار الكبير في (معركة المزرعة)، التي بلغ بها إعجاب الناس حتى حكيت حولها الأساطير، وقيل إنّ سلطان الأطرش هجم على دبابة القائد الفرنسي فقطع (جنزيرها) بسيفه، وبهذه الرواية وصل خبر المعركة إلى المهجر، فقال شاعرنا القروي قصيدته العينية المشهورة التي -كما كانت تقول العرب- سار بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الركبان عابرة القارات والمحيطات، والتي منها:

فيا لك أطرشاً لما دُعينا
لثأركان أسمعنا جميعاً
ويا لك ضربةً لو لم تذعها
أعادينا لكذبنا المذيعا
وثبتَ على سنام التنك وثباً
جريئاً علّم النسر الوقوعا(17)
فخرَّ التنك تحتهم صريعا
وخروا فوقه صرعى جميعا

ثمّ يلتفت إلى لبنان فيخاطبه بقوله:

ويا لبنانُ مات بنوك موتاً
وكنت أظنهم هجعوا هجوعا

ويعاتب السيد المسيح (وهو المسيحي اللبناني) فيقول:

أيا حملاً وديعاً لم يخلّف
سوانا في الورى حملاً وديعاً
أجرنا من عذاب النير لا من
عذاب النار إن تك مستطيعا
إذا ما رمت دفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا

وقد أثار هذا القول حفيظة المرحوم أنطون سعادة زعيم الحزب السوري القومي الذي كان يقول بالدين الواحد، وألف في ذلك كتاباً سماه (الإسلام في رسالتيه المحمدية والمسيحية) فشنّ على القروي هجوماً مريراً في كتابه (الصراع الفكري في الأدب السوري).

وآخر ما نذكره للشاعر القروي عندما عاد إلى أرض الوطن بدعوة من حكومة (الجمهورية العربية المتحدة)، وقد جثا فقبل رمل الشاطئ في اللاذقية، وقال:

بنت العروبة هيئي كفني
أنا عائد لأموت في وطني
أأجود من خلف البحار له
بالروح، ثمّ أضنُّ بالبدنِ؟

- ثمّ لا أدري لمَ يقترن ذكر الشاعر القروي عندي بذكر الشاعر إلياس فرحات، ذاك الشاعر المغترب الفذ الذي يمثل من دون أن يقصد أو من دون أن يدري، الواقعية في الشعر العربي الحديث. الواقعية التي تكاد لفرط تأثيرها في النفوس تغدو رومانسية وجدانية. إذ يقول -مثلاً-:

طوى الدهر من عمري ثلاثين حجة
طويت بها الأصقاع أسعى وأدأب
أغرّب خلف الرزق وهو مشرق
وأقسم لو شرّقت راح يغرّبُ
ونمسي وفي أجفاننا الشوق للكرى
ونضحي، وجمر السهد فيهنّ يلعبُ
ونشرب مما تشرب الخيل تارة
وطوراً تعاف الخيلُ ما نحن نشربُ

فالقوم كانـوا يحملون بضاعتهم راكبين علـى ظهور بغالهم التـي يسميها هنا خيلاً متنقلين بها في ريـف البرازيل من قرية إلى قريـة كعادة (البياعـين) الجوالين في ريفنا نحن وجبل لبنان أيام زمان.

ويُدهشـ القـارئ عندما يـرى إلياس فرحات يفلسـف نظرية في الشعر بقصيدة في غاية الإمتاع إذ يقول:

يقولون عمَن أخذت القريض
وممـن تعلمت نظم الـدُرر
وأيـن درسـت العروض وكيف
تلقفت هـذا البيـان الأغـر
ومـا كنت يومـاً بطالب علم
فإنـا عرفنـاك منذ الصغر
فقلت: أخذت القريض صبيا
عن الطير وهـي تغني السحر
وعـن خطرات عليل النسيم
يمـرُ فيشفي عليل البشر
وعـن ضحكات مياه الجداول
فـوق الجلامـد.. تحت الشجر
وعـن زفـرات المحبّ الأديـب
يـزاحمـه الموسر المحتقر
وعـن نظرات الحسان اللواتي
يكدن يغلغلنها في الحجر
وعـن عبرات الحزانى الضعاف
ففـي عـبرات الحـزاني عبر
لئن كنت لم أدخل المدرسات
صغيراً ولا بعد هـذا الكبر
فـذا الكون جامعة الجامعات
وذا الدهـر أستاذنا المعتبر
ففـي المبكيات بيـان جميل
وفي المضحكات معان غرر
وفي كل مـا يبصر المبصرون
دروس تُنـار بهـنّ الفِكَر
فمن يحيا يومـاً ولا يستفيدُ
أعمى البصيرة.. أعمى البصر

-٥-

- ويقفـز بنا خيال الذاكـرة إلى العراق لنقف علـى ضفة نهر دجلة الجميل الخالد أبداً لكـن ليس كما صـور الشاعر محمود حسن إسماعيل نهر النيـل، بل كما صورته الشاعرة نازك الملائكة في شكوى مريرة من فيضانه في قصيدتها (النهر العاشق)، وهنا سنقرأ نهجاً جديداً وشكلاً جديداً في الشعر هو ما سمـي (شعر التفعيلة): وهي قصيدة تنشد إليها أعصاب قارئها مع كلّ عبارة، وفي كل صورة، ولدى كلّ لفظة تقريباً، إذ تصور الآثار المدمـرة لفيضان نهر دجلة في موسم ذوبان الثلوج عند منبعه، وغزارة الأمطار في موسمها، كيف يجتاح القرى والمزارع وأقبية

الأحيـاء الفقيرة في بغداد نفسها. ولا نطيل في المقدمة، بل ندع الشعر يحدّثنا:

أين نمضي؟ إنه يعدو إلينا
راكضاً عبر حقول القمح لا يلوي خطاه
باسطاً في لمعة الفجر ذراعيه إلينا
طافراً كالريح نشوان، يداه
سوف نلقاه ويطوي رعبنا أنّى مشينا
إنه يعدو ويعدو
وهو يجتاز بلا صوتٍ قرانا
ماؤه البني يجتاح ولا يلويه سدّ
إنه يتبعنا لهفان أن يطوي صبانا
في ذراعيه، ويسقينا الحنانا
أين نعدو وهو قد لفّ يديه
حول أكتاف المدينة؟
إنه يعمل في بطء وحزم وسكينة
ساكباً من شفتيه
قُبلاً طينية غطت مراعينا الحزينة
ذلك العاشق إنا قد عرفناه قديما
إنه لا ينتهي من زحفه نحو ربانا
وله نحن بنينا، وله شدنا قرانا
إنه زائرنا المألوف ما زال كريما
كلّ عام ينزل الوادي ويأتي للقانا

وهـل يستطيع ذلك الفيضـان المخيف الموعـود أن يغـرق غير أكواخ الفقـراء؟ أم هل من وضعتهـم الأقدار في أحضان النهر غـير أولاد الفقراء؟. وهذا مـا أكّدت عليه الشاعرة:

نحن أفرغنا له أكواخنا في جنح ليل
وسنؤويه، ونمضي
إنه يتبعنا في كل أرض
وله نحن نصلّي
وله نفرغ شكوانا من العيش الممل

ولقـد علّق بعض من كان له قرار حاسم في نشر الثقافة في بلادنا بالعبارة التالية: (أليس هذا إلحاداً)

فتأمـل -يا رعاك الله- أمر ذاك الموكل بحراسة الحقوق الإلهية على البشر!.

-٦-

وما نرانـا إلاّ نسـأل أنفسنـا، قبل أن يسألنا الناس: أيـن شعر بدر شاكر السياب القلم المبدع الثاني، أو لعله الأول، في إبداع هذا الأسلوب الجديد في العروض العربي؟. ولا نجد في هذا المقام ما نقدمه له خيراً من قصيدة ((أنشودة المطر)) التي كانت عنواناً لديوانه ((أنشودة المطر)). ومنها:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
مطر.. مطر.. مطر
أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضَّياع؟

بلا انتهاءٍ.. كالدم المراق.. كالجياع

كالحب.. كالأطفال... كالموتى هو المطر،

ومقلتاكِ تطيفان بي مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ

سواحل العراق بالنجوم والمحار

كأنها تهمُّ بالشروق

وبعد أن يمر الشاعر في هذه القصيدة بحالة البؤس والفقر التي يعيشها العراق على الرغم من وفرة إنتاجه ومحاصيله، يبشرّ بالثورة في القصيدة نفسها:

أكاد أسمع العراق يذخر الرعود

ويخزن البروق في السهول والجبال

حتى إذا ما فضَّ عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

في الواد من أثر

مطر.. مطر.. مطر

في كل قطرة من المطر

حمراءُ أو صفراءُ من أجنة الزهر

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد

أو حلمة تورّدت على فم الوليد

في عالم الغد الغني واهب الحياة

ونخال أنه لو بُعث السياب من قبره حيّاً يشاهد ما حلّ بعراقنا الحبيب لحمد الموت على أنه لم يدعه يعيش ليرى المأساة فيزداد تمزقاً على تمزق، ولطلب منه أن يعيده إلى قبره حالاً.

-٧-

وقد يتساءل بعض من يعشقون شعر ((نزار قباني)) قائلين: أين هذا الشاعر الذي طبقت شهرته الآفاق. ولسوف نستجيب لتساؤلاتهم ونقدّم له بعض النصوص التي قد تفاجئهم مفاجأة تترك عندهم أثراً ما إيجابياً أو سلبياً عندما يرونني أصرف الدراسة إلى الناحيتين النفسية والاجتماعية ونحن ما نزال ضمن عالمه الشعري الذي عُرف به لا نغادره:

أول هذه النصوص قصيدة ((حبلى)) وذلك عنوان ضحية من ضحايا السذاجة والغدر، السذاجة التي تجعل فتاة صبية لم تكن تجارب الحياة قد عجنتها فتستجيب لمداعبات شخص عاشق ربما أوهمها أنه سيتزوجها، فاستسلمت لحيلته ونزوتها: حتى كانت ذات يوم واقفة ببابه تحدّثه ذاك الحديث المقهور فتتعرى نفسيته وتفتضح حيلته، وترتد عن بابه مخذولة مقهورة:

لا تمتقع

هي كلمة عجلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إني لأشعر أنني حبلى

وصرخت بي كلا!.

سنمزق الطفلا

ومضيت تشتمني

وأخذت تضربني

لا شيء يدهشني

فلقد عرفتك دائما نذلا

هنا قال عنه نزار أنه نذل، وأظهر البنت خبيرة به والخبرة تأتي من تجارب سابقة. ثم يكمل المشهد بقوله (على لسان الصبية) -وهنا تثبت نذالته فعلا-

ليراتك الخمسون تضحكني

لمن النقود؟ لمن؟

لتجهضني؟

لتخيط لي كفني؟

هذا إذن ثمني؟

لا شيء يدهشني

ثمن الوفا يا بؤرة العفَنِ؟

أنا لم أجئك لمالك النتن

شكراً!. سأسقط ذلك الحمْلا

أنا لا أريد له أباً نذلا

مسرح نزار قباني هو هو لا يغيره، وهو عالم المرأة بمآسيها ومباذلها وحالاتها الشخصية والاجتماعية والخلقية.

النص الثاني بعنوان: ((رسالة من سيدة حاقدة)) وتمثل حالة لامرأة قضى معها ليلة ثم واعدها لليلة أخرى، ولا ندري أي فُرش من وعود معسولة وعوالم سحرية صوّرها لها وعندما عادت لموعدها كان اصطاد أخرى وحال بينها وبين الدخول، فعادت (مكسورة الخاطر) وكتبت له:

لا تدخلي!.

وسددت في وجهي الطريق بمرفقيك

وزعمت لي أن الرفاق أتوا إليك

أهم الرفاق أتوا إليك؟

أم إن سيدة لديك تحتل بعدي ساعديك

لاحظ تصوير الحس الغريزي عند المرأة. هي أدركت سبب توقيفها على الباب فتتابع -كما تتصوّر غريمتها- التي ستنتهي نهايتها الفاجعة هي فتقول أوّلاً تصور حالتها في موقفها ذاك:

وصرختَ محتدماً: قفي

والريح تمضغ معطفي

والذل يكسو موقفي

لا تعتذر يا نذل!. لا تتأسفِ

أنا لست آسفة عليك

لكن على قلبي الوفي

قلبي الذي لم تعرف

وتبلغ موجة الغضب والحقد والحسد ذروتها وهي تختم المشهد بقولها (الداخل في صميم علم النفس):

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إني أراها في جوار الموقد

اتخذت هنالك مقعدي

في الركن ذات المقعد

وأراك تمنحها يداً مثلوجة ذات اليد

ستردد القصص التي أسمعتني

وستجرع الغصص التي جرّعتني

حتى إذا جاءت إليك

لترود موعدها الهني

أخبرتها أنّ الرفاق أتوا إليك

والقصص المشابهة لهاتين الحكايتين قليلة في شعر نزار قباني.

أما القصيدة الثالثة التي دخل فيها على علم نفس النمو فهي قصيدة (لوليتا) لكن المقام لا يسمح بروايتها فيطول حديثنا فلتقرأ في أعماله الكاملة.

ونأتي إلى القصيدة الاجتماعية بقضها وقضيضها فهي (خبز وحشيش وقمر) إذ صوّرت تلك القصيدة حالة المجتمع الدمشقي بكل حالاته التي كان يعشق الغوطة والربوة، ولئن تكن تلك المعالم قد اختفت أو كادت فليس بسبب تطور المجتمع نحو الوعي، وتحسن الأحوال بل لأن الربوة -وأعني ربوة الظلال والأفياء والأمسيات الجميلة- قد اختفت وأزالت معالمها (حضارة الطين)- كما سماها يوماً في كتابه (حضارة الطين) أديبنا وأستاذنا الكبير المرحوم شاكر مصطفى.

وجشع الرأسمالية الاستهلاكية التي فعلت وتفعل في بلادنا فعل الجراد. وهاكم بعض المقاطع من تلك القصيدة العصماء التي يبلغ فيها نزار ذروة الإبداع:

عندما يولدُ في الشرق القمرْ..

فالسطوح البيض تغفو

تحت أكداس الزهرْ..

يترك الناس الحوانيت ويمضون زمرْ

لملاقاة القمرْ..

يحملون الخبز.. والحاكي.. إلى رأس الجبال

ومعدّات الخدرْ..

ويبيعون.. ويشرون.. خيالْ

وصُوَرْ..

ويموتون إذا عاش القمر

ويعيشون ليستجدوا السماءْ

ويصلون.. ويزنون.. ويحيون اتكالْ

وينادون الهلال؛

يا هلالْ!.

أيها الرب الرخاميّ المعلقْ

أيها الشيء الذي ليس يصدقْ

دمت للشرق.. لنا

عنقود ماسْ

للملايين التي قد عُطلت فيها الحواسْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القصيدة طويلة ليس بالمستطاع مسايرتها في هذه العجالة، ولكن نقول لقارئنا العزيز:

ماذا لو قال شاعر آخر غير نزار قباني، وفي زمان غير زمانه، أي في زماننا هذا ماذا سيكون نصيبه.

- ونختم مع قارئنا العزيز بهذه المعزوفة الغنائية الجميلة للشاعر المرحوم عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، والتي غنتها فيروز:

أين الشذى والحلمُ المزهرُ
أهكذا حبك يا أسمرُ؟
أهكذا تذوي أزاهيرنا
وكان منها المسك والعنبر؟
الشفة الحلوة ما بالُها
تحمل لي الخمر ولا تسكرُ؟
والعين لا تبسم عند اللقا
السحر في العين ولا تُسحر؟
أهواك في أغنية حرةٍ
يخفق فيها الناي والمزهرُ
في طلّة الفجر على المنحنى
يهفو إليه الكرمُ والبيدرُ
في النهر الضاحك بين الربا
تحسده على الهوى الأنهر
في الشاطئ الغربي تغفو على
ألحانه الأمواج والأبحرُ
في موكب النصر.. في رايةٍ
على ذرا تاريخنا تخطرُ
وفي أماني أمتي تنتشي
فيها المروءات، وتستكبرُ
أهواك في شعبي وفي موطني
فأنت لا أحلى ولا أنضرُ

ولا أصادر على القارئ متعته بأي تعليق أو شرح.

الهوامش

حاشية:

- لقد استعنت ببعض دواوين الشعراء أو بعض المجلات الأدبية لترميم ما قد تآكل في الذاكرة من بعض القصائد.

١- من قصيدة ((مع المعري)) لعمر أبي ريشة عام ١٩٤٤ ص٤٨٨ من ديوانه.

٢- لقد استعنا بديوان الشاعر الصادر عن دار العودة ببيروت عام ١٩٧١م للتأكد من صحة ما نروي.

٣- حمى المهد (مهد السيد المسيح) (ظل الحرم) (حرم المسرى والعروج) أو (الحرم الإبراهيمي في الخليل)- سيان.

٤- كذلك قرأنا فيما بعد في ديوانه (المشرد) قوله (تاريخكم، وشرّدوكم) بدل (تاريخنا وشردونا).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥- معلوم أن استقلال (الجمهورية السورية) الكامل كان بعد الجلاء، وقد حصل عام ١٩٤٦م.
٦- يعنـــي بمعاوية الرئيس شكري القوتلي وعمرو (عمرو بن العاص) يعني جميل مردم الذي كنا ونحن طلاب نسمع الناس يصفونه بـ (ثعلب السياسة) ويبدو أنه كان مرتاحاً لتلك (الثعلبة).
٧- ثمالات: بقايا، شراذم
٨- يعني فاطمة الزهراء كناية عن ادعاء شرفاء مكة أنهم من آل البيت.
٩- يعني هارون الرشيد.
١٠- الرافدان: دجلة والفرات.
١١- ينشدُ: يطلب.
١٢- السري: الفارس الأمير.
١٣- مضك: أرهقك وأضناك.
١٤- الظهـران: مدينـة في شـرق المملكة تنتشر حولهـا آبار النفط، وكانـت مركز إدارة شركاتـه الاستثمارية الأجنبية.
١٥-هناك كتاب عن المهجر للأستاذ فريد جحا بعنوان (عنادل مهاجرة)).
١٦- نحن نحفظها أمة، وقد صححها لنا أحد الأصدقاء فقال: وحدة.
١٧-الدبابة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مُحَمَّد كُرْد عَليّ... وتراثه القديم المتجدد...

د. محمد رضوان الداية ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تذكـرت وأنا أعدّ هـذا البحث عن جانب من جوانـب محمد كرد علي عتابـاً تلقيته من كاتب صحفـي صديق ما يزال يمارس التعليم، فقد قال لي إنـك تكتب عن الأموات (يعني من أهـل العلم والفكر والأدب والفن) وتترك الأحياء.

وكان ينظـر -مشكوراً لثقته بـي- إلى أن أقدم دراسة أو كلمة في نتاجه، أو بعضـه. ونتاجه لاحق بنتاج الشباب بين مقـال وقصة وتحقيق. ولا شك

✪ ناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

في أن للشباب ومن يلحق بهم من الكهول حقاً علينا أن نقرأ لهم، وندخل معهم في حوار الأدب والفن والأسلوب واللغة والفكر، وأن نشيد بهم في الوقت نفسه الذي نبدي فيه الرأي عارياً. ولكن وقوفي عند الأدباء والمفكرين الذين نبغوا في الشام على امتداد نحو قرن ونصف قرن مضى هو أداء حق وتقديم واجب. لقد انشغلنا كثيراً بأدباء وشعراء ومفكرين من أقطار عربية أخرى -وهذا مقصد سليم صحيح- ولكن هذا الانشغال طغى بنا فكدنا ننسى أدباء القطر ومفكريه وكان لابد من ذلك لتعتدل الكفة، ونصلَ جيلَ أولادنا وأحفادنا بهؤلاء المبدعين الشوام، ونكشف عن جوانب من عطائهم وإبداعهم، وأثرهم في حياة الفكر والأدب والفن العربي. ولا ننسى أن الشوام كانوا من لبنات البنيان الأدبي (شعره ونثره) والفني (المسرح والسينما والغناء والتمثيل..) والصحفي (الجرايد والمجلات والدوريات) والطباعي (دور النشر السورية) وتحقيق النصوص، وسائر قضايا العلم والاقتصاد في مصر خاصة، وفي غيرها من البلدان. ومن هنا ولأسباب أخرى مهمة، ألتفت إلى ما ذكرت وأجتهد في الإنصاف، وحسن «التغطية» كما يقال اليوم. ولنتاج المعاصرين التفاتة لازمة أيضاً.

(١)

صلتي بمحمد كرد علي قديمة، عرفته من توقيعه وكتابة اسمه صريحاً بخط يده: (محمد كرد علي). وطالما وقفت تحت الإطار الذي يحفظ شهادة الدراسة الابتدائية لوالدي الحاج أحمد رحمه الله، وهي مؤرخة بسنة ١٩٢٩م. كان وزير المعارف آنذاك هو الذي يوقع على الشهادات ابتداءً من الشهادة الأولى: الابتدائية، فما فوقها.

وكان محمد كرد علي قد تسلم وزارة المعارف مرتين، الأولى بين (١٩٢٠-١٩٢٢) والثانية بين (١٩٢٨-١٩٣٢). وفي ترجمته أنه أسهم من خلال توليه هذه الوزارة في وضع البرامج التعليمية، والكتب المدرسية، وفي تأسيس عشرات المدارس، وإدخال الشهادة الثانوية إلى دولة سورية..[١]

ومازلت، كلما قرأت لمحمد كرد علي أو قرأت عنه، أو سمعت كلاماً فيه حضرتني صورة له في ترجمته في كتاب (الأعلام) لخير الدين الزركلي، وحضرني توقيعه وخطه على تلك الشهادة الابتدائية.

وحين رجعت إلى تراث محمد كرد علي أنظر في موضوع أبدأ به في دراسات تخصه، وتعرف به ازدحم أمامي مواد تخص قضيتين اثنتين:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأولى: موقف محمد كرد علي المتقن للعربية والفرنسية والتركية والملم بغيرها، من الحضارة الغربية، ورأيه في القدر اللازم لنا من تلك الحضارة والحدود التي نقف عندها ولا نتجاوزها. ووضعت موازنة بين موقف محمد كرد علي عندنا في الشام وموقف طه حسين، وخصوصاً في كتابه: مستقبل الثقافة في مصر.

والثاني: أهمية كتابه (المذكرات) وفوائده، وظهور شخصيته فيه.

وقد رجحت البدء بكتاب المذكرات بمناسبة صدور الجزء الخامس والأخير من (المذكرات) بعد نحو خمسين سنة من صدور الأجزاء الأربعة السابقة وما يطرحه صدور هذا الجزء بعد تأخير طويل من قضايا وأفكار... وتقويم هذا الكتاب من حيث كونه: ذكريات فيها جوانب شخصيه تفيد في تبين معالم الإنسان ومواقفه من أمور كثيرة، وفي تعزيز سيرة ذاتية للأديب الكاتب، ومن حيث تصويره للأحوال في سورية وفي أقطار عربية أخرى، وأخص مصر من بينها، فقد كانت صلته بمصر قوية: إقامةً، ومشاركة في الحياة الفكرية والأدبية، وإسهاماً في عالم الصحافة، وعطاءً في مجال مجمع اللغة العربية في القاهرة.

وقد تكفل الباحث الذي اعتنى بالكتاب(٢) بالإجابة عن أسئلة قُدِّمت، أو يمكن أن تقدم، عن تأخر إصدار هذا الجزء، مدةً طويلة تلفت النظر.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

والسؤال عن تأخر الجزء الخامس مسوّغ، ولكنه لا يشغلني في هذا البحث، وتكفي الإشارة إليه؛ وأنه صار بين أيدي القراء: الشيوخ الذين عاصروا إصدار الأجزاء السابقة، والشباب الذين ينطلقون من الجزء الخامس ويكرّون مع التاريخ الماضي إلى ما مضى من مذكرات كرد علي وسائر مؤلفاته.

(٢)

ومحمد كرد علي من أشهر من سجل (مذكراته) فأطال في كتّاب القطر السوري ومفكريه، وقراءة المذكرات تضع القارئ في أجواءٍ متعددة الجوانب، وتؤدي منفردة ومجتمعة إلى تقديم صور ومشاهد وحقائق وأرقام ورؤى ومطالعات وأحكام وآراء شخصية؛

وإلى نقل القارئ حيث ذهب كرد علي داخل القطر في حركات داخلية، أو خارج القطر. وقد كان محمد كرد علي في مهامه المختلفة التي اضطلع بها وأعماله المتعددة التي حمل أعباءها واسع الحركة، مؤثراً حيث يكون، ومنفعلاً بما كان يعاين، ويسمع ويشارك.

وإلى وضع القارئ بين يدي أفكار المؤلف الكاتب في شؤون متعددة من السياسة والفكر والأدب والاجتماع في أقصى درجات الاهتمام والمتابعة، وإلى عرض الكاتب نفسه على قارئه، كما هي في أغلب الأحيان، أو على الوجه الذي كان يحب أن يُرى عليه..

وإلى معرفة الجو الذي كان يكتب فيه هذه المذكرات، تحت الظروف المتغيرة المتبدلة زماناً ومكاناً وأحوالاً.

وقراءة المذكرات - بإمتاعها، وفائدتها، وقدرتها على جذب القارئ - تنقل القارئ إلى ظروف الكتابة والتأليف، في عمل يمتزج فيه الذاتي بالموضوعي (على رغم محاولة المؤلف -كما صرح- بمنع الذاتية من التدخل أو السيطرة)؛ وقد قال في الجزء الأول من المذكرات:

«كنتُ أحرصُ في هذه المذكرات على ألا أتكلم عن نفسي وألا أقول: قلتُ، وفعلتُ، فتعذّر ذلك لأن أكثر ما فيها ما سمعته أذناي، ورأته عيناي، ووعته نفسي، فمن الصعب ذكره مجرداً من سامعه ورائيه وواعيه. وهوّن عليّ هذا الأسلوب أن رأيتني لم آت بدعاً، وتابعت طريقة من سبقوني من الغربيين في تدوين مثل هذه الارتسامات»[٣]

ويتنبّه قارئ المذكرات إلى طبيعة ما دوّن محمد كرد علي فهي ليست سيرة ذاتية محضة، ولكنها هذا المزيج المتعدد الجوانب، المتناسق أيضاً، في ظل قلم بارع، وسيطرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من المؤلّف على مـا يدوّن، والذي يدخل في إطـار الأعمال الأدبية (من النثر الفني) ذي السمات؛ من بينها، «تنـوع الأشكال الأدبية المستخدمة انطلاقـاً من القصة التاريخية، وصولاً إلى الحكميّات، مروراً برسم اللوحات وسـرد الطرائـف الشخصيــة والخواطـر الفلسفية، وتنوع المواضيع المطروقة، والحس النقدي المنبعـث منها، والرسالـة التربوية والألعبانية المزدوجـة، واستخدام الأسلوب الأدبي الأنيق، وغياب المخطط أو التسلسل الزمني في تنظيم القصة، والنظرة النخبوية (وقد نقول الأبوية) التي ألقاها على المجتمع في عصره..»(٤)

وهذا الجـزء الخامس مـن المذكرات، على غرار الأجزاء الأخرى: فصوله قصيرة، ومستقل بعضها عن بعضها الآخر، دون نظام زمني متسلسل، أو نظام دقيق للموضوعات: ذلك بأنه يتطـرق لموضوعـات شتى معبراً عـن إرادته الصريحة في التعليم أو التسلية، من خـلال قصص فكاهية تحتـوي على عبرة..(٥)

(٣)

خمسـة أجـزاء المذكـرات - إضافـة إلى مؤلفاتـه الكثـيرة الأخـرى ومقالاتـه ومحاضراته- تكشف عن شخصيـة كاتب: مرَّن قلمه على الكتابة، وحضّرَ ذهنه للاستذكار، ووقف وعيه عنـد الأشياء والأمـور التي يتذكرها كبيرةً وصغيرة، واتسع أفـق كتاباته لسورية وبلاد الشام، وبلاد العرب، وبلاد أخرى بين إسلامية وأوروبيـة (غربية).. كاتب تعمّقت ثقافته، واتسع مدى قراءته، وتراكمت خبراته وتجاربه... وعرف مـن الناس الجمّ الغفير في نواحي الحياة من أهـل العلم والسياسة والاقتصاد والفكر والصناعات وسائر وجوه النشـاط في حياة النـاس.. كاتب بلغ درجة الوزارة فأحكم شؤون منصبه وعاش في قرية جسرين من الغوطـة الشرقية مع الفلاحين وبين الأشجـار المثمرة وأعشـاب الحقول، فاكتسب من خـبرات الحياة ما لا تجيء به الكتب والأخبار.

ومثلما عرف الناس في سورية (خصوصاً في دمشـق وجسرين) عرفهم في مصر حيث أقام، وألف، وكتب، وأدار الصُّحف؛ وعرفهم في بلاد أخرى كثيرة.

فالمذكرات وليدة هذا كله، مع ما نسميه (تجارب الحياة) وهي المعادل لنفاد الزّمان، وضيـاع سنواتـه في خضمّ العمـل والسفر والعنـاء، ولا نغـادر هذا الملمـح حتى نقرأ قطعة لمحمد كرد علي في مذكراته، قال:

«استصحبتنـي والدتي وأنا في السادسة

لنزور أسرة الأستاذ الشيخ محمد الطنطاوي في زقاق النارنجة بمحلّة القيمرية بدمشق. فأدخلوها القاعة البرّانية التي يجلس فيها الشيخ: السّلامْلِك أو المَنْدَرة، فوقع نظري، لأول مرة، على رفوفٍ في الحيطان مصفوفة عليها مجلدات فشهقت متعجباً مما نظرت، وسألت والدتي عن هذه الأشياء التي رأيتها على الحيطان. فقالت: هذه كتب يقرأ فيها العلماء. فأعجبني هذا المنظر الطريف، وقلت لأمي: أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة. وكانت أمي تذكّرني بما قلت كلما أرادت أن تبعث همّتي على حفظ دروسي للوفاء بما كنت رجوته من تعلم تلك الصنعة، وكان أبي ينشطني على الدّرس..»[٦]

بين ولادة محمد كرد علي سنة ١٨٧٦ ووفاته سنة ١٩٥٣ تاريخ حافل لهذا الرجل الذي عاش في ظلال الكتب، والصحف؛ وعمل أعمالاً كثيرة كلها لها علاقة بالفكر والثقافة والحضارة من تحرير زاوية في صحيفة إلى رئاسة المجمع العلمي العربي الذي سعى في إنشائه وكان أول رئيس له.[٧]

ونبه محمد كرد علي، (وأيد المترجمون له ذلك) على تلمذته لتلاميذ من رجال العصر آنذاك «الشيخ طاهر الجزائري، والسيد محمد المبارك، والشيخ سليم البخاري». وكثرت ملازمته للشيخ طاهر، وأفاد منه علوماً مختلفة وتوجيهات ذات أهمية أفادته في حياته العلمية والعملية.

وإضافة إلى جمهرة الأساتذة الذين أثروا في بنيانه الثقافي والعلمي هناك: القراءة والمطالعة التي لم تنقطع طوال حياته، وهي قراءة بالعربية والفرنسية والتركية، وهناك الأسفار والزيارات والمؤتمرات والندوات وحوار العلماء، ومناقشة المستشرقين.

وأوصلته قراءاته ودراساته إلى التمكن من كثير من العلوم الإسلامية، والمشاركة في قضايا حيوية من الاقتصاد والسياسة، وشؤون الحياة، والإشراف العالي الدرجة على الثقافة العربية قديمها وحديثها.

ومن هنا نضحت مذكراته بهذا كله، وامتدّت يده إلى الترجمة وإلى صنوف من التأليف، وإلى تحقيق المخطوطات، وساغ له الكتابة الصحفية، وتقديم الأحاديث الإذاعية، ومحاورة المخالفين من أصحاب الثقافات والأديان الأخرى، والإسهام في جوانب التربية والتعليم، وقيادة قافلة اللغة العربية وما يتعلق بها أكثر من خمسة وثلاثين عاماً (١٩١٨-١٩٥٣).

وأكتفي في هذا الجانب بشهادة لوصيف لمحمد كرد علي في المجمع العلمي العربي هو شفيق جبري، فقد قال[٨]

«لقد خالطته في وزارة المعارف (وكان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وزير المعـــارف في سورية) فوقفت على كثير من خصائصه وطباعه ومزاجه، فما عرفت رجـــلاً أولـــع بمطالعة الكتب ولعــه.. وكان إذا خــلا إلى نفســه فإنما يخلــو إلى كتبه، وإذا اعتــزل دمشــق إلى ريفهـــا في الغوطة فإنمـــا يعتزلها ليصغـــي إلى أحاديث كتاب يجالسه... وقــد فُتِنَ بالكتب فتنة الجاحظ بها في القديم»

وقــد أعانه والــده منذ صغــره بشراء الكتب بكثرة، ووضعها بين يديه من مطبوعة ومخطوطة..

(٤)

وقــف بعضــ دارســي شخصية محمد كرد علي، والباحثين في آثاره الأدبية عند (المذكرات) وقفات متفاوتــة. ولكنهم كانوا يبدؤون بالكلام على هذا النوع من التأليف، وإلى خصوصيــة ما قدمه كرد علي في هذا الموضوع.

وقد أشار الأستاذ عدنان الخطيب، وهو مجمعيّ أيضاً، إلى ثلاثة نماذج من المذكرات في سوريـــة: مذكـــرات حســن الحكيم وهو سياســـي، ومذكرات يوســف الحكيم، وهو رجل قانون، ومذكرات محمد كرد علي.[٩]

وأمـــا تفــاوت مواقفهم مـــن المذكّرات فأسبابها في الأكثر فنّية، لأن هذه المذكرات تنحو منحى خاصـــاً في تسجيل الذكريات، وفي «نوعية» مـــا يسجل منها، وفي الأسلوب الذي اعتمده لذلك.

ولخّص الدكتور سامـــي الدّهان الكلام علـــى مؤلفات محمد كرد علـــي وتحقيقاته وترجماتـــه، ووقـــف عنـــد (المذكـــرات) في كتاب ألفه عـــن محمد كرد علي بتكليف من المجمـــع العلمي العربـــي (والدكتور الدهان مـــن أعضائه) وقال في المذكرات إن الأستاذ محمد كرد علي قد عاش في بيئات مختلفة، ورأى دولاً عـــدةً وأقطـــاراً متباينـــة، فرسم حياتـــه، وما وقع له خلال هـــذه الحياة في الشرق والغرب في شـــكل مقالات، لا يربط بينهـــا إلا أنهـــا مـــن ذاكرتـــه. وقد تحدث فيهـــا عن أسفـــاره ووزاراتـــه، وهجرته من الشام، وموقف الحكومة الترّكية والفرنسية والإنكليزيـــة وعملائها منـــه، وما صنعه في سبيل بلاده، وما يؤخذ عليه من أخطاء.

والكتاب كمـــا يصف د سامي الدهان - كتاب صريح يصف ما للرجل وما عليه، وهو شبيه بمذكرات الغربيين لولا أنه غير مرتب علـــى التاريخ وليس مبوباً على الموضوعات، فكأنـــه مجموعة أفـــكار تَعرض لـــه يمليها ويرسلها إلى المطبعة.

وقد فضح الكتـــاب أسماء كثيرة، ومدح

شخصيـات محببة، وغلبـت عليه العاطفة.

فقد بـدأ بتدوين هذه المذكرات حوالي سنة ١٩٣٧. وسنُّه قد زادت على الستين، وذاكرته مـا تزال قوية تسجّل دقائق الأشياء ومنسيّ الألوان، وشتيت التفاصيل والملاحظات.

وقد انقسم الناس في هذه المذكرات إلى محبّذ ومستنكر لغلبة الهجوم فيه على بعض السياسيين والحزبيين من رؤساء ومرؤوسين، ولكنها تنفع المؤرخ، وتفيد الباحث، فتفصل مـا أهمل تاريخه الكبير، وتتوسع في تصوير العصر، فكأنهـا تتمة «لخطـط الشام»[10] وتاريـخ لصدر القرن العشريـن مع أسلوب المذكرات.

وينبغـي ألا يغيـب عـن البـال أن (المذكرات)[11] يحتفظ بهـا إلى اليوم، وإلى المستقبـل بأهمية كتاب يفيـد في استجلاء جوانب مـن التاريخ الفكـري والاجتماعي والثقافي، إضافة إلى قيمته التاريخية.

وقـد استمر محمد كـرد علي يكتب في مذكراته ويسجـل ذكرياته بعد تلك الأجزاء الأربعة، وتوقع د. الدهان أن هذا الكتاب قد يصدر له جزء خامس وآخر سادس، ثم قال «ولكـن العمر قصير والزمـان غادر..» وتم جزء مما توقعه، فصدر الجزء الخامس من الكتاب سنـة ٢٠٠٨ بعد أكثر من ٥٥ خمس وخمسـين سنة من وفـاة الأديـب الكاتب المحقق: محمد كرد علي.

(٥)

هـذه الشخصيـة المتعـددة الثقافات، المتنوعة الخبرات، التي شغلت مواقع مختلفة في الصحافـة والإدارة والـوزارة والمقـام العلمي (في المجمع)، وهذا التنوع في مسارب الحياة بين السفر والإقامة والاغتراب، وهذه العلاقـات الواسعة مع شرائـح مختلفة من الناس، كل ذلك انعكس في كتبه في جزئيات محدودة، ولكنه ظهر في (المذكرات) واضحاً. وكانت صراحة محمد كرد علي في المذكرات عاملاً من عوامل اختـلاف وجهات النظر حولها، كما سبق.

وقد تركت (المذكـرات) أثراً مهماً وقت صدورهـا، وبعد ذلك أيضـاً. وسمّى شفيق جبري هذا الأثر (دويّـاً) وقال إن المذكرات حين صـدرت تركـت دويـاً، واقتطف من مذكراته عبارات موجهة لهذا العمل الكبير الـذي امتـدّ نحو خمـس عشـرة سنة من أخريات حياة محمد كرد علي.

١- «أصـوّر في هـذا التقييـد طائفـة ممن عشت معهـم، صورةً صادقـةً، وأدوّن كل حق عرفته ليشاركنـي أبناء هذا الجيل والذي بعـده في الإنكار على من أضجروني بقصورهم وآلموني بغرورهم».

٢- «أحـاول اليـوم، وقد رأيـت الدنيا

مهزلـةً، وذُقت حلوها ومرها، وكرعت خلها وخمرها، أن أهزل أحيانـاً وأسخر أحياناً، وأضحك أحياناً وأبكي أحياناً»

وقد نبـه كرد علي أن مذكراته لن تكون مرتبـة على المألوف من ترتيـب المذكرات، وتركها تداعيات وأفـكاراً وقضايا يعالجها كلمـا سنح له ذلك، ووفق ظـروف كتاباتها بالصراحة والوضوح والتلقائية.

ولهذا، لم تسجل «حوليّات» وجاءت عرضاً لمـا جال في ذاكرته من ذكريات وموضوعات علـى مرور الأعوام والشهـور، ورجّح بعض الباحثـين أن شخصية الصحفي غلبت على شخصية كـرد علي كاتب المذكـرات، ومن هنا جاءت موضوعاتها أشبه بالمقالات منها بالتاريـخ لحياة شخص، وقـال: على سبيل الإنصاف: «غير أن مذكرات محمد كرد علي في الأحـوال جميعها تعد نموذجاً فريداً من المذكرات...»[١٢]

(٦)

استهـلّ محمد كرد علي أجزاء المذكرات الأربعة ببيتين لأبي الطيب المتنبي، وهما:

تصفو الحيـاة لجاهـل أو غـافـل
عـمـا مضـى منـهـا ومـا يـتـوقَّـعُ؛
ولـمـن يـغـالـط في الحـقـائـق نفسـه
ويـسـومـهـا طلب المُـحـالِ فتطمعُ؛

أهمل ناشـر الجزء الخامسـ أن يضع بيتي أبي الطيب في صـدر الكتاب؛ مخالفاً في ذلـك منهج محمد كـرد علي في الأجزاء الأربعـة جميعـاً، وهذا في تقديـري غفلةٌ، وعدم تقدير لما قصد إليه الأستاذ الرئيس.

وصـدّر بمقدمة لم تزد علـى صفحتين عنوانها «روح المذكرات» وضع فيها ملاحظات أولية عـن عمله الذي جعله تصويراً لبعض من عايشهـم، ووصفاً لجوانـب من الحياة بحلوهـا ومرها وجدّهـا وهزلها، وتحذيراً من دجل الدجالـين وأحابيل المبطلين -كما قال- وجهراً بالحق ومقاومة الظلم.

وأول ما بدأ به كتابه بحث عنوانه «لقب أسرتـنـا كرد علي» تلمح منه ما تلمحه وأنت تقرأ سيرة العقاد، وقد رفض أن يتنازل عن بعض اسمه واسم أسرتـه ليأخذ اسماً مما كان شائعاً من الأسماء التركية (المذكرات ١: ٥-٩)

واسترسلـت البحـوث، أو المقـالات، أو المطالعات، أو الملاحظات، أو التقييدات، أو القـراءات، أو الانطباعات، وما يدخل ذلك ممـا يدخل -علـى الاتساع- تحـت عنوان المذكرات.

ولا بد من القـول إن من أراد استخراج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب واسع مفصل عن حياة محمد كرد علي فإنه يستطيع أن يجد ذلك مفرقاً في الأجزاء الخمسة. على أن يعيد ترتيبها، وتبويبها، وجمع الشبه إلى الشبه والنظير إلى النظير. وقد تسرّع من حكم على المذكرات بأنها فصول لا ترابط بينها، على إطلاق هذا الحكم وعدم تقييده. وفي المذكرات أحياناً من التفصيل ما يزيد عن المتاح في مثل هذه المؤلفات.

وأقف عند خبر من حياة المؤلف، ذكرني بشبيه له من حياة ابن حزم، فقد كان كرد علي يأنس بالجلوس في مجالس النساء: في أحاديثهن، وقصصهن، وأغانيهن. وإن كانت تجربة ابن حزم أكثر غنى وعمقاً لأنه تلقى تعليمه الأولي كله على أيدي النساء ممن برعن في فنون شتى من العلوم والفنون والخط والشعر وغير ذلك.

وبعد ذكر بعض أخبار زوجة أب له كانت ترعاه وتواصل تربيته قال:

«شعرت أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء، وكنت أحب الاجتماع إليهن، وأفضله على الاجتماع إلى أترابي، وأحب سماع كلام من يختلف منهن إلى دارنا في القرية، ودارنا في المدينة. ومنهن من كن أرضعنني فصرت ابنهن من الرضاع، وغدا أولادهن أخوتي وأخواتي.

وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة الفلاحات منهن والبلديات يضمنني إلى صدورهن ويقبلنني وأضمهن وأقبلهن. وأكثر ما كان يشوقني الجلوس في حجورهن، والعبث بنهودهن وشعورهن وضفائرهن. وكنت أحب ذات الشعر الأثيث، ومن وجدت لمعاناً في وجهها أعتقد أنها تدهنه بالزيت في الحمام، وذلك لأن أمي حملتني معها إلى حمام القرية مرة فشاهدت الفلاحات يدهن أجسامهن بالزيت والزيتون، فقلت لا بد أن تكون كل النساء على تلك الشاكلة.

وكنت أشتاق جداً إلى سماع ما تقص عليّ بعض النساء من حكاياتهن الشهيرة ولاسيما ما كان فيه نكتة وشيء من الغرابة، وكنت أميز بين التي تحسن الحديث وبين التي لا تحسنه، وأرجح الأولى وإن كانت عجوزاً شمطاء بشعة الصورة على الصبية ولو كانت خلابة المنظر..»

ويتداخل الخاص بالعام، والجد بما يشبه الهزل، والمحليّ بالعالمي، والغريب بالمألوف، ويدخل في ذلك أحاديث بعض الحكام، وأحوال بعض الكبراء، ومعايشة الناس في بلدانهم وقراهم، وأحوال العلماء والأدباء، ومجالس الظرفاء والندامى، وظروف السياسة والاقتصاد..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد عقد فصلاً (وهو أشبه بالمقالة) بعنوان: «غاياتي من سياحاتي» وقال فيه[١٣]:

زرت أوروبة أربع مرات.. «وكانت الغاية من رحلاتي تجديد ما رث من قواي وترويض الجسم، وتسلية الروح» ثم زاد بعد هذه المقاصد المألوفة في زيارات السياحة: «..والتعرف إلى مدنية الغرب ودرسها في أرضها درساً عملياً، بعد صرف جانب من الوقت في درس النظريات. وما كنت أدخل بلدةً قبل أن أطالع في وصفها كتاباً أو كتباً..». وميز بين زيارته للبلدان التي يتقن لغاتها (كفرنسة وبلجيكا) والأخرى التي كان يستعين فيها بمترجمين يرافقونه، وقال: «وشتان بين ما حققته بنفسك حتى استسغته وبين ما حققه لك غيرك ورويته عنه..»

وتجد في المذكرات أصداء لقاءاته بالمستشرقين في زياراتهم للشام أو في بلادهم، ولقاءاته الأدباء والعلماء في مجالسهم (كلقاءاته في مصر)، وأصداء للأحزاب السياسية وزعمائها، ولاجتماعات المجامع اللغوية في دمشق والقاهرة خاصة، ولأحوال الصحافة وتطورها مع الزمن، ولشؤون الكتب والمكتبات..

وحدث شيء مما توقعته من اعتراض بعض المعترضين على جوانب مما أورده في (المذكرات). وهو أمر لا يخلو منه كتاب بهذا الحجم، وبهذا الاتساع أيضاً. وقد قال محمد كرد علي في مقدمة الكتاب:

«وأمنية النفس يوم تُنشر هذه المذكرات ألا يشمئز منها تاليها وسامعها كثيراً، وأنا إلى هذا لا أطمع أن يجمع الملأ على استحسانها، فتلك بغية ما تمت حتى الآن لتأليف. ومن أين لصفحات محدودة أن تستوي في عامة شهوات النفوس».

(٧)

قسم الباحثون مؤلفات محمد كرد علي وسائر نتاجه أقساماً وأقرب تقسيم يلحظ المقاصد والأساليب والفنون الأدبية ما رتبه د.سامي الدهان في دراسته عنه، وأدرج كتاب (المذكرات) في «أدب المقالة». وهذا إدراج صحيح. ونلخص تلك القسمة وما يندرج تحتها من كتب ومؤلفات وتحقيقات.

أ- **فالقسم الأول:** كتب مترجمة ومعربة. وكان هذا في مرحلة مبكرة من حياته، وعد صنيعه هذا كالتدريب على اللغة الأجنبية وعلى الصياغة العربية.

ب- **والقسم الثاني:** «أدب المقالة». وتحت هذا العنوان من المؤلفات:

غرائب الغرب، والقديم والحديث،

وأقوالنا وأفعالنا، والمذكرات، والبعثة العلمية إلى دار الخلافة، والرحلة الأنوريّة إلى الأصقاع الحجازية.

ج- **والقسم الثالث:** «دراسات تاريخية وأدبية» ويدخل فيها كتابه الكبير خطط الشام، وعمل كرد علي لهذا الكتاب خمساً وعشرين سنة قرأ له أكثر من ألف ومئتي مجلد.[١٤]

وصنع من مادة هذا الكتاب الضخم كتاباً صغيراً صدر عن سلسلة (اقرأ) في دار المعارف بمصر عنوانه (دمشق مدينة السحر والشعر).

وفي هذا القسم كتابه الإسلام والحضارة الغربية، عكف عليه ثلاث سنين حتى أنجزه. وهو كتاب بالغ الأهمية: «فكان في المحاماة عن الإسلام والذود عن حياضه، وأصبح معلمةً طيبة في التعريف به والدعاوة له، وبيان أغراضه وأهدافه، وفضله على المدنية الحاضرة، وأفضليته على غيره في نظم الحياة: يبحث في إدارة المسلمين وحياتهم وأساليب عيشهم..إلخ

وفيها كتاب: أمراء البيان، وكنوز الأجداد، وغوطة دمشق.

والقسم الثالث في تحقيق النصوص التراثية: ويدخل تحت هذا العنوان: رسائل البلغاء، وسيرة أحمد بن طولون لأبي محمد عبد الله البلوي، والمستجاد من فعلات الأجداد للمحسِّن التنوخي، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي، وكتاب الأشربة لابن قتيبة، والبَيْزرة.

وهناك كتيبات صدرت ثم انتظمت في بعض مؤلفاته الكبرى، وأخرى استُخلصت من الكتب الموسعة وطُبعت وحدها.[١٥]

(٨)

حين بدأ محمد كرد علي نشاطه الأدبي في عالم الصحافة، وفي مجال الكتابة والتأليف في أواخر القرن التاسع عشر كانت الأساليب الكتابية ما تزال تحملُ بعض الأثقال التي تمنع الكاتب أحياناً من الكتابة المنطلقة الميسرة، البعيدة عن إزعاجات الزخرف والبهرج التي ما تزال عالقة.

وقد استفاد كثيراً من أساتذته الثلاثة، الذين ذكرناهم، فأعانوه بالإرشاد والملاحظة النقدية على العبور السريع إلى الكلام القاصد، السهل المعبّر عن الفكرة بيسر... وصولاً إلى هذه الكتابة السلسة الرائقة، التي لا تفقد محاسن الكلام المتقن، وتتخلّى عما يشوبه من الأعباء أو الأثقال.

وقد نبه كرد علي إلى إفادته من نصيحة شيخه المبارك حين صرفه عن نظم الشعر

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

ليبقى في إطار النثر، وليجوّد أسلوبه ويتقنه.

وقد أشار إلى إفادته من التراث القديم في اختياره الأسلوب الميسر المرسل، قال: «وما أخرجني من تكلف النسج على منوال المتأخرين كالقاضي الفاضل، والصابي، وابن الأثير إلا الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع، والجاحظ والتوحيدي. أما ما وصل إليّ مما كتبوه، وكتبه أمثالهم من السهل الممتنع(١٦) فقد قرأته مرّات، وما أزال أقرؤه».. وهكذا عزَف محمد كرد علي عن الأسلوب المنمّق، وكتابة السجع وتعلّق بالسهل الممتنع، وقال مرّة: «وعمدت إلى الكتابة المرسلة دون تكلف الأسجاع والأوزان»(١٧)

وقد أشار أكثر من باحث إلى استفادة محمد كرد علي من تجاربه الصحفية في لين الأسلوب وحسن العبارة وسلاسة الكلام، والوصول إلى القارئ بيسر. كالملاحظات المقتضبة التي قدمها الدكتور شكري فيصل في كلمته (محمد كرد علي من خلال المقتبس)(١٨)

وكان لشفيق جبري وقفة مطولة عند أسلوب محمد كرد علي في (المذكرات) وفي سائر كتبه، فبعد استعراض تأثره العام بالكتاب والمترسلين الأمويين والعباسيين والأندلسيين من أصحاب الأسلوب المرسل البليغ، وصل إلى خلاصة فيها أن محمد كرد علي «رزق مرونة عجيبة في أسلوبه، فهو لم يجمد على صيغة واحدة من البيان لا يكاد يتخطاها، وإنما مَرن هذا الأسلوب على صيغ شتى وقوالب مختلفة فقد صلح للغة العاطفة كما صلح للغة العقل، وقد رد على التاريخ والاجتماع كما قدر على الأدب وأفصح عن الأخلاق العامة كما أفصح عن خوالج صاحبه ولواعجه، فأبرز الخصائص في أسلوب كرد علي إنما هي هذه المرونة البالغة التي جعلته يعطي كل موضوع ما يستحقه من الكلام.(١٩)

وحين ذكر الصحافة وأثرها قال جبري إنها صناعة زادت في بديهته، والقلم يغطس في الصحافة فتنقّيه على مرّ الأيام من كثير من العيوب.(٢٠)

(٩)

أتيح لمحمد كرد علي المجال في (المذكرات) للكلام على أسرته، وحياته، واسمه واسم أسرته، ونسبه؛ فأصلهم من مدينة السليمانيّة (شمالي العراق) من الأكراد الأيوبية، حضر جده إلى دمشق واستطابها فأقام فيها. وأمّ محمد كرد علي شركسية من القفقاس وعاش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين دمشق (العاصمة) وبين جسرين (القرية) في أعماق الغوطة الشرقية. ونشأ على حب العربية، واستوى كاتباً باحثاً مؤرخاً للتاريخ والحضارة: مدافعاً عن العرب والعربية والإسلام، واقفاً في وجه المغرضين من الأجانب (المستشرقين) خاصة، واصلاً يده بيد المنصفين منهم وكأنه موكل بالعروبة والإسلام للحماية والرعاية.

ومثلما كان لمحمد كرد علي الباعث على إنشاء المجمع العلمي العربي، كان صاحب أول جريدة يومية تصدر في دمشق (المقتبس).

وعانى من الاتحاديين (أصحاب دعوة التتريك) ونجا من مجموعة من محاولاتهم لسجنه، والقضاء عليه. وأوتي من الذكاء والأصحاب وضربات الحظ ما جعله ينجو من محاولاتهم.

والمذكرات سجل حافل لعلاقاته مع الولاة والحكماء والأمراء والملوك. وكان لعفة نفسه، وإبائه، وصدقه، والتفاته إلى المهمات العلمية الثقافية أثر في قبوله، ونجاته من الإشكالات التي كانت تصيب الذين يقتربون من السلطة ومن أهلها.

وهي معرض لمواقف من قضايا الحضارة، والتقدم العلمي، وبعث النهضة العربية الإسلامية من سباتها بأساليب العصر، والعقل الواعي، والتزام خطوط حضارتنا المميزة من جهة والحامية من جهة أخرى.

ونقرأ في الجزء الخامس (ص:١٠٩) مقالة مقتضبة ذات أهمية عن (نعمة الحرية) وأخرى عن (سبب الانحطاط)[٢١] انطلاقاً مما كتبه أبو الحسن الندوي في الموضوع في مجلة الحج، وثالثة عن مكافحة البطالة إلى غير ذلك من الموضوعات الحيوية.

(١٠)

وبالمناسبة، نقول إن محمد كرد علي «جمع» من الأصدقاء والمحبين العدد الغفير في سورية والبلاد العربية والإسلامية وبلاد أوروبية غربية كثيرة. لم يفسد الاختلاف في الرأي قضية الود. وقد فتح كرد علي صدره لمنتقديه، وسرد من انتقاداتهم له، وقد كتب مقالة بعنوان النقاد.[٢٢] وكان قد كتب مقالة سابقة في الجزء الرابع من المذكرات بعنوان الناقدون والناقمون.[٢٣]

وكان نجاح كرد علي في إنشاء المجمع في دمشق حافزاً لنشوء مجامع أخرى في بغداد والقاهرة، والتفات المجمعيين إلى محمد كرد علي الذي نال لقب (الأستاذ الرئيس).

وكفلت له كتبه وصحفه ومحاضراته انتشاراً كبيراً، وفهماً لمواقفه، وتفاعلاً كبيراً مع ما يثير من أفكارٍ وقضايا..

وقد نظم شعراء من أقطار مختلفة قصائد في محمد كرد علي في حياته، وتأبيناً ورثاءً له بعد وفاته.

ونقتطف من قصيدة للمجمعي (العراقي) محمد بهجة الأثري قوله في محمد كرد علي من قصيدة[٢٤]

إنّ العروبة في هواه مودةً
تصلُ القلوب وتعطف البُعداءَ
إن الذي رزق الشمائل خصّها
منه بأكرمها جداً وغَناءَ
هنّ العرائس في المجالس لا ترى
في أمّة أُخرى لهنّ كفاءَ!
شاقته إسلاماً ونبل حضارة
خلصت كمسبوك النضار نقاءَ
روعاء قد ملكت حِجاه فزفّها
عطفاً وأغلى حبّها إغلاءَ
أجرى بها القلم المثقف ناطقاً
بالسحر يختلب القلوب أداءَ
يجلو مفاتن كل شيء عندها
صوراً كأوضاح السماء رُواءَ
وإذا زرى فسل شعوبيّ الهوى
أصلاه حاميةَ اللظى حمراءَ
يعطي على الأقدار كلاً حقّه
ببلاغة تستوقف البلغاءَ
جمعت إلى الأدب المصفّى شهده
عقلاً إذا رَجَت العقولُ أضاءَ
(عبد الحميد) يودّ حلو بيسانه
و(ابن المقفع) يجتديه الماءَ
ضمّ الجديد إلى القديم ممازجاً
وكساه من سحر البيان مُلاءَ
وأتى المعالي والمعاني غضّةً
يبغي الجمال ويُبدع الآراءَ
وهفا إلى التاريخ ينفضُ سِرّه
ليفيد من عِبَر العصور وقاءَ
ومشى إلى حرم التراث معظّماً
ما جلّ من أعلاقه إسناءَ...
أعظم بفطنته وصدق بلائه
هُدِيَ السبيل وواصل الإسراءَ
أنضى الثمانين الطوال جلادةً
يُعلي البناء على البناء ولاءَ...
أيّ امرئٍ عالي السنا هذا الذي
صدقَ الكفاح وعلّم الأبناء...

والقصيدة طويلة، وفيها إشارات، (وعبارات مباشرة) إلى علم الرجل وكتبه وجهوده الفكرية والثقافية وعنايته بالعربية والتراث، ودفاعه عن العرب والعروبة والإسلام، ودعوته إلى تقدم الأمة.

وإذا أخذنا بمفهوم عبارة: (من التراث

المعاصر) التي شاعت منذ مدّة -والأخذ بها سليم مفيد- قلنا إن معظم ما في كتب محمد كرد علي ينطبق عليه أنه تراث معاصر: لارتباطه بأمور وقضايا كثيرة هي حيوية من جهة، وهي مستمرة في حياة الأمة التي تبحث -ما تزال !- عن طريق النهضة من جهة ثانية!..

الهوامش

١- مقدمة كتاب المذكرات (الجزء الخامس):١٩.
٢- مقدمة كتاب (المذكرات) الجزء الخامس. وقد ترجمها إلى العربية د.جمال شحيّد. ينظر الصفحة ١٦ الحاشية(١).
٣- المذكرات ج١:ص٣.
٤- مقدمة المذكرات ٥: ٣٩.
٥- انظر المرجع السابق: ٣٩-٤٠.
٦- المذكرات ١: ١٠.
٧- تحول اسم المجمع في سنوات الوحدة مع مصر إلى مجمع اللغة العربية (في دمشق).
٨- محاضرات عن محمد كرد علي - شفيق جبري - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة - ١٩٥٧ - ص: ٢٣.
٩- كتاب مهرجان ذكرى مرور مئة عام على ولادة الأستاذ الرئيس - دمشق ١٩٧٧ ص١٠٤-١٠٦.
- وقد صدرت مذكرات وسير ذاتية بعد ذلك، بعضها ذو أثر وأهمية مثل (ذكريات) علي الطنطاوي.
١٠- محمد كرد علي حياته وآثاره - د.سامي الدهان - دمشق ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م (مطبوعات مجمع اللغة العربية) ص٤٩ - ٥٠.
١١- أحد مؤلفات محمد كرد علي. وهو تاريخ سياسي ومدني وحضاري مطول للديار الشامية. طبع في ستة أجزاء.
١٢- محمد كرد علي المؤرخ البحاثة والصحفي الأديب - مرجع سابق: ١٢٨.
١٣- المذكرات ١: ١٨٤.
١٤- محمد كرد علي حياته وآثاره: ٥٢ (المتن والحاشية).
١٥- ينظر الفصل الثاني من كتاب (محمد كرد علي) لإياد الطباع وهو «تعريف بمؤلفاته» وعنوان الكتاب كاملا: محمد كرد علي المؤرخ البحاثة والصحافي الأديب، تاليف إياد خالد الطباع -دار القلم-دمشق-١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٦- انظر محمد كرد علي -الدهان- ٤٥.
١٧- المذكرات ١: ٣٠٧.
١٨- الفقرة ١٦ من كلمته في كتاب مهرجان ذكرى مرور مئة عام على ولادة الأستاذ الرئيس ص١٣٩-١٤١.
١٩- محاضرات عن محمد كرد علي: ١٠٢-١٠٣.
٢٠- المرجع السابق: ١٠٢.
٢١- وقد الف الندوي كتاباً مهماً عنوانه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».
٢٢- المذكرات ٥: ١٤٢.
٢٣- المذكرات ٤: ١٣١٠-١٣١٥.
٢٤- كتاب مهرجان... ص ٣٦-٣٧.

ملاحم شرقية
فرهاد وشيرين

عبد الفتاح قلعه جي ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يزخر الأدب العربي والذاكرة الشعبية والأدب الشعبي بقصص الحب الخالدة، غير أنها بقيت في إطارها الضيق، أي في إطار الخبر والقصيدة الشعرية ولم ترق غالباً لتصبح ملاحم شعرية يتناولها الشعراء العرب والأدباء والعامة بالتداول وإعادة الإنتاج من جديد.

شغلت العامة بالحكايات الشعبية وقصص كتاب ألف ليلة وليلة، وشغل الشعراء بقصائد الفخر والمديح والهجاء والوصف والغزل، وكانوا أسارى لعمود الشعر ووحدة البيت قديماً، ولمباشرة الموضوعات الوطنية والقومية

✿ أديب ومسرحي وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

والاجتماعية حديثاً، ثم الإغراق في مجاهيل الإبهام في القصيدة الحديثة حالياً، وهكذا لم تتطور لديهم بدايات القصص الشعري كالذي نجده عند عمر بن أبي ربيعة مثلاً إلى صياغات ملحمية شعرية أو ما يسمى بالشعر التمثيلي، وكانت بين أيديهم قصص وأساطير وحكايات رائعة مثل ليلى والمجنون، وعروة وعفراء وغيرهما من قصص الحب العذري، ويوسف وزليخا (امرأة العزيز) ورابعة العدوية من القصص الديني، وحي بن يقظان وسلامان وأبسال من القصص الفلسفي، وقصة وضحا وحمد في بادية الأردن، ومنظومة الشاعر الشعبي محمد الملحم التي كتبها على جدار السجن ليلة إعدامه من الفرنسيين وغيرها من قصص البادية التي ينشدها شعراء الربابة في المضارب. هذه الكنوز التي تركها الشعراء العرب تناول بعضها شعراء الآداب الشرقية وفنانوها فأبدعوا منها منظومات شعرية خالدة، أو أعمالاً فنية مسرحية ومنمنمات تشكيلية بالغة الروعة، كأن المزاج الشعري العربي ينحصر في ذائقة القصيدة المفردة، لكن المبدع الشعبي وخلال فترة محددة من تاريخ الأدب الشعبي، استطاع أن يكتب في النثر، أو النثر المطعم بأبيات من الشعر سِيراً في الحب والحرب تعد مفخرة للإبداع الشعبي كسيرة عنترة والملك سيف والأميرة ذات الهمة والتغريبة الهلالية.

هنالك عدد كبير من الأساطير والحكايات والقصص الشعبية الشائعة المشتركة والتي يتم تداولها في فولكلوريات وآداب عدد من الشعوب الشرقية ومنها القصة الملحمية المعروفة باسم «فرهاد وشيرين» أو «خسرو وشيرين» حيث ترد في نصوص فولكلورية مختلفة ومعالجات أدبية وشعرية عديدة في التراث الثقافي لشعوب الشرق الأوسط والأناضول وآسيا الوسطى.

وهذه الحكاية تستند إلى جانب من الوقائع التاريخية، وهي من الفولكلوريات الفارسية والتركية والعراقية الكردية. وقد أصبحت حوادث عشق خسرو وشيرين وفرهاد وشيرين موضوعا محببا في الشعر الغرامي والحماسي. ومن الملاحظ أن بعض الروايات الخاصة بهذا الموضوع مزجت الحقيقة بالأسطورة وبعضها بالغت بالشكل الأسطوري البعيد عن الحقائق.

فردوسي أول من نظم الحكاية

كان الرواة يتداولون هذه الحكاية إلى أن نظمها الشاعر الفارسي فردوسي صاحب الشاهنامة. كان خسرو أحد آخر الحكام الفرس في نهاية الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي لبلاد فارس، حيث حكم البلاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خلال الفترة الواقعة بين عامي (٥٩١- ٦٢٨)م. وكانت شيرين زوجته، ووردت سيرتهما في العديد من المصادر التاريخية. وأبرز من عالج هذه الأسطورة هو الشاعر الفارسي العظيم الفردوسي (٩٤٠ -١٠٢٠)م وذلك في مؤلفه الشهير «الشاهنامة». لقد خلد الشاعر قصة حب «خسرو وشيرين» في ملحمة شعرية رائعة، تعد من عيون الأدب الكلاسيكي الشرقي والعالمي، بيد أنه لم يذكر شيئاً عن فرهاد الذي ورد اسمه لأول مرة في مخطوطة تعود للمؤرخ الطاجيكي - الفارسي (بالامى) كتبت في أواخر القرن العاشر. والمعروف أن (بالامى) قد توفي في عام ٩٩٦م. كما كتب الشاعر الآذري الكبير نظامي كنجوي ملحمة شعرية عام ١١٨١بعنوان (خسرو وشيرين) وأهداها إلى زوجته التي توفيت وهي في ريعان الشباب، وكتب الشاعر الأوزبكي نوفوي هذه الملحمة عام ١٤٨٤بعنوان فرهاد وشيرين، أما الشاعر (آغاجى) الذي عاش في الفترة المتدة من أواخر القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادي عشر فإنه يذكر اسم فرهاد حين يتحدث عن الأسطورة الشعبية عن شق قناة عبر صخور جبل بيستون. كما كتبت كملحمة شعرية باللهجة الكردية الفيلية كانت تتناقل شفاهة في العراق جيلاً بعد جيل، وألف المستشرق ع.علييف كتاباً بعنوان «خسرو وشيرين في آداب شعوب الشرق». كما قام معهد الاستشراق في مدينة بطرسبورغ

الروسية بجمع نصوص فولكلورية شرقية لهذه الأسطورة وبذلت جهود مشكورة من قبل علماء المعهد لدراسة هذه النصوص ومقارنتها وتحليل مضامينها وإبراز قيمتها الفنية وسماتها الجمالية، ويعتقد بعض المستشرقين ومنهم علييف أن الاهتمام بشخصية فرهاد كان من تأثير ملحمة الشاعر الأوزبكي (نوفوى) (١٤٨٤م) «فرهاد وشيرين» فقد حاول (نوفوى) أن يضفي على فرهاد الصفات الإنسانية النبيلة، وعلى النقيض من ذلك رسم الشاعر صورة سلبية للغاية لخسرو كإنسان خبيث وغادر وحاكم مستبد يتسبب في موت فرهاد، ولكن القدر يمهل ولا يهمل، حيث نراه بعد فترة يقتل على يدي ابنه. وفي العصر الحديث ألف الشاعر والكاتب المسرحي التركي مسرحية بعنوان (حكاية حب، أو فرهاد وشيرين)، وفي أذربيجان ألف الشاعر فورغوف مسرحية بعنوان فرهاد وشيرين ترجمت إلى العديد من لغات العالم، وتختلف معالجات الشعراء والكتاب لهذه الأسطورة، كما يختلفون في التصرف في أحداثها والتركيز على شخصياتها. وإذا كان فرهاد في ملحمة كنجوى شخصية ثانوية، فإنه البطل الرئيسي في الروايات الفولكلورية لهذه الأسطورة التاريخية الشعبية.

بعد الشاعر نظامي كنجوى نظم هذه القصة بالفارسية شاعر الهند أمير خسرو دهلوي المعروف ونقلها إلى آفاق جديدة كذلك دخلت القصة الأدب التركي وكان الشاعر المسمى بشيخي أول من نقل القصة إلى التركية الغربية وكان شيخي ذا فضل كبير على الأدب التركي وكان أيضاً ذا نزعة صوفية وهو شاعر عثماني مات قبل أن يتمها فأكمل نظمها ابن أخته الشاعر جمالي، ثم هناك شاعر يدعى «آهي» اهتم بنظمها ونظم منها شيئاً وعرضه على شيخه محمود جلبي أفندي وكان صوفياً من شيوخ النقشبندية وطلب رأيه فيها فنصحه بأن لا يضيع وقته في تعظيم الملك الوثني خسرو برويز الذي مزق الكتاب الذي بعث به إليه رسول الله(ص) وكان يدعوه فيه إلى الإسلام فانصرف آهي عن نظم القصة. وآهي وجمالي هما من شعراء السلطان سليمان القانوني وهذا ما ذكره «جب» في تاريخه للشعر العثماني، وهناك شعراء أتراك آخرون نظموها منهم الشاعر «خليفة» ومنهم «وعيدي زادة» ومنهم الشاعر الوزير «علي شير نوائي»، كما نظم الشاعر التركي «لامعي» (ت١٥٣١) قصة استخلصها من هذه القصة وهي قصة فرهاد وشيرين تحت عنوان فرهاد نامه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم تكن قصة خسرو وشيرين مصدراً ملهماً للأدب والشعر فحسب وإنما كانت أيضاً موضوعا فنيا شائعا فغالبا ما زينت التحف الزجاجية والنرجيلات والقوارير ذات الرقاب الطويلة بالمناظر الشاعرية، وكان منظر خسرو وهو يستقبل حبيبته شيرين من أكثر المواضيع التي نراها مجسمة على هذه القطع الفنية.

تذكر لنا كتب التاريخ أن الملك (كسرى الثاني/برويز) حكم بين (٥٩١.٦٢٨م)، حوالي أربعين عاما، وقد قتل على يد ابنه(شيرويه) من زوجته الرومية. وكان (كسرى الثاني)عمليا آخر الملوك العظام لسلالة ساسان، حيث أعقبه عدة ملوك ضعاف سرعان ما انتهت دولتهم على يد المسلمين الفاتحين عام ٦٣٧ م، أي بعد مقتل (كسرى الثاني) بحوالي تسعة أعوام.

على الرغم من الدور الكبير الذي لعبته الحسناء الذائعة الصيت شيرين في حياة واحد من أعظم وأقوى ملوك الدولة الساسانية وهو كسرى الثاني(خسرو)، ولقبه (أبرويز. المظفر) وكسرى برويز هو ابن هرمز الرابع وحفيد «كسرى أنوشيروان، إلا أن قصتها الحقيقية تظل مبهمة ومحاطة بالأساطير. وقد عدت هذه المرأة إحدى عجائب كسرى الاثنتي عشرة والذي زخر بلاطه بالأبهة والفخامة والعجائب ومنها قصر المدائن ودرفش كاويان ثم زوجته شيرين وهي بطلة هذه الحكاية الأسطورية الشهيرة. كانت (شيرين) من المواضيع المحببة للكتاب المسلمين والعراقيين، مثل البلعمي والطبري والثعالبي، وقد رووا كثيرا عن هذه الأميرة واعتبروها من الأعاجيب. وما زالت هنالك خرائب على الحدود بين العراق(خانقين) وإيران حيث ينتشر الأكراد الفيليون أو اللور نسبة إلى إقليم لورستان في إيران، وهذه الخرائب هي بقايا قصر اسمه قصر شيرين وهو القصر الذي بنته هذه الأميرة، لتمضي فيه الصيف بالقرب من قومها في أرض ما بين النهرين، وهذه المنطقة تاريخيا وجغرافيا هي جزء من بلاد مابين النهرين، ويجمع المؤرخون على أن شيرين آرامية مسيحية. وأنها عراقية من منطقة(ميشان) أي (ميسان)، أما نظامي فيوردها بأنها أرمينية، وتؤكد المصادر على أن (شيرين) برغم زواجها بإمبراطور إيران، إلا أنها فضلت دائما السكن في بلادها العراق، وبالذات في (المدائن) على ضفاف دجلة. بل إنها أجبرت زوجها على السكن في هذه المدينة، على الرغم من أنه كان متشائما منها لأن المنجمين قالوا له إنه سوف يقتل فيها، لكنه خضع لإرادة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زوجتــه، حتى تحققت النبــوءة وتم قتله في العاصمــة المدائن على يد ابنه، وقد تعددت الروايــات عن العلاقة بــين شيرين وخسرو وفرهاد في الكثير من المؤلفات العربية حيث حفظ كل من الثعالبــي والفردوسي العديد من الروايات عن شيرين وإيقاعها كسرى في غرامها وزواجه منها والطريقة البارعة التي استطــاع بها كسرى إسـكات عظماء الدولة الذين كانوا ساخطين على هذا الزواج لأنها من بلد كان تابعا للدولة الساسانية، فقد ورد ذكرٌ من هذه القصــة في كتاب «غرر ملوك الفرســ» للثعالبــي، وورد موجز عن شيرين زوجة خسرو في كتاب «المحاسن والأضداد» للجاحظ وهنــاك أخبار مفصلة عن خسرو برويز في تاريخ الطبري غير أن هذه الأخبار لا تتضمن حكاية شيرين.

وكان كسرى أبرويز أميراً شاباً التجأ إلى أعدائه البيزنطيــين بعد مقتل أبيه على يد أحد قواده. وقد رحب به إمبراطور بيزنطة وزوَّجه ابنتــه أو إحدى الأمــيرات واسمها ماريا أو مريم، وساعــده في استرداد عرش أبيــه. لهذا قد أصبح نصيرا للمسيحيين في العراق بتأثير زوجتيــه المسيحيتين،العراقية شيرين والبيزنطية ماريا، لكنه ما لبث فيما بعد أن اضطهد المسيحيين في العراق، وشن الحرب على دولــة الروم بيزنطــة واجتاح أراضيهــا، ومن المعــروف أنــه كان للدولة الساسانيــة عاصمتــان، الأولى صيفيــة في إيران هي (سوسة)، والثانية شتوية في العراق هي(المدائن) جنوب بغداد، وهذا دليل على مــدى أهمية العراق في هــذه الإمبراطورية المترامية الأطراف والتي تمتد حدودها من الفرات إلى الصين.

الرواية العراقية-الكردية- للأسطورة وطاق شيرين

يحكى أن شيرين وفرهاد رأى كل منهما الآخر في حلــم وهما صغــيران، فجمعهما عشق أبدي. وعندما كــبر فرهاد وهو أمير قومه، ذهب يجوب البلدان باحثاً عن حبيبته، متنكــراً في زي (درويش). حتــى وصل إلى مدينتها، وكانت حين ذاك متزوجة من الملك خسرو وقد أجبرت على الزواج منه وهو كبير في السن. ولدى اكتشافها وجود فرهاد الذي مازالــت تحمل صورتــه في ذهنها منذ ذلك الحلــم، تتفق مع أحد أبناء زوجها الملك من زوجته الأولى على التخلص منه بعد أن تعده بمنحــه الملك والوقــوف إلى جانبه والزواج منه. وينفذ الابن الخطة ويغدر بوالده بينما تولول شيريــن وتعلن عن قاتل زوجها الملك، فتتخلص منهما معــاً وعندما تقدم فرهاد للــزواج منهــا اجتمع أعيــان المدينة للنظر في هذا الطلب، ولكــي يضمنوا عدم ابتعاد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملكتهم المحبوبة عنهم طلبوا منه طلباً تعجيزياً، كمهر لها. وهو أن يشق جبلاً (هو جبل بيستون) كان قد وقف عائقاً عن تدفق مياه النهر الواقع خلفه إلى الجهة الأخرى. وفي مدة لا تتعدى أربعين يوماً.

يوافق فرهاد ويباشر العمل. وذات يوم تأتي شيرين لزيارته وكانت تذهب إليه راكبة فرسها «شه وديز». وكانت هناك عصابة تتربص لهما. وأرادوا اختطافها. فتصدى لهم، ولكن شيرين تمنعه خوفاً من وقوع الفتنة. وترضى أن تذهب معهم، ويطلبون منه أن يحفر لهم (طاقاً) في الجبل حيث سيذهبون مع شيرين، وتطلب منه شيرين تنفيذ ذلك خوفاً عليه، فيمتثل لأمرها. وينفذ البناء حسب طلبهم، ويقال إن الطاق مازال شاخصاً، ولكن ما إن رحلت حبيبته حتى سمع نداءها، فيهب على العصابة ويقتلهم جميعاً.

يواصل فرهاد عمله في شق الجبل ويقترب من نهايته. وقد أصبح واضحاً أنه سيفوز بحبيبته. وهنا تعمل امرأة عجوز شريرة هي شقيقة أحد أفراد العصابة على التخلص منه فتخبره بأن شيرين قد توفيت، ويلعن فرهاد المرأة على ذلك الخبر، ويقتلها. ثم يرفع فأسه الذي شق به الجبل وأجرى الماء ويهوي به على صدره فيغرق في دمائه، وتحضر شيرين وترى النسور والغربان محلقة وقد تشابكت أجنحتها لتعمل لفرهاد ظلالاً تحميه من الشمس.

دفن فرهاد على حافة جبل بيستون. وتذهب شيرين لزيارة القبر، فتأخذ معها سكيناً برأسين. تغرز أحد طرفيه في القبر والآخر في قلبها فتموت وتدفن إلى جواره. ويقال إنه في ربيع كل عام تنبت وردتان من قبريهما وتكبران حتى توشكا على التلاقي فتنمو شجرة صبار بينهما لتمنع ذلك اللقاء.

خسرو وشيرين ملحمة نظامي الشعرية

أول من نظم هذه القصة هو الفردوسي وشيرين لديها شخصية ثانوية تتصف بالأنانية قامت بقتل منافستها مريم حتى لا تشاركها حب خسرو، وقد كرس منظومته لرسم صورة الملك الساساني العظيم خسرو برويز، والذي يمثل بالنسبة إليه مجد إيران، والفردوسي معروف بتعصبه للقومية الفارسية وقد عاش في عهد السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند وموطد نفوذ الإسلام.

أما منظومة الفردوسي الملحمية فتقع في ٦٥٠٠ بيت مثنوي من البحر الوافر المسمى في الفارسية بالهزج المسدس المقصور، وهو أول من أدخل شخصية فرهاد إلى القصة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي رواها الفردوسي في الشاهنامة. وتبدأ القصة بحلم رأى فيه الأمير خسرو برويز وهو في رحلة صيد أن جده «كسرى أنوشيروان» جاءه في المنام وبشره بأنه سيظفر بمغن حسن الصوت اسمه «باربد» وحصان قوي سريع يدعى «شبديز» وحبيبة رائعة الجمال تدعى «شيرين».

وتتطور القصة إذ كان لبرويز صديق يدعى «شابور» حدثه بأنه مرّ في بعض رحلاته وتطوافه في بلدة جميلة تدعى «أرمينية» تحكمها ملكة عظيمة تدعى «مهين بانو» ذات شهرة ذائعة بين أمراء المسيحية وأن وريثتها أميرة من أسرتها هي ابنة أخيها وتدعى «شيرين» رائعة الجمال ويصفها له قائلا:

لقد سمعت أنها سميت (شيرين) لشدة حلاوة لسانها عند الكلام...

في يدها عشرة أقلام هي أصابعها

وحديثها يهدئ ألف فتنة آسرة للقلوب

وشيرين هذه تحب النزهة وعادة تخرج مصحوبة بسبعين فتاة وأما الأميرة مهين بانو كانت تمتلك حصاناً أسود كالليل يسمى «شبديز» ويصاب برويز بالدهشة لما سمعه من صديقه شابور وتماثله مع ما رآه في المنام وهكذا تملك حب الأميرة قلب الأمير خسرو برويز وأصبح والهاً لا يغمض له جفن ولا يقر له قرار، أوفد الأمير خسرو صديقه شابور ليتدبر أمر اللقاء بحبيبته شيرين. وتوجه شابور إلى أرمينية وأقام في دير سأل رهبانه عن مسكنها وعرف هناك أن شيرين ستصل قريباً إلى غابة قريبة فرسم صورة جميلة للأمير خسرو برويز وعلقها على شجرة ومرت الأميرة شيرين ورأت الصورة فهامت بصاحبها لفرط جماله «وكانت كل نظرة منها إلى الصورة تثملها فتغيب عن وعيها» وراحت

تنشد:

يارب أبدل ظلامي نهار

ولا تخذلن من إليك استجار

إلهي بحرمة خير العباد

بحرمة سيد رسل الرشاد

فإني لا أستطيع السقام

أغثني أغثني غياث الأنام

فلما دعت واستغاثت كثير

وأجرت دموعاً بقلب كسير

ألان لها قلب ذاك الحبيب

وصار لما تبتغيه مجيب

احتفظت شيرين بالصورة وقالت ليتني أجد من يدلني على هذا الشاب الجميل وهناك ظهر لها شابور الذي كان مختبئاً وراء شجرة وقال أنا يا سيدتي وحكى لها القصة وقدم لها خاتماً كان قد أهداه لها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمير وقدم لها وصفاً للأمير برويز قائلاً:

إنك تشاهدين دنيا خلقت من النور

جميل رشيق ماهر شجاع في حنان الغزال

وغضبة الأسد هو كالشمس تضيق شوارع

الدنيا بموكبه

تئن الأرض من وقع أقدامه

وتبطئ سرعته دوران الفلك وقد هوى ذلك

المضيء بكل عظمته أسير هوى حبك

حيث شاهد طيفك في نومه فما عاد يحتسي

الشراب ولا ينام ليله ولا يجد راحة في نهاره

ولا يطلب غير شيرين.

فطلبت من شابور أن يدلها على طريق المدائن بالكوفة.. وبعد عودة شيرين إلى القصر طلبت من عمتها أن تعيرها جوادها شبديز لتخرج به إلى الصيد وخرجت إلى الصيد وتظاهرت شيرين بمطاردة الغزال واتجهت نحو المدائن وصادفت في الطريق أهوالاً منها أنها رأت أسداً يريد افتراسها فأردته بسهم قتيلاً، وتابعت سيرها إلى أن وصلت إلى مرج فيه بركة ماء فنزلت في تلك البركة للاستحمام.

وأما برويز فقد وشى به الواشون عند أبيه وقالوا له إن ابنك يريد الاستيلاء على العرش فنصحه الوزير «بزرج اميد» بالهروب فترك برويز القصر وقصد إلى أرمينية فراراً من المشاكل وبحثاً عن حبيبته وتشاء الأقدار أن يلتقيها عند البركة التي نزلت عندها من غير أن يعرفا بعضهما لكنهما تعلقا ببعضهما، ثم تابع كل منهما طريقه فوصلت شيرين إلى قصر الأمير خسرو برويز ووصل الأمير إلى ارمينية ونزل ضيفاً على الأميرة مهين بانو وتوجه شابور إلى أرمينية ليخبره بوصول الأميرة إلى قصر المدائن وعند وصوله إلى أرمينية اتفق الجميع أن يرسلوا شابور إلى المدائن لإحضار الأميرة إلى أرمينية وعاد شابور ومعه شيرين والتقى الحبيبان وتشاكيا الحب، وكان حباً عذرياً عفيفاً «وراح كل منهما ينظر إلى صاحبه ويذرف الدموع فرحاً باللقاء».

نشب تمرد من جانب بهرام جوبين المسمى بهرام جور على الملك «هرمز» والد الأمير برويز فسمل عينيه وقتله، وهنا اشترطت الأميرة شيرين على الأمير برويز كي يتزوجها أن يستعيد عرشه المسلوب، واستجاب برويز ولجأ إلى قيصر الروم ليستعين به وهناك تزوج بابنة قيصر الروم المسماة «مريم». وحدثت بين الحبيبين جفوة لكن حبهما لم يخمد طبعاً، ويحن خسرو إلى شيرين ويهفو قلبها شوقاً إليه، فتمضي إلى قصرها بالمدائن لكن زوجته ماريا تمنعه من ذلك. وماتت ملكة أرمينية «مهين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بانــو» وأصبحت «شيرين» هي الملكة صاحبة العرش.

وهنا يدخل القصة عنصر جديد يصور الحب المتفاني والمثالي وهــذا الشخص هو «فرهاد» الــذي أصبح دافعــاً لإثارة الغيرة في قلب خســرو برويز. كان «فرهاد» تلميذاً وصديقاً لشابور في فــن التصوير والنحت، ولمــا اشتكت الأميرة شيرين لصديقها شابور من بعــد المراعي عن قصرها فيصلها اللبن متأخــراً أحضــر لها فرهاد لحــل المشكلة، وسرعان ما شق هذا الفنان والمهندس الذكي قنــاة في الجبل فصــارت الأغنام تحلب في المراعــي فيسيل اللبن بسرعة عبر القناة إلى قلعة الأميرة، غير أن الحب كان قد شق قناة أخرى بين قلب فرهاد وشيرين، إذ ما كادت عينا فرهاد تقع علــى شيرين حتى هام بها حباً وأصبح أســير هواها وثارت غيرة الملك خسرو برويز وحاول أن يصرف هذا الشاب عن حب الأميرة لكن بلا جدوى وهناك طلب الأمير من فرهــاد أن يشق طريقاً وعراً بين الجبــال على أنه إذا نجــح في هذه العملية سيهبه الأميرة شيرين إذا أفلح في ذلك، فكان فرهاد يقطــع الصخور وينحت منها تماثيل لشيرين ويتصورها، ورقَّــت شيرين لفرهاد وخرجت إلى الجبل لمواساته ولما رآها أصابته صعقة العشق فسكت، فقدمت له جرعة من ماء الورد ردت إليه لبه، وراح يبثها مواجده وأشواقه:

ووصلت حرارة العشق إلى رأسه فكاد يحترق من شدتها.

وأصابت سهام الحب قلبه فأثخنته بالجراح

وهكذا تسبب هو في هلاك نفسه فامتلأ بلاء وتعبا

فكان يبكي من عشق شيرين بكاء مراً

حتى دوى صوت بكائه في جميع الأرجاء

ثم ودعته شيريــن ومضت، وفي طريقها سقطت عن جوادها فهــب فرهاد لنجدتها وعلــم الأمير خسرو برويز بذلك وعلم أيضاً أن فرهــاد نجح بشق الطريــق، وأنه يلتقي بشيريــن كل أسبــوع يمر بقصرهــا فيسلم عليهــا، فخــاف وضاق من ذلــك فاستشار أعوانه ليدلوه على طريق التخلص من هذا الوعــد الذي قطعه لفرهاد فكان الرأي بأن يرســل إلى فرهاد عجوزاً شمطاء تخبره بأن شيرين قد ماتت فلما سمع فرهاد بالنبأ قال: «سألتقي بشيرين بعد العدم وسأسرع بخطوة واحدة نحو العدم» وهنا قفز من فوق الجبل إلى السفح ومات.

بعد موت فرهاد وبعد خيانة زوجها لها، حزنت شيرين حزنــاً عظيماً وبنت فوق قبر حبيبها فرهــاد مزاراً أو قــبراً وقبة لتكون مزاراً لجميــع العشاق، وهــذا هو الجانب الصــوفي في القصــة، نتيجة مــوت فرهاد ازداد الجفــاء بين خســرو وشيرين ثم ماتت

مريم زوجة خسرو برويز وبعد سعي كثير استطاع الملك خسرو برويز وبسعي الصديق المشترك شابور أن يستدر عطف شيرين التي كانت هي تحبه أيضاً فتزوجا.

أما عرش أرمينية بعد أن تزوجت شيرين من الملك فقد أُسند إلى شابور صديق الملك ...هكذا تنتهي هذه القصة الحافلة بمختلف المواقف الإنسانية التي تصور الحب المتفاني والوفاء والخيانة وفساد الطبقة الحاكمة، كما أنها حافلة بالصراع والمواقف المثيرة .

فرهاد عند نظامي بطل متدفق العاطفة، لا تكتسب حياته معنى إلا مع الحبيب، وحين يحمل إليه نبأ موتها تفقد الحياة معناها فينتحر.

فلما سمع فرهاد الخبر سقط من فوق الجبل
كقطعة من الحجر
وزفر زفرة حزينة من كبده كما لو أصابته
حربة ذات رأسين فمزقته
وقال في لوعة: يا أسفا على المشاق التي
تحملتها
فما النتيجة التي حصلت عليها من شق
الصخور ولم يتيسر مطلبي وازدادت مشقتي
واشتعلت نيران الدمار في بيدري، ثم أغرقني
البلاء في طوفانه
وخلت الدنيا من الشمس والقمر، وخلت
الخمائل من الزهر والشجر
وانطفأ المصباح المضيء فلم تغب عني شيرين
فحسب وإنما غابت عني الشمس المشرقة
وهذا الفلك الغادر لا يشفق على مظلوم ولا
يرعى برحمته محروم
فيا أسفا على هذا الكوكب الذي أصابه
الخسوف فجأة
مئات من الحملان تمر أمام الذئب الجائع
ولكنه لا يخطف إلا حمل الفقير المسكين
وقد وقعت شجرة السرو الطويلة فحق لي أن
أهيل التراب على هامتي
وانتثرت أوراق الوردة الباسمة فحق للبستان
أن يصبح سجناً لي
وطارت طيور الربيع البهيجة فلماذا لا أنوح
في لوعة كالسحب الراعدة
وانطفأ السراج اللامع فلماذا لا يستحيل
نهاري المشمس إلى ليل دامس
وخمدت أنفاسي لحسرتي وكربي واصفرت
شمسي لغياب قمري وموضع حبي
سألتحق بشيرين في طيات العدم وسأهرع
إليها في قفزة واحدة.

° ° °

شيرين في منظومة شيخي وأعمال أخرى

إذا كانت شيرين عند الفردوسي امرأة أنانية غير وفية فإنها عند نظامي شخصية رومانسية رئيسية مع مسحة صوفية فهي

فتاة عفيفة وفية مخلصة في حبها، أما عند الشاعر العثماني شيخي فشيرين شخصية رئيسية أيضاً وهي رمز للحب الصوفي والمحبوب المتعالي وهذا ما لوّن الأدب المشرقي الإسلامي عامة وخاصة شعر المثنويات في ذلك العصر وفي العصور التالية، شيرين عند شيخي محبوبة أرضية ورمز للمحبوب الإلهي، فهي عندما تجلت لفرهاد عند جبل بيستون اندك الجبل وخر فرهاد ساجداً صعقاً، مثلما حدث لموسى عندما تجلى له ربه عند جبل الطور:

حين وصلت ذات القد السمهري إلى جبل بيستون

أحالت ذلك الجبل الصخري إلى جنة ريحان

ولما انعكست الشمس المنيرة على خدها، صار الحجر ياقوتاً وتحول الجبل إلى مسجد

ومن ضيائها انشق الصخر الصلد، ومن نورها اندك الجبل

وفني فرهاد ذاهلاً، وخرَّ ساجداً، وظلَّ حيران ثملاً

أحضرت ذات اللسان الحلو، الحلوة الصافية، معها زجاجة من ماء الورد

وقدمتها إلى الولهان الجانش: هيا اسعد واشربها على ذكري

وبهذه النشوة يسنح للروح وقت سعيد فيها أسمعنا من قصيدك البهيج

فلما أمسك بالكاس وشربها أدركت روحه الخلود في نصف ساعة

أي شراب ساقيه مثل شيرين، ولا يدرك راشفه الخلود المقيم؟!

تختلف شخصية فرهاد عند الشاعر لامعي عنها عند نظامي وشيخي فالبطل الرئيسي عند لامعي ليس الملك خسرو الذي يسعى إلى شيرين، وإنما هو فرهاد الفنان المهذب السامي الذي يتحول إلى فارس نبيل يخوض غمار المعارك ليظفر بقلب محبوبته، وتدور أشعاره حول هذه البطولات والمغامرات التي خاضها وحول حبه التعيس.

انتقلت هذه القصة إلى الأدب الشعبي التركي فأنشدها الشعراء المداحون، وأخذها لاعبو خيال الظل فصنعوا من أحداثها فصولاً تمثيلية، أما موضوعها وأحداثها لديهم فتتلخص بأن فرهاد نقاش شاب يقع في حب شيرين ويتقدم لخطبتها، لكن أمها الأرملة الغنية ترفض الزواج لفقر فرهاد ثم توافق بشرط أن ينقب فرهاد الجبل ليوصل الماء إلى الجهة الأخرى مستخدماً معولاً واحداً، وعندما ينجح تكيد الأم له فترسل إليه ساحرة تستخدم العقد والشعوذة لتمنع هذا الزواج، ويكشف فرهاد الساحرة ويقضي عليها ويتم اللقاء بين الحبيبين.

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

ناظم حكمت ومسرحية حكاية حب

في العصر الحديث ألهمت أسطورة فرهاد وشيرين عددا من الشعراء البارزين، فكتبوا مسرحيات شعرية مستمدة من أحداثها ووقائعها، ومنهم ناظم حكمت الذي كتب مسرحية حكاية حب أو فرهاد وشيرين عام ١٩٤٨ وهو نزيل السجن، وهي مقتبسة من الأسطورة الشرقية فرهاد وشيرين وتعتبر نموذجاً جيداً في استلهام التراث ليدعو الكاتب فيها إلى أفكاره الاجتماعية في أشكال فنية جذابة بعيداً عن المباشرة. وقد قدمت هذه المسرحية على أشهر مسارح العالم لسنوات طويلة متتالية (في موسكو وباريس وبرلين وغيرها من العواصم).

تتلخص أحداث المسرحية في أن شيرين أميرة جميلة أعيا داؤها الأطباء فأرسلت أختُها الأميرة مهمنة بنت الشاه سليم حاكمة مدينة أرذن منادياً في البلاد يعلن أن من يشفيها ستمنحه أربعين بلداً وأحمال أربعين جملاً من خزائنها، ويحضر رجل غامض يشترط لشفائها أن تبني لأختها جوسقاً وأن تتخلى الأميرة عن جمال وجهها، وتقبل الأميرة مهمنة على الرغم من معارضة وزيرها فيتشوه وجهها وتشفى أختها، ويبدأ النقاش بهزاد وابنه الفنان العبقري فرهاد في تزيين الجوسق بالنقوش، وتأتي الأميرة مع أختها شيرين لتطلع على العمل، ثم ينصرف الجميع وتبقى شيرين وتقذف فرهاد بتفاحة فيقع حبها في قلبه وهو يظنها جارية في القصر وعندما تعرفه على نفسها يصيح قائلاً:

«آه.. ما أبعدك عني، لقد عشقت نجمة الصباح»

يساعد شريف ابن مربية الأميرة وزميل فرهاد في العمل على تدبير لقاء بين العاشقين في القصر لقاء إعطائه بعض أسرار فن النقش، وفي اللقاء يتفق العاشقان على الهرب معاً وما إن ينفذا الخطة حتى يلقي جنود الأميرة القبض عليهما، وهنا لا تحكم الأميرة على فرهاد بالموت أو السجن وإنما تطلب منه كي يفوز بمحبوبته أن ينقب جبل الحديد ليشق قناة توصل المياه النقية من الطرف الآخر من الجبل إلى المدينة التي يشرب أهلها مياهاً ملوّثة تسبب لهم الأمراض، على ألا يرى محبوبته خلال إنجازه المهمة مهما طالت، ويقبل فرهاد ويستمر في العمل عشر سنوات تزوره خلالها جموع من الشعب تعتبره بطلاً وتشجعه على الاستمرار في العمل، ويخبره والده بهزاد بشأنه مع النقاشين قد هيؤوا وبنوا السبلان المرمرية لاستقبال الماء النقي، ثم يموت الوزير، فيرق قلب الأميرة وتأذن باللقاء والزواج، وتزور شيرين حبيبها وتطلب منه أن يترك العمل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويعـود إلى جوسقها لكنـه يرفض فالشعب ينتظر المياه النقية ولم يبق إلاّ صخرة واحدة ينقبهـا ولا يعلم أحد كـم يستغرق ذلك من أعوام.

عندما يعتلج حب شيرين في قلب فرهاد يصبح عاجزاً عن متابعة النقش في جوسقها، وتزيينه بالزنابق؛ فالمحبوب أكبر من الإبداع لأنـه هو الجمال المطلـق الذي لا يحيط به إبداع.

شيرين: إنك لا تعمل منذ أربعة أشهر!

فرهـاد : نعـم لا أعمل.. منذ ذلك اليوم أمسك بالريشة في يدي وأرسم زنبقة، ثم أنظر إليهـا فأجدها غير جديرة بـك، فأمحوها، يجـب عليّ أن أضـع كل الدنيا داخل زنبقة واحدة، الدنيا كلها، بـكل أصواتها وألوانها وأفراحها وأحزانهـا وأقدارها وآمالها، أي يجب أن أضعـك أنت داخل الزنبقة، وإذا لم أستطع أن أضعك داخل الزنبقة فيا لضيعة فن النقش!

شيرين: لـو كنـت تعيش في شـوق إلي لاستطعت أن تضعني داخل الزنبقة.

فرهاد: هل تعرفين يا شيرين كيف ترسم الزنبقـة؟ إنهـا ترسم بالضبـط كما ينظم الشعر، وتلحـن الأغاني، بالضبط كما تبنى المنشـآت ،ويطرق الحديد، وتحرث الأرض، أي أن لنقش الزنبقة أصولاً وقواعد، وشوقي إليك ليس لـه مقياس ولا طراز، ولا يعرف الحدود والقيـود، والرسام الذي يقول إنني استطعت أن أضع حبيبتي داخل الزنبقة إما كاذب أو أحمـق، ولا يحسن فنـه، أو أنه لا يعرف الحقيقة أو لا يعترف بها، إذ إن شوقه محدود بحيث يسعه فنه، إننا لا نستطيع أن نطـوي في زنابقنا إلا واحـداً في الألف من شوقنا.

هـذا الشوق والحب المذهـل للمحبوب يتسامـى به مؤلف المسرحيـة ناظم حكمت من دائرة الذاتية والجنون وكل ماهو تقليدي إلى دوائر الواقعية والكمال والحب الإنساني ليتحـول إلى حـب منتـج للحيـاة وفائدة الإنسان، وفرهاد يشق الصخر ليجري الماء إلى العطاش والمرضى والبائسين.

السمرقندي: إننا نعـرف حال مجنون ليلى، هـام في الفلوات عشقـاً لليلى، بكى وانتحـب وضرب صدره في الصخور السود، كنا نحسب أن تلك حال العاشقين.. مطرق الرأس دامع العين.. مع أن فرهادكم هذا لا يبكي ولا يئن!

شريـف: وإنمـا يمسك بمقبضـ المعول الذي يزن مئة رطـل ويثقب الصخر لتسيل المياه، لقد صب له حـداد وازن هذا المعول منذ ثمانية أعوام.

ولكن أين شيرين من هذا العشق الجديد،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عشق العمل المنتج، هل نسيها، أم أن صورتها في كل ضربة معول، وكل قطرة ماء تنتظر المسيل؟ والجواب هو ما يحمله هذا الحوار بين الأب وابنه.

فرهاد : سوف أوصل المياه إلى المدينة يا أبي، إنني واثق من ذلك.

بهزاد: الشعب يثق بك فإياك أن تضلّله، لقد نسي الشعب أنك بدأت تنقب جبل الحديد لتحصل على شيرين.

فرهاد : أنا أيضاً نسيت.

بهزاد: نسيت شيرين؟

فرهاد: لا لم أنسها، أمن الممكن نسيانها؟ لقد امتزجت شيرين مع المياه في قلبي، ولم أعد أعرف لماذا أنقب جبل الحديد، لأحصل على شيرين؟ أم لأوصل المياه إلى الشعب؟

روعة النهاية في مسرحية حكاية حب هي اللمسة الأخيرة للكاتب في رسم شخصية شيرين بعد أن حظي فرهاد بالاهتمام الأكبر في المسرحية. فبعد أن تُوافق الأميرة مهمنة على زواج أختها من فرهاد تطلب شيرين من حبيبها أن يترك العمل ويعود ليعيشا في جوسقها لكنه يرفض ويصر على إتمام العمل.

شيرين: هيا نذهب.. ألن تأتي؟ إذا لم تأت فلن تتقابل أعيننا لسنوات طوال، ألا تأتي؟ في جبيني ثلاثة خطوط لكنني مازلت جميلة، جوسقنا ونقوشك تنتظرك، ألا تأتي؟

فرهاد : هل نستطيع أن نكون نحن الاثنين سعيدين ونحن جالسان في جوسقك نشرب مياه عين جبل الحديد في قوارير من فضة بينما يتساقط الناس كالذباب ويموتون؟ يجب أن تتدفق هذه المياه إلى المدينة من السبل الرخامية، وسوف تتدفق.. بقيت صخرة واحدة ولسوف أنقبها.

شيرين: أستودعك الله يا فرهاد..

(يحاول أن يقبلها)

شيرين: لا.. قبلني في جبيني فقط

(يقبلها في جبينها)

شيرين: لقد أظهر كل واحد نفسه في هذه القصة في صورة ما.. وكان لي الانتظار، سأعرف كيف أنتظر كزوجة سجين، كأم جندي، كن بخير يا حبيبي لا تأت.. ابق حيث أنت.

إنها ضربة موفقة بالريشة السحرية من فنان كبير كناظم حكمت على شخصية شيرين جعلت منها نقشاً نافراً في لوحة المسرحية التشكيلية، ذلك أن بطولة الانتظار بالنسبة للمرأة لا تقل عن بطولة العمل والإصرار على نقب جبل الحديد بالنسبة لرجل كفرهاد تماهى في قلبه حب الشعب بحب معشوقته شيرين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مصادر البحث

١- أ ج. براون. تاريخ الأدب في إيران١٩٥٤ ترجمة أمين الشواربي.
٢- أمين عبد المجيد بدوي. القصة في الأدب الفارسي - القاهرة- دار المعارف ١٩٦٤م.
٣- أمين عبد المجيد بدوي. جولة في شاهنامة الفردوسي ١٩٧٤م.
٤- حسين مجيب المصري. في الأدب الإسلامي. القاهرة ١٩٦٧م.
٥- عبد العزيز بقوش النظامي الكنجوي (ترجمة). المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٠م.
٦- عبد النعيم حسنين. نظامي كنجوي شاعر الفضيلة ١٩٥٤م.
٧- د. عباس العباسي الطائي. دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والفارسي
Iran Arabic radio
٨- مجلة القصة. العدد٢٠ / ١٩٦٥ نشأة القصة في الأدب التركي (أكمل الدين إحسان).
٩- ناظم حكمت. حكاية حب أو فرهاد وشيرين. ترجمة وتقديم أكمل الدين إحسان. دار الكاتب العربي. القاهرة

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الإرث الحضاري للشرق وأثره العميق في دول الغرب

إبراهيم سلوم ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتصل أوروبة مع الشرق العربي عبر البحر المتوسط بعلاقات متينة ومصالح حيوية متداخلة. وفي بطون التاريخ معلومات تؤكد أن العلاقات التاريخية بين الشرق العربي وأوروبة تعود إلى زمن بعيد، وأنها مرت بعدة مراحل كبرى بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وانتهاءً بأيامنا هذه.

وقد تحدث المؤرخون وعلماء الآثار والرحالة الأوروبيون عن هذه العلاقة في مؤلفاتهم وأثرها في مجرى حياة أبناء أوطانهم في الغرب بعد

✿ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أن تيقن لهم بأنه في هذا المكان نشأت ظاهرة التمدن الأول على الأرض، إذ إنه لمن الطبيعي أن تشهد هذه المنطقة قيام أولى الحضارات الإنسانية وذلك لاعتبارات عدة كموقعها الجغرافي الحساس، ووجود عوامل بيئية مناخية ملائمة جداً للحياة البشرية من جهة، ولأن هذا الشرق كان له الأسبقية بمعرفة بذور الإدراك الإنساني من خلال وجود الإنسان العاقل الذي عاش فيه منذ أكثر من ٥٠ ألف سنة حيث صنع وأنتج أولى الحضارات الإنسانية في تاريخ البشرية، ثم قام بنقلها إلى الغرب الأوروبي.

من جهة أخرى، وبحسب هؤلاء المؤرخين فإن ظاهرة التمدن الحضاري هذه انتقلت لاحقاً إلى الغرب حين هاجر هذا الإنسان العاقل وخلّف وراءه هناك بصمات دامغة تركت أثرها على جذور الإنسان الغربي وهويته، ومعتقداته الغيبية، ولغته ودينه، وطريقته في كسب المعارف والعلوم والفنون. وحسبنا أن نذكر هنا ما كتبه المؤرخ والرحالة الفرنسي «إدوار سكوريه» في كتابه بعنوان: «الحرمات المقدسة في الشرق» الصادر في مطلع القرن التاسع عشر. بقوله: «إننا عندما نرتحل إلى الشرق فلكي نبحث عن جذورنا، ولغتنا، وهويتنا، ومعتقداتنا، وديانتنا، وأخيراً علومنا، ومعارفنا، وفنوننا، ومفاتيح مصائرنا».

وهنا حريّ بنا أن نتناول كل جانب من هذه الجوانب التي تحدث عنها إدوار سكوريه ونتفحصه وذلك على ضوء الدراسات والتحاليل التي تقدم بها مفكرون وعلماء سلالات غربيون لإثبات صحة هذه الجوانب بحسب ما يلي:

١) الجذور المشتركة:

بكل تأكيد إن هذا الأمر يردنا إلى العصور البدائية للإنسان وهي مرحلة موغلة في القدم. وتفيد التجارب التي أجريت على الجينات الوراثية المأخوذة من بصيلات الشعر وعينات الدم عند الأوروبيين بأن لدى هؤلاء صفات عدة تنطبق على الإنسان العاقل الذي عاش في الشرق منذ قديم الزمان، والذي أتقن صنع الأدوات من أجل زراعة الأرض وممارسة صيد الحيوانات حتى يسدّ رمقه، ثم هاجر إلى الغرب الأوروبي منذ أكثر من ٥٠ ألف سنة وترك فيه بصماته الدامغة إلى يومنا هذا.

وضمن هذا السياق كتبت مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» الأسبوعية الفرنسية الصادرة بتاريخ ١٩٩٤/٨/٣ مقالاً بهذا الشأن، أشار فيه عالم السلالات الفرنسي فرانسوا كوبنز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى ما يلي: تبعاً للدراسات التي أجريناها في مجال معرفة جذور السلالة البشرية للإنسان الأوروبي تبين لنا أن الأوربيين الحاليين ينحدرون من جماعات تنتهي بأصولها إلى الإنسان العاقل (هومو سابيانس) الذي ظهر إلى الوجود في القارة الإفريقية منذ ١٠٠ ألف عام كوريث للإنسان المنتصب القامة (هومو ايريكتوس)، هذا الأخير الذي عاش في إفريقيا منذ مليون ونصف المليون عام. والذي يقدر العلماء تعداده في الـ ٥٠٠ ألف سنة قبل الميلاد بحدود ٢ مليون فرد مثلما أثبتت ذلك الفحوصات الشعاعية التي أجريت على الرماد البركاني الذي احتوى جمجمة إنسان من هذا النوع تم العثور عليها في كينيا بإفريقيا في مطلع التسعينيات من القرن الفائت. ولما اقترنت فترة وجوده بعصر جليدي فقد بدأ غير قادر على التكيف مع المناخ الجديد فانقرض من الوجود إلى أن حل محله وريث جديد منذ ١٠٠ ألف سنة قبل الميلاد، وهو الإنسان العاقل الذي تحرر من قوام سلفه المقوس الظهر نسبياً. فاستقام عموده الفقري ورأت عيناه كل ما كان يتعذر رؤيته عند سلفه. وكان طبيعياً أن يتطور عقلياً وبدنياً بعد أن

تحسن غذاؤه. وعندما شهدت تلك الفترة تبدلاً في المناخ حيث حوّل الجليد بعد ذوبانه غابات إفريقيا الرطبة إلى سهول أكثر جفافاً فكّر في مغادرتها بحثاً عن أماكن أخرى تؤمن له الصيد والنبات. فكانت نقطة اتجاهه نحو الشرق الأوسط حيث بقي فيها أكثر من ٥٠ ألف سنة. ويقدر علماء السلالات عدد أفراده بـ٥ ملايين نسمة حينذاك، لقد كان لاكتشافه الزراعة أعمق الأثر في نفسه يوم رمى ببذرة الأرض ورآها تكبر وتصبح حبة قمح أو فاكهة. وبفضل كونه آكل لحوم ومولعاً بشرب حليب البقر والماعز فقد ساعدته بنيته الجسدية إلى أن يبحث عن مراع ضخمة مليئة بالنباتات والحيوانات.

إن غزارة حليب الماعز والأبقار والتهامه لحوم الحيوانات أثرت كلها في تطوره العصبي والجسدي مما جعله بطول ١,٥٢م، وبوزن قدره ٤٥ - ٥٠كغ. وكان دماغه أكبر من حجم دماغ طفل في الرابعة من عمره، ومن يعاين شكل هذا الدماغ يدرك بأن صاحبه قادر على القيام بأعمال فكرية وإبداعية مثيرة. وهذا ما جعله يعرف صنع أدواته من قرون الحيوانات وأنياب الفيلة لصيد النمل الأبيض. كما كان يعرف أن يطرق الصخور بتأنٍ ليكسرها ويقطعها على أشكال تفيده في صيده، فزادت قدراته على الدفاع عن نفسه أمام الوحوش. وبعد أن كان سلفه الهومو-ايريكتوس يقنع بما يلتقط من الأرض من ثمار استطاع هو على العكس أن يمد يديه ليقطف الثمار ويصطاد الفراش. ابتكر صناعة الخشب من قصب الخيزران. ثم صنع له فؤوساً يدوية متعددة الأوجه. ولما كان يهوى الترحال طلباً للصيد والبقاء صامداً في وجه الحياة فقد غادر الشرق ليرحل إلى أوروبة عبر الأناضول. وهناك أقام في ربوعها منذ ٤٠ ألف سنة إلى جانب إنسان آخر لا يقل عنه تطوراً وذكاء، وهو إنسان النايندرتال الذي كان قد اكتشف النار وأتقن طريقة دفن موتاه، لكنه كان يأكل لحوم أقرانه من البشر. وكان هذا الوافد الجديد القادم من الشرق مسلحاً بأدلة الإبداع مثل: حياكة الثياب من خلال قدرته على استعمال بعض الخيوط الصادرة عن النباتات، وصناعة مواقد أكثر فعالية تتيح له الصمود في وجه الصقيع الأوروبي الذي كان يلفّ جزءاً من القارة الأوروبية. ناهيك عن أنه كان يتصرف بأسلوب حديث وينطق بألفاظ صوتية واضحة.

وعلى أثر تواجده فوق أوروبة بادر إلى الاحتكاك بالإنسان (النايندرتال) ومن ثم الاقتران به. وهنا يؤكد علماء الأجناس بأنه خلال اللقاء بين هذين النوعين من الإنسان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يحدث أي تنافر بينهما، بل، على العكس، عاشا جنباً إلى جنب طيلة (٥) آلاف سنة (٣٦٠٠٠- ٣١٠٠٠) وتزاوجا معاً. وقد عثر في أريحا بفلسطين على جماجم بشرية توحي بوجود تزاوج بين الإنسان العاقل وإنسان النايندرتالي الذي كان يعيش في الغرب الأوروبي.

لكن الإنسان النايندرتالي لم يتمكن من مجاراة التكيف مع الوافد الجديد الذي أظهر عن قدرة بدنية وعقلانية أعلى من قدراته بكثير، فلم يُكتب له البقاء بسبب ما نجم عن هذا التزاوج من أمراض وأوبئة أضعفت جهاز المناعة لديه، فبانت للمرة الأولى فكرة (البقاء للأقوى). ويُقال أنه بفضل احتكاك إنسان النايندرتال مع الوافد الجديد من الشرق الأدنى فقد نتج عن ذلك وباء أهلكه. إنه الوباء نفسه الذي نقله البيض إلى الهنود الحمر في أمريكا وهو (التيفوس). وبعد تعايش دام زهاء (٥) آلاف سنة قضى إنسان (النايدرتال) نحبه واختفى كلياً من القارة الأوروبية منذ (٣٠) ألف سنة ولم يَعُدْ له أي وجود.

لقد اعتمدت الدراسات التحليلية التي قام بها العلماء لإثبات انتماء الإنسان الأوروبي إلى الجذور نفسها التي نما عليها الإنسان الشرقي - على أخذ عينات جينية من بصيلات الشعر والدم من الأوروبيين أكدت كلها بأنه ظهر لدى معظم هؤلاء سابقاً وحديثاً ميل فطري لممارسة أعمال الزراعة وحرفة الصيد منذ قرابة ١٠ آلاف عام مضى. وهي صفات تنطبق من الناحية الوراثية على الإنسان العاقل الحديث الذي وفد من الشرق الأدنى واستقر قسم كبير منه في القارة الأوروبية».

٢) اللغة والهوية:

إن الأبجدية التي اخترعها الشعب الكنعاني الذي كان يسكن الساحل السوري منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث عشر ق.م والمسماة بأبجدية أوغاريت الواقعة في رأس شمرا بسورية شمال اللاذقية حيث عثر على آثار عمرانية لحضارة متقدمة وألواح خزفية بالحرف المسماري، هي أبجدية مؤلفة من ٢٢ حرفاً انتقلت في ما بعد إلى اليونان بحسب الحكاية التي أوردها المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) في كتابه «التاريخ» الذي يُعد من أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها، والذي يعتبر مصدراً لدراسة حروب اليونان ضد أعدائهم البرابرة من مصريين وفرس. وفي هذا الكتاب شدّ هيرودوت أنظار اليونانيين إلى عالم غير يوناني هو عالم فينيقيا المليء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالسحـر والجمال وعَبَق التاريخ، ويقع على الضفة الشرقيـة للبحر المتوسـط. وتقول الحكاية إن كلمة أوروبة لها معانيها الشرقية وفقاً لما ورد في الإرث الثقافي الفينيقي. إنها ابنة الملك الفينيقي إجينور وأخت قدموس، والتـي أجبرها الإلـه زوس الـذي أعجب بجمالهـا بينمـا كانت تقطـف الزهور مع رفيقاتها في سهول مدينة صور بعيداً عن شط البحر علـى أن تمتطي ظهره بعد أن تحول إلى ثـور ليذهب بها فوق أمواج البحر بعيداً حتى وصل إلى جزيرة كريت حيث تزوج بها، وعندما علم أخوهـا قدموس بغيابها حكت له إحـدى الفتيات ما حصـل لأخته فقرر السفـر بحثـاً عنها حتى وصـل إلى جزيرة كريت. وهناك التقى بهـا وهو يحمل ألواح الأبجدية. وتضيف الحكاية أن زوس اضطر أن يترك كريت بعد أن وعد الأميرة أوروبة أن يطلق اسمها على شمال المتوسط، وأن يطلق اسم جدتها لأبيها (ليبيا) على جنوبه. ومنذ ذلك الحـين سُمِّيت الأرض التي تقابل آسيا بأوروبة. كمـا أن قدموس عين حاكماً على جزيرة كريت وبلاد اليونان وحكمها بالعدل، ثم أعطى أهلها اليونان ألواح الأبجدية التي كان يحملهـا معه، وعلّمهم القراءة والكتابة، وهؤلاء سمّوها بلغتهـم «فونونيكيا» وهكذا فـإن الأبجدية التي حملها معه قدموس إلى جزيـرة كريت والمؤلفـة من الــ٢٢ حرفاً: أبجـد - هوز - حطّـي - كلمن - سعفص - قرشـت، أصبحت هي الأبجدية الأوروبية ذات الـ٢٦ حرفاً. وهكذا لو أخذنا الأبجدية التي تتعامل بها أوروبة اليوم لوجدنا المزيد مـن هذه الأحرف الـواردة فيها مشتقة من أبجديتنا الأصلية مثل: «أبجد» A B C D، «كلمـن» KLMN، «قرشت» QRST ... إلخ.

وتأكيـداً لما ورد آنفـاً، فقد تحدث عالم الآثـار الفرنسي «شارل فيروللـو» في العام ١٩٥٠ ضمن إطار أكاديمية النقوش والآداب في باريس حول أبجدية أوغاريت بما يلي: «ما من شك أننا لن نعرف أبداً ذاك الذي ابتكر الأبجدية، ولكننا نعرف الآن أنه كان فينيقياً وبشـكل أعم كان سورياً. ويحق لنا القول إن شعبـاً أعطى مثل تلـك المعجزة يستحق كل امتنان مـن طرفنا، كما أنـه يستحق مكان الصدارة في العالم».

٣) أما على صعيد المعتقدات:

لقد أخـذ الأوربيـون في أيـام الوثنية عقائدهـم المتعلقة «بآلهة الأيام» من شعوب الرافدين الذيـن جعلوا من الشمس والقمر والمريـخ والزهـرة وغيرها آلهـةً يعبدونها ويقدسونهـا ويحتفلون بها في أوقات محددة من السنـة. ولو نظرنـا إلى أيـام الأسبوع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوجدنا أن لغات أوروبة تتداولها اليوم: فيوم الأحد مثلاً هو يوم الشمس من حيث تسميته «صاندي»، والاثنين هو يوم القمر من حيث تسميته بالفرنسية «لاندي»، والثلاثاء هو يوم المريخ «ماردي»، والأربعاء هو يوم عطارد «ميركوردي»، والخميس هو يوم المشتري جودي، والجمعة يوم الزهرة فاندرودي، والسبت يوم زحل ساتردي. والسبب في ذلك هو أن العقائد الشرقية كانت تقوم على تأليه الكواكب وتعظمها.

هذا ويذكر التاريخ أنه حين أتى الرومان إلى سورية في العام ٩٦ قبل الميلاد أبقوا أسرة «شمسيغرام» كاهن معبد إله الشمس بحمص في الحكم. وكان لهذا الكاهن ابنتان: الأولى وتُدعى جوليا دومنا والأخرى جوليا أميسا. ولدى مرور القائد الروماني سيبتموس سيفروس في حمص تعرّف على جوليا دومنا فأعجب بها وتزوجها (١٧٥م). وعندما اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية في العام ١٩٣م اهتم كثيراً بسورية بفضل تأثير زوجته. وفي عهده شهدت سورية مظاهر العمران المختلفة كتعبيد طريق حمص – مصياف – الغاب الذي يمر ببلدة الرفنية (بعرين حالياً) التي تحولت إلى إمارة رومانية شرعت تصك النقود باسمها. ثم ما لبث الرفنية أن أصبحت مركزاً لأحد فيالق الجيش الروماني الثاني عشر. واستمرت على هذا النحو حتى القرن الثالث بعد الميلاد.

وخلال وجودها في روما استعانت جوليا دومنا بعدد كبير من المثقفين السوريين أمثال: المؤرخ «وفيلو شرات»، السفسطائي، وديوجين رجل السياسة البارع وكبير القضاة نظراً لإلمامه الواسع في أمور التشريع المدني. ومن المعلوم أن سيبتموس سيفر هو الذي أسس مدرسة الحقوق في بيروت في العام ١٨٠م.

أنجبت جوليا دومنا من الإمبراطور سيبتموس سيفروس ولدين هما: باسيان وجيتا. فقد أصبح باسيان إمبراطوراً لروما تحت اسم كاراكالا عام ٢١١. ويعتبر كاراكالا من أبرز الأباطرة الرومان الذين تركوا آثاراً اجتماعية هامة، فقد أصدر قانون كاراكالا الشهير الذي منح الهوية الرومانية لكل سكان الإمبراطورية الرومانية، بعد أن كانوا عبيداً، والذي جعل بموجبه سكان روما متساويين فيما بينهم ويخضعون لقانون واحد ضمن حدود الحرية والحقوق الأساسية التي منحت لهم.

وقد لقب بكاراكالا لأنه كان يرتدي الكاراكال، وهو عبارة عن عباءة سورية شعبية كانت معروفة في ذلك العصر. وهذا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

القانون الذي تعتز به روما اليوم كان قد وضعه فقيهان من فقهاء سورية وهما: «ألبيان» من مدينة صور، «وبابنيان» من مدينة حمص، وهما من أتباع الفلسفة الرواقية التي أسسها الفيلسوف الفينيقي الأصل «زينون» الذي ولد في جزيرة «قبرص» في عام ٢٦٤ (ق.م)، وهي فلسفة تقول بأن كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلي، ويقبل مفاعيل القدر طوعاً.

بعد موت كاراكالا الذي قتل في حران بشمال سورية وهو في ريعان شبابه تسلّم الحكم ابنه إيلاغبال الذي نقل الحجر الأسود الذي يرمز إلى معبد الشمس من حمص إلى روما حيث بني له معبدان. ثم فرض بالتالي عبادة الشمس على جميع روما وفقاً للطريقة السورية في هذه العبادة. ويتفق بعض المؤرخين الأوروبيين على أن الله الحمصي هذا هو الذي مهد الطريق للإله القادم من الشرق والذي حملته المسيحية معها، وهو الإله خالق السماء والأرض الذي نعبده اليوم.

نستخلص على ضوء ما ذكرنا أن التأثير الثقافي السوري العقائدي في العهد الروماني قد برز بشكل لافت للنظر حتى قال الشاعر الروماني جوفينال: «إن نهر «أورانتوس» (العاصي) أصبح يصب في نهر التيبر (بروما) منذ زمن بعيد حاملاً معه لغة سورية ومعتقدات وتقاليد وثقافة سورية».

٤) المساهمة السورية في نشر الديانات السماوية إلى الغرب:

أ- نشر الديانة المسيحية:

بعد الانتهاء من العهد الروماني جاء العهد المسيحي حيث لعبت سورية دوراً أساسياً وحاسماً على صعيد الدعوة المسيحية التي نبتت في الجنوب من سورية المسمى فلسطين في بيئة يهودية حاولت خنقها وهي في مهدها من خلال التخلص من حاملها السيد المسيح. وهكذا ساهمت سورية في نشر هذا الدين الجديد. وكان الشعب السوري هو أول من آمن بالمسيحية وعمل على التبشير بها في أوروبة. وتلامذة المسيح الاثني عشر كانوا بأغلبيتهم -ما عدا يهوذا الإسخريوطي الذي قام بتسليم المسيح إلى اليهود لقاء مبلغ ٣٠٠دينار فضة للتنكيل به- من سوريي سكان الجليل. وقد فرضت على سكانه الديانة اليهودية رغماً عنهم وذلك في أيام حكم الملك اليهودي المكابي أرستوبولس في العام ١٠٥قبل الميلاد. وهذا الأخير قام باحتلال الجليل وخيّر سكانه بين التهجير والختان رمزاً لليهودية، فتهودوا مرغمين».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونذكر من بين هـؤلاء التلاميذ بطرس الـذي ولد في قرية «بيت سعيد» الواقعة في سهل البطيحة، والذي يُعـد أول بابا يتسلم مقاليـد إدارة الشـؤون الكنسيـة للمذهب الجديـد هو من أصـول سوريـة. وعندما انتشر الدين الجديد في سورية كلف المجمع اليهودي المنعقد في القدس عام ٥٤م القائد العسكـري شـاؤول بالذهـاب إلى دمشـق والقضاء على أتباع المذهب الجديد. وفي طريقـه إلى دمشـق مرّ في سهـل «كوكب» بالقـرب من دمشق حيث شـعّ عليه نور من السماء وطلب منـه الهداية والتقوى ووقف اضطهاد المسيحيـين، فعاد إلى القدس بعد أن اهتدى إلى الدين الجديد في دمشق على يد القديسـ حنانيا الذي ما يـزال مقامه مزاراً يقصده الزوار. وصار اسمه «بولس». ومـن هناك انطلـق إلى أنطاكيـة مستعيناً برفيق دربه برنابا الـذي جاء لمساعدته في تحويل الوثنيـين إلى الديانة الجديدة. وقد لقب بولس «برسـول الأمم»، وله ١٤ رسالة موجهـة إلى الكنائس المختلفة. وفي إنطاكية التقى بولس بأحد تلامذة المسيح وهو بطرس الـذي خرج أيضاً من فلسطين ليكرز ويبشر بالديـن الجديد. وهناك التقيـا وسارا معاً حيـث اندفع كل منهمـا متفانياً في التبشير بين مدن آسيا الصغـرى واليونان. وعندما وصـلا إلى روما وبشرّا فيها وصل الخبر إلى الإمبراطور نيرون الذي ألقى القبض عليهما وقام بإعدامهما.

ومن المعروف أيضاً أن لوقا الإنجيلي كان من أنطاكية، وبولس من مواليد بلدة طرسوس في الأناضول. كمـا أن القديس سمعان بشّر بالمسيحية في منبج وحلب، وتوما في الجزيرة السورية وفي مدينتي بيروت وأرواد.

ويذكـر التاريخ أنه عندمـا قامت روما الوثنية في عهـد نيرون باضطهاد أتباع هذا المذهب الجديد في العام ٦٥م، ذاق المسيحيون الأوائل الأمرّين إلى أن اعتلى في العام ٢٤٤ العرش الإمبراطور الروماني من أصل سوري وهو «فيليـب العربي» الذي وُلـد في شهبا بحوران، وهذا عطف علـى المسيحيين لأن معظمهم كان مـن السوريين. ونظراً لهويته كسوري لم ينفـذ بحقهم القوانـين السارية المفعول بل ساعدهـم في دعوتهم تلك، مما جعلهم يقدمون على الجهر بإيمانهم في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية ويقومون ببناء الكنائس الضخمة ككنيسـة دورا أوروبوس (الصالحية) الواقعة على نهر الفرات، والتي تُعتـبر أول كنيسة يتم بناؤها في العام ٢٥٦م فوق الأرض السورية». واستمر الوضع على هذا النحو إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين (٢٨٠ – ٣٣٧) ابـن الإمبراطورة هيلانة في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

روما، الذي أطلق الحرية للدين المسيحي في العام ٣١٣ وأسس مدينة القسطنطينية التي حملت اسمه كعاصمة جديدة له بدلاً من روما .

وعلينا ألا ننسى الدور الذي لعبته «تدمر» من أجل ازدهار هذا الدين الجديد، فقد ترك لنا تاريخ الكنيسة أسماء أساقفة تدمريين حضروا المجامع الدينية مثل: مجمع نيقيا عام ٣٢٥م الذي حضره الأسقف مارينوس، والذي أقرّ قانون الإيمان المسيحي مع نصّه الشهير الذي يقول: (نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء والأرض..إلخ)، بحضور الملك قسطنطين، ثم مجمع خلقدونيه الذي حضره الأسقف التدمري يوحنا الثاني عام ٤٥١ الذي نادى بالطبيعتين في المسيح: إله وإنسان معاً كما أن تدمر تركت تأثيرات كبيرة ذات طابع ثقافي وديني خلال القرن الثالث الميلادي بزعامة الملكة زنوبيا في الحضارة العالمية، هذه الملكة التي كانت تقرأ أفلاطون وتستشير أسقف أنطاكية بولس السميساطي لتتعرف على مبادئ الدعوة المسيحية الجديدة.وعلى ضوء ذلك يقول الفيلسوف الفرنسي الشهير أرنيست رينان: «لقد عرف التاريخ ملكات جميلات كان لهن دور كبير في الحياة العامة للبشر أمثال: نيفرتيتي – سمير أميس وزنوبيا، هذه الأخيرة التي كانت تقرأ أفلاطون وتستشير أسقف إنطاكية بولس السمساطي لتتعرف على مبادئ الدعوة المسيحية الجديدة. لقد كانت تنوي إقامة دين جديد متأثر بالأفكار والعقائد الروحية السائدة في ذلك الوقت لكنها لم تتمكن من ذلك، ولو قُدّر لها أن تنشئ مثل هذا الدين لكانت أراحت أوروبة من هول الحروب الصليبية التي كلفت أوروبة ٤ ملايين قتيل طيلة قرنين».

والجدير بالذكر إن الحضارة التدمرية لم تتوقف مع سقوط تدمر على يد الرومان بل ظلت مستمرة في هذه المدينة حتى خلال انتشار المسيحية، مثلما يشهد على ذلك عالم الآثار البولوني ماير كيرك رئيس البعثة الأثرية البولونية في تدمر حين قال في حديث له إلى جريدة «الثورة» السورية بأن بعثته عثرت بين أنقاض تدمر على كنيسة ذات هندسة معمارية رفيعة الطراز تعود إلى القرن الثامن الميلادي، بدليل أن تدمر لعبت دوراً هاماً من أجل ازدهار هذه الديانة المسيحية حتى ظهور العصر الأموي، وهذا ما يؤكد التسامح الديني الرائع الذي كان سائداً في ذلك العصر.

ويذكر التاريخ الكنسي بأن هناك ٦ باباوات اعتلوا الكرسي الرسولي في حاضرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفاتيكان بروما وهم من أصول سورية: البابا أنيقيتس (١٥٥ - ١٦٦م)، يوحنا الخامس (٦٨٥- ٦٨٦)، سركيس الأول (٦٨٦- ٧٠١)، سيونيوس (٧٠١- ٧٠٨)، قسطنطين (٧٠٨- ٧١٥) وأخيراً غريغوار الثالث (٧١٣- ٧٤١).

كما ويذكر المؤرخ «جواد بولس»: «إن أسقف باريس عام ٥٩١ في عهد الملك كلوفيس الثاني ينحدر من أصل فينيقي سوري. وفي حفلة استقبال دعا إليها الملك ألقى هذا الأسقف خطاباً باللغة السريانية المنحدرة من اللغة الآرامية التي كان يتكلم بها السيد المسيح».

ويُحكى أن الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات عندما قابل البابا الراحل يوحنا بولس الثاني للمرة الأولى في العام ١٩٨٢ قال له عرفات بالحرف الواحد: «إني ثاني فلسطيني يأتي روما ويدخل حاضرة الفاتيكان»، ولما طلب البابا معرفة من هو الفلسطيني الأول أجاب عرفات: «إنه القديس بطرس الذي يعد أول بابا من أصل سوري في تاريخ الكنيسة المسيحية». اندهش البابا كثيراً لهذا القول الذي أطرب مسامعه كثيراً.

ب- المساهمة السورية في نشر الديانة الإسلامية إلى البشرية جمعاء:

في كتاب: «التاريخ الجيوسياسي سورية الطبيعية» من تأليف العماد أول مصطفى طلاس نقرأ بأنه عندما انطلقت الدعوة الإسلامية من شبه الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد لاقت في بلاد الشام صدى واسعاً وقبولاً من قبل الجميع. وهكذا افتتحت حقبة تاريخية مازالت دائمة حتى أيامنا الحاضرة وذلك مع تشكل إمبراطورية عربية إسلامية مركزها سورية التي ساهمت كثيراً في نشر الدين الجديد وما يحمله من رسالة حضارية إلى البشرية جمعاء. ففي أقل من قرن ارتقت هذه الإمبراطورية إلى مستوى الدولة المهيمنة بعد أن تحددت معالمها في اجتماع (الجابية) الذي ترأسه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب في مدينة الجابية السورية الواقعة في الجولان على بعد عدة فراسخ من مدينة دمشق، والتي كانت تستخدم كمقر رئيسي لأمراء القبائل المسيحية الغسانية الذين عملوا سابقاً في خدمة بيزنطة، ثم انضموا إلى الفاتحين العرب المسلمين. وفي هذا المكان نزل الخليفة عمر حيث ألقى خطاباً دعا فيه إلى مواصلة الجهاد وتوسع الفتوحات العسكرية الإسلامية شرقاً وغرباً.وهكذا أصبحت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سوريـة مركزاً لإمبراطوريـة جديدة تتوطد علـى أنقاضـ الإمبراطوريتـين القديمتين الضخمتين «البيزنطيـة والفارسية»، وبدت ذات أبعـاد قارية وحتى عالمية بفضل توسع الفتوحـات الإسلامية التـي بدأها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان.

وقـد استطاع المـؤرخ الفرنسي «ميشيل لومبـار» في كتابـه بعنـوان: «الإسـلام في عظمتـه الأولى» أن يصف الخلافة الأموية بأنهـا خلافـة كونية بسبب اتسـاع ووحدة العالم القـديم الذي فتحته وحكمته السلالة العربية الحاكمة في سورية. وكانت الحصيلة الإجمالية لهذا التوسع العربي - الإسلامي إيجابية في كل الاتجاهات وحتى فريدة من نوعها، ويرى أن الوجود العربي - الإسلامي كان موضـع ترحـاب في أوروبة منذ وصول المسلمين إليها في القرن الثامن الميلادي. ولم يتحرك المسيحيون ضـد المسلمين في روما وإسبانيا بسبب العقيـدة المسيحية القائمة علـى التسامح، وقد تم فتح هـذه الأقاليم تدريجياً ومـن دون أي مقاومـة تُذكر لولا مـا حصل في عام ٧٣٢ حـين وقعت معركة «بواتييه» الحاسمة في فرنسا حيث انتصرت فيها جيوش الإفـرنج بقيادة «شارل مارتل» على القـوات العربية التي كان يقودها عبد الرحمـن الغافقي. وعلى أثـر ذلك انكفأت القوات العربية بالتوغل شمالاً وعادت على أعقابها إلى الجنـوب الأوروبي لتقيم قرابة سبعة قرون في شبه الجزيرة الإيبيرية حيث أرست قواعد حضارة إنسانية مزدهرة طالت ميادين الحياة كافة بفضل هؤلاء القادمين العرب الجدد».

ففي العصر العباسي تم تبادل للعلاقات الدبلوماسية بين العـرب والفرنجة، والكل يذكـر الساعة التي أرسلهـا هارون الرشيد إلى شارلمان في مطلع القرن التاسع الميلادي. وقـد توجت هـذه العلاقات لاحقـاً بإبرام معاهدة تتيح للفرنجة أن يأتوا إلى الحج في فلسطـين وأن يشيدوا سوقـاً خاصاً بهم في مدينة القدس يبيعون فيـه منتوجاتهم وما يحملونه من متاع خلال فترة الحج. واستمر الوضع على ما هو عليه دون أن يتعكر الجو أو يقوم أحد بتعكيره حتى حلول عام ١٠٣٧ حيث ظهر السلاجقة على الساحة فاحتلوا آسيا الصغرى التي سُميت فيما بعد تركيا. وهم في الأصل مغول تتار، موطنهم الأصلي منغوليا، هجموا على الشرق الأوسط وكانت أول أسرهـم السلاجقة (نسبـةً إلى سلجوق زعيم عشائر الغزو التركمانية) التي حكمت إيران والعـراق وسوريـة (١٠٣٧-١٣٠٠). وكانـوا عنيفـين في غزواتهـم واعتنقـوا الإسلام شكلاً لكنهم لم يتعلموا اللغة العربية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم يتخلقوا بأخلاق الإسلام. توسعوا على حساب الدولتين الفاطمية والبيزنطية. ففي العام ١٠٧١ هزموا البيزنطيين في معركة (ملاذ كرد) وأسروا الإمبراطور الروماني جرمانوس، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ثم قاموا بمنع الحجاج الإفرنج من زيارة الأماكن المقدسة. وواكب ذلك انتشار إشاعة قوية بأن الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة أمر بالبحث عن قبر المسيح، حسبما كان يعتقده المسيحيون بأنه تحت كنيسة القيامة الموجودة حالياً بالقدس. وفي هذه الأثناء بدأ ظهور (الفايكنغ) في إسكندينافيا، فغزا هؤلاء انكلترا وفرنسا وألمانيا في القرن الثامن الميلادي وحتى القرن العاشر، وسمي عصرهم بعصر الفايكنغ. والفايكنغ: هم قراصنة وقطاع طرق، عاشوا حياتهم في الترحال وتاجروا بالعبيد والنساء. تجولوا منذ القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر على سواحل القارات الأربع يرتدون جلود الحيوانات ويتزينون بقرونها. كانوا يمارسون القرصنة البربرية على سفنهم الطويلة النحيلة. وقد تزاوج هذا الشعب مع الإفرنج ومع الروس وحتى مع العرب حين قدموا إلى بغداد وذلك بغية اتقاء شرهم. سموهم العرب «بالمجوس الهمج» ومنهم: إيريك بلطة الدم، إيغور الخالي من العظم، جيرموند جلد الجحيم. حاولوا ذبح الرهبان في الأديرة للحصول على الذهب، حاصروا باريس فدفع لهم شارلمان (١٢) ألف أوقية ذهب لكي يتركوها. لقد كانوا من بناة السفن ووثنيين اعتنقوا المسيحية فيما بعد. ومن هؤلاء فرقة الفرسان المسيحية (الاسبيتارية) التي قامت بالجهد الأكبر في إثارة الحروب الصليبية، وفي دَفْع البابا إلى غزو منطقة الشرق بحجة تأمين الحماية لقبر المسيح. ثم تحول اسمهم إلى «فرسان المعبد».

وقد حدث ذلك في العام ١٠٩٥ حين ألقى هذا البابا في مجمع (كليرمان فيران) بفرنسا موعظة حثّ فيها أبناء دينه على العمل على إنقاذ قبر المسيح واعداً إياهم بأن رحلتهم إلى الشرق ستكون بمثابة كفارة عن ذنوبهم. ثم وزع عليهم صلباناً، ونسبةً لهذه الصلبان سُمّوا بالصليبيين الذين قاموا بتسع حملات إلى كل من سورية ومصر (١٠٩٥ - ١٢٧٤م). وإذا كان الصليبيون قد جاؤوا إلى الشرق لغرض ديني فإن هذه المسألة لم تكن سوى مسألة سنوية بالنسبة لهم.ففي حملتهم الأولى التي بدأت في عام ١٠٩٥ أي بعد انفصال الكنيسة الشرقية عن الغربية بأربعين عاماً جهزت هذه الحملة بهدف إخضاع أتباع الكنيسة الشرقية البيزنطية المنشقة إلى سلطة روما.وقد وقع أول صدام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع هؤلاء الأتباع الذين رفضوا الدخول في هذه الحملات باعتبارهم كانوا هدفاً أسمى لها وعندما دخل بطرس الناسك بلغاريا ١٠٩٦ حارب هؤلاء المنشقين أتباع الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية لأن الأرثوذكسية بنظره هي «الجنس اللعين الذي أفسد الديانة المسيحية». وقد قتل الصليبيون أثناء حملاتهم من المسيحيين الأرثوذوكس واليهود أكثر مما قتلوا من المسلمين. وعندما احتل الصليبيون دمياط بمصر في الحملة السابعة عرض عليهم العادل أخ صلاح الدين الأيوبي الذي كان ملكاً على مصر وسورية إعادة القدس وسائر فلسطين مقابل أن يتخلوا عن دمياط بمصر ويرحلوا عنها نهائياً. لكن الإفرنج رفضوا هذا الطلب، مما يوحي بأن القدس لم تكن سوى قضية جانبية بالنسبة لهم وليست هدفاً بحد ذاته. وهكذا فالحملات الصليبية لم تك في الحقيقة لحماية الأماكن المقدسة بل لنهب ثروات بلاد المشرق والتنعم بها. وبانتهاء الحروب الصليبية وسقوط عكا في أيدي المسلمين عام ١٢٩١ تحولت البقية من فرسان الصليبيين إلى النشاط التجاري، فأصبحوا صيارفة وصاغة أوروبة. صحيح أن الحروب الصليبية التي استمرت قرابة مئتي عام قد أحدثت شرخاً كبيراً في علاقات حسن الجوار بين الشرق والغرب إلا أنها لم تتمكن على الرغم من ذلك من إلغاء عملية التفاعل الحضاري والفكري التي كانت سائدة بينهما .وبحسب رأي المؤرخ الألماني أرنولد فون لوبيك: «ظهرت لأول مرة في سجلات الصليبيين فرقة إسلامية في المشرق تتزعمها شخصية تدعى «شيخ الجبل» الذي كان أرسل أتباعه للفتك بالزعماء الإفرنج كما حصل مع أمير صور الإفرنجي «كونراد دومونتينغرات» الذي قتله سنان راشد الدين شيخ جبل مصياف. وبما أنهم اعتمدوا على الباطنية فقد كان لهم أثر في ظهور الماسونية وفرسان المعبد والرهبنة اليسوعية في أوروبة».

٥) المعارف والعلوم والفنون:

لما كان الشعب الفينيقي يهوى الترحال وركوب البحار فقد انطلق نحو الغرب بحثاً عن أسراره، وأرسى سفنه على شواطئه وامتزج بغيره من الشعوب الأخرى وترك عندها ثقافته وعلومه التي كان لها الأثر البالغ في مجرى حياتها. إن الفينيقيين كانوا يبحرون من صور ومن قرطاجة وصولاً إلى أمريكا، فقد عثر في البرازيل (برزاي إيل: أرض الله) على مصباح بلوري يختزن ضوء الشمس ويجعلها تتألق أثناء الليل، وهذا ما كشفه العالم الفرنسي كلود شيفر في العام ١٩٢٩ في أنقاض أوغاريت بالساحل السوري

بحسب ما ورد في كتاب: «الفينيقيون وأمريكا» لمؤلفه يوسف مروة. وتؤكد صحة ذلك الباحثة الألمانية «هانيك سودوف» في كتابها بعنوان: «اكتشاف أمريكا في العصور القديمة» مايلي: «إن البحارة الفينيقيين القدامى كانوا أول من عبر المحيط الأطلسي واكتشف أمريكا، والسبب يعود لوجود تشابه قوي بين حضارة البحر المتوسط وحضارة الأزتيك والمايا في الأمريكيتين من حيث الرياضيات والفلك والطقوس الإلهية والعمارة والتعدين والزراعة.. فالفينيقيون لم يتصلوا بشعب الأزتيك فحسب بل أثروا في حضارتهم البسيطة من خلال إضافات الحضارة الفينيقية المتطورة. ولقد تأثر شعب الأزتيك بالقادمين الجدد إلى حد تبنّي فنونهم وطقوسهم وآلهتهم ومنها مثلاً: الله «بيس» القزم الذي كان يزين مقدمة السفن الفينيقية والذي كان له توءم أمريكي ذو ساقين قصيرتين وشعر كثيف، ولحية كبيرة، وكان يضع جلد حيوان على كتفه. ومن المعلوم أن اللحية لم تكن معروفة بعد في الأمريكيتين قبل عصر كولومبس، فلا بد وأن يكون القزم قد عبر المحيط الأطلسي مع أتباعه الفينيقيين. كذلك وجد في القارة الأميركية نقوشاً تتحدث عن قرطاجة والفينيقيين تثبت وصولهم إلى أمريكا قبل كولومبس بقرون طويلة، ولا بد أنهم حملوا معهم إضافةً إلى الأبجدية الكثير من العبادات الدينية والصناعات والملاحة البحرية. أوليس المهندس الزراعي «ماغون» هو أول مهندس زراعي فينيقي عاش في قرطاجة وكتب معاهدة في الزراعة تتضمن ٢٨ كتاباً يعالج كل منها جميع أشكال الزراعة، وفيها يشرح كيف يجب أن تتم زراعة الكرمة والزيتون ومدّها بالسماد العضوي، وكيف يجب أن نقيم مسافة بين الزيتونة والأخرى، وقد سماه اللاتين «أبا الزراعة». ومن المعلوم أن الفينيقيين هم أول من أدخلوا الزيتون والتين والرمان إلى الغرب الأوروبي مروراً بشمال أفريقيا وقرطاجة».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما ويجمع المؤرخون على أن نمو أوروبة ونهضتها يعودان إلى عامل الاحتكاك بالشرق منذ الوجود العربي الإسلامي في أوروبة ونهاية الحروب الصليبية. هذا الاحتكاك الذي أفادها بنقل الكثير من المعلومات والتقانات التي كانت سائدة فيه. ففي ذلك الحين كان الأوروبيون يحرقون القطط والكلاب في الميادين العامة باعتبارها شياطين حلت في أجسادهم، في الوقت الذي كان العرب يشيدون البيمارستانات ويبيحون تشريح الجثث الآدمية، فيما كانت تحرمه أوروبة. إن عصر النهضة الحقيقية

في أوروبة، كما يقول الفيلسوف الفرنسي «روجيه غارودي »، لم يبدأ في إيطاليا في القرن السادس عشر، ولكنه بدأ في إسبانيا مع العرب في القرن الثالث عشر، وأن البعث والتجديد في إسبانيا لم يأتِ من الشمال على يد الحشود البربرية وإنما جاء من الجنوب مع العرب. ومع العرب، دخلت ثقافة شابة قوية. وفي خلال سنتين استحوذ العرب على ما احتاجت إليه أوروبة سبعة قرون لاستعادته.

في كتابه بعنوان «الحياة المشرقة» يجري الكاتب الفرنسي أناتول فرانس حواراً بين السيد «ديبوا» وزوجته حيث يسأل ديبوا الزوجة عن أي يوم شؤوم في تاريخ البشرية؟ فتقول له زوجته إنها لا تدري. وهنا يجيب الزوج: «إنه يوم معركة بواتييه التي وقعت في العام ٧٣٢م ضد العرب، حيث تراجع العلم والفن والحضارة العربية إلى البربرية الفرنجية». ويتقصى الأكاديمي الأمريكي «واشنطن إيرفينغ»، المولود في نيويورك عام ١٧٨٣ في كتابه «الحمراء» أثر الحضارة العربية على الأندلس ويقول: «وهم كفاتحين أي (العرب) كانوا في أوج عظمتهم الحضارية نوراً شرقياً اهتدت به ظلمات أوروبة. وكانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي. فجامعات طليطلة وغرناطة وقرطبة وإشبيليا كانت مقصد الطلاب من الغرب الذين أرادوا استخراج رغادة العيش بالعلم من ذاك الكنز الذهبي العتيق. ومنه انبعثت الموسيقى والشعر، فتعرف محاربو الشمال كيفية الاستعمال الأمثل لزخم واندفاع الفروسية. وانبثق الأرابيسك السوري الذي جعل العمارة والنحت العربي يشكل فناً قائماً. إضافةً إلى السيراميك الذي أُدخل إلى إسبانيا مع بداية الفتح الإسلامي، والذي لا يزال يستخدم في البيوت الإسبانية الراقية.

هذا وكان الفيلسوف الفرنسي «رابليه» الذي عاش في القرن الخامس عشر يوصي ابنه بأن يتعلم اللغة العربية حتى يصبح عالماً أو طبيباً».

الباحث الفرنسي «آلان دوليبرا» صاحب الكتاب الشهير الذي يعترف بإسهام العرب في الحضارة الإنسانية في كتابه: «الإرث الحسي للعرب»، كان يؤكد في كل مناسبة «أن الغرب أخذ الكثير عن الشرق. لكن هذا الإبداع الفكري عند العرب توقف عندما قالوا بتكفير المعتزلة وأحرقوا كتبهم ولاحقوهم».

المفكر والشاعر الألماني «غوته» اعترف بأن الحضارة العربية ألهمته كل إنتاجه الأدبي وأشعاره التي هزت أوروبة. وقد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتب شعراً يتضمن تذكيراً ببعض الآيات القرآنية.

وقبل «ديكارت» فيلسوف العقل الفرنسي في القرن السابع عشر الذي كان صاحب مقولة: «أنا أفكر إذاً أنا موجود» كان «ابن رشد» في القرن الثامن الميلادي هو الذي تحدث عن خضوع كل شيء إلى العقل ما عدا العقائد التي يكتشفها الإيمان الديني. ولعل هذا الفيلسوف العربي الذي عاش في الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي زرع النزعة العقلانية في أذهان الغربيين والتي كانت من المفاتيح الكبرى التي فتحت عقول الأوروبيين نحو فَهْم أسرار الكون.

أما المؤرخ الفرنسي «سان برنار» فيذكر بأن جامعة مونبيليه الفرنسية كانت تدرّس الطب بفضل الأطباء العرب القادمين من إسبانيا الذين كانوا يعملون أساتذة فيها.

ويعترف الكاتب الألماني فالتر براونة بأن الفكر العربي كان رائداً في كل المجالات الفكرية والفلسفية، وما معلقة عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي سوى أول صرخة وجودية عرفتها البشرية قبل أن يعرفها الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر بعدة قرون حيث قال:

أرض توارثها شعوب وكل
من حلَّ فوقها محروب
إما قتيلاً وإما هالكاً
والشيب شين لمن يشيب

هذه الصرخة الوجودية كما نراها تتمثل في تهديم الطبيعة للإنسان ولكل ما أقامه فوقها من بناء وعمران، وتشهد على قلق الإنسان في علاقاته مع الوجود».

وها هو شاعر إيطاليا العظيم بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) يقول: «ماذا، أبعد ديموستين يستطيع شيشرون أن يكون خطيباً؟

وبعد هوميروس يستطيع فيرجيل أن يكون شاعراً؟

وبعد العرب لا يستطيع أحد أن يكتب!!».

وفي العام ١٨٣٨، كتب شاعر روسيا العظيم ألكسندر بوشكين يقول :«لا يسعنا إلا أن نشير إلى أن العرب هم الذين عرّفوا أوروبة بالورق. فهذا الاختراع الصيني الذي ظهر في سمرقند للمرة الأولى في القرن الثامن انتقل إلى بغداد واستمر في مسار طويل عبر مصر وأفريقيا الشمالية إلى أسبانيا. فكان أول من أسس معامل الورق في أوروبة هم العرب وذلك في مدينتي شاطبة وطليطلة. ومن هنا انتشرت صناعته في العالم الغربي رويداً رويداً».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والجدير بالذكر أن أكثر المؤرخين الذين أشادوا بالحضارة العربية هو المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» الذي عاش في منتصف القرن العشرين، والذي قال: «إن المدنية السورية هي من أقدم المدنيات التي وصلتنا منها وثائق، وأن المجتمع السوري هو في الحقيقة الأب الحضاري لهذه البقعة الشاسعة».

وها هي الباحثة في علم الآثار أغاتا كريستي تحوّل الأحاسيس إلى تجربة سحرية عند حديثها عن الفرات فتقول: «هنا كانت بداية الحضارة الإنسانية». ويكتب الفرنسي إيريك غوفروا في كتابه «أرض الأنبياء» «أن عبق مدينة دمشق ينداح عبر بواباتها ليصل إلى آخر بقعة من العالم فواحاً وخالداً». أما الرحالة الإنكليزي بورتر فيقول: «كان في بقعة العالم منذ عدة قرون مدينة لها الجمال العمراني المتميز ويعتقد أن أحد أباطرة روما هو ماركوس الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد قد دفن في حلبون بالقرب من دمشق التي ورد ذكرها في سفر التكوين بالتوراة».

وفي موازاة ذلك لم يقتصر الإرث الحضاري للشرق على الغرب في تأثيراتها على الغرب الأوروبي فحسب بل امتد ليطال الشرق الآسيوي وها هو الزعيم الهندي غاندي يقول: «إن الفضل فيما اكتسبته مدن الهند ودلهي خاصة من جمال في الزخرفة إنما يعود ذلك لما بلغته الصناعة الإسلامية من إتقان. لقد زرت مدناً شرقية كثيرة طوال أربعين عاماً وإذ بأصالة دمشق المتميزة تثبت أمام عيني. ففي دمشق نما خيال الحرفيين المبدعين وتنوّع بأكثر ما يمكن من التلون والدقة».

الخلاصة:

إن خير ما يمكن لنا أن نقدمه كخلاصة لهذه الدراسة هو ما أكده الفيلسوف الفرنسي المعاصر روجيه غارودي حين قال: «ومن هذا الشرق أتت جميع الأفكار وجميع العادات وجميع الاكتشافات وجميع العلوم وجميع الفنون وجميع الصناعات وجميع الاختراعات، فانفجرت اختراعات واكتشافات جديدة هي الطاقة الخلاقة المبدعة الآتية من الشرق.

أما الفلاسفة الإغريق الذين كادوا أن يندثروا، فقد بعثوا من جديد على يد العرب في فتوحاتهم، فاسترجع أرسطو فلكه في جامعة قرطبة الشهيرة. لقد كادت الحضارة اليونانية أن تندثر فأحياها العرب في أسبانيا حيث سيطر أرسطو على جامعة قرطبة. وكم هناك من الباباوات الذين لبسوا ثياباً مطبوعة باللغة العربية». وبدوره

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يؤكد رئيس الأكاديميـة الروسية أوخاروف في عام ١٨١٤ حـين ألقى كلمة أثناء افتتاح قسم اللغـة العربية في المعهد التربوي الأول بمدينة بطرسبورغ بروسيـا القيصرية جاء فيها: «من الشرق نبعت الديانات وكل العلوم وكل الفلسفـات. فالشرق وحده أعطى هذه الهبـة الرائعة للعـالم بأسـره. فهناك نجد المصـدر الأصيل لتنوير العـالم. ومن منا لا تحرقه الرغبـة في الاقتراب من هذه الثروة التي لا تنضب في إذكاء العقل البشري؟».

حتمـاً أن لهـذا الكلام الـذي سبق أن أشرنا إليـه مدلولاته الخاصـة، ومن شأنه أن يفتح الذاكرة علـى التاريخ لنعيد تقويم الحاضر علـى أنوار الماضـي عندما كانت سوريـة الطبيعية تقوم بدور مهم في البنيان الحضاري للجنس البشـري. ولعل الذين يهتمـون بتاريخ الحضارات العالمية يلمسون صحـة هذه الإدعاءات: ففـي العام ١٩٥٤، نشرت مجلـة أمريكية استطلاعـاً عن أهم عشـرة أشخاص أفـادوا الإنسانية جمعاء فجاء في المرتبة الأولى ذاك الرجل المجهول مـن أصل فينيقـي الذي اختـرع الأبجدية الأولى التي تعرف اليـوم بأبجدية أوغاريت التي اكتشفها العالم الفرنسي شيفر في الثلث الأول مـن القـرن العشرين في هـذا المكان الأثري الـذي يؤمه السيـاح كل عام. وفي المرتبة السادسـة ذاك الذي اخترع الزجاج وكان سوريـاً مـن تدمر. ومن هـذه المدينة انتقلت صناعة الزجاج إلى أوروبة.

ويقـول المؤرخون الهنغاريـون إن لديهم مستوطنـة تدمرية مؤكديـن على أن هؤلاء السوريـين القادمـين مـن هـذه المدينـة الصحراوية هم الذيـن علمونا كيف نصنع الزجـاج». وفي المرتبـة السابعـة المهندس المعمـاري «أبولودور الدمشقـي» الذي كان مـن أشهر معماريي زمانـه وكان له الفضل في هندسـة البناء في روما وفي بناء الساحة الرئيسية «فوروم» في قلب روما.

وفي عهد الاستعمار الغربي على الشرق برزت أهمية هذه المنطقة حين جاء المستعمر الغربـي المنتصر في الحـرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) إليها، ليجسد كلام القائد الروسـي بسمارك مؤسـس وحدة الأراضي الألمانيـة حين قـال: «إن سوريـة هي بوابة العالم، ومن يسيطر على هذه البوابة يسيطر على العالم». لقد جاء المستعمر إليها طمعاً في نهب ثرواتها ومصادرها الطبيعية ومواردها الخام، كالمعـادن والنفط، هذا الأخير الذي يعـد عصب الحيـاة الصناعيـة في الغرب ويمسـك بمفاتيـح مصائر الغـرب لكونه المصدر الرئيسي لتأمين الطاقة اللازمة في تشغيل الآلات الصناعية، فكان قدومه نوعاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مـن الثأر والانتقام بدلاً مـن أن يكون نوعاً من الامتنان والعرفـان لما تركه هذا الشرق من إرث حضاري بنى عليه الغرب كل علومه وفنونه التـي يتباهى بها اليوم. والغريب في الأمـر هو أنه عندما قـدم الجنرال اللينبي قائـد الاحتـلال الإنكليـزي لفلسطين في عـام١٩١٨ قال بعد أن دخـل بقواته مدينة القدس: «الآن انتهت الحروب الصليبية». ثم جاء بعده قائد الاحتلال الفرنسي في سورية وهو الجـنرال غورو ليقـول في عام ١٩٢٠ أمام ضريح صلاح الديـن الأيوبي بدمشق: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»، معترفاً في إحـدى مذكراتـه «بوجـود العلاقة بين دمشق والتاريخ».

ومع أفـول عهد الاستعمار الغربي غداة الحرب العالمية الثانية عن سورية الطبيعية بفضـل نضـال شعوبها من أجـل استعادة حريتهـم واستقلالهم لم يحـلُ للمستعمرين الجلاء عنها نهائياً، فعمـدوا إلى زرع كيان غريب عنها متمثل بإسرائيل التي استطاعت نتيجة مـا يأتيها من دعم مـادي لا حدّ له احتلال جزء كبير مـن أراضي هذه المنطقة واستيطانهـا. والهدف من ذلـك الحيلولة دون مواصلتهـا نشر رسالتها الحضارية من خلال تفكيكها وتجزئتهـا، وبالتالي إنهاكها في مسألة الدفاع عن وجودها وعن استعادة أراضيها المحتلة، وهو أمرٌ من شأنه استنزاف كل قواهـا البشرية والمادية التي تميزت بها عبر العصور.

إذن، ما زال لهـذا الغرب امتداد حاقد تقوده إسرائيل ومن ورائها الصهيونية لتمزيق أوصال هذا الشرق الذي كان لا يزال البوابة نحو الطريق المؤدي إلى صورة الإنسان المبدع الخلاق الذي يرسـم معالم الحضارة ويؤمن بقيمها المؤسسة للنهضة الإنسانية.

وحقيقـة الأمـر أن هـذه البوابة التي تحدث عنها بسمارك ما زالت تدفع من حين لآخر بعلماء حافظـوا على تراث أجدادهم فحصلوا على أعلى المراتب العلمية وقدموا أعمالاً لخدمـة البشرية جمعاء مثل: مايكل عطية عالم رياضيـات لبناني. الياس خوري عالم كيمياء لبناني الدكتور بيتر مدور الحائز علـى جائزة نوبل في الطـب سنة ١٩٦٠ في جهاز المناعة نال جائـزة نوبل بالكيمياء في العام ١٩٩٠. ويقول البعض أنه لا يوجد أي دواء متقدم حتى القرن الواحد والعشرين لا تدخل فيه مواد أنتجها أو وضع أسس إنتاجها هذا العالم في جامعة هارفرد. وهناك رمزي قطران طبيـب فلسطيني تدرسـ كتبه في معظم كليـات الطب. مصطفى شاهين عالم فضاء لبناني صمم إحـدى أقمار الشبكات الفضائية التي ترصد الأرض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

١- مجلة «لونوفيل أوبسرفاتور» الفرنسية، تاريخ ٣/٨/١٩٩٤.

٢- كتاب «الحرمات المقدسة في الشرق»، إدوار سكواريه.

٣- كتاب «مدن بلاد الشام»، أرنولد هيو ومارتن جونز.

٤- كتاب «اكتشاف أمريكا في العصور القديمة»، هانيك سودوف.

٥- مجلة «البناء» اللبنانية، تاريخ ١/٦/١٩٩٠.

٦- جريدة «الثورة السورية»، تاريخ ٩/٥/٢٠٠٢.

٧- كتاب «سورية الطبيعية» العماد أول مصطفى طلاس.

٨- كتاب «الإسلام في عظمته الأولى»، ميشيل لومبار.

٩- جريدة «تشرين السورية»، تاريخ ٥/٨/٢٠٠٨.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسرار الدنا DNA والجينوم Genome في الحياة البشرية

د. محي الدين عيسى *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة:

إن الإنسان سواء كان رجلاً أو امرأة ما هو إلا جينوماً يحمل المعلومات الوراثية كافة التي تعمل ضمن صفيفات التعبير Expression arrays للتنامي في الزمان والمكان وعلى أساس التناظر وفقاً لمخطط هندسي لجسم الإنسان يترتب فيها الرأس والجذع والأطراف والأعضاء ضمن برمجة وراثية للجينوم منذ فجر الخليقة.

* أستاذ علم الوراثة في جامعة دمشق.

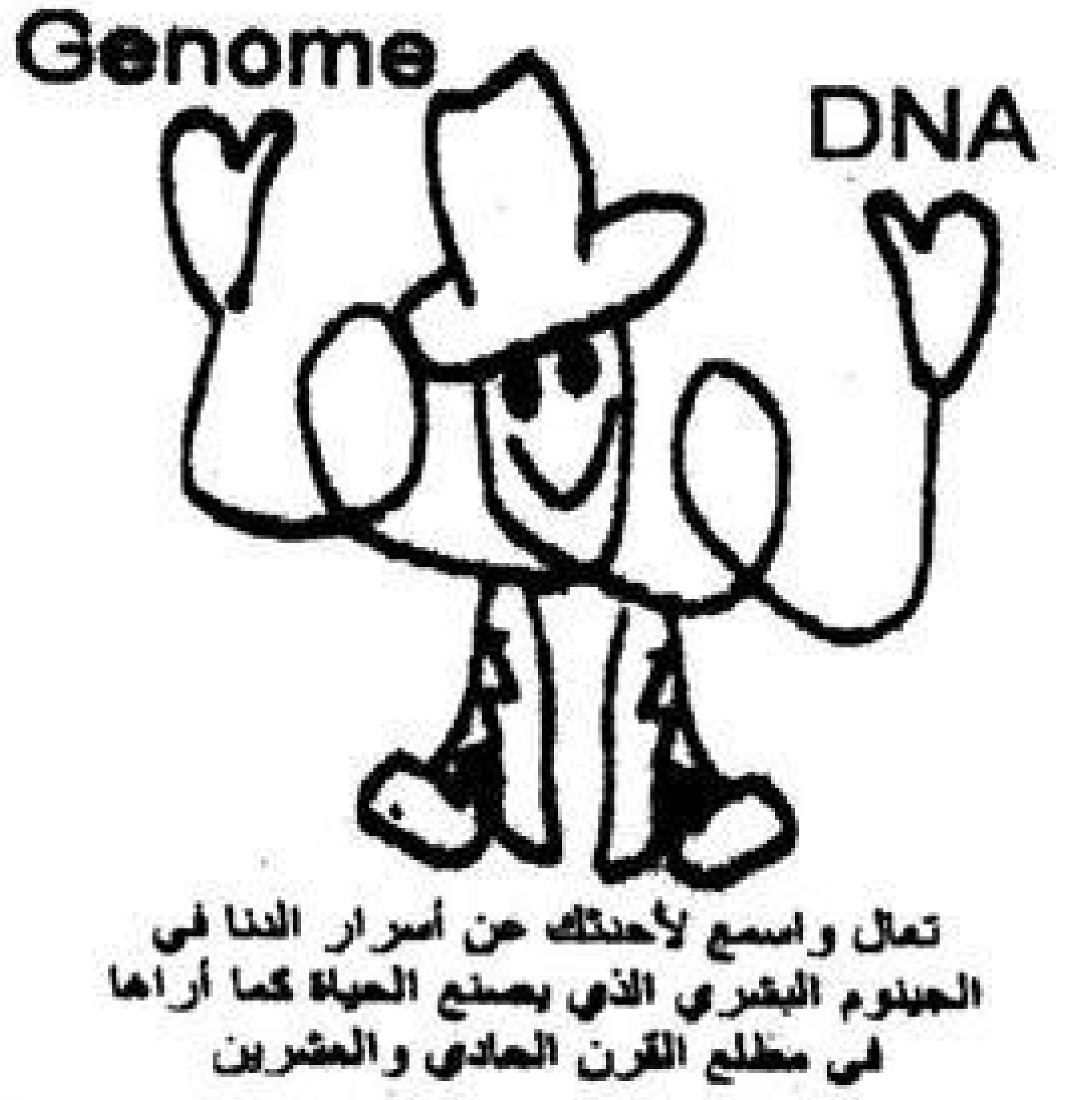

(الشكل١)

(الشكل٢)

الحياة Life

فالحياة ما هي إلا اسم مطلق، وما هي إلا مفهوم عام يشمل جميع خصائص الكائنات الحية بكل مظاهرها من تعضٍ ونمو وتكاثر وتمتد من المستوى المجهري لجزيئات DNA إلى مستوى الخلايا وإلى مستوى التعضي البيولوجي لتكوين الإنسان.

فالحياة تتميز بخطين رئيسيين (شكل٣) هما خط الاستمرارية وخط بناء الحياة (الكائنات الحية)، بفعل الدنا ومعلوماته الوراثية لإعطاء الحياة ونقلها منذ منشئها إلى الوقت الحاضر والمستقبل ما دامت الحياة مستمرة.

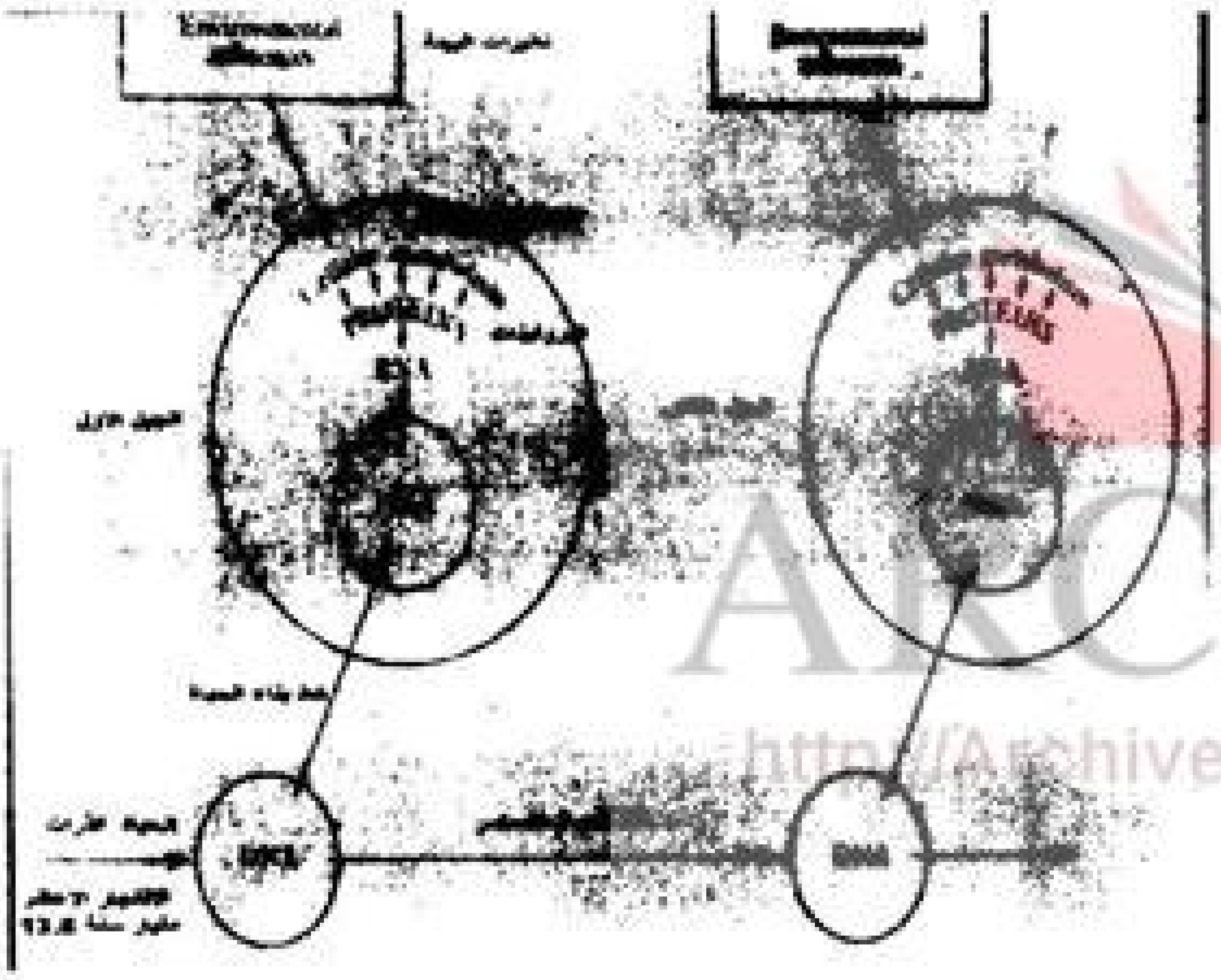

(الشكل٣)

تدفق المعلومات الوراثية المخزنة في دنا الجينوم DNA

يبين الشكل٣ تدفق المعلومات الوراثية المخزونة في دنا الجينوم لنقل الحياة وبنائها وفقاً لخطين متلازمين هما الخط الأفقي من دنا الجينوم إلى دنا الجينوم على طول خط الحياة الخالد، والخط المائل الذي

يمثل انتقال الدنا وفقاً لقضية الدوغما في بناء الكائن الحي مع تأثيرات البيئة.

فخط استمرارية الحياة هو الخالد الذي لا يموت وفيه تتدفق المعلومات الوراثية من DNA إلى DNA على مدى مسيرة الحياة وتعاقب الأجيال على سطح كوكبنا ـــ كوكب الحياة). أما خط بناء الحياة فهو خط بناء الأجيال بتدفق المعلومات الوراثية المخزنة في دنا DNA الخط الخالد إلى دنا DNA الجيل (الكائنات الحية) لاصطناع الرنا RNA بكل أنماطه ولاصطناع البروتينات (البروتيوم) للسيطرة على كل أفعال الحياة وعمليات الاستقلاب ضمن عوامل البيت البيئي وتأثيراته لبناء جيل من نوع أبويه مما يؤكد على أن النمط الظاهري phenotype أو مجموع الصفات الظاهرة للجيل ما هي إلا حصيلة عمل الوراثة والبيئة معاً.

وهكذا تتميز الحياة بعظمة الدنا DNA ومعلوماته الوراثية التي تنقل الحياة وتبنيها منذ ٣,٥ بليون سنة وحتى الآن بما فيها من تنظيم مبرمج وتلقيها لسيل متدفق من الطاقة والغذاء وبما فيها من تنوع وتغير وتشابه وتطور على سطح كوكب الحياة - كوكب الأرض-.

خلية The Celle

يفترض مفهوم الحياة أن الخلية هي الوحدة الأساسية للحياة. وتعد الخلية البشرية حقيقية النواة Eukaryate مسؤولةً عن استدامة الحياة بنقل المعلومات الوراثية (الجينوم) وحملها عبر الأجيال وهي تشبه أحجار البناء، وتكون الخلية محاطةً بغشاء بلاسمي ينظم عبور المواد والطاقة بينها وبين محيطها وهي محددة المعالم والاختصاص والزوايا ولها تراتبية بنيوية ووظيفية في المادة الحية تمكنها من القيام بكل الأنشطة الحيوية المطلوبة إضافة إلى أنها تمتلك تاريخها البيولوجي التطوري.(شكل٤)

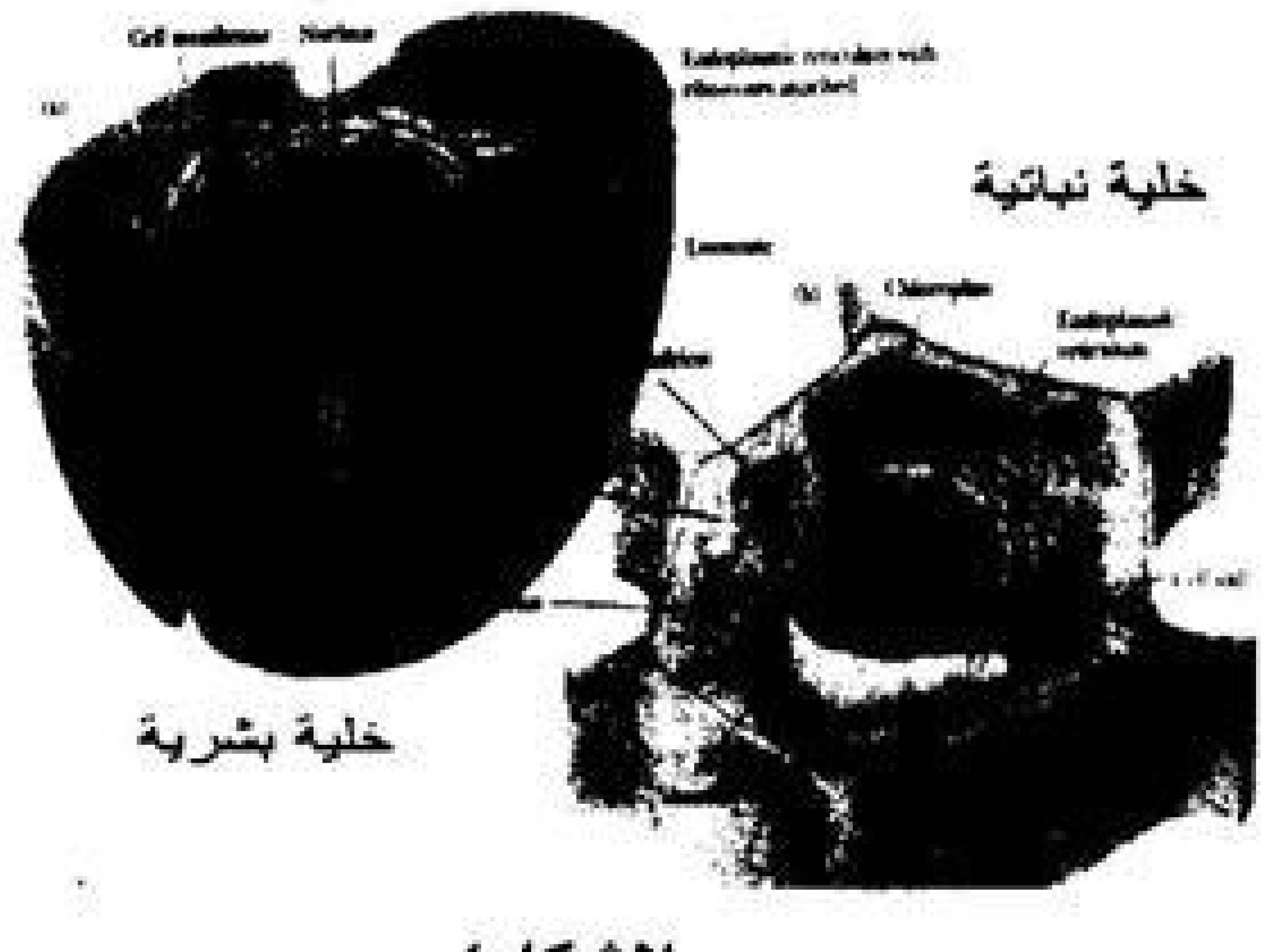

الشكل٤

إن الشكل ٤ يقارن بين الخلية البشرية والخلية النباتية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويؤكد البرهان المستحاثي للنشوء على أن الحقائق تطـورت من الطليعيات منذ بليون سنة وذلك بعد بليوني سنة من ظهور الحياة لأول مرة على الأرض.

وأهم مـا يميز حقائق النـوى أن الدنا DNA (الجينومـي) يدخـل في معقـد كروماتينـي مـع الهيستونـات بصفيفـات منتظمة بهندسة معمارية نوعية داخل النواة ليشكل الصبغيات المرئية في الطور الاستوائي مـن الانقسام الخلوي (الشكل٥)، أضف إلى ذلـك وجـود العضيـات organelles في السيتوبلاسما مثـل الشبكة السيتوبلاسمية الداخليـة وجهـاز غـولي والميتوكونـدريـا (المتقـدرات) (Mitochondria) وهـذه الأخيرة هي عضيات التنفس حيث تتم فيها تفاعـلات الأكسدة المنتجة للطاقة (ATP) ولها جينومها الخاص من الدنا DNA.

أما الجسيمات الريبية Ribosomes (جوهرهـا مـن رنـا RNA ريبوزومـي) الموجودة غالباً علـى الشبكة الداخلية فهي المكان لاصطناع البروتينات أما السيتوسول فهو الجزء المائي الذي يتوضع بين العضيات وخارجها في السيتوبلاسما.

الشكل٥

يبين الصبغيات لرجل سوي مؤلفة من ٤٦ صبغياً موزعاً في ساحة المجهر الضوئي وهي لخلية جسمية واحدة

وهنـا يمكـن القـول: إن الجماعـات البشريـة تبدأ حياتهـا من خليـة وحيدة هي الخليـة الأصلية (البيضـة الملقحة – الزيغـوتzygote) المكونة مـن ٤٦ صبغياً (كرموسوم)(شكل٥)، حيث جاء طاقم صبغي Haplaid(٢٣) من نطفة الأب وجاء طاقم صبغـي آخر مثيل (نسخة) مـن بيضة الأم (٢٣) ليركب جينوماً واحداً من الدنا المختلف القادر على إعطاء كائن بشري كامل مختلف عن أي كائن آخر(شكل٦).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

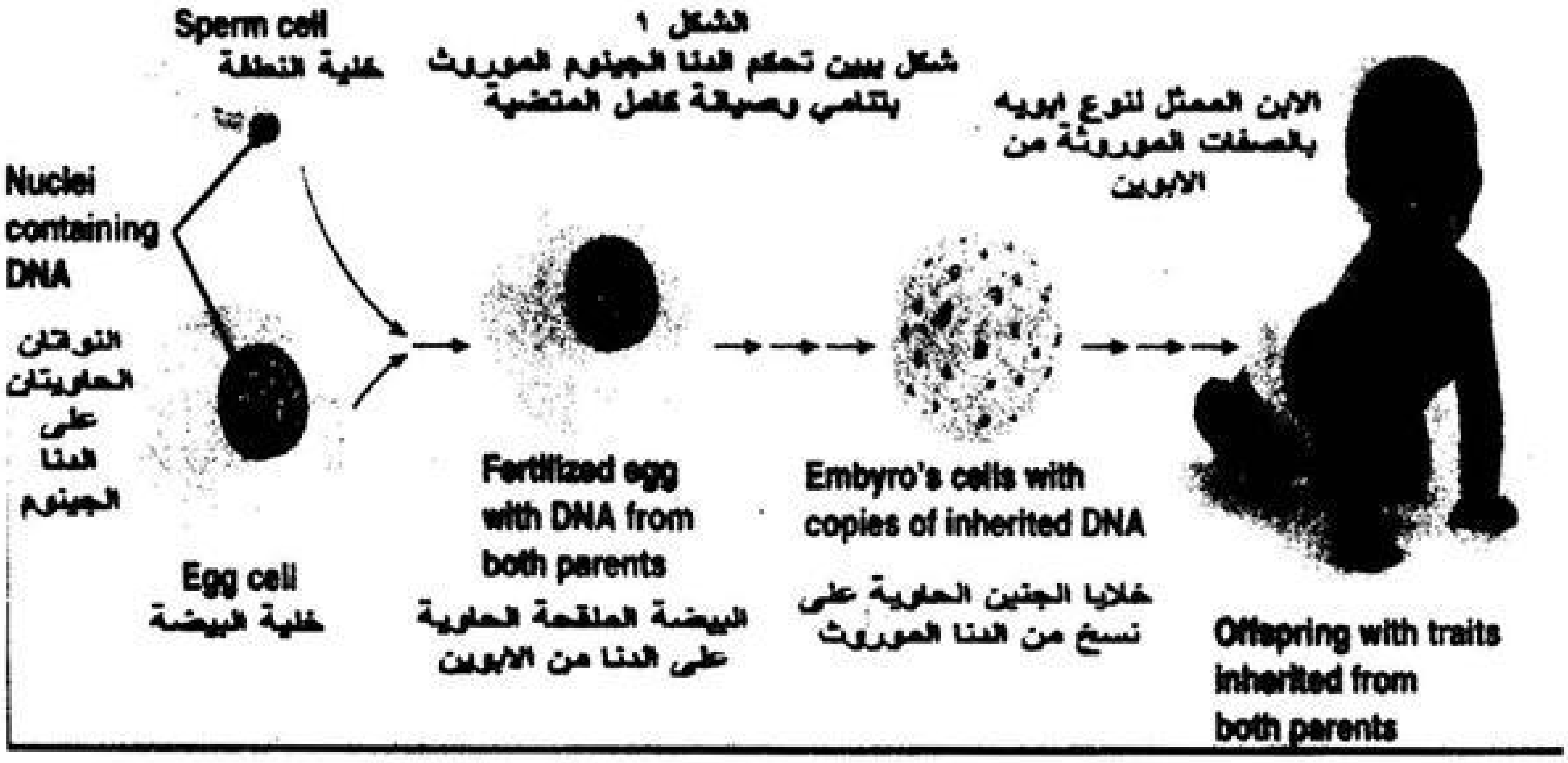

الشكل٦

يبين تشكل الإنسان من الزايغوت باندماج الدنا من خلية النطفة مع الدنا من خلية البيضة والتي تقرأ معلوماتها الوراثية (الشكل ٢) خلال التشكل الجنيني لتعطي فرداً من نوع أبويه

وهذا الدنا DNA الجينومي هو المسؤول عن تنظيم وبرمجة كل فعاليات الخلية وأنشطتها وتمايزها، فخلية الكلية تعرف أنها خلية كلوية تقابل الخلية العصبية والخلية الجلدية والخلية العينية وغيرها، وتتناغم العمل معها في الجسم الواحد وفقاً لتنظيم مبرمج من المعلومات الوراثية المخزنة في هذا الدنا المحمول في الصبغيات في النواة، وبذلك تستقبل كل خلية من مليارات الخلايا في أجسامنا نسخة كاملة من الجينوم القادم من الزيغوت بفعل تضاعف الجينوم خلال دورة الانقسام المتساوي (الخيطي Mitosi).

ففي الخلايا المتمايزة (المتخصصة) مثل الخلايا العصبية والخلايا العضلية تعمل مورثات معينة حسب الطلب وحسب الإشارات الداخلية والخارجية في وقت معين (التشغيل) وفي مكان معين وحسب البرمجة ضمن الجينوم، إذ تقوم خلايا الجلد بتنشيط المورثات لإنتاج الكيراتين بينما تقوم الكريات الحمراء بتنشيط المورثات لإنتاج الهيموغلبين، وذلك ضمن منظومة جينية متعددة الأنماط من المعلومات الوراثية القادمة من الأجيال المتحدرة من أصل سلفي مشترك.

الدنا DNA

تبين منذ أن اكتشف واطسن وكريك الحلزون المزدوج للدنا DNA (الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين) في منتصف القرن العشرين بفعل انعراج الأشعة السينية (أشعةX) على بلورات الدنا (شكل٧) أن الدنا يتألف في الخلية البشرية من سلسلتين (شريطيتين) متعددتي النكليوتيدات تلتفان حول محور افتراضي مشكلتين ما يعرف باسم الحلزون المزدوج Double helix.

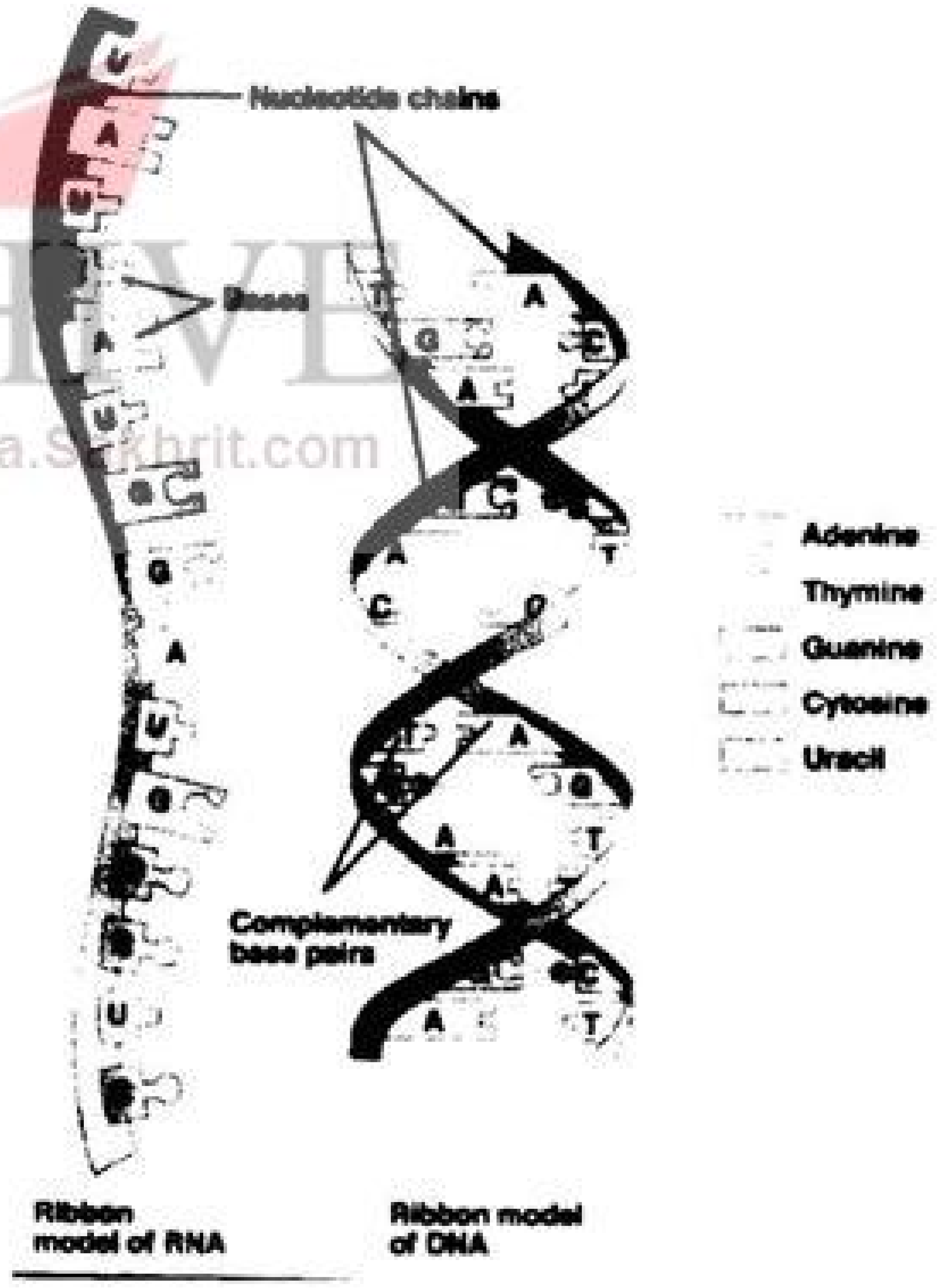

الشكل٧

يبين بنية الدنا الحلزون المزدوج مقارنة ببنية الرنا المؤلفة من سلسلة واحدة

تنطلق سلسلتاالدنا (العمودان الفقاريان) في اتجاهين متعاكسين بما يشبه طريق الأوتستراد وبما يعرف باسم التوازي المتعاكس. وتتألف كل سلسلة من تتالي سكر الريبوز المنقوص الأكسجين والفوسفات بينما تتوضع داخل الحلزون الأسس الآزوتية المتتامة حيث يزدوج دائماً الآدنين A (Adenine) مع التايمين T (Thymine) برابطتين هيدروجيتين ويزدوج الغوانين G (Guanine) دائماً مع السيتوزين C (Cytosine) بثلاثة روابط هيدروجينية. وتتناغم هذه الأسس المزدوجة بشكل دقيق ومعين كل مع الآخر وتتكرر هذه الأزواج حسب البرمجة الوراثية مليارات المرات في الجينوم البشري في حين يحتوي جسم الإنسان على مئة تريليون خلية.

هذا هو الدنا الذي له مبنى هندسي وكيميائي فراغي ذري واحد في الإنسان (شكل٨)، وهو المادة الوراثية في كل الكائنات الحية قاطبةً على سطح كوكب الأرض وهو جوهر القضية (العقيدة) الوراثية المركزية للحياة في تخزين المعلومات الوراثية بلغة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تسلسل الأسس المرمزة وفي تمريرها من خلية إلى أخرى ومن جيل لآخر وفقاً للخط الخالد للحياة، وفي تمريرها إلى أنماط الرنا RNA (وخاصة الرنا الرسول)لصناعة المادة الحية (شكل٩). وهذا هو البرنامج الجيني للمعلومات الوراثية (شكل١٠) الذي يسيطر على التنامي والبناء التشريحي والفيزيولوجي والتفاعلات الكيميائية الحيوية وبناء السلوك العام والفكري للإنسان.

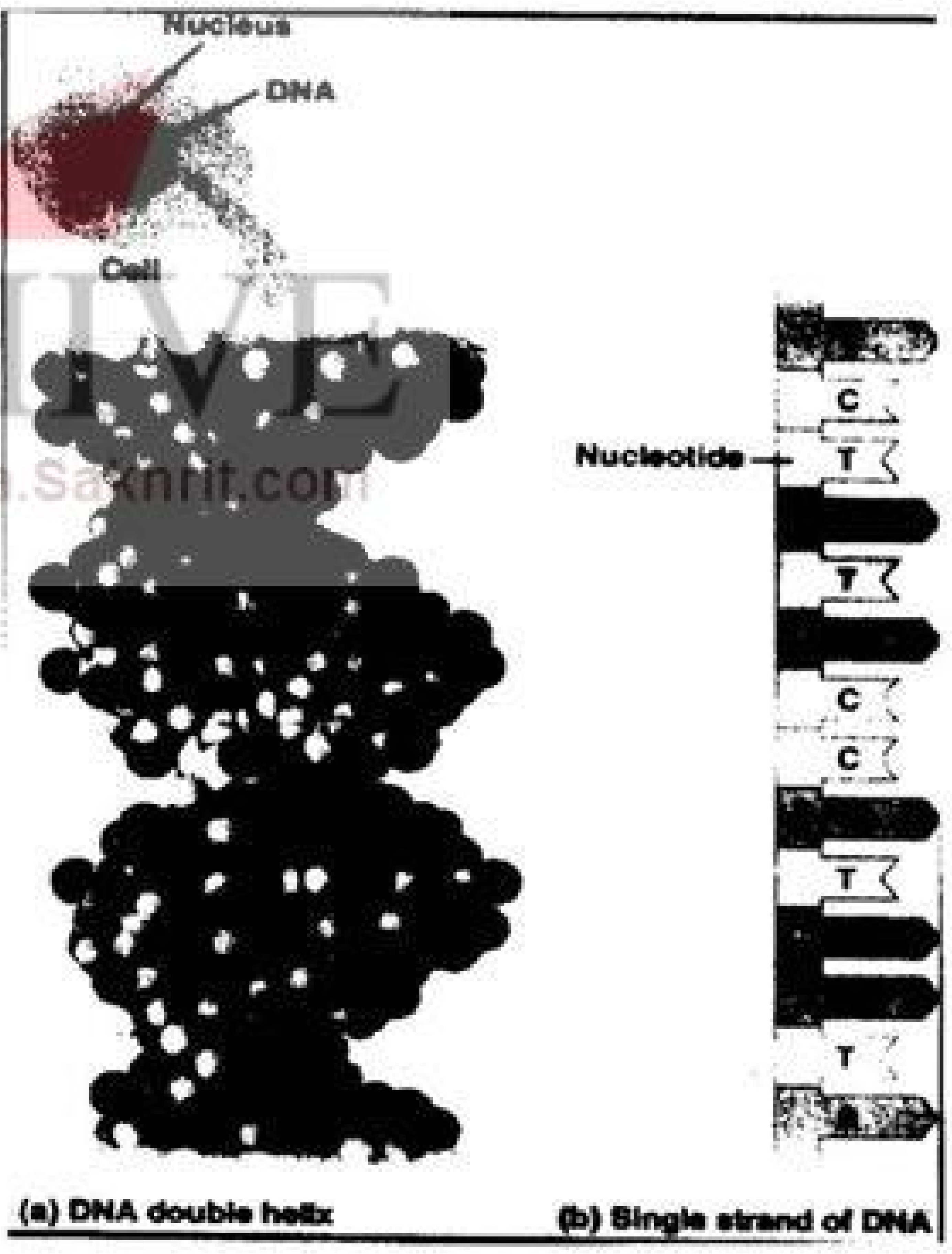

الشكل٨

يبين مفهوم الدنا وبنيته الجزيئية الفراغية الذرية كمادة وراثية (a) أما (b) فيمثل الأحرف المتسلسلة في سلسلة واحدة من جزيء الدنا

إن جزئيات الدنا هي جزئيات فريدة من نوعها في الإنسان وهي سر البصمة الوراثية وهي سر تشابه الأبناء مع آبائهم وهذا هو معنى ((قل من أبويك أقل لك من أنت)). فالدنا هو المادة الوراثية الحاملة لكامل المعلومات الوراثية في الإنسان وفي كل الكائنات الحية الأخرى وهو ما يميز المادة الحية عن المادة الجامدة التي لا حياة فيها وهو الحافظ لسر الحياة. وتأتي الكائنات الحية بمختلف أنماطها وأنواعها إلى الحياة بفعل الوراثة وما تحملها من جينومات وصلتها من آبائها لتعيش في بيئة الأرض والكون المصممين للحياة.

القضية المركزية الوراثية Genetic Central dogma

القضية المركزية هي قضية الحياة وجوهرها بنقل الدنا DNA من خلية إلى أخرى وبناء المادة الحية شكل(٩). فالدوغما تبني الحياة من خلال ثلاث سيرورات أساسية هي

١- سيرورة التضاعف: حيث يتم تضاعف الدنا DNA ذاتياً بفعل منظومة

أنزيمية مبرمجة لحفــظ المعلومات الوراثية ونقلها ثابتة عند انقسام الخلية.

٢- ســيرورة الانتســاخ: تتضمن انتساخ الرســائل الوراثية المخزنــة في دنا الجينوم لصناعة أنماط الترانسكريبتوم.

٣- سيرورة الترجمة: والتي تقوم بقراءة شيفرة الرســائل الوراثية وترجمتها لتركيب البروتيوم (المادة الحية). وهكذا تسير الحياة وفقاً للخط الخالد (شكل٣)

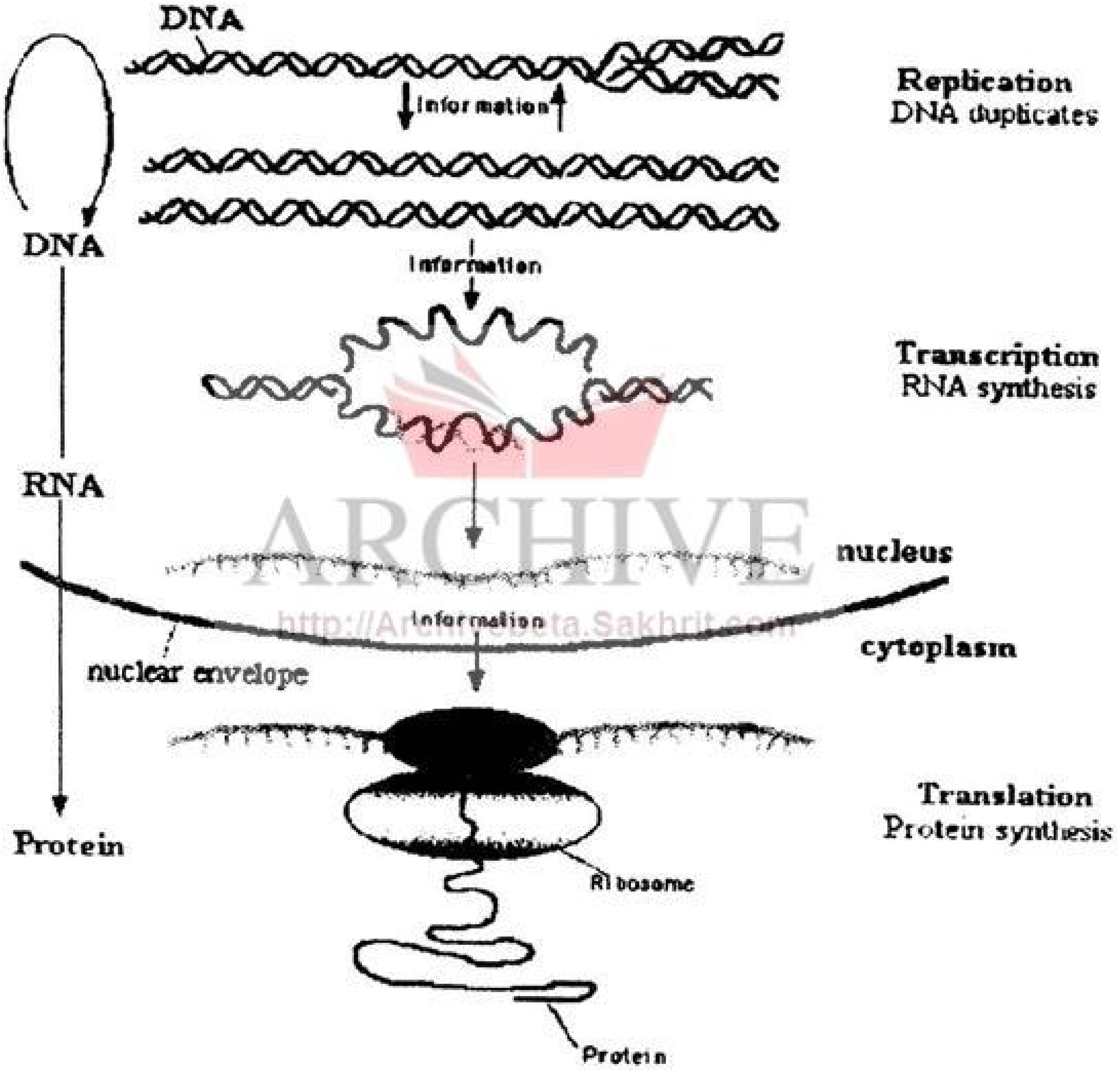

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشكل ٩

سيرورات التضاعف للدنا والانتساخ والترجمة وتشكل البروتيوم

الجينوم Genome

الجينوم هو الخريطة (الأطلس) الشاملة لجينات الدنا وهو الطاقم الكامل Complete set لجزيئيات الدنا DNA المختلفة الموجودة في كل خلية من خلايا الإنسان (ما عدا الكريات الحمراء) وهو مؤلف من أربعة أحرف (أسس) مختلفة هي A وT وC وG في لغة الجينوم المحتوي على ثلاثة آلاف مليون حرف مرمزة Coding لكامل المعلومات الوراثية لتكوين فرد كامل بنيوياً وفيزيولوجياً وسلوكياً وفكرياً ويبين الشكل ١٠ مفهوم الجينوم في حمله لمعنى الحياة مع الآليات التقنية لعمله.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشكل ١٠

من الجينوم إلى الحياة

يوضح هذا الشكل كيف يبني الجينوم الحياة.

١- تحتوي الخلية على كل المعلومات الوراثية المخزنة في الدنا DNA لبناء الحياة من متطلبات حيوية وشروط بيئية.

٢- الحلول البيولوجية لتحديات الطاقة.

٣- الطرق الإبداعية على طول مسيرة الحياة الأصلية.

٤- معطيات تسلسلات الدنا DNA (بمساعدة الحاسوب) من مشاريع الجينوم.

٥- تسلسل المورثات وتسلسلات الدنا DNA (الأخرى المحتوية على التأثرات المتعلقة بكيف ومتى تبني البروتينات.

٦- البيولوجيا للقرن الحادي والعشرين.

٧- تشكل البروتينات.

٨- تنجز البروتينات معظم الوظائف الأساسية للحياة وذلك بتنفيذ أدوارها النوعية حيث تعمل معاً (كبروتيوم) في الخلية كآليات بروتينية.

٩- الهدف: وهو تحديد شبكة التنظيم الجيني وتمييزها.

١٠- الهدف: تحديد هوية تطابق آليات البروتين.

١١- الهدف: تنمية الطاقات الحاسوبية لفهم المنظومات الحيوية المعقدة.

١٢- الخلية في العمل (المشغلة).

١٣- تتآثر آليات البروتين في معقدات ضمن مسارات مترابطة لضبط السيرورات الدينامية القائدة إلى نمذجة الحياة.

١٤- تكون مجتمع الخلايا.

١٥- الهدف: اكتشاف الوظيفة في المجتمعات الجرثومية.

١٦- تعاقب الكربون المفرط.

١٧- إنتاج الطاقة واستخدامها.

١٨- تنظيف البيئة.

١٩- حماية الطقس والجمهور.

٢٠- التطبيق المعرفي للقدرات الوظيفية الجرثومية (التسلسل من اليسار إلى اليمين).

هذا وقد ضجت وسائل الإعلام والصحف والوكالات العالمية منذ عام٢٠٠٣ عند إعلان فك رموز الخريطة الجينية الوراثية للإنسان التي بشرت بظهور عصر جديد من سيرورات الدنا لبناء الكائن الحي وهذا هو عصر الجينوم للقرن الحادي والعشرين في الحياة البشرية.

يظهر (الشكل٨b) تسلسل Sequence بعض أسس Bases الدنا على طول إحدى السلسلتين على النمط

ACTATACCGTAGTA كنموذج على التسلسل المنظم لثلاثة آلاف مليون أساس (حرف) مبرمجة ومرمزة للحياة في لغة الجينوم، ويتوزع هذا التسلسل على الجينات المرتبة في نظام معين على طول الصبغيات بحيث تعمل متوافقة ومؤتمتة مع عناصر البروتيوم (مجموع البروتينات المصنعة من قبل الخلية في مكان معين وزمن معين) ومع عناصر الترانسكريبتوم (مجموع جزئيات الرنا المنسوخة في الخلية) في تناغم كامل لبناء إنسان من نوع أبويه متميزاً بشخصية فريدة بنيوياً وعملاً وفكراً.

وهذا الدنا يكون مرمزاً في تسلسل أسسه بالشفرة الوراثية العالمية للمعلومات الوراثية المبرمجة والمؤتمتة لكل أنشطة الحياة الأساسية فالدنا لا يتدخل مباشرة في العمليات الحيوية ومسالكها ولكنه يمتلك الخطة الهندسية النوعية لتركيب كافة مكونات الحياة للأنواع بمجملها (شكل٢)

لقد أصبح الجينوم هو سيد الحياة وهو ثورة حيوية بعد قراءة خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) جين في الإنسان في مطلع القرن الحادي والعشرين وبعد استثمار الأنظمة المعتمدة على الكومبيوتر (الحاسوب) وعلى تقانات الأتمتة المبنية على تجميع وتحليل الكميات الكبيرة لمعطيات تسلسل أسس الدنا DNA لمتعضيات مختلفة ناتجة عن مشاريع تشبه مشروع الجينوم البشري وتخزين المعلومات الوراثية في عمل كبير لخبراء الكمبيوتر الاختصاصيين بالمعلومات الحيوية وذلك بتخزين تسلسل ثلاثة بلايين زوج أسسي طولاً وهذا يعادل ٣ Gigabyte في تخزين الكمبيوتر (شكل١٠)، ويلزم هذا التخزين كامل الجينوم البشري أو لتخزين كامل معطيات تسلسل الأسس فقط، ولا يتضمن عمل الكمبيوتر عمل الحواشي Annotation والمعلومات الأخرى المرتبطة بمعطيات التسلسل والناتجة فعلاً عن معطيات الخبرة ومعطيات الأبحاث النظرية والتصورات الخيالية الخارقة وبرامج المعطيات الذاتية ومعطيات الاتصالات الشخصية وهذه تسبب إشكالات كثيرة وفي مجالات التخزين الفعلية والتي يصعب التنبؤ بها.

والآن إذا نسخنا المعلومات الوراثية لشخص ما ونقلناها على الورق فإنها ستملأ موسوعة أنسيكلوبيديا Encyclopedia المؤلفة من ٣٠٠ مجلد Volume يحتوي كل منها على ٢٠٠٠ صفحة. وفي الحقيقة لو ربط الدنا طرفاً إلى طرف بعد أخذه من كامل خلايا جسم الإنسان المقدرة بحوالي مئة ألف بليون خلية لوصل إلى الشمس وعاد

٤٠٠مرة. ولو حصرت كل المعلومات الوراثية لكامل سكان الكرة الأرضية (٦٠٥ألف مليون ونصف المليون إنسان) بداخل مساحة معينة لبلغت هذه المساحة (١إنش مربع) ولو طلب من إنسان قراءة تسلسل الجينوم البشري لاحتاج إلى تسع سنوات ونصف من القراءة المستمرة.

يضم الجينوم البشري في الواقع جينومين هما:

١- الجينوم الميتوكوندري

(Mitochondria genome (DNAmt

وهو جينوم بسيط جداً مؤلف من DNA حلقي دائري ويوجد داخل عضيات الميتوكوندري (المتقدرات) ويشكل أقل من ١٪ من مجموع دنا الخلية وتتألف من ١٧ ألف أساس معبأة داخل صبغي دنا الميتوكندري وهو لا يحتوي على إنترونات ولا على هيستونات ويورث عن طريق الأم.

وتقترح دراسة الجينوم الميتوكوندري لمجموعات بشرية عبر العالم بأن حواء أسيا عاشت قبل مئتي ألف سنة وتعززت هذه الدراسات بدراسة وراثة الصبغي (y) المسؤولة عن الذكورة في البشرية.

يضم هذا الجينوم سبعاً وثلاثون (٣٧) جيناً منها (٢٢) جيناً تحدد جزئيات الرنا الناقل DNA ومورثتان تحددان الرنا الريبوزومي RNA بينما ترمز المورثات الـ(١٣) المتبقية لتركيب بروتينات الميتوكوندري.

٢- الجينوم النووي

Nuclear DNA

يضم هذا الجينوم ٩٩٪ من DNA الخلية ويتألف في الرجل من ٢٢ صبغياً جسمياً (لا جنسياً) ومن صبغيين جنسيين هما الصبغي(x) والصبغي (y) (الشكل٥) ويتألف في المرأة من ٢٢ صبغياً لا جنسياً وصبغي جنسي(x) واحد وذلك ضمن الطاقم الصبغي الأحادي Haplaid.

تنقل هذه الصبغيات بمجموعاتها الجينوم عبر الخلايا الجسمية من جيل إلى آخر ويصل حجم هذا الجينوم إلى ثلاثة آلاف ومئتي مليون أساس، منها حوالي ٢٠٠ مليون أساس يرتبط بالكروماتين المغاير وحوالي ٣٠٠٠ مليون أساس ترتبط بالكروماتين الحقيقي الذي يضم جميع المورثات المسؤولة حيث يحتوي الجينوم النووي الكامل على ٢٥٠٠٠ جين موزعة على الصبغيات (٤٦صبغياً) خطياً وهي مادة الدنا الملتفة على بكرات الهيستونات في الصبغي الواحد الذي يحتوي وسطياً على ١٤٠٠ جين حيث يختلف العدد من صبغي إلى آخر. أما الصبغي الجنسي(x)

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيحمل ٧٠٠ مورثة بحجم ١٦٣ مليون أساس بينما يحمل الصبغي الآخر(y) خمسين جين بحجم ٥١ مليون أساس.

يبين الشكل (١١) نسب تسلسلات أنماط الدنا DNA في الجينوم البشري

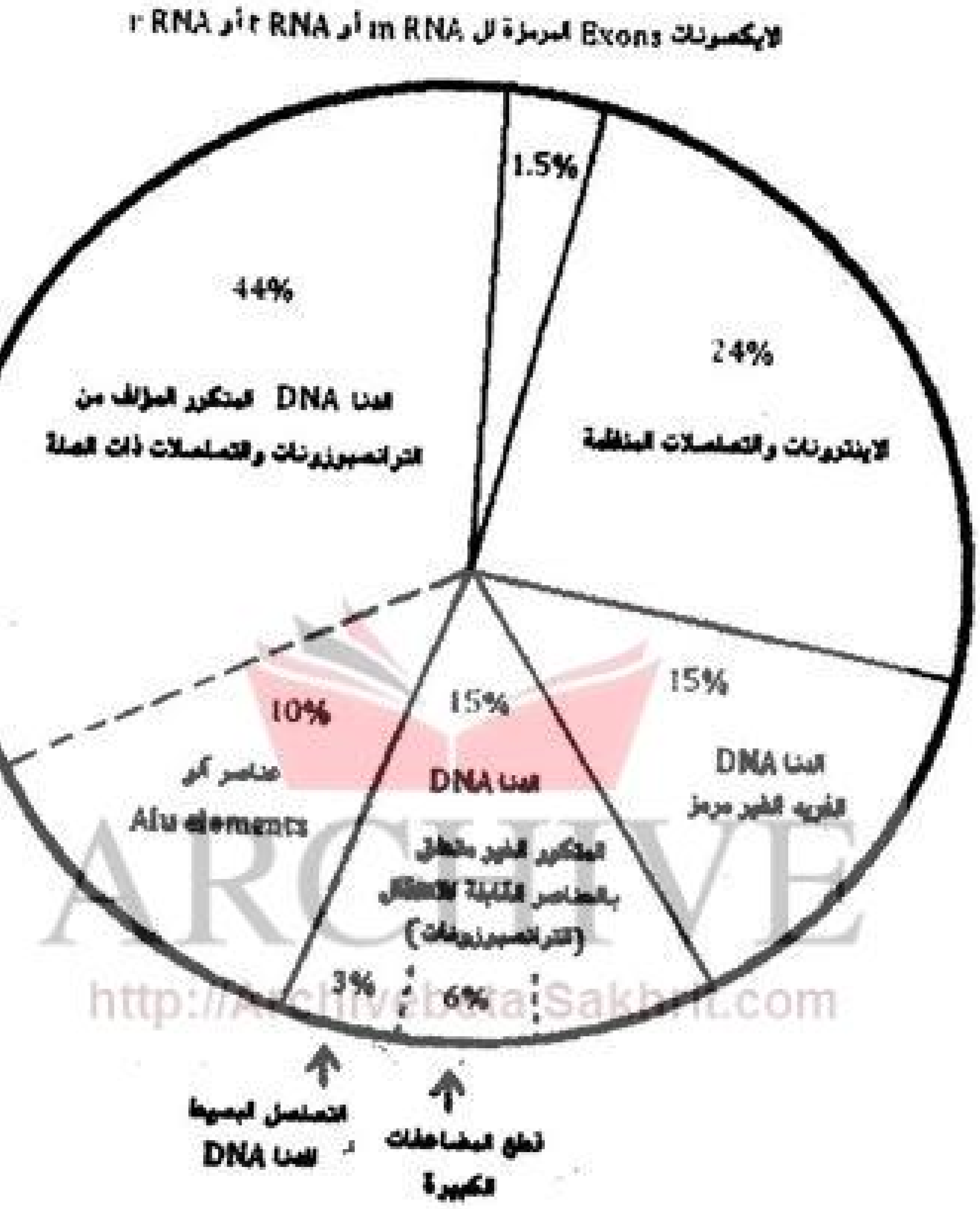

الشكل ١١

شبكة الاتصالات الفكرية في الدماغ البشري التي تعمل تحت سيطرة الجينوم ومعلوماته الوراثية المخزنة في دنا DNA الخلايا العصبي

الجين

يعرف الجين (المورثة) بأنه قطعة من الدنا ترمز لاصطناع جزيء الرنا RNA واحد في النواة حيث يصل حجمها وسطياً إلى ٢٧kb وهي تتألف من قطع مرمزة (مشفرة) هي الايكسونات بحجم وسطي ١٢٢pb وتتخللها قطع غير مرمزة هي الانترونات بحجوم كبيرة ومتغيرة غالباً (الشكل١٢)

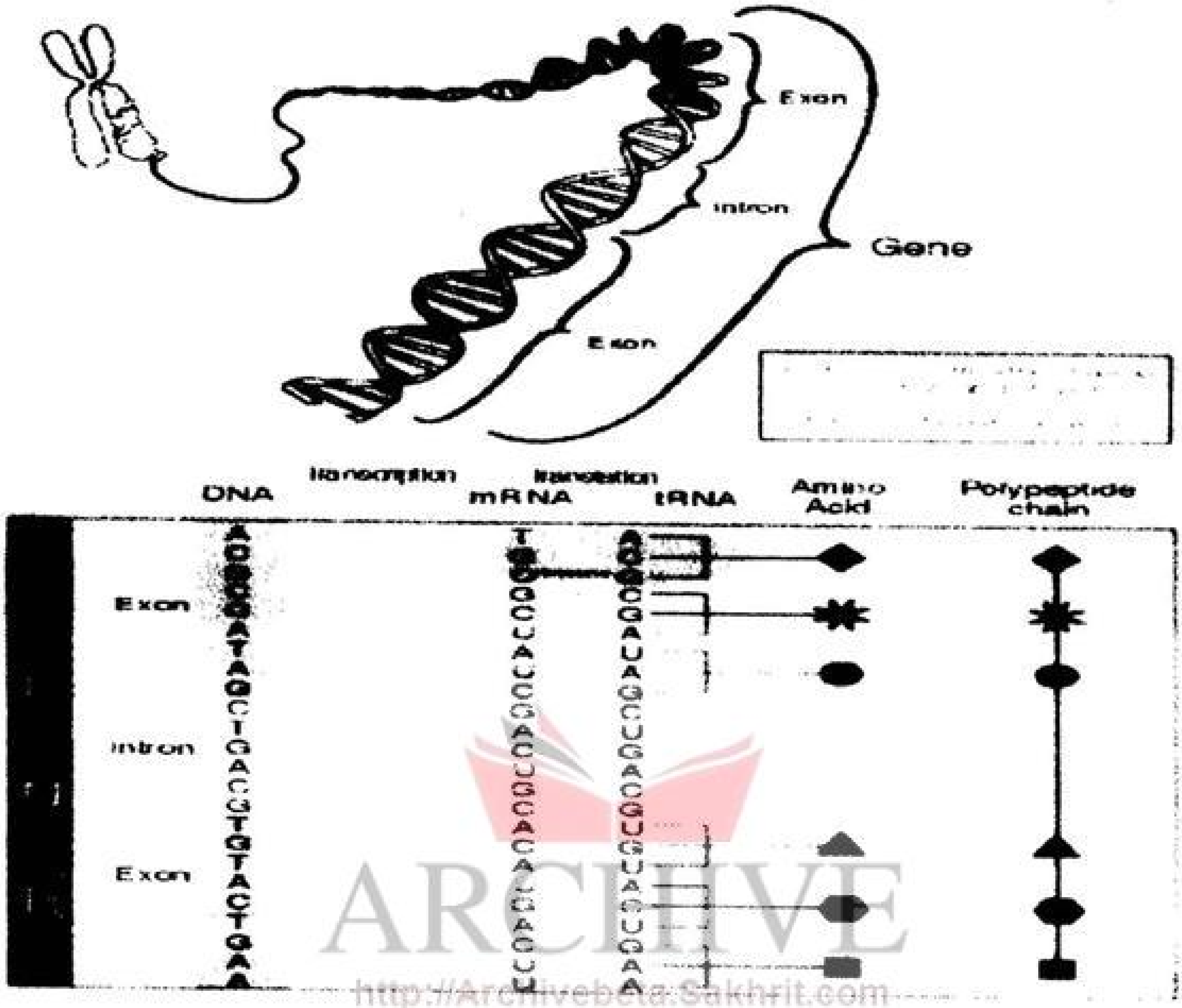

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشكل ١٢

تخطيط يبين نسب تسلسلات أنماط الدنا DNA في الجينوم النووي البشري

ومن خلال الجينوم وتحديد نوع المورثات فهناك مورثات لمتعددات الببتيد Polypeptide وهي تشكل ما يزيد عن ٩٠٪ من مجموع كامل المورثات. ترمز هذه الجينات لاصطناع الرنا الرسول mRNA الذي يترجم في السيتوبلاسما إلى بروتينات تبني الإنسان بناءً كاملاً بخلاياه وأنسجته وجميع وظائفه الفيزيولوجية (الشكل٦) وكل مظاهر الحياة من تفكير وسلوك وإحساس وحركات إرادية وغير إرادية ونوم وأحلام وإنجاب وتكوين أسرة ومجتمع وحضارة وموت.

أما جينات الرنا RNA genes فهي هامة وعددها حوالي ٣٠٠٠ جين وتشكل

١٠٪ من مجموع الجينات وهي لا ترمز لتركيب البروتينات ولكنها تقوم بتنظيم عمل الجينات للببتيدات المتعددة ووصل الرنا في النواة وتكوين الإشارات المختلفة في تنظيم السيرورات الحيوية الهامة وفي برامج التنامي والتمايز الخلوي إضافة إلى مختلف أنماط الرنا الأخرى.

ولجينوم الدنا عدة أنماط منها نمط الدنا الذي يرمز للبروتينات أقل من ٥٪ من الدنا المؤلف من ثلاثة بليون زوج أسس (pb) في الجينوم البشري وبحجم ١٥٠ مليون أساس ومع هذا فإن معظم توضع الدنا في الصبغيات بالأنماط التالية (شكل١١):

أولاً: نمط الدنا وحيد النسخة Single copy DNA

وهو وحيد النسخة بتكرار أحادي غالباً ويشكل حوالي ٤٥٪ من الجينوم ويتضمن الدنا المحافظ على معلوماته الوراثية (تتالي الأسس) محافظة عالية كما يشمل DNA المورثات المرمزة للبروتينات وحيدة النسخة بحدود ١,٥٪ إضافة إلى DNA المورثات التي تقوم بدور تنظيمي هام بحدود ٣٪ ويوجد معظم DNA هذه المورثات في تسلسل الديكسونات والاينترونات (الشكل١٢)

ثانياً: نمط الدنا المتكرر Repetitive DNA

ويضم ٥٥٪ من دنا الجينوم وهي التسلسلات Sequences التي تتكرر أكثر فأكثر وغالباً ما تصل إلى آلاف المرات ويضم صفوف الدنا المبعثر القصير والدنا المتكرر المترادف والدنا التابعي وتوجد فيها العناصر المتحركة المعروفة باسم الترانسبوزونات Transposons وهي عناصر متحركة تعرف باسم الجينات القافزة Jumping genes التي تمتلك القدرة على الاندماج في مواقع مختلفة من الجينوم محدثةً تغيراً في التعبير الوراثي وتغيراً في النمط الظاهر للفرد كما أن للتوابع القصيرة أهمية في تحديد مواقع الجينات.

هذا ويساعد الجينوم في وضع الخرائط الجينية (الأطلس) على الصبغيات وتحديد تسلسل أسس الدنا DNA في الجينات البشرية وفي دراسة القضايا الاجتماعية والقوانين ودراسة التطور على المستوى الجزيئي ودراسة أسباب الصحة والسلامة ودراسة الأمراض الوراثية وتحديد الطفرات على مستوى الأساس الواحد في تسلسل الجينوم.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعلومات الوراثية Genetic informations

المعلومات الوراثية هي مجموع المعلومات المرمـزة المخزنة في تسلسل الجينوم (الدنا) داخل نواة البيضـة الملقحة الزيغوت والتي تضم ملايين الرموز (أحرف الجينوم) التي إذا مـا قرئت خلال التنامـي الجيني فإنها تعطي فرداً كامـلاً من نوع أبويه (الشكل٦) فتطور جنين الإنسان من منظور جزيئي يبدأ بخليـة واحدة (الزيغوت) غـير متخصصة وينتهـي بأكثر من ٢٢٠ نمطاً متخصصاً من الخلايا مشكلـة كل أنسجة الجسم المختلفة وبالتالي تعطي فـرداً كاملاً بنيوياً ووظيفياً وفكرياً (شكل٢).

تتـوزع هـذه المعلومـات الوراثية على الجينات بحيث يحمل كل جين رسالة معينة لبناء رنا واحد شكل(١٢)، وقد تمكن العلماء من دراسـة كل المورثات في الجينوم ودراسة بروتيومهـا الدينامي المتغـير من دقيقة إلى أخرى في الاستجابة إلى عشرات الألوف من الإشارات القادمة من الداخل والخارج معاً والتي تعمل كلها في شبكات ودارات مترابطة بهـدف تناغـم كيميائية الحيـاة وتناسقها ضمن مفهوم الشفرة الوراثية المخزنة في دنا الجينوم عبر سيرورتي الانتساخ والترجمة.

وهذه هي الوراثة في بناء الحياة وانتقالها ثابتة على استمرار الأجيال وتشابه كل جيل مع الجيل السابق له (كما يقول أرسطو).

المعلومات الوراثية واللغة العربية

الحياة مؤتمتة ومبرمجة ضمن شبكة من دارات المعلومات الوراثية المخزنة في تسلسل أسـس دنا الجينوم. ويمتلك دنا الإنسان من الجينـات (المورثات) حـوالي ٢٥٠٠٠ جين تعمـل كلها في نظام مؤتمت فيما بينها وبين ما يحيـط بها من الوسط الحـي والوسط البيئي غير الحي لتعطـي في نهاية التمايز إنساناً سوياً.

تشبه الأتمتة الوراثية أتمتة اللغة العربية فلغة المعلومات الوراثية المبرمجة في الجينوم مؤلفـة من أربعة حروف هـي الأدنين (A) والتايمـين (T) والغوانين (G) والسيتوزين (C) تتسلسـل في كلمـات ثلاثيـة الأحرف Triplet لتشـكل مليـارات الكلمات (لأن احتمـال تغير الحرف الواحـد في التسلسل هـو ١/٤ للقوة ثلاثـة آلاف مليون) وتتوزع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه الكلمات في رسائل وراثية Genetic messages تحملها الجينات لبناء الحياة.

وهذه هي المعلومات الوراثية المخزنة في دنا الجينوم والثابتة في انتقالها وفي عملها مع البروتيوم والترانسكربتوم وفي تدفقها من دنا إلى دنا عبر الخط الخالد للحياة وأيضاً في تدفقها من دنا إلى دنا المتعضيات لإعطاء كائن حي من نوع أبويه ويرى واطسن في كتابه أن المعلومات الوراثية تحمل الحياة من أدنى المتعضيات إلى أرقاها حتى الإنسان ولو ترجمت هذه المعلومات لبلغت من الكتب أكثر ما في مكتبة الفاتيكان في روما.

بالمقارنة مع اللغة العربية المؤلفة من ٢٨ حرفاً تتشكل مليارات الكلمات التي تتجمع في فصل معين وتتجمع الفصول لتنظم كتاباً كاملاً أو كتاباً موسوعياً وكذلك تتجمع الرسائل الوراثية معاً في الجينوم لإعطاء كائن حي سوي. وعلى هذا لو ترجمت المعلومات الوراثية في بني البشر لبلغت ملايين الكتب ولو قدرت الكتب المؤلفة باللغة العربية لبلغت الملايين أيضاً وهذا الترميز في اللغة العربية أو في الجينوم هو الأساس في التخاطب والحضارة والثقافة وبناء الأجيال الحية عبر التطور.

المعلومات الوراثية والعقل البشري

الإنسان هو الكائن الحي العاقل المتميز بظاهرة الإدراك والوعي من خلال العقل البشري ومنظوماته وداراته الحية فالدماغ البشري مادة حية فائقة التعقيد وهو المشابه البيولوجي للعقل الإلكتروني (الكمبيوتر) وهو منظومة حية -إلكترونية بمفرداتها وأجزائها وخلاياها ودوائرها الأساسية وفي تلقيها عشرات ألوف الإشارات الداخلية والخارجية وفي تفاعلات منظوماتها المختلفة وتأثراتها وتفاعلاتها الذرية الطاقوية التي تقوم بها مئات الألوف من الأجزاء الإلكترونية الحيوية ضمن منظومات البروتيوم والجينوم والترنسكربتوم بزمن يقدر بالبيكوثانية (واحد على مليون من مليون من الثانية) وبمقدار كمي يقدر بالبيكوغرام (واحد من مليون من مليون من الغرام) ضمن الخلايا العصبية الدماغية المعتمدة على قوانين الالكترونات الحيوية في مختلف عمليات الدماغ البشري (شكل ١٣).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

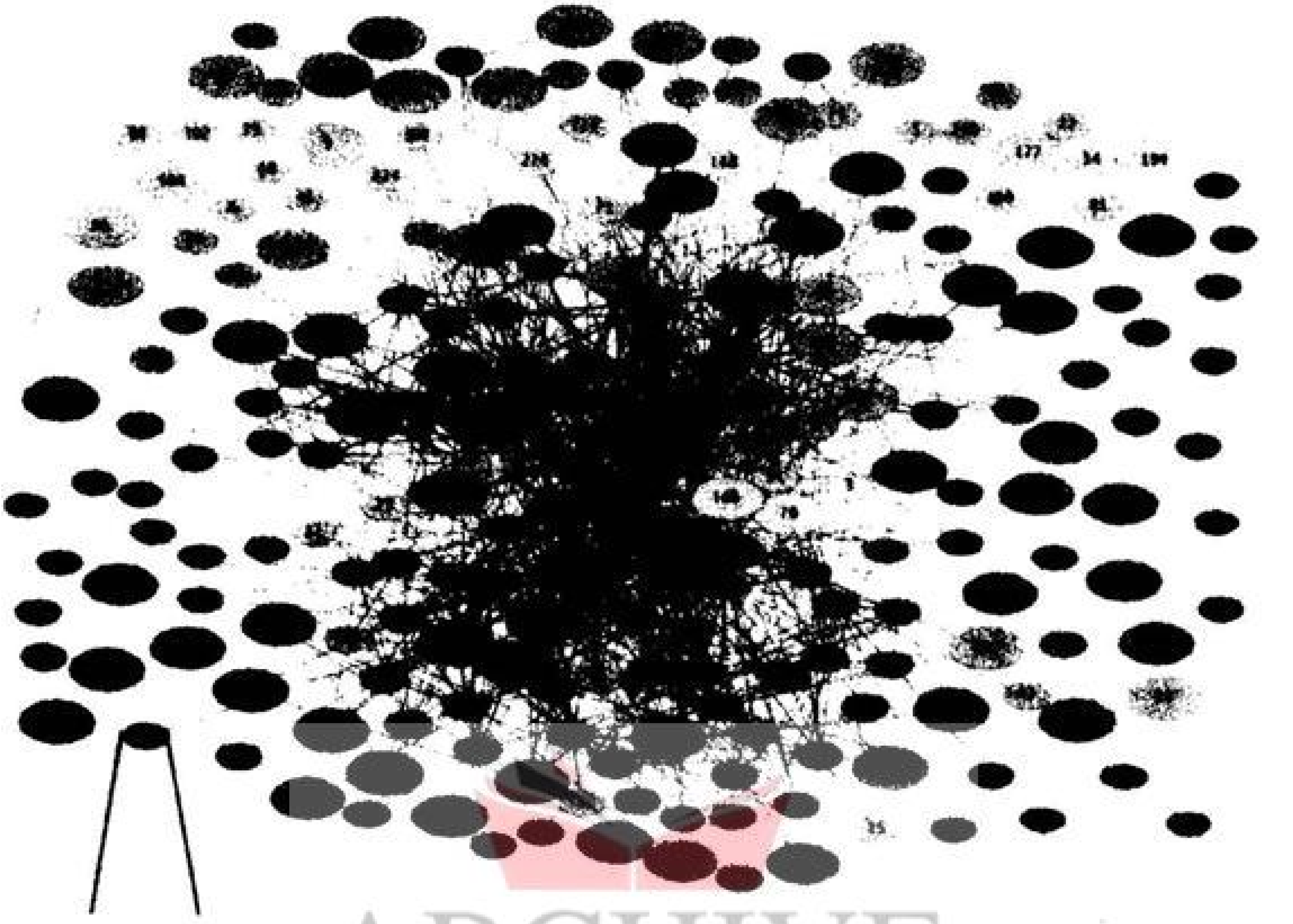

الشكل ١٣

يبين أن المورثة Gene قطعة من الدنا الموجود في الصبغي مؤلفة من سلسلتين واحدة مرمزة وأخرى مرصافية تنسخ الدنا الرسوم RNA وبعد قطع الرنترونات تترجم الأكسونات إلى سلسلة ببتيدية بروتينية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حيث تعمل هذه المنظومة في شبكات عديدة تشبه الدارات الكهربائية حيث تتناغم فيها مئات الآلاف من العمليات الحيوية من التفاعلات المتبادلة المؤتمتة بين البروتينات والجينات والرنوات لتلبية أهداف معينة في زمن معين ومكان معين وفي مقدار معين وفقاً للإشارات الجزيئية الوراثية وللإدارة الحيوية السريعة في العمليات الفكرية المعقدة، وتشير الألوان في المخطط الشبكي إلى عدد من المركبات البروتينية تعمل معاً (Cavin٢٠٠٦) وهي العمليات التالية:

- تغيرات خلوية مبرمجة (الأحمر)
- الرناوات واستقلاباتها (البرتقالي)
- التأثيرات المؤتمتة (الأخضر)
- تركيب البروتيوم وتغيرات أقطاب الخلايا (أخضر فاتح)
- التعبير الجيني (الأزرق العاتم)
- الطاقة واستقلاباتها (البنفسجي)

- البروتيوم ونقل الرناوات (القرنفلي
- التولدات الفكرية والعبور (الأزرق الفاتح).

وهذا يسمح بظهور القابليات الإنسانية والقابليات الخارقة في فهم الأمور ووعيها وفي ظهور الذكاء بمختلف مستوياته ودرجاته وفي الاستجابات والتكيفات للحياة البيئية وذلك في معقد توافقي إلكتروني خلوي وراثي وفقاً للمعلومات الوراثية المبرمجة في الجينوم الدماغي. فالإنسان عندما يقود سيارته ويتبع قوانين السير وينظر إلى الأمام وفي مرآتيه ويفكر في أموره الشخصية ويسمع الراديو وقد يتحدث إلى من بجواره وهنا سبعة آلاف من الجينات تعمل في الخلايا العصبية بمعالجة الإشارات البصرية والفكرية والسمعية والحسية بتناغم دقيق يربط الإبداع الدماغي بدقة البصر والسمع والقيادة والإدراك واتخاذ القرار المناسب بزمن أقل من جزء من مئة جزء من الثانية مما يعطي للدماغ قدراته المتعددة في الحياة البشرية ويعطيه أيضاً القيادة العليا في عالم الوعي والتفكير وإشراف المستقبل وتنمية المواهب البشرية للوصول إلى هرم الذكاء والمعرفة في شبكة من الاتصالات الكثيفة لعمل الجينات والبروتينات في المعالجات النانوية (أحمد زويل) ضمن الدماغ البشري على سطح كوكب الأرض.

واللغة العربية هي وسيلة التواصل والتعبير وهي أداة العقل في التفكير وفي كل ما أبدع عقل الإنسان وخياله وما صنعت يداه ويصعب تصور حياة الإنسان دون لغة.

وحدة الحياة

تثبت كل معطيات الجينوم للقرن الحادي والعشرين أن الكائنات الحية قاطبةً تأتي إلى الحياة بفعل الوراثة وما تحملها من معلومات وراثية وتعيش في كون ذكي تتناغم فيه المنظومات الفيزيائية والكيميائية والجيولوجية والفلكية والحيوية بدقة حتى يتمكن الإنسان من الحياة في كون مصمم ومبرمج لضمان سلامة الحياة واستمراريتها.

فوحدة الحياة مرتبطة بوحدة الكون ووحدة الذرات وهذا هو البرهان على وحدانية الخالق في خلق الحياة المبرمجة والمتناغمة مع خلق الكون وبذلك فوحدة الله في وحدة خلقه. ومجيء الإنسان إلى الحياة هو احتمال أقل من واحد من مليار ولهذا علينا أن نحترم الحياة بكل قوانينها ومعانيها وأن نستخدم العقل والفكر العلمي وإبداعاته في أعلى مستوياته في كل مجالات الحياة وفي فهمنا لمختلف الفلسفات البشرية للحياة وثقافاتها وتطورها عبر العصور.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علاقة العرب بِالفُرْسِ قبل الإسلام

حسن موسى النميري*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يخطئُ مَنْ يَزعمُ أنَّ العربَ كانُوا أُمَّةً مَحصورةً في جَزيرتِها، مُنْعزِلَةً في بِلادِها عَمَّن يُحيطُ بِها، تَقبَعُ في باديَتِها، فتَسْفي عَلَيْها الرّياحُ بِسَوافِيها مِنْ رِمالِ الصَّحْراءِ، وتَلفَحُ وُجُوهَهم لَوافِحُ الشَّمْسِ اللاَّهِبَةُ المُسْتَعِرَةُ، فَتَضطَرُّهم ظُرُوفُ الجَوِّ القاسِيَةُ إلى الإخْلادِ إلى الأَرضِ، والهُروبِ مِن هذا الواقِعِ المُرِّ بِاتِّجاهِ البَحْثِ عن أماكنَ قد يَجِدونَ فيها راحَتَهُم، ورُبَّما يَتَمَكَّنُونَ فيها مِنَ الاسْتِرْخاءِ.. وهذا يَدعُوهم إلى الزُّهْدِ بِأُمُورِ الدّنيا،

---

* باحث في التراث العربي (فلسطين).

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

والعُــزُوفِ عنِ التَّطلُّعِ إلى آفــاقٍ جَديدَةٍ في الحيــاةِ، ومُنَافسَةِ الأُمَمِ علــى الارْتِقاءِ في سَلالِمِ الحَضَارةِ والتَّقــدُّمِ. فَتُعرِضُ نُفُوسُهم عــن طَلَبِ التَّجْديــدِ، والبَحْثِ عــن وَسائلِ التَّطْويرِ، وسُبُلِ التَّحْديثِ.. وعِندَئِذٍ تَرتَخي جُهُودُهم عن طَلَبِ لَذائذِ الأطعِمَةِ، وأصنافِ الأشربَــةِ، مُكتَفِينَ بأحلابِ مَواشيهِم، وألبَانِ إبِلِهِــم.. يَلبَسُونَ غَليظَ الأكسِيَةِ، راضينَ بِمَا خَشُنَ مِنَ الأقمِشَــةِ والأرْدِيَةِ والحِرْمانِ من لَيِّنِ الفُرُشِ، وَوَثيرِ الأغطِيَــةِ.. تُتَّهَمُ الباديَةُ بأنَّها طَبَعَتْ طَبائعَهم بِخُشُونَتها، وأثَّرَ جَدْبُ الصَّحْــراءِ في نُفُوسِهِمْ، مَــا أدّى إلى جَدبِ قَرائحِهِم، وإمحَــالِ عَواطِفِهِــم، وتَيَبُّسٍ في مَشاعِرِهِــم وأحاسيسِهِم، فَيَصْــدُرُ الحُكمُ الجائرُ الظالمُ بأنَّهم قَــومٌ جَهَلَةٌ، عَمَّ الجَهْلُ عُقُولَهم، وطَمسَ الظَّلامُ أفكارَهم، وغَطَّتْ دَياجيرُ التَّخَلُّفِ مَدارِكَهم.

هذهِ بَعضُ صُوَرِ مــا يَتَّهِمُ أعداءُ العَرَبِ العَرَبَ بِــهِ، والحَقيقَةُ أنَّ العربَ ليْسُوا على هذهِ الصُّــورَةِ، والباديَةُ التــي عاشَ العربُ فيهــا لَيسَــتْ سُوءًا كُلُّهــا، فَمِــنْ مَحاسِنِها صَفاؤُهــا، وقَد صَبَغَــتْ بِصَفَائهَا نُفُوسَهم، ومِنْ فَضَائلِها انْفِتَاحُها، فَفَتَحَتْ قُلوبَهم على مَشَاعِرِ الحُبِّ الخَالِصِ، والمَوَدَّةِ الصَّافِيَةِ، وعَوَاطِفِ الإخَاءِ الصَّــادِقِ، ورَوابِطِ العِشْرَةِ الطَّيِّبَةِ بــينَ البَشَرِ، بَعيدًا عنْ تَأزُّمِ العَلائقِ، والْتِواءِ المَشاعِرِ، وتَعَقُّدِ الأحاسيس.

تَعامَلَ العربُ مَعَ جيرانِهِم، بِمِثْلِ ما تَعَامَلَ مَعَهم الآخرونَ؛ فالتاريخُ يُحَدِّثُنَا أنَّ صِلاتٍ طَيِّبَةً كانــت بينَ العــربِ وجيرانِهِم الفُرسِ (الذيــنَ كانَ يُقــالُ لَهم العَجَــم) فقد كانَ بَعضُ عَربِ العِراقِ، وسَواحِلِ الخَليجِ العربيِّ ((الذي كان يُقالُ لَهُ (الخَليجُ الفارِسي) ومَا زالَتِ التَّسْمِيَــةُ تُستَحلَى مِنْ بَعضِ أصْحابِ الفِكرِ المُتَعالي الأعــوج)).. أقُولُ كانَ بَعضُ عربِ العِراقِ وسَواحِلِ الخَليجِ يُؤدُّونَ الجِزْيَةَ لِلمَلِــكِ الفارسـيِّ قُورش وذلــك نَحو سنة (٥٥٠) قبل الميلاد.

ثُمَّ إنَّ (عَرَبًا) علــى ظُهُورِ الإبِلِ سَانَدُوا الحَمْلَــةَ الفارسيَّةَ على اليُونــانِ عام ٤٩٢ قَبلَ الميــلادِ، وَوُضِعَ الجيشُ العربيُّ في هذهِ الحَمْلَــةِ في مُؤَخَّرَةِ الجيشِ الفارسيِّ؛ لِئَلاَّ تَجفَــلُ الإبلُ مِن أفيالِ الفُرسِ، ومُدَرَّعاتِ اليُونانِ(١).

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

لكِـنَّ أحداثًا صَغيرةً كانـتْ تَقَعُ أحْيَانًا، فَتُعَكِّـرُ العَلاقةَ، وتُلبِّـدُ الأجْواءَ، فَفي عهدِ المَلِـك الفارسي سابـور الأوّل بـن أردشير (٢٤١- ٢٧٢م) كانَ في الجزيـرةِ بـينَ دِجلةَ والفُراتِ مَلِكٌ عَرَبِيٌّ يُقـالُ لَهُ (السَّاطرون) وهوَ مِـنَ الجَرامِقَـةِ، في مَدينةٍ يُقـالُ لَها (الحَضْـرُ)[٢] وهذا المَلِكُ هو الـذي يُسَمِّيهِ العربُ (الضَّيْـزَنَ) وكانَ مُلْكُهُ يَضُمُّ شَمالي العِراقِ، وبَلَغَ سُلطانُهُ الشَّامَ.. كانَ هذا المَلِكُ قد أغـارَ على نَواحٍ مِن سَوادِ العِراقِ، وهَدَّدَ حُدودَ دَولَةِ فارسـن.. هاجَمَها فَأصَابَ أُخْتًا للمَلِكِ سَابُور، وفَتَـحَ مَدينَةَ (نَهرِ شير) وقد خَلَّدَ هذهِ الغارةَ شاعِرٌ عَربيٌّ قَديمٌ مِن قبيلةِ قُضاعةَ، اسْمُهُ عَمْرو بنُ إِلَّه[٣] حيثُ قال:

لَقِيناهُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عِلافٍ
وبِالخَيْلِ الصَّلادِمَةِ الذُّكُورِ[٤]
فَلاقَتْ فارِسٌ مِنَّا نَكالاً
وقَتَّلْنا هَرابِذَ شَهْرزُورِ
دَلَفنا لِلأعاجِمِ مِنْ بَعيدٍ
بِجَمْعٍ مِ الجَزيرَةِ كالسَّعيرِ[٥]

وقال عَمْرو بنُ إلَّه[6]: يذكُرُ مَقتلَ الضَّيْزَنِ، وتهديم العَجَم لحِصْنِه، وكانَ عَمْرو مَعَ الضَّيْزَنِ، فَجَمَعَ لَهُ سَابُور[7] جُمُوعًا، وهاجَمَهُ فَحَاصرَ حِصْنَهُ لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ، انْجَلَتْ عَن فَتْحِ الحِصْنِ، ومَقتلِ الضَّيْزَنِ:

أَلَمْ يَحْزُنْكَ، والأنْبَاءُ تَنْمي
بِمَا لاقَتْ سَرَاةُ بَنِي العَبِيدِ[8]
ومَصْرَعُ ضَيْزَنٍ، وبَنِي أبِيهِ
وأحْلاسِ الكَتَائِبِ مِنْ تَزِيدِ[9]
أتَاهُمْ بِالفُيُولِ، مُجَلَّلاتٍ
وبِالأبْطَالِ سَابُورُ الجُنُودِ[10]
فَهَدَّمَ مِنْ أوَاسِي الحَضْرِ صَخْرًا
كَأنَّ ثِقَالَهُ زُبَرُ الحَدِيدِ[11]

وأشارَ الأعشَى إلى مَا فَعَلَهُ كِسْرَى، مِنِ اقْتِحَامٍ لِمَدِينَةِ (الحَضْرِ) عاصِمَةِ الضَّيْزَنِ، حيثُ يَقُولُ مُخَاطِبًا ابْنَتَهُ:

ألَمْ تَذْكُري الحَضْرَ إذْ أهْلُهُ
بِنُعمَى، وهَلْ خَالِدٌ مَنْ نَعِمْ
أقَامَ بِهِ (شَاهَبُورُ الجُنُو
دِ) حَوْلَيْنِ تَضْرِبُ فِيهِ القُدُمْ[12]
فَمَا زَادَهُ رَبُّهُ قُوَّةً
ومِثْلُ مُجَاوِرِهِ لم يُقِمْ
فَلَمَّا رأى رَبُّهُ فِعْلَهُ
أتَاهُ طُرُوقًا فَلَمْ يَنْتَقِمْ[13]
وكَانَ دَعَا رَهْطَهُ دَعْوَةً
هَلُمَّ إلى أمْرِكُمْ، قَدْ صُرِمْ
فَمُوتُوا كِرَامًا بِأسْيَافِكُمْ
ولَلْمَوتُ يَجْشُمُهُ مَنْ جَشِمْ[14]
ولَلْمَوتُ خَيْرٌ لِمَنْ نَالَهُ
إذا المَرْءُ أمَّتُهُ لَمْ تَدُمْ[15]

يَعلَمُ كُلُّ مَنْ قرأ شيئًا مِن تاريخِ دولةِ المَنَاذِرةِ أنَّ هذهِ الدَّولةَ كانتْ لَها عَلاقاتٌ وطيدَةٌ مَعَ دَولَةِ الفُرسِ، وَروابطُ مُتَعَدِّدَةُ الأشكالِ بَعضُها عَسْكَرِيٌّ، وبعضُها اجْتِماعِيٌّ وآخَرُ مَادّيٌّ وَمَعنَويٌّ، وقد بُنِيَتْ هذِهِ العَلائقُ على المَنَافِعِ المُتَبادَلَةِ، والفَوائِدِ المُشْتَرَكة.. ففي مَجَالِ العَلاقاتِ العَسكَرِيَّةِ ساعَدَتْ دَولَةُ الفُرسِ المَنَاذِرَةَ على تَشكِيلِ فَيْلَقَيْنِ عَسكَرِيَّيْنِ هُمَا (كَتِيبَةُ دَوْسَرَ وكتيبةُ الشَّهْبَاءِ (أو الأشاهِبِ).. واسْتَمَرَّ دَعمُ الفُرسِ وتَأييدُهم حتى اكتَمَلَ بِناءُ ثَلاثَةِ فَيَالِقَ عَسكريَّةٍ أُخرَى بَعدَ الفَيْلَقَيْنِ السَّابِقِ ذِكْرُهما، وهذِهِ الفَيَالِقُ هِيَ (الصَّنَائِعُ والوَضَائِعُ والرَّهائِنُ) كانتْ هذِهِ الكتائبُ وَسيلَةَ مُلوكِ المَنَاذِرةِ للبَطْشِ بِمَنْ يُناوِئُهُمْ، وسِلاحَهُمْ لِتطويعِ مُناصِرِيهِمْ، واكتِسابِ المُؤيِّدينَ، وإرْغامِهِمْ على الالتِفافِ حَولَ المَناذِرَةِ، والتَّعاونِ على تَحقيقِ مَآرِبِهِمْ.

وتَطَوَّرَ الأمْرُ فَصارَ أكاسِرَةُ الفُرسِ يُنْعِمُونَ على مُلُوكِ آلِ المُنْذرِ بتيجانٍ تُزَيِّنُ مَفارِقَهم، وهَدايا وهِباتٍ تُمنَحُ لِزُعَماءِ القَبائِلِ التي تَدعَمُ مَلِكَ المَناذِرَة، الذي لم يَكنْ في نَظَرِ بَعضِ مُلوكِ الفُرْسِ إلاَّ والٍ مِن وُلاتِهِمْ، ومُحارِبٌ تَنْتَهي مَهَمَّتُهُ عِندَ الدِّفاعِ عن حُدُودِ دَولتِهِمْ.

هذا من جِهَةِ الفُرْسِ، فَمَا الذي كانَ يُقَدِّمُهُ الطَّرفُ العَرَبيُّ لِلسَّيِّدِ الفارسيّ؟ كانتْ قَبائِلُ العَرَبِ تَدفَعُ إتاواتٍ (ضَرائبَ) لِلحاكِمِ العَرَبيِّ مِنْ آلِ المُنْذرِ، مُقابِلَ ما تَدَّعيه هذه السُّلطَةُ مِنْ حِمايَةٍ لِهذِهِ القبائل، وصِيانَةٍ لِمُمْتَلَكاتِها، لكنَّ هذِهِ القبائلَ لم تكنْ تَدفَعُ هذِهِ الإتاواتِ عنْ رِضىً وطيبِ نَفْس، وإنَّما كانتْ تَدفَعُها مُرْغَمَةً، مُسْتاءةً، تَتأفَّفُ وتَتَضَجَّرُ.. يَدُلُّنا على ذلكَ قَولُ جَابِرِ بنِ حَنِيِّ التَّغلبي، يَذكرُ ضَرائبَ، يُجْبَرُ على دفْعِها مَغلوبًا مَقْهُورًا:

أفي كُلِّ أسواقِ العِراقِ إتَاوَةٌ
وفي كُلِّ ما بَاعَ امرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ[١٦]

ألاَ يَنْتَهي عَنَّا مُلوكٌ، وتَتَّقي
مَحارِمَنَا، لا يَبُؤِ الدَّمُ بِالدَّمِ[١٧]

ويَشعُرُ يَزيدُ بنُ خَذَّاق[١٨] بِثِقَلِ وَطْأةِ الحُكَّامِ مِنَ المَناذِرَة، وقَسوتِهِم وفَظاظَتِهِم على رَعاياهُم، وما يَفْرضُونَ عليْهِمْ مِنْ (مُكُوسٍ) وضَرائبَ، فيَقولُ:

أقيمُوا بَني النُّعْمانِ عَنَّا صُدورَكُمْ
وإلاَّ تُقيمُوا -صَاغِرينَ- رُؤوسا

أكَابِنَ المُعَلَّى خِلْتَنَا، وحَسِبْتَنَا
صَرارِيَّ نُعطي المَاكِسِينَ مُكُوسَا[١٩]

وكانَ مُلوكُ المَناذِرَةِ بِدورِهِم يَدفَعُونَ الجِزْيَةَ لِلسَّيِّدِ الفارسيّ (أعني المَلِكَ الفارسيَّ) فَهُم مُقابِلَ تَحْصيلِهِمْ لِلضَّرائبِ مِنَ القبائِلِ المُنْضَويَةِ تَحتَ سُلطانِهِمْ، المُعتَرِفَةِ بالوَلاءِ لَهُمْ.. يَدفَعُونَ (أمْوالاً) لإرْضاءِ البَلاطِ الفارسيِّ، ولِكَسْبِ رِضاهُ وتَأييدِهِ.. لكنَّ حُكَّامَ المَناذِرَةِ كانُوا يَتَقاضَوْنَ أمْوالاً من دَوْلَةِ فارسَ لِيَتَقَوَّى بها الحُكَّامُ عَسكريًّا، ولِيَشْتَرُوا وَلاءَ زُعماءِ القَبائِلِ لَهُمْ، ثُمَّ لِلفُرسِ أيضًا.

لكنَّ عَلاقَةَ العَرَب؛ أعني المُواطِنِينَ العاديِّينَ مِنَ النَّاسِ بِالفُرسِ لم تَكنْ سَيِّئَةً، فَالمُواطِنُ العربيُّ لم يَكنْ يَنْظُرُ لِلدَّوْلَةِ الفارسيَّةِ، كما يَنظُرُ المَحكومُ المَغلوبُ على أمْرِهِ إلى حاكِمِه وقاهِرِه، والشَّعبُ المُستَعمَرُ المَسْلوبُ الإرادَةِ إلى مُسْتَعمِرِهِ وسالِبِ إرادَتِه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإنَّمَا كانُوا أو كانَ مُعظَمُهُمْ علـى الأقلّ يَنْظُـرُ للدَّولَةِ الفَارسيَّـةِ، وللحُكَّامِ الأكاسِرَةِ مِنَ الفُرسِ نَظْرَةَ الحَليفِ والمُسَانِدِ والمُنَاصِرِ والمُعينِ والمُؤازِرِ.

تَتَجلَّـى أجمَلُ صُـورَةٍ مِنْ صُـوَرِ حُسْنِ الجِـوَارِ، ويَبدُو أبْهَـى مَظْهَرٍ مِـن مَظَاهِرِ التَّعاوُنِ والتَّعاضُـدِ بينَ الأُمَمِ، فِي التَّجْريدَةِ العَسكَرِيَّةِ التي قَدَّمَها الفُرسُ للزَّعيمِ اليَمَانيِّ (سيف بن ذي يَزَن) حينَ طَلَبَ المُسَاعَدَةَ على إخْراجِ الأحباشِ الذينَ غَزَوْا أرضَ اليَمَنِ.

اسْتَعانَ سَيفٌ بِقَيْصَرِ الرّومِ أوّلاً، فأدارَ لَهُ ظَهرَهُ، ولم يُعِرْهُ اهتمامًا، واعتَذَرَ بِبُعدِ بِلادِهِ عن بِـلادِ اليَمَنِ، ورُبَّمَا بِعَدَمِ اكتِراثِهِ باليَمَنِ والعَـرَبِ جَميعًا.. فاتَّجَهَ سيـفٌ إلى كِسْرَى لكِنَّـهُ هوَ الآخَرُ لم يكنْ مَوْقِفُـهُ إيجابيًّا أوّلَ الأمْرِ.. اسْتَمَعَ إلى مَقالَةِ سَيفٍ، فلَمْ يَتَحَمَّسْ لإجابَةِ طَلَبِهِ،وأمَرَ لَهُ بِمَبْلَغٍ مِنَ المَالِ يَستَعينُ بِـهِ فِي طَريـقِ عَودَتِهِ إلى أهلِـهِ.. ولَمَّا خَرَجَ سيفٌ أخَـذَ يَنْثُرُ دَراهِمَ المَلِـكِ على حُرَّاسِ القَصْـرِ، وزُوَّارِ المَلِكِ وعلى كُلِّ مَنْ التَقَى بِهِ على بابِ القَصْرِ، فأغْضَبَ بِفعلِهِ ذلكَ رِجالَ الدَّولَةِ، فدَخلُوا مُسْرِعينَ وأعلَمُوا كِسْرَى بِمَا فَعَلَ هذا العرَبِـيُّ الأحمَقُ، فأمَرَ بإحْضارِهِ، وهوَ يَكادُ يَتَمَزَّقُ غيظًـا مِمَّا فَعَلَ سيفٌ، إذْ عَدَّ ذلكَ اسْتِخْفافًـا واسْتِهانَةً بِمِنْحَةِ المَلِكِ وجَائِزَتِهِ.. ولَمَّا أُعيدَ سَيفٌ إلى حَضرَةِ المَلِكِ، سَأَلَهُ عن تَفريقِ المَالِ، ورَمْيِهِ على النَّاسِ، قال: وما أفْعَلُ بِالمالِ؟ وبِلادِي تَنبُعُ ذَهبًا وفِضَّةً!! ثُمَّ اسْتَعـبَرَ وبَكَى.. فَرَقَّ لَهُ المَلِـكُ وأجْلَسَهُ بِجانِبِهِ.. وكانتْ ساعَةً رَحمانيَّةً، حينَ تَدَخَّلَ أحَدُ جُلَساءِ المَلِكِ قائلاً: أيُّها المَلِكُ العَظيمُ! إنَّ فِي سُجونِ البِلادِ مِئـاتٍ مِنَ المَحكومينَ، فـإنْ رَأى المَلِكُ العَظيـمُ أنْ يَأمُـرَ بإخْراجِ بَعضِ هؤلاءِ، ثمّ يَأمُرُ بتَسليحِهِمْ، وإرسالِهِمْ مَعَ هذا العربيِّ، فإنْ أحْسَنُوا وفَتَحُوا أرضًا، أُضِيفَـتْ إلى أرضِ المَلِكِ، وإنْ فَشِلُوا ومَاتُوا، كانَ بِذلكَ تَخَلُّصًا مِنْ أذاهُمْ.

أعجبَتِ الفِكـرَةُ المَلِكَ، فأمَـرَ بإخْراجِ (٨٠٠) ثَمانِمِئَـةِ رَجُلٍ مِنَ المَحْكـومِ عَليْهِمْ بالإعدامِ، وحَمَلَهُم علـى ثَماني سُفُنٍ، وأمَّرَ عَليْهِـمْ رَجُلاً يُقالُ لَهُ ((وَهْرز)) ونَزَلُوا على سَاحِلِ عَدَنَ، وجَمَعَ سَيفٌ ما اسْتَطاعَ مِنْ أهْلِ اليَمَنِ، وقالَ لِوَهْـرز: رِجْلي مَعَ رِجْلِكَ فَإمَّا نَمُـوتُ مَعًا، أو نَفُوزُ مَعًـا.. والتَقَى الجيشُ

العَرَبيُّ الفارسيُّ المُشْتَرَك، وكانَ يُقالُ لِلفُرْسِ (بَنُو الأحْرارِ)ب جَيْشِ الحَبَشَةِ، فَرَمَى وَهْرِزُ (مَسْرُوقَ بـنَ أبرهَةَ) قائدَ جيشِ الحَبَشَةِ بِسَهْـمٍ فَلَقَ رَأسَهُ، والتَحَمَ الجَيْشانِ، وتَقاتَلا قِتالاً عَنيفًا، ثُمَّ انْجَلَتِ المَعركَةُ بِهَزيمَةٍ مُنْكَرَةٍ لِلأحباشِ.. خَلَّدَهـا أبو الصَّلتِ الثَّقَفي (واسْمُهُ ربيعَةُ بن وَهب) فقال فيها:

لِيَطلُبِ الوِتْـرَ أمثالُ ابْـنِ ذي يَـزَنٍ
رَيَّمَ في البَحْـرِ لِلأعداءِ أحْـوالا[٢٠]
حتَّى أتَـى بِبَنِي الأحْـرارِ يَحْمِلُهُمْ
إنَّـكَ عَمْري لَقَـد أسرَعتَ قِلقالا[٢١]
بِيضًـا مَـرازِبَـةً، غُلْبًـا أسـاوِرَةً
أُسْدًا تُـرَبِّبُ في الغَيْضَاتِ أشْبالا[٢٢]
أرْسَلتَ أُسْدًا على سُودِ الكِلابِ فقدْ
أضحَى شَريدُ هُمُ في الأرضِ فُلَّالا[٢٣]

كانَ مُلوكُ الحيرَةِ يَحْرِصُونَ كُلَّ الحِرْصِ على دَيْمُومَـةِ وَلاءِ قَبائِلِ العـربِ المُنْضَويَةِ تَحتَ لِوائِهِمْ، واسْتِمْرارِ هذا الوَلاءِ، فإذا ما تَفَلَّتَتْ إحـدَى هذهِ القبائِلِ مِنْ قَبْضَتِهِم، أو حاوَلَـتْ تَغييرَ وَلائِها، نَالَهَا مِنْ سَيِّدِها المَلِكِ أقسَى أنواعِ العِقـابِ، وأذاقَها أشَدَّ أصْنافِ القَهْرِ.. وهـذا ما حَصَلَ لِقبيلـةِ تَغلب مَعَ المَلِكِ عَمْرو بن هِند، فَهوَ عِنْدَمَا تَوَلَّى المُلكَ بَعْـدَ مَقتَلِ أبيهِ (المُنذر بن ماء السَّمَاء) على يَدِ (الحـارثِ الأعرج ابن جبلة الغَسَّاني) في يوم عين أباغ، طَلَبَ مِن تَغلبَ مُساعَدَتَهُ على الأخْذِ بِثـأرِ أبيهِ، فَتَمَلمَلُـوا وتَمَنَّعُوا لِكَلامٍ بَلَغَهُـم عَنْهُ وهو أنَّهُ قـالَ في أحَدِ مَجالِسِهِ: (ما تَغلِبُ إلاَّ رِعَاءٌ[٢٤] عِنْدي) فَغَضِبَ عليْهِمْ وغَزاهم، فَآذاهُمْ وأوْجَعَهم، انْتِقامًا لِرَفْضِهِم الانْصِيـاعَ لأمْرِهِ، والانْقِيـادَ لِرَغبَتِهِ.. وقد أشارَ الشَّاعـرُ (الحارثُ بنُ حِلِّزَة) وكانَ بينَ قَوْمِـهِ (البَكريينَ) وبينَ تَغلِـبٍ تَنافُسٌ، وقد ألقَى الحارثُ قصيدَتَهُ التـي مِنْها الأبياتُ التَّاليـةُ، بينَ يَدَيِ المَلِكِ عَمْرو بن هِنْد، وهوَ عَنْهُ راضٍ:

فَمَلَكْنَـا بِـذَلِـكَ النَّـاسَ، حتَّـى
مَلَـكَ (المُـنْذِرُبنُ مـاءِ السَّمَـاءِ)
وهـوَ الـرَّبُّ والشَّـهيدُ علـى يَـوْ
مِ الحِيَـارَيْـنِ، والـبَـلاءُ بَـلاءُ
مـا أصَـابُوا مِـنْ تَغـلِبيُّ، فَمَطلُو
لٌ، عَلَيْـهِ إذا أُصِيبَ العَفَـاءُ[٢٥]
كَتَكاليفِ قَـوْمِنَـا إذْ غَـزَا المُنْذِ
رُ، هَـلْ نَحْـنُ لابْـنِ هِنْـدٍ رِعَـاءُ؟[٢٦]

الحَارثُ بنُ حِلِّزَةَ بَكريٌّ (مِنْ بَكرِ بن وائل) وهـم أبناءُ عُمُومَةِ تَغلب، لكنَّ مُنافَسَةً وَرِثَتْ

بَينَهم خُصُوماتٍ وأحْقـادًا، وهوَ في مُعَلَّقتِهِ يَبْدُوكأنَّـهُ في مُناظَرةٍ مَعَ عَمْـرو بن كُلثُوم، فقد ذَكَّـرَ الحَاضِرينَ ومِنْهـم المَلِكُ (عَمْرُو بنُ هِنْـد) باعْتِداءاتِ الأراقِم (وهُمْ فَرْعٌ مِنْ تَغلِب) على قَوْمِهِ، وذَكَرَ ما نَتَجَ عن ذلكَ مِنْ آثام، وما تَسبَّبَ مِنْ أحْقَادٍ وضَغائن.

مِثْلُ هذا السُّلُوك مِنَ المَلِكِ العَرَبيِّ تُجاهَ (شَعْبِهِ) وأنْصارِهِ، يَعُدُّهُ الفُرسُ أمْرًا دَاخِليًّا، قد يُؤَيِّدُونَهُ لأنَّهم يُريـدونَ أنْ تَكونَ قَبْضَةُ حَليفِهِمْ قَويَّةً شَديدَةً علـى شَعبِهِ ومُؤَيِّدِيه، لكنَّهـمْ رُبَّمَـا اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ إنْ قَـدَّرُوا أنَّ سُلُوكَ المَلِكِ قد يُؤَدِّي إلى نَتَائِجَ عَكسِيَّةٍ..

لم يكـنِ المَنَـاذِرَةُ (في رأي العَرَبِ قَديمًا وحَديثًـا) مُجَرَّدَ وُلاةٍ وعُمَّالٍ لأكاسِرَةِ الفُرسِ على الحِـيرَةِ وما والاها، ولكـنَّ عَلاقَتَهُمَا كانتْ أعمَقَ مِنْ ذلكَ وأشَدَّ، فقد كانَ بَيْنَهما تَحَالُـفٌ وتَعاوُنٌ وصَداقَةٌ، ودِفـاعٌ مُشتَرَكٌ، يَقِفُ أحَدُهما مَـعَ الآخَرِ يُؤَيِّدُهُ، ويَمُدُّهُ بِكُلِّ وَسائـلِ القُوَّةِ والمَنَعَةِ.. صَحِيـحٌ أنَّ القُوَّتَيْنِ غَيْرُ مُتَكافِئَتَيْنِ، والكِيَانَـيْنِ لَيْسَا مُتَساوِيَيْنِ، وقُلـوبُ الحُكَّامِ في البَلَدَيْنِ لم تَكُنْ على وِفَاقٍ دائم، وصَفَاءٍ كامِـلٍ، وسَلامٍ مُسْتَمِرٍّ.. ولكِنَّ المَصَالِحَ كانتْ تَربِطُ بَيْنَهما، وتَشُدُّ أحَدَهما إلى الآخَرِ، وزَعْزَعَةُ هـذا الوِفاقِ رُبَّمَا تُؤَثِّرُ على بَقـاءِ الكِيانَيْنِ مَعًـا، والخِلافُ إذا ما حَدَثَ قد يُقَوِّضُ بناءَيهِما ومُسْتَقبَلَهُمَا.

لم تَكنْ عَلاقَةُ الحُكَّامِ في البَلَدَيْنِ بِمُستَوىً واحِدٍ، فَقَد تَتَوطَّدُ عُرَى الصَّداقَةِ، ورَوابِطُ المَحَبَّةِ بينَ الحاكِمَيْنِ المُتَعاصِرَيْنِ، حتى لَيَعهَدَ أحَدُهُما للآخَرِ بِتَرْبِيَةِ ابْنِهِ، والعِنايَةِ بِهِ مُنْذُ وِلادَتِـهِ حتى يَشِبَّ ويكبرَ،كمـا حَدَثَ لِلمَلِكِ الفارِسـيِّ (يَزدَجرد) الذي دَفَعَ بِابْنِهِ (بَهرام جُور) إلى النُّعمانِ بنِ المُنذِرِ، وطَلَبَ أنْ يَبنيَ قَصرَ الخَوَرْنَقِ في الحِيرَةِ لِيكونَ مَسْكَنًا لابْنِهِ، بعدَ أنْ نَصَحَهُ أطِبَّاؤهُ ووُزراؤهُ أنْ يَنقُلَ وَلَدَهُ إلى أرضِ الحِـيرَةِ، لأنَّ أرْضَهَا صِحِّيَّةٌ مَريئَةٌ بَعيدَةٌ عنِ الأوبِئَـةِ والأدواءِ؛ هَواؤُها عَليلٌ، وشَمْسُها صافِيَةٌ، وجَوُّهَا مُعتَدِلٌ.. وقد كانَ يَزدجـرد يَمُوتُ أولادُهُ وهم صِغـارٌ، فَنُصِحَ بإرْسالِ وَلَدِهِ إلى حَليفِهِ (النُّعمانِ بنِ المُنذِرِ) لِيَتَرَبَّـى على حَياةِ العـربِ التي تَمتَزِجُ فيها البَسَاطَةُ والإباءُ وعِـزَّةُ النَّفْسِ، والفُروسِيَّةُ وحُـبُّ الحَياةِ الفِطْرِيَّةِ كالصَّيْـدِ والقَنْصِ، ومُمَارَسةِ الرِّياضَةِ والفُتُوَّةِ..

وقد ثَبَتَ لَدَى الدَّارِسِينَ أنَّ تَعاوُنًا كَبيرًا كانَ قد حَصَلَ بينَ حُكَّامِ دَولةِ الفُرسِ، وحُكَّامِ دَولَةِ العَرَبِ المَناذِرَةِ، كانَ هذا التَّعاوُنُ مَبنيًّا على المَنافِعِ المُتبادَلَةِ، والمَصالِحِ المُشْتَرَكَةِ التي دامتْ أكثرَ مِن أربعَةِ قُرونٍ ونِصفٍ(٢٧) فَفي هذا التَّعاوُنِ مَصلَحَةٌ لِلطَّرَفَيْنِ، وفائدَةٌ لِلحَليفَيْنِ.. فَمُلوكُ الفُرسِ وَجَدُوا في دَوْلَةِ المَناذِرَةِ ومَنْ يُؤيِّدُها مِن قَبائِلِ العربِ خَيرَ مُدافِعٍ عَن حُدُودِها، وأفضَلَ مُحامٍ عن ثُغُورِها، وفَوقَ ذلكَ يَدفَعُ حُكَّامُ الحِيرَةِ الجِزْيَةَ لِلأكاسِرَةِ، مِمَّا يَجْمَعُونَ مِنْ ضَرائبَ مِنَ القَبائِلِ المُنْضَوِيَةِ تَحتَ لوائِهم، يَدفَعُها هؤلاءِ مُقابِلَ حُرِّيَتِهم في التَّنَقُّلِ، ورَعْيِ إبِلِهِم ومَوَاشيهِمْ في سَوادِ العِراقِ، والحُدودِ المُشتَرَكَةِ بَيْنَ العراقِ وبِلادِ فارسَ، وهِيَ أراضٍ عاليَةُ الخُصُوبَةِ، كَثيرَةُ الخَيْراتِ.

ونَتيجَةً لِلتَّقارُبِ بَيْنَ دَوْلَتَيِ الفُرسِ والمَناذِرَةِ، والاحْتِكاكِ بَينَ الشَّعبَيْنِ العربي والفارسي تَأثَّرَتْ لغتَا الشَّعبَيْنِ، فَدَخَلَتِ اللُّغَةَ العربيَّةَ كَثيرٌ مِنَ المُفرَداتِ والألفاظِ الفارسيَّةِ، وتَسَلَّلَ كَثيرٌ مِنَ ألفاظِ اللُّغَةِ العربيَّةِ وقَواعِدِ نَحْوِها، إلى لُغَةِ الفُرسِ نتيجةً لِهذا التَّواصُلِ والتَّقارُبِ

ومِنْ مَظاهِرِ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ لِلتَّقارُبِ العربيِّ الفارسيِّ، ما اسْتَفادَهُ العربُ مِن قَواعِدِ فَنِّ الهَنْدَسَةِ والإنْشاءِ والتَّعميرِ.. فقد أقامَ العربُ مُنْشَآتٍ عِمرانِيَّةً على قَواعِدَ فارِسِيَّةٍ، واسْتَعانُوا بِمُهَنْدِسِينَ وعُمَّالٍ مَهَرَةٍ لإنْجازِ هذهِ المُنْشَآتِ، كَبناءِ (قَصْرِ الخَوَرْنَقِ(٢٨)) الذي بُنِيَ في عَهْدِ النُّعمانِ بنِ امرئ القيس على طِرازٍ فارسيٍّ، وأشرَفَ على تَنفيذِ بنائِهِ بَنَّاءٌ فارسيٌّ شَهيرٌ اسْمُهُ (سِنمَّار(٢٩)) دَفَعَ المِسكينُ عُمْرَهُ ثَمَنًا لإجادَةِ عَمَلِهِ.. ومِنَ المُنشَآتِ التي بُنِيَتْ على طِرازٍ فارسيٍّ (قَصْرُ السَّدِيرِ(٣٠)).. وقد جَمَعَ الأسوَدُ بنُ يَعفُرَ(٣١) بَيْنَ القَصْرَيْنِ السَّابِقِ ذِكْرُهُما في بَيْتٍ واحِدٍ حيثُ يَقُولُ:

ماذا أُؤمِّلُ، بَعدَ آلِ مُحَرِّقٍ
تَرَكُوا مَنازِلَهُمْ، وبَعدَ إيادِ(٣٢)
أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ وبارِقٍ
والقَصْرِ ذي الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادِ(٣٣)

وقال المُتَلَمِّسُ(٣٤) أو المُسَيَّبُ بنُ عَلَس(٣٥):

ألَكَ السَّديرُ وبارِقٌ
ومَبايِضٌ، ولَكَ الخَوَرْنَقُ(٣٦)

والقصر من سنداد ذي الشُرُفات، والنخل المُنبِق[37]

أنْ يَتَنافَسَ النَّاسُ على كسْبِ ودادِ الحُكَّام، والسَّعي لإرْضائهم، والتَّزَلُّفِ إليهم والتَّقَرُّب منهُمْ فيما يَنفعُهُم، ولا يُؤدِّي إلى الإضرارِ بغَيْرِهِم، أمْرٌ رُبَّمَا يُعَدُّ مَقبُولاً ومُبَاحًا ولا بَأسَ بِهِ.. أمَّا أنْ يَرتَبِطَ ذلكَ بالوشاياتِ، وحَبْكِ المُؤامَراتِ، مِن أجْلِ زَرعِ الفِتْنَةِ بَيْنَ الحُكَّامِ والمَحْكومِينَ، أو مِنْ أجْلِ إفْسادِ العَلاقَةِ بيْنَ مَلِكِ المَنَاذِرَةِ، وإحدَى القبائلِ التي تَدينُ إليْهِ بالوَلاءِ.. والواشي يَقصِدُ بِخُبْثٍ ومَكْرٍ ودَهاءٍ إلى تخريبِ العَلاقَةِ بينَ أولي الأمْرِ، ومَنْ يُريدُ هذا الواشي إرْغامَهُم وإذْلالَهُم، لا بقُوَّتِهِ ولكنْ بِقُوَّةِ الحَاكِمِ، يَقْصِدُ تَوجيهَ بَطشِ الحَاكِمِ وقُوَّتِهِ وجَبَروتِهِ، لإرغامِ خُصُومِهِ وإذْلالِهِمْ.

ويَكونُ الأمْرُ أكثَرَ سُوءًا وأعظَمَ شَرًّا إذا ما تَنافَسَ زُعَماءُ قَبائلِ العَربِ بيْنَ يَدَيْ كِسْرَى (مَلِكِ الفُرسِ) لِتَرتَفِعَ مَكانَةُ هذا الزَّعيمِ على حِسابِ مَكانَةِ خَصْمِهِ ومُنافِسِهِ مِن زُعَماءِ القبائلِ الأُخرَى.. وقد رأيْنَا كيفَ حَدَثَ مِثْلُ هذا إبَّانَ مَعارِكِ ذي قَارٍ حيثُ وقَفَ إياسُ بنُ قبيصةَ الطَّائي وقَبيلَةُ إيَادٍ إلى جَانِبِ الفُرْسِ، وقَدْ صَوَّبَتْ إيادُ مَوْقِفَها، فانْسَحَبَتْ بَعدَ مَعركَتَيْنِ مَعَ الفُرْسِ، مِمَّا أدَّى إلى هَزيمَةٍ مُنْكَرَةٍ، وغَيْرِ مَسْبُوقَةٍ لِلفُرسِ.. أمَّا في بَلاطِ المَنَاذِرَةِ فالأمثِلَةُ على الصِّراعاتِ بَيْنَ زُعَمَاءِ قَبائِلِ العربِ فَكثيرَةٌ، نَذكرُ مِنها:

ما فَعَلَهُ (الرَّبيعُ بنُ زِياد العَبْسِيّ) سَيِّدُ بني عَبْسٍ الذي كانَ نَديمًا لِلمَلِكِ النُّعمانِ ابنِ المُنذِرِ، مَعَ (آلِ جعفَرَ العَامِريِينَ) حينَ وَفَدُوا على النُّعمَانِ بِرئاسَةِ (أبي بَرَاء عامِرِ ابنِ مالِكٍ) الذي كانَ يُلَقَّبُ مُلاعِب الأسِنَّةِ، وكانَ مَعَهُم الشَّاعِرُ (لَبيد) وكانَ لَبيد وقتَئِذٍ فتَى حَدَثًا، لِذا كانُوا يَتْرُكونَهُ يَحْرُسُ أمْتِعَتَهُمْ، ويَرعَى لَهُم إبِلَهم.. وكانَ آلُ جَعفَرَ كُلَّمَا عَرَضُوا أنْفُسَهم ومَطالِبَهم على المَلِكِ، واقتَرَبُوا مِنْ قَضائها، تَدَخَّلَ الرَّبيعُ فَصَرَفَ اهْتِمَامَ المَلِكِ عَنْهُم وعَنْ مَطالِبِهِم، فَكانُوا يَعُودُونَ بعدَ كُلِّ لِقاءٍ مَعَ المَلِكِ مَخْذولينَ مَكْسُوري الخَاطِرِ، وكانَ لَبيد كُلَّمَا سَألَهُم عن فَشَلِهِمْ كَتَمُوهُ، حتى أغضَبُوهُ، فَهَدَّدَهم أنَّهُ لَن يَحْفَظَ لَهم أمتِعَتَهم، ولَن يَهتَمَّ

بإبلِهِم، فاضطـرُّوا لِمُصارَحتِـهِ، وقالُوا لَهُ: إنَّ خَالَـكَ الرَّبيعَ بنَ زيادٍ كُلَّمَـا اقتَرَبْنا مِنْ إقْنَاعِ المَلِـكِ بِمَطَالِبِنَا، تَدخَّـلَ فَصَدَّ المَلِكَ عَنَّا، وشَوَّهَ سُمعَتَنَا لَـدَى المَلِكِ. فقالَ لَبيد: أنا أزْجُرُهُ لَكُم، وأُفْحِمُهُ وأُسْقِطُ مَنْزِلَتَهُ لَدَى النُّعمانِ، فَخُذوني مَعَكُـم!.. فَحَلَقُوا رأسَهُ، وتَرَكُـوا ذَوائِبَهُ، وألبَسُوهُ حُلَّـةً، ثمّ غَدَوا بِهِ إلى النُّعمَـانِ.. وأُدْخِلَ لَبيد على المَلِكِ، وكانَ على غَدائِهِ مَعَ الرَّبيعِ بنِ زيادٍ، والمَجْلِسُ مِنْ حَوْلِهِمَـا مَمْلوءٌ يَغَصُّ بالوافِديـنَ.. فَتَقَدَّمَ لَبيدٌ مِنَ المَلِكِ، وراحَ يُنْشِدُ:

نَحْنُ بَنُو أُمِّ البَنينِ الأربَعَهْ
نَحْنُ خِيَارُ عَامِرِ بنِ صَعصَعَهْ
الضَّارِبُونَ الهَامَ تَحْتَ الخَيْضَعَهْ
والمُطْعِمُونَ الجَفْنَةَ المُدَعْدَعَهْ[٣٨]
مَهْلاً أبيتَ اللَّعْنَ لا تَأكُلْ مَعَهْ
إنَّ اسْتَهُ مِن بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ[٣٩]
وإنَّـهُ يُدْخِلُ فِيها إصْبَعَهْ
يُدْخِلُهُ حتى يُواري أشْجَعَهْ[٤٠]
كأنَّمَا يَطلُبُ شَيْئًا ضَيَّعَهْ

فَرَفَعَ النُّعمَـانُ يَدَهُ مِـنَ الطَّعامِ وقال: خَبَّثْتَ -واللهِ- عَلَيَّ طَعَامي يا غُلام.. وأمَّا الرَّبيـعُ فأقبَلَ علـى النُّعمَانِ يَقـول: كَذَبَ واللهِ عَلَـيَّ ابـنُ الفاعِلَةِ، وقد فَعَلْـتُ بِأُمِّهِ كَيْـتَ وكَيتَ.. فقال لَبيـد: مِثْلُكَ يَفعَلُ ذلكَ بِرَبيبَـةِ بَيْتِهِ، وأنا أقُـولُ: إنَّ أُمِّي مِنْ نِسَاءٍ عَفيفَاتٍ حَرائِرَ لا يَفعَلنَ ما تَذكُرُ (وكانَتْ أُمُّ لَبيـدٍ رَبيبَةً في بَيتِ زياد بن جَذيمَةَ العَبْسِيّ (أبي الرَّبيع).. وقامَ الرَّبيعُ وانْصَرَفَ، مَخزِيًّا يَجُـرُّ رِجْلَيْهِ، مَخذولاً مُنْكَسِرًا، وأمَرَ النُّعمانُ بِقَضَاءِ مَطالِبِ آلِ جَعفَرٍ، ثم طَرَدَ الرَّبيعَ بنَ زِيادٍ مِنْ مَجْلِسِهِ.

وفي مَجَالِ التِّجَـارَةِ وتَبَادُلِ السِّلَعِ، كانَت قَوافِلُ التِّجـارَةِ تَجري سُيُـولاً لا تَهدَأُ بينَ بِـلادِ العَرَبِ، وبِلادِ الفُرسِ والرُّومِ.. حتى الأكاسِرَةُ الحُـكَّامُ كانَتْ لَهُـم (لَطائمُ[٤١]) خاصَّـةٌ بِهِمْ، كانَتْ تأتـي إلى الحيرَةِ، أغلَبُ ما تَحمِلُهُ المِسْكُ، فَيُرسِلُ حُكَّامُ المَنَاذِرَةِ مَعَها مَـنْ يَحْرُسُهـا، ويُخْرِجُها سَليمَـةً آمِنَةً مِنَ القَبائِـلِ التي تَمُرُّ بِأراضِيهـا، وقَد يُزَوِّدُها مُلـوكُ المَنَـاذِرَةِ بِإبِـلٍ إضافِيَّـةٍ، أو بِمَوادَّ تِجاريَّةٍ خاصَّـةٍ بِهِمْ، وتُرسَـلُ اللَّطيمَةُ إلى سُـوقِ عُكاظَ لِتُباعَ هُناكَ ورُبَّمَا تُواصِلُ هذهِ اللَّطِيمَةُ رِحلَتَها فَتَصِلُ إلى ميناءِ عَدَن، وتَمرُّ بأسواقِ الحِجازِ، لِتَعُودَ مُحَمَّلَةً بِبَضائعِ الهِنْدِ والصِّينِ مِن حَريـرٍ وأقْمِشَةٍ فاخِـرَةٍ، ومِنْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بُـرُودِ العَصْبِ اليَمانيَّةِ ذاتِ الجَوْدَةِ العاليَةِ، والأحذيَـةِ، والملابسِ التي مِـنْ أصْنافِها: الوَشْيُ والعَدَنيُّ والمُسَيَّرُ(المُخطَّطُ) كما تَحملُ أصنافًا مِن تَوابِـلِ الهِنْدِ، وبَضائع الصِّينِ.. وكانَ زُعَمـاءُ قَبائـلِ العـربِ يَتَعَهَّدونَ هذهِ اللَّطائمَ، ويَعمَلـونَ على حِراسَتِها وسَلامَتِها مُقابلَ (جُعْلٍ) أيْ مَبلَغٍ مِنَ المالِ يُدفَعُ إليْهِم، لِيَمنَعُوا تَعَرُّضَها لِلأذَى مِنْ لُصُوصِ العَرَبِ، وقُطَّاعِ الطُّرُقِ في الفَيافي والقِفارِ.

* * *

وهكذا يَرَى القُرَّاءُ الكِرامُ أنَّ الأُمَّةَ العربيَّةَ مُمَثَّلَـةً بِدولَةِ المَنـاذِرَةِ، كانَتْ على عَلاقاتٍ ورَوابِـطَ مَتينَةٍ ومُتَعَـدِّدَةٍ مِنْها الاجتِماعِيُّ، ومِنْها التِّجاريُّ، ومِنْهـا العَسكرِيُّ مَعَ الأُمَّةِ الفارِسيَّـةِ، وكانَتْ هذهِ العَلاقاتُ في الغالِبِ يَحْكُمُهـا قانُونُ حُسْنِ الجِـوارِ، وتُبْنَى على تَبادُلِ المَنافِعِ، والمُشارَكَةِ فِيمَا يُفيدُ الشَّعبَيْنِ، ويُوَثِّقُ العَلاقةَ بيْنَ البَلَدَيْنِ.

الهوامش

١- جرجي زيدان/ العرب قبل الإسلام، ص١٠١ نقلاً عن هيرودوت.

٢- قال أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ٩٠/٢: الحَضْرُ: تَقَعُ مُقابل تكريت (في الأنبار بالعِراق).

٣- في الأغاني ٩٠/٢ الأبياتُ مَنْسوبةٌ لِعَمْرو بن السَّليح بن حُدَيّ بن الدَّهَا.. القُضاعي.

٤- عِلاف: قبيلة عربيّة. الصَّلادِمة: جمعُ صِلدِم؛ وهو الفَرَسُ الصُّلبُ المَتينُ.

٥- الحياة العربيّة مِنَ الشعر الجاهلي/ د.أحمد محمد الحُوفي ص١٠٧، وانْظُر أغاني دار صادر ٩٠/٢. دَلَفْنا: تَقَدَّمْنَا. م الجَزيرة: يُريدُ مِنَ الجَزيرَةِ.

٦- في الأغاني ٩٠/٢ (عَمْرو بنُ آله).

٧- كانَ العربُ يُطْلِقُونَ على سابُور هذا لَقَبَ (ذي الأكتاف؛ لأنَّهُ كانَ يَنْتَزِعُ أكتافَهُمْ وهم أحْياءٌ) ويَصِفُونَهُ بِأنَّهُ كانَ طاغِيَةً بَطَّاشًا، وهذا رُبَّمَا ما دَفَعَ العربَ إلى التَّحالُفِ مَعَ لِيليانُوس (مَلِكِ الروم) في حَرْبِهِ ضِدَّ الفُرْسِ حتى بَلَغَ عَدَدُ العربِ (١٧٠) مِئةً وسَبعينَ ألف مُقاتل كُرْهًا لِسابُور وطُغْيانِهِ/انظر الحياة العربية مِن الشعر الجاهلي لِلحُوفي ص١٠٩.

٨- تَنْمي: تَشِيعُ وتَنْتَشِرُ. سَرَاةُ القَومِ: زُعَماؤُهم.

٩- أحلاس الخَيل: الفُرسان المُلازمونَ لِظُهُورِها وأحلاس الكتائب: رِجال الحُروب. تَزيد: اسْمُ قبيلةٍ كانَتْ تُؤيِّدُ الضَّيْزَنَ، وتُناصِرُهُ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠- الفُيُول: جمعُ فِيلٍ.

١١- الحياة العربيّة مِن الشِّعر الجاهلي ص١٠٨، وأغاني دار صادر ٩١/٢. أواسي الحَضْر: أساساتُ بِنَائِهِ.

١٢- القُدُم: جمع قَدُوم (وهو آلةُ النَّجّار) وشاهبور: هو الذي يُسَمِّيهِ العربُ سَابُور.

١٣- طُرُوقًا: لَيلاً.

١٤- يَجْشَمُهُ: يَتَعَرَّضُ لهُ، ويَتَحَمَّلُ ثِقلَهُ.

١٥- ديوان الأعشى ٣١٨/٣١٩.

١٦- لسان العرب (أتي) والإتاوةُ: الخَرَاجُ أو الضَّرِيبَةُ، ويَعُدُّها العربُ نَوعًا مِن الرَّشْوَةِ. المَكْسُ: ما يَأخُذُهُ العَشَّارُ (والعَشَّار: المُوَظَّفُ الذي يأخذُ ضَرِيبَةً على السِّلَعِ).

١٧- لا يَبوءُ الدمُ: لا يُكافِئُ الدمُ بِالقَوَدِ.

١٨- يَزِيدُ بنُ خَذَّاق الشَّنِّي العَبْدي، مِن عبدِ القيسِ (أهلِ البَحْرَيْن) شاعر جاهلي، عَاصَرَ عَمْرو بنَ هِنْد/ الأعلام ١٨٢/٨.

١٩- مُعجم البُلدان لِياقوت الحَمَوي ٢٧٢/٢. الصَّراريّ: هو بالأصلِ المَلاَّح (رُبَّان السَّفينة) وأرادَ قابِضَ الأجْرة، وجابي الضَّرائب.

٢٠- رَيَّمَ: أقامَ.

٢١- بَنُو الأحْرار: هُم الفُرسُ. القلقال: شِدَّةُ الحَرَكَةِ.

٢٢- مَرازبة: جَمعُ مَرْزُبان وهو الفارسُ الشُّجاعُ مِنَ الفُرسِ. غُلب: جمعُ أغْلَب، وهوَ القَويّ. الأساوِرَة: الرُّمَاةُ مِنَ الفُرسِ تُرَبِّبُ: تُرَبِّي. الغيضات: جَمعُ غَيْضَةٍ، وهي أرضٌ رَطبةٌ شَجيرةٌ، تَتَكاثَرُ فيها الأسُودُ.

٢٣- انْظُرْ سِيرةَ ابنِ هشام ٦٧/١. فُلاَّل: مُنْهزمون.

٢٤- رِعَاء: أيْ رُعاةٌ، جَمْعُ راعٍ (وهوَ خادِمُ المَوَاشي).

٢٥- (مَطْلول: دَمُهُ هَدَر. العَفَاءُ: الانمحاءُ ولاحِظِ الإقواءَ في البيتِ الأوّلِ، ولم يَكونُوا يَرَوْنَهُ عَيْبًا.

٢٦- ديوانه ٢٩/٣٠. تَكاليف: مَشَاقّ.

٢٧- بالَغَ بعضُ المُؤَرِّخِينَ فَجَعَلَ عُمْرَ دَولَةِ المَنَاذِرَةِ في الحِيرَةِ حَوَالي سِتَّةَ قُرُونٍ/انْظُرْ جَواد علي/تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٠٤/٣ وما بعدَها.

٢٨- الخَوَرنق: كَلِمة فارسيّة مَعدولة عن (خُورَنْقاه) وهي كلمة فارسيّة تعني مَوضِع الأكل والشُّرْب، عَرَّبَها العربُ إلى (خَوَرْنَق) وزن (سَفَرجَل).

٢٩- قِيلَ إنَّ النُّعمانَ أمَرَ بِإعدامِ سِنِمَّار بِرَمِيهِ مِن أعلَى القَصْرِ لِئَلاَّ يَبنِيَ مِثْلَهُ في جَوْدَةِ بِنائِهِ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣٠- قَصْرٌ أبعَدُ عنِ الحيرَةِ منَ الخَوَرنَقِ من جهَةِ الباديَةِ، قِيلَ: بَنَاهُ النُّعمانُ الأكبَرُ، كانَ يُقيمُ فيه مُلوكُ اللَّخميين.

٣١- الأسودُ بنُ يَعفُرَ النَّهْشَلي التَّميمي، شاعِر جَاهِليٌ، مِنْ ساداتِ تَميم، سَكَنَ العِراقَ، زارَ بَلاطَ المَناذِرَة، ويُقَالُ لَهُ (أعشَى بَنِي نَهْشَل) لأنَّ بَصَرَهُ كُفَّ في أواخِرِ عُمْرِهِ / أعلام الزركلي ١/٣٣٠.

٣٢- مُحَرِّق: هوَ امرؤ القيس بن عَمْرو بن عَديّ أحَدُ مُلوكِ المَناذرة، وهو مُحَرِّقُ الأوَّل، أمَّا الثاني فَهوَ عَمْرو بنُ هِنْد الذي أحرَقَ مِئَةً مِنْ بَني تَميم لأنَّهُمْ قَتلُوا أخًا لَهُ.

٣٣- الشعر والشعراء لابن قُتَيبة ١/ ٢٥٦. بارق: اسْمُ ماءٍ أو اسمُ جَبَلٍ/ انظر مُعجَم البُلدان لِياقوت الحَمَوي ٣١٩/١. أو مُعجَم ما استَعجَم لِلبَكري ٢٠٤/١، أمَّا سِنْدادُ فَقَصْرٌ بِالعُذَيْب، وقِيل: سِنْدادُ: نَهْرٌ بينَ الحِيرَةِ والأُبُلَّة.

٣٤- المُتَلَمِّسُ: شاعِرٌ جاهِليّ، اسْمُهُ جَرير بن عبد العُزّى، وهوَ خال طَرَفَة بن العبْد، نادَمَ عَمْرو بنَ هِنْد ثم هَجَاهُ، فأعطاهُ عَمْرٌو رِسالَةً لِعَامِلِه على البَحْرين، وأوْهَمَهُ أنَّهُ أوْصَى لَهُ بِجائزَة، ولمَّا فَضَّ الرِّسالَةَ وجَدَ فيه الأمْر بِقتْلِه، فَرَماها وهَرَبَ ولجَأ لِلغَساسنة، ويُضْرَبُ المَثَل بِشُؤم صَحيفَتِه، فيُقالُ أشْأَمُ مِنْ صَحيفَةِ المُتَلَمِّس/الأعلام٢/١١٩. ويُنْسَبُ الشاهِدُ لِلشاعِرَيْن، ومِنْ هُنا جاءَ الشَّكُّ.

٣٥- المُسَيَّبُ بنُ عَلَس شاعر جاهلي مِن ربيعة، مِن المُقِلّينَ وهوَ خال الأعشَى (مَيْمون بن قيس) ويُقالُ اسْمُهُ زُهَيْر، والمُسَيَّب لَقَبُهُ/انظر الأعلام ٧/ ٢٢٥.

٣٦- مَنَابِض: مَوْضِعٌ بِنَواحي الحِيرة.

٣٧- مُعجم ياقوت ١٩٩/٥. النَّخْلُ المُنَبِّق: يَعني شَجَر الدَّوم، والنَّبِقُ: هوَ ثَمَرُ الدَّوم.

٣٨- الخيضعة: الغُبارُ وجَلَبَةُ المُحاربينَ في المَعركة. الجَفنة: صَحفة الطعام. المُدَعدَعة: المَلأى.

٣٩- استُهُ: فَتْحَةُ دُبُرِه. والبَرَصُ عِندَ العربِ مِن أكبَرِ العُيُوبِ الخَلْقِيَّة.

٤٠- الأشجعُ: واحِدُ الأشاجِع، وهي عُرُوقُ ظاهِرِ الكَفّ.

٤١- اللَّطائمُ: جَمْعُ لَطِيمَةٍ؛ وهي قافِلَةٌ تَحمِلُ عُرُوضَ التِّجارَةِ مِن مَكانٍ إلى آخَرَ على ظُهُورِ الإبِلِ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنهج الهندسي العسكري والمدني لعمارة قلعة بصرى الشام

د. خليل المقداد ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم تعرف منطقة بلاد الشام وخاصةً القسم الساحلي والجنوبي الاستقرار طيلة تاريخها الطويل والحافل بالمخاطر مثل الغزو والاستعمار الخارجي والأطماع بخيرات المنطقة وموقعها وما تتمتع فيه من ميزاتٍ انفردت فيها عن كثيرٍ من أصقاع الدنيا.

ولهذه الأسباب لم تنعم قط بالاستقرار الدائم حتى يومنا هذا، ومع ذلك فكانت تمر فترات زمنية طويلة كانت تنعم بالهدوء والطمأنينة، وكان ذلك

٭ باحث في التاريخ والآثار القديمة.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ناتجاً عن قوتها ومنعتها ووحدتها القومية والتمسك بهويتها الوطنية.

وعلى اعتبار أن مدينة بصرى كانت دائماً عاصمة جنوب بلاد الشام لذلك كانت الأكثر عرضةً للأطماع، ومن هذا المنطلق كان سكانها يسعون جاهدين لتحصين المدينة بجميع أساليب الدفاع التي كانت تطبق في العالم المعاصر لها والتي كانت تتركز على البناء في المواقع المرتفعة وبناء الأسوار العالية المحيطة بالمدينة وتحصينها بالأبواب المنيعة وأبراج المراقبة الحصينة والمتعددة في العديد من المواقع، وكانت المناهج المعمارية لهذه الأبراج هي المرتكزات الأولى لبناء القلاع التي بنيت لاحقاً سواءً في المنطقة أو في جميع أنحاء العالم.

ومنذ بداية العهد الأموي وبالتحديد منذ نهاية معركة اليرموك في ١١ رجب من عام ١٥ للهجرة الموافق للعشرين من آب عام ٦٣٦ للميلاد لم يعد هناك مبرراً لهذه التحصينات بسبب قوة الدولة العربية الإسلامية وحدودها المترامية الأطراف وتلاشي الخطر الخارجي واستمر هذا الأمر حتى القرن العاشر الميلادي.(١)

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت بلاد الشام تواجه المخاطر من كل حدبٍ وصوب وكانت بدايتها الأطماع الغربية التي تمثلت بهجمات الفرنجة التي بدأت في المناطق الساحلية ومن ثم احتلال فلسطين ومداهمة المناطق الداخلية.

وبالطبع وكما نعيش مثل هذه الظروف في وقتنا الحاضر فكانت الانقسامات والدويلات المتعددة في المنطقة والتنافس على السلطة بين الولاة وعبث الأقوام الغربية وتغلغل العنصر الأجنبي في جسم الدولة وغيرها من المهيئات المختلفة هي التي كانت الأرضية المناسبة لدخول البلاد والعبث فيها والتي استمرت حتى عادت الأمة إلى رشدها واستطاعت في نهاية المطاف طرد المستعمرين الفرنجة لفترة زمنية لم تتكرر إلا في مطلع القرن العشرين.

وفي خضم هذه الظروف شهدت بلاد الشام وطيلة ثلاثة قرون نهضة عمرانية كان من أبرزها الأبنية الدفاعية التي انحصرت في بناء القلاع. وكانت المناطق الغربية والساحلية هي الأكثر كثافة في هذه الأبنية ومنها على سبيل المثال قلعة الحصن التي بنيت في عام ١٠٣١م - قلعة صلخد ١٠٣٦م - قلعة المرقب ١٠٦٢م - قلعة الشريف ١٠٨٥م - قلعة جعبر ١٠٨٦م - قلعة العريمة ١١٤٥م - قلعة بصرى بين أعوام ١٠٨٩ - ١٢٥١م - قلعة نجم- قلعة سمعان - قلعة حارم - قلعة شيزر، وجميعها بنيت خلال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القرن الحادي عشر ميلادي، وكذلك قلعة المضيق ٤٧٥ هجري - قلعة حلب ١١٦٧م - قلعة دمشق - قلعة حماة - قلعة الخوابي - قلعة أرواد - قلعة الربض - قلعة الكرك - قلعة صلاح الدين - وجميعها بنيت خلال القرن الثاني عشر ميلادي.

ففي الوقت الذي كان فيه الفرنجة يعززون تواجدهم في المناطق الساحلية ببناء القلاع في المواقع الاستراتيجية وخاصة فوق المرتفعات الطبيعية، أخذ المسلمون بالمقابل في بناء قلاعٍ نظيرةٍ لها وبمواجهتها تقريباً إضافة إلى بناء عدد من القلاع الداخلية والتي كانت هدفاً لأطماع الغزاة.

أما في المنطقة الجنوبية فقد بنيت العديد من القلاع الهامة ومنها قلعة دمشق وقلعة بصرى وقلعة صلخد. وكان بناء هذه القلاع في فترة زمنية متقاربة، ولكن كان لكل واحدةٍ منها ظروفها الطبيعة التي كانت تتحكم في منهجها المعماري، ففي مدينة صلخد ساعد الموقع الطبيعي المرتفع في بناء القلعة على قمة المرتفع، بينما كانت مشكلة الموقع حرجة بالنسبة لكلٍ من مدن دمشق وبصرى.

ففي مدينة دمشق تمت الاستفادة من مجرى نهر بردى ليكون مانعاً طبيعياً يحمي

القلعة من الهجوم المباغت من الجهة الشمالية، بينما تقع المدينة في الجهة الشرقية من القلعة. إضافة إلى المرتفع البسيط في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة. أما في مدينة بصرى ذات الأرض المنبسطة فلم يكن هناك مجال لإيجاد موقع مرتفع؛ ولهذا تمت الاستفادة من بناء المسرح النصف الدائري الضخم والحصين الواقع في الطرف الجنوبي من المدينة ليكون حصناً دفاعياً تحول بعد قرن ونصف من الزمن إلى قلعة تعتبر من أضخم وأقوى قلاع العالم[٢].

والسبب الجوهري في ذلك أن بناء المسرح لم يعد يلعب دوره الوظيفي الذي بني من أجله وخاصةً منذ بداية عهد الإمبراطورية البيزنطية، وبشكل خاص منذ نهاية القرن الثالث للميلاد، ولهذا اقتصرت وظيفته على الاجتماعات الشعبية والتي كان أهمها الاجتماع الشعبي الذي عقد في المسرح قبيل دخول القوات الإسلامية من أجل فتح المدينة صلحاً وتسليم مفاتيحها إلى القائد خالد بن الوليد. وقد استقر أمر المسرح على هذا الشكل حتى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري حيث اقتضى الأمر تحويل المسرح إلى موقع دفاعي بعد أن أصبحت المدينة موضع أطماع الفرنجة[٣].

المراحل المنهجية التي تمَّ فيها بناء القلعة:

لم يتم بناء القلعة بشكلٍ عفوي وسريع وإنما جاء بمراحل منهجية مدروسةٍ بدقة اقتضتها ظروف الدفاع عن المدينة وبناء المسرح الداخلي، ولذلك استمر البناء بشكلٍ منهجي ومبرمج على شكل أبراج أحاطت بالمسرح من جميع الجهات واكتمل الأمر بالاستفادة من الفراغ الحاصل في وسط المدرج ببناء كتلة معمارية طابقية؛ بمعنى تم تكييف البناء المكون من أربعة طوابق داخل وفوق مدرجات المسرح حتى المستوى العلوي من المسرح، وبذلك أصبح المنهج المعماري في النهاية ينطوي على أغراضٍ دفاعية مدنية وعسكرية بوقتٍ واحد ضمن المراحل التالية:

المرحلة الأولى: كان تنفيذ هذه المرحلة يرتكز على بناء ثلاثة أبراج استندت بشكلٍ مباشر على الجدران المحيطة بالمسرح من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية،[٤] كما تمَّ اعتماد هذا المنهج للعديد من الأسباب التي يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

١ - بما أن الواجهة الشمالية للمسرح، أو واجهة المنصة الخلفية كانت تشرف على المدينة فهي بذلك ذات تحصين طبيعي ناتج عن تحصين المدينة وأسوارها المحيطة بها

على اعتبار أن بناء المسرح كان جزءاً من سور المدينة الجنوبي.[٥]

٢ - كان العمق الداخلي للأروقة الجانبية (بارادوسParados) التي تربط من حيث المبدأ مبنيي المنصة والمدرج بأقفاص وأدراج لولبية من الأسفل إلى الأعلى، وعند أرضية كل عمق لكل رواق والتي تقع بين كل طبقة وأخرى من طبقات المسرح بلاطة من بلاطات الأدراج اللولبية وهذه الطبقة فتحت لها نوافذ تشرف على خارج المسرح للتهوية والإنارة، ولهذا تمت الاستفادة منها في إسناد الأبراج الملتصقة والمرتكزة على جدران المسرح الخارجي، كما تمت الاستفادة من هذه النوافذ وتحويلها إلى أبواب كمداخل بين الأبراج وداخل المسرح من دون إدخال أي تغيير على المنهج العمراني للمسرح؛ بل بالعكس فهي من جهة كانت عامل تواصل خارجي وتوافقت بالوقت نفسه مع التقسيم الطابقي للأبراج الذي بلغ أربعة طوابق مرتفعة توافق فيها الطابق العلوي في ارتفاعه مع ارتفاع الرواق العلوي للمدرج بينما جاءت أرضية الطابق السفلي للبرج متناسبة مع أرضية ساحة الأوركسترا وأرضية الخندق المحيطي عند اكتمال بناء أبراج القلعة.[٦]

وبناءً على هذه الاستراتيجية المعمارية والتحصينية والدفاعية تمَّ بناء أوَّل برج من أبراج القلعة بشكل ملاصق للرواق الجانبي (بارادوس parados)) من الجهة الشرقية. وتمَّ توثيق هذا العمل بنص كتابي جاء فيه: (أمر بعمارة هذا البرج الأمير الأجل الاسفهسلار أبو منصور كمشتكين التاج في جماد الأولى من سنة ٤٨١للهجرة)[٧]. وجاء بناء البرج من الخارج على شكل مربع بأبعاد ٩،٥×٩،٥م وأخذ ارتفاعه نفس ارتفاع المسرح. أما الجدران الخارجية فجاءت مغلقة باستثناء فتحات الرمي المتسعة من الداخل والمقلصة من الخارج والتي تشرف على الجهات الثلاثة الخارجية والتي جاء موقعها أيضا بما يتناسب مع التوزيع الطابقي من الداخل. وربما تزامنت عمارة هذا البرج أو تلاها بعد فترةٍ قصيرة عمارة البرج الثاني بشكلٍ مناظر له وبالمواصفات نفسها من الجهة الغربية من المسرح. ولتدعيم المكانة الدفاعية للمسرح تم إغلاق كافة المنافذ المطلة على الخارج.

أما البرج الثالث والذي بني بأمر أبي سعيد أبق حاكم دمشق وذلك حسب النص التكريسي الذي نقشت كتابة فوق جدار البرج وجاء فيها: (أمر بعمارة هذا البرج المبارك الأمير الاسفهسلار[٨] الأجل السيد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكبير المؤيد المظفر المنصور العالم العادل معين الدين سيف الإسلام فخر الدولة حسام الملك عز الأمر صفوة الخلافة نصر الملوك والسلاطين قاهر الكفرة والمشركين أبي سعيد بن عمر أمير المؤمنين عام ٥٤٢ للهجرة)، وقد جاء بناء هذا البرج مستنداً أيضاً على جدار المسرح الخارجي من الجهة الجنوبية الغربية بحيث بلغت سماكة جدرانه ٢م. كما كانت الغاية الإضافية من بناء هذا البرج ليصبح برج مراقبة ،ولهذا ارتفع مستوى البناء فيه ثمانية أمتار عن مستوى بناء المسرح والأبراج الملاصقة له.

وجاء مخطط هذا البرج مختلفاً عن البرجين الآخرين بحيث ارتبط مباشرة مع الأدراج الداخلية للمسرح والمرتبطة بدورها مع الرواق الحزامي (أمبولاكر Ambulacre) بوساطة صالات مستطيلة داخلية أعطت لهذا البرج سعة داخلية إضافية. كما أخذ البناء الخارجي الشكل المستطيل بطول ١٥م شرق/غرب وبروز ١٠م عن المسرح، وقسمت هذه السعة إلى قسمين بحيث أصبح كل قسم يأخذ الشكل الرباعي بأبعاد ٧×٧ م، ونفذت في الجدران الخارجية ومن جميع الجهات فتحات للرمي. وبهذا العمل تمَّ الانتهاء من المرحلة الأولى من بناء القلعة بمثلث دفاعي يستند مباشرة على جدران المسرح الخارجية.

المرحلة الثانية: وتعود فترة البناء في هذه المرحلة إلى عهد الملك العادل وخاصةً عندما آلت السلطة في بلاد الشام إلى الأيوبيين واستلام الملك العادل شقيق صلاح الدين زمام الأمور حيث أراد أن يحافظ على انتصارات أخيه بتقوية وتحصين المواقع الدفاعية في الدولة ومنها بصرى؛ لذلك بدأ في توسيع القلعة وإظهارها بمظهر دفاعي أقوى من خلال سلسلة من الأبراج تلتف حول المسرح بلغ عددها ثمانية ولكنها انفصلت في هذه الحالة عن جسم المسرح وتمّ ربطها مع بعضها البعض بواجهات مزودة بفوهات رماية تكون أحياناً على شكل صالات مغلقة أو مفتوحة على الداخل مخصصة لأغراض الدفاع.

وقد تمَّ البدء في المشروع ببناء البرج الرابع في الزاوية الشمالية الغربية من الردهة الغربية للمسرح (بيرستيلPeristyle)، وتخليداً لهذا العمل نقشت الكتابة التي جاء نصها على الشكل التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم عمر هذا البرج المبارك في زمن مولانا الملك العادل العالم المجاهد سيف الدنيا والدين أبو بكر ابن أيوب وأيام والده الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى أدام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الله نصرهما سنقر الطغرلنكي الوالي يومئذٍ بمحروسة بصرى وابتدأ في أبنيته في مستهل سنة تسع وتسعون وخمسمائة. بناية إبراهيم علي بن فهد، لله الملك الواحد القهار. ويوافق هذا التاريخ عام ١٢٠٣م. ويفهم من ذلك أن المهندس الذي أشرف على العمل هو المعماري إبراهيم بن علي بن فهيد في عام ٥٩٩ للهجرة وبإشراف نائب الملك العادل في بصرى سنقر الطغرلكني. وقد أطلق على هذا البرج تسمية برج النصر المعمور.

وقد انفرد هذا البرج بمخطط لم يسبق أن بني مثله في المدينة والقلعة حيث أخذ امتداداً بلغ ٢٢،٥م شرق /غرب × ٣٢م شمال/ جنوب، كما بلغ بناؤه أربعة طوابق الثلاثة السفلية منها متطابقة في مخططها مع مخطط الطابق السفلي حيث جاء القسم الشمالي منه على شكل ثلاث حجرات تفتح على بعضها البعض وتشرف كل واحدة على الجهة الشمالية بنافذة على شكل فتحة رمي. أما القسم الغربي فقد جاء على شكل صالة متسعة امتداد شمال جنوب وتشرف على الجهة الغربية بأربع نوافذ على شكل فتحات رمي ويجاورها من الداخل حجرة توزيع. كما زود البرج بمداخل تربط الأقسام الداخلية مع بعضها البعض ومداخل خارجية بما فيها مدخل في مستوى أرضية الخندق، إضافةً إلى ذلك زود بنوافذ تفتح على جميع الجهات. أما السقف فقد استعمل فيه أسلوب القبوات. بينما جاء بناء الطابق الرابع في فترة متأخرة.(٩)

وقد استمر تحصين القلعة والمسرح ببناء البرج الخامس، ولكن في هذه الفترة كانت مدينة بصرى تحت أمرة الأمير ركن الدين منكورش الذي كان حاكماً للمدينة. وجاء بناء هذا الصرح ليكون أكبر برج من أبراج القلعة في الجهة المقابلة لبرج النصر المعمور من الجهة الشرقية بحيث جاء موقعه في الزاوية الشمالية الشرقية من الردهة الشمالية الشرقية للمسرح (بيرستيل Peristyle). وتمَّ تخليد البناء من خلال كتابة جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببناء هذا البرج وهذا الباب المبارك سيدنا السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين أطال الله في عمره بتولي الأمير المعظم الاسفهسلار الأمير مالكي ركن الدين منكورش فلك الدين شقيق السلطان في سنة ٦٠٨هـ. ولا بد من التذكير بأن فترة البناء بين البرجين جاءت متقاربة ولهذا فجاء تنفيذ المخطط متشابهاً بينهما، إلا أن هذا الأخير فقد جاء أكبر من الأول بامتداد ٣٦م شرق/غرب و٢٥م شمال/جنوب، كما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نفذ فيه مدخل من الجهة الجنوبية أصبح لاحقاً المدخل الرئيس للقلعة.

وتكون بناء البرج من ثلاثة طوابق متشابهة على شكل صالات كبيرة تمتد شرق/غرب وتشرف على الجهات الشمالية بخمسة مرامي والشرقية بأربعة، وعلى الجهة الجنوبية بثلاثة مرامي والغربية باثنين. ثم جرى توسيع لبعض هذه الفتحات على شكل أبواب ونوافذ، كما زود البرج من الداخل بحجرات اتصال وترابط داخلي ومداخل غربية وجنوبية حسب الموقع الطابقي. وتميز هذا البرج بأنه الوحيد من بين جميع أبراج القلعة الذي لم ينفذ فيه مدخل سري يفتح على الخندق. أما السطح فقد نفذ بطريقة القبوات؛ خمس منها امتداد شرق/ غرب وثلاث شمال جنوب مع الأخذ بعين الاعتبار أن القبة التي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية تكون مشتركة، إضافة إلى قبوات الصالات الداخلية. وعلى اعتبار أن الجهة الجنوبية هي جهة المدخل فقد نفذت في خلفية جدار الواجهة العلوي فتحة بحيث جاءت الواجهة على شكل جدار مزدوج مفرغ من الداخل. وكان القصد من هذا التنفيذ هو إعاقة المهاجم الذي يستطيع بلوغ الباب بسكب الزيت أو القطران المغلي فوق رأسه ومنعه من فتح الباب الذي بلغ عرضه ٦م وارتفاعه ٨،٥م. كما لابد من الإشارة إلى أن فتحة البوابة الرئيسة جاءت بشكل جانبي حتى لا تتاح الفرصة أمام المهاجمين من فتحه بوساطة المنجنيق.

ثم جاء بناء البرج السادس الذي كان له أثراً استراتيجياً هاماً وخاصةً في الربط بينه وبين البرج الخامس المواجه له من الجهة الشمالية، كما أن تنفيذ البناء جاء بشكلٍ سريع، ولهذا تمَّ إنجازه خلال ثمانية أشهر. وتمَّ توثيق ذلك بنص كتابي نقش فوق حجر بازلتي وضع في أصل البناء في الواجهة الشمالية مقابل مدخل القلعة، وقد جاء نصه على الشكل التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببناء هذا البرج المبارك سيدنا الملك العادل سيف الدنيا والدين قامع الكفرة والمشركين ملك الحرمين الشريفين والقدس والشام ومصر واليمن وخلاط و... أيوب بن أيوب خليل أمير المؤمنين بتولي الأمير ركن الدين منكورش أمير الملك العادل الفلكي وكان بدء البناء في جمادى الآخر سنة تسع وستماية ونهاية عمارته في شهر صفر من سنة ٦١٠ للهجرة.

وقد انفرد بناء البرج بميزات دفاعية متعددة؛ حيث جاء بناؤه على شكل مستطيل بأبعاد ١٨م×١٢،٥م امتداد شرق/غرب، وقسم إلى أربعة طوابق؛ الأرضي منها بنيت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جدرانـه الخارجية مغلقة كلياً باستثناء باب يفتح علـى الخندق، أما الثـاني فجاء على شكل إيـوان رباعي. وجـاء الطابق الثالث مشابهاً للطابـق الثاني، أما الرابع فقد بني علـى شكل حجرات تحيـط بساحة داخلية مفتوحـة. وكل طابق مـن الطوابق الأربعة مزود بفتحات على شكل مرامي منها واحدة تفتـح نحو الشـرق واثنتان تفتحـان شمالاً وكذلك اثنتان تفتحـان جنوباً. بعد ذلك تمَّ تحويـل بعضها إلى نوافذ في فترات لاحقة. أما من الغرب فـزود كل من الطابق الثاني والثالث بمدخل واحد يفتح إلى داخل القلعة. أما سقوف الطوابق الأربعة فقد نفذت على شكل قباب تتناسب مع ارتفاع كل طابق.

وقد تأكـد في هذه الفترة الانتهاء من حفـر وتهيئة الخندق المحيـط بكامل أبراج القلعـة؛ والدليل على ذلـك مستوى ارتفاع المدخـل الرئيس في الـبرج السابق ومستوى الجسـر الـذي يربـط القلعـة بالمحيـط الخارجي بامتداد ٢٢م حيث جاء على شكل أربعة أقواس بارتفاع مشترك بلغ سبعة أمتار يتقدمهـا من الشرق فتحـة خامسة يعلوها جسر خشبي متحرك يُرفع أو يوضع للخدمة حسـب الطلب. وقد نحتت في حجارة بعض المداميـك من هذا البرج وخاصةً في الزاوية الشمالية الشرقية فتحات على شكل حلقات لتثبيت حبال الربط في حال رفعه. ولتزويد الخندق بالمياه فقد تمَّ تنفيذ خط مجرور من القساطل الفخارية نفذت في أسفل الجدار الغربي للبركة الجنوبية للمدينة حيث مدت تحـت الأرض ولكـن بمستوىً بلـغ ارتفاع الفوهة فيه منتصـف ارتفاع جدار الخندق الشرقي.

وتمت المرحلـة الثانية من بنـاء القلعة بإغلاق الجهة الشمالية من القلعة ببناء برج يتوسط تقريباً المسافة بين البرجين الشرقي والغربـي؛ أي الـبرج رقم ٤ والـذي يعرف بـبرج النصر والبرج الخامس. وتخليداً لهذا العمل نقش نصٌّ كتابيٌّ فوق حجرين كلسيين محاطين بإطار رباعي جاء على شكل ساكف نافذة الجدار الشمالي للبرج والذي يتوسط الواجهـة الشمالية منـه. وقد اعتلى النص قوس ثلاثي مدبب تتوسطـه نجمة مثمنة، وهـذا المظهر المعمـاري أعطى واجهة هذا الجدار منظراً جمالياً رائعاً.

وقد جـاء في النص: (بسم الله الرحمن الرحيم أمـر ببناء هذا البرج المبارك مولانا الملك العادل المجاهـد المرابط سيف الدنيا والدين أبو بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين أعـز الله انتصاره وضاعـف اقتداره بتولي الفقير أيبك الركن أعزه الله وذلك في شهور سنة اثنا عشر وستمائة).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويعتبر بناء هذا البرج من أجمل أبراج القلعة حيث بني من ثلاثة طوابق الأول والثاني متشابهان في المخطط الذي جاء على شكل الإيوان الرباعي الذي يحيط بصالة مركزية وأجنحة في الزوايا الأربعة تشرف عليها ومحضونة بدورها بحجرتين مع مدخل ارتباط، وهذا يعني أيضاً استعمال أسلوب التقسيم الثلاثي الداخلي. أما الطابق العلوي فجاء على شكل حجرات مفتوحة تحيط بساحة داخلية، وكل حجرة مزودة بفتحة خارجية على شكل مرمى. وقد تميزت فتحات هذا البرج عن الأبراج الأخرى بتنفيذ فتحات أجنحة الإيوان على شكل نوافذ بينما الحجرات الداخلية في الزوايا فجاءت على شكل مرامي. كما زود البرج بأبواب داخلية وخارجية حسب توزع الطوابق بما فيها مدخل يفتح على أسفل أرضية الخندق.

وجاء بناء البرج على شكل رباعي بأبعاد ٢٥×٢٠م، الضلع الكبير منها أخذ امتداد شرق غرب، واستعمل في التسقيف أسلوب القبوات بشكل يتناسب مع ارتفاع كل سطح. كما تم ربطه مع الأبراج المجاورة بجدران سميكة تتقدم حجرات مفتوحة إلى الداخل ومبنية من طابقين بلغ عددها في كل طابق من طوابق الجهة الشرقية سبع حجرات وبطول كامل بلغ ٢٣م، كما زودت كل واحدة بمرمى. أما في الجزء الغربي فبلغ عددها ست حجرات متشابهة مع الحجرات السابقة وعلى طول كامل بلغ ٢٤م، إلاّ أن أبعادها هنا جاءت أكبر من الأولى بقليل.

المرحلة الثالثة: لم يكن الفارق الزمني بعيداً بين نهاية المرحلة الثانية وبداية المرحلة الثالثة من بناء القلعة، وتخلل الفاصل الزمني بين المرحلتين بناء جسر القلعة في الجهة الشرقية، وعند مدخل الجسر وخارج بناء القلعة أشيد مسجد القلعة في عام ٦١٤ للميلاد. وتخليداً لهذا العمل تمَّ توثيقه بنص كتابي جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا المسجد المبارك الحاج فضل ابن يوسف زيان أعظم الله الأجر ورحمه ورحم من ترحم عليه ورحم والديه وذلك في شهور سنة أربعة عشر وستمائة). وبعد فترةٍ من الانقطاع في البناء دامت حوالي ثلاثة وعشرين عاماً تمَّ البدء في بناء البرج الثامن من الجهة الغربية وإلى الجنوب من برج النصر. وقد تميز هذا البرج بضخامته وحجم حجارة البناء الكبيرة، كما نلاحظ أن حجم الحجارة يزداد كلما ارتفع البناء لدرجة أن طول بعض حجارة المدماك الأخير كان يتراوح بين أربعة أو خمسة أمتار وبسماكة المتر الواحد. وكانت الكتل الصخرية لهذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحجارة تقطع من الوادي الكبير الواقع إلى الشمال من مدينة بصرى بحوالي ١٠كم وتنحت ثم تنقل إلى مكان البناء حيث كان يستغرق نقلها نصف النهار، وقد تأكد ذلك من خلال النص الكتابي الذي يذكر فيه أيضاً أن العمل كان يتم تحت إشراف المغفور له شهاب الدين. والجدير بالذكر أن الربط بين البرج والقسم العلوي من بناء المسرح كان على حساب إزالة جزء من مقاعد الطبقة العلوية من المدرج (سوماكافيئا Summa cavea) وكذلك جزء من الرواق العلوي. كما أن الربط بينهما كان من خلال رواق طابقي بني من ثلاثة طوابق استخدم الطابق السفلي منها كونه كان مغلقاً كسجن ليس له منفذ سوى المدخل الصغير الذي يغلق بوساطة بوابة حجرية ويفتح على نهاية الرواق الجانبي لساحة الأوركسترا (بارادوس parados) من الغرب، وقد فتحت في سقف الرواق ثلاثة منافذ للتهوية والإنارة.

كما استدعت عملية ربط الطابق الثالث من البرج بالمسرح بإزالة القسم الغربي من الطبقة الثالثة من مقاعد المتفرجين، كما تم ربط الطابق الرابع بالرواق العلوي من المسرح وأثناء عملية الكشف عن المسرح أزيلت عناصر الارتباط في الطابق الثاني والثالث والرابع ومن ثم ترميم وإكمال بناء القسم الثالث من مقاعد المتفرجين مع الرواق العلوي كما كان عليه الوضع السابق قبل بناء القلعة مع المحافظة على القسم السفلي من عملية الربط. وجاء البرج متطابقاً في بنائه مع البرج السابع بمقياس ٢٤×٢١م حيث بني من أربع طبقات ضمن منهج الإيوان الرباعي.

وتخليداً لبناء البرج نقش فوق إطار من الحجارة الكلسية على الواجهة الغربية وفوق المدماك الذي يعلو النافذة النص التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا الملك العادل المجاهد المرابط سيف الدنيا والدين سلطان المسلمين أبو بكر أيوب خليل أمير المؤمنين بتولي الفقير إلى رحمة الله ركن الدين منكورش الفلكي العادلي بنظر الأمير شهاب الدين غازي بن أيبك الركني أعزه الله وذلك في شهور سنة خمس وعشرين وستمائة).

وفي الفترة الزمنية نفسها التي بني فيها البرج الثامن تم بناء البرج التاسع الذي أخذ الطراز الهندسي نفسه المرتكز على الإيوان الرباعي والمتشابه مع البرجين الآخرين اللذين بنيا أيام الملك العادل. وقد كان اختيار مواقع هذه الأبراج الثلاثة التي بنيت في زمنه وعلى المنهج نفسه متطابقاً كلياً مع الاستراتيجية الدفاعية المرسومة مسبقاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حيث كان الغرض منها إحكام إغلاق القلعة من الجهة الشمالية وتعزيز وتقوية الجهات الغربية والجنوبية الفقيرة بعدد الأبراج. ويبلغ طول البرج ٢١م شمال/شرق × ٢١ م جنوب غرب كما بني البرج من أربع طوابق.

المرحلة الرابعة: وبعد أن وصل بناء القلعة بأبراجها المتعددة إلى درجة تمكنها بأن تكون موقعاً عسكرياً ودفاعياً لذلك اقتضى الأمر بنقل بعض القوات العسكرية التي كانت تقيم في الثكنات خارج القلعة؛ وبذلك تمَّ نقل عدد كبير من العساكر الذين يقومون على الحراسة المستمرة ليلاً ونهاراً خاصةً على أثر المداهمات المتكررة من قوات الفرنجة إلى المناطق الغربية من مدينة بصرى، لذلك توجه النظر للاستفادة من الفراغ الداخلي الحاصل داخل المسرح والفراغات الحاصلة بينه وبين الأبراج المحيطية، وهذا الأمر استوجب تعزيز الأبراج وغيرها من التحصينات.

و تمَّ البدء في هذه المرحلة ببناء جدران منحدرة في أسفل برج النصر المعمور والأبراج التي تحتضن جسر ومدخل القلعة، كما تمَّ بناء مسجد فوق القسم الغربي من خشبة المسرح (بولبيتيوم Pulpitium) وتمَّ توثيق هذا العمل بالنص الكتابي التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر ببناء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الطاهر إسماعيل ابن الملك العادل سبق الدين أبي بكر ابن أيوب خليل أمير المؤمنين في ولاية الأمير بدر الدين داوود ابن أيدكين الصناعي في سنة عشرين وستمائة للهجرة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كما أن ازدياد أهمية القلعة في الدفاع عن المدينة وعن المنطقة تطلب الأمر إضافة أبنية جديدة، وفي هذه المرة تمَّ البناء داخل المسرح وعلى حساب المنصة وساحة الأوركسترا وأماكن المتفرجين. وأول إجراء تمَّ تنفيذه هنا تحويل مبنى الأوركسترا والجدران المحيطة فيها لتكون خزان للمياه بعد رفع الجدران الجانبية وبناء ركائز في وسط ساحة الأوركسترا ثم تسقيف الخزان بسقف منيع وقوي ليكون مرتكزاً للطوابق العليا، كما تمَّ تأمين المياه لهذا الخزان من خلال قساطل فخارية ربطت مع قساطل الخندق القادمة من البركة الجنوبية وكذلك الاستفادة من مياه الأمطار. وفي الردهة الشرقية للمسرح تمَّ بناء حمام ملكي فاخر زود بنفس مصادر مياه الخزان.

وفوق خزان المياه في وسط المسرح تم بناء طابق مؤلف من صالة مركزية كبيرة تحيط فيها حجرات صغيرة استخدمت كمستودعات ومخازن للسلاح والمنتجات

الزراعية والمواد الغذائية. وتمَّ توثيق هذه الأعمال بالنص الكتابي التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا القبو المبارك مولانا السلطان الملك الصالح في سنة خمس وعشرين في ولاية الأمير بدر الدين داود ابن أيدكين العادلي الصالحين عضد الله به مجد المسلمين. ثم بنى فوقه طابق ثالث استعمل كثكنة عسكرية كتب فوق بابها: (الحمد لله الواحد القهار، أمر بعمارة هذه الزردخانة المباركة مولانا السلطان الصالح القاسم العادل عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب رحمه الله في ولاية الأمير بدر الدين داود ابن أيدكين... في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة.

المرحلة الخامسة:

توقف العمل في بناء الأبراج حتى منتصف القرن السابع الهجري تقريباً، أي لمدة عقدين من الزمن، ثم انطلق بعد أن زار السلطان المدينة في عام ٦٤٧ للهجرة، وكانت الانطلاقة ببناء البرج العاشر الذي يقع في الجهة الجنوبية من المسرح بفاصل يبلغ عرضه حوالي العشرة أمتار، ويقع بالتحديد إلى الشرق من برج معين الدين.

وقد جاء البناء على شكل مستطيل بأربعة طوابق بامتداد شرق/غرب وبأبعاد ١٩×١١,٥م، كما زوِّد كل طابق بمرامي ونوافذ وأبواب تتشابه مع الأبراج السابقة مع استخدام نظام القبوات في التسقيف. كما تمَّ تنفيذ مرصد متقدم في أعلى الجدار الغربي وفي قسمه العلوي مع فتحات مفرغة من الأسفل بحيث لا يتسع لأكثر من شخص واحد فقط يستطيع الواقف فيه مشاهدة ما يجري في أسفل جدران البرج والجهة المقابلة في البرج المجاور، كما جهز البناء في الطابق السفلي بصالة كبرى وثلاث حجرات تتجه إلى الجهات الخارجية الشرقية والجنوبية والغربية.

وقد تمَّ توثيق ذلك بنص الكتابة التالية: (بسم الله الرحمن الرحيم عز لمولانا السلطان السيد الأجل الملك الصالح نجم الدنيا والدين أبي المظفر أيوب ابن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين شاهر رمز سلطان العرب والعجم صاحب الحرمين الشريفين ملك البرين والبحرين ملك الهند والسند واليمن ملك صنعاء وزبيد وعدن سيد ملوك العرب والعجم سلطان المشارق والمغارب الملك الأعظم نجم الدنيا والدين أدام الله أيامه ونشر في الخافقين أعلامه وطاعة اقتداره

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بحمده وآله وحسبنا الله ونعم الوكيل مما عمل في ولاية أمير الأجل شجاع الدين عنبر الصالحين في سنة سبع وأربعين وستمائة.

وتميز هذا البرج بعدم التوافق في توزيع الحجرات والصالات بين طوابقه الأربعة؛ فنجد أن الطابق الثاني قسم على شكل صالة مركزية واحدة تحيط بها أربع حجرات اثنتان منهما تشرفان على الجهة الجنوبية والثالثة تشرف على الجهة الشرقية والرابعة على الجهة الغربية وكل واحدة لها مرمى إضافة إلى مدخل يفتح على الممشى المحيط بالمسرح.

أما الطابق الثالث فقد قسم إلى صالتين كبيرتين مع أربع حجرات جانبية وزعت في زوايا الطابق وكل واحدة من الحجرات الأمامية لها مرمى خارجي. وبما أن المستوى هنا ارتفع عن الممشى فتمت تهيئة مسطبة وأدراج للصعود إلى مداخل الحجرات ودرج أخر يهبط إلى الطابق السفلي، أما الطابق الرابع فقسم على شكل حجرات تحيط بساحة داخلية من جميع الجهات ما عدا الجهة الشمالية المشرفة على المسرح.

وبعد سنتين من إتمام بناء البرج تم بناء البرج الحادي عشر، وهو البرج الأخير من أبراج القلعة في الجهة الشرقية حيث جاء موقعه إلى الجنوب مباشرة من البرج المجاور إلى مدخل وجسر القلعة. وجاء بناء البرج أيضاً على شكل مستطيل بأبعاد ٢٤×١٥م إلا أن بناءه جاء بموجب مخطط يختلف عن الأبراج السابقة؛ فالطابق السفلي قسم إلى ثلاث صالات مفتوحة على بعضها البعض بحيث تنتهي كل واحدة بحجرة متقدمة ومرمى، أما الصالات الجانبية فتنتهي كل واحدة منها بحجرة جانبية ومرمى أيضاً. أما الطوابق العليا فقد اختلفت تقسيماتها الداخلية كلياً عن الطابق السفلي حيث جاءت على شكل صالات وحجرات مربعة ومستطيلة متداخلة بأبواب داخلية وخارجية ومرامٍ على جميع الجهات عدا الجهة الداخلية. وتمّ التوثيق بالنص التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا البرج مولانا الملك الناصر العادل المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الخوارج والمرتدين منصف المظلومين من الظالمين أبو المحاسن يوسف خليل أمير المؤمنين الشهيد الملك العزيز محمد ابن الشهيد الملك الطاهر الكامل غازي ابن الشهيد الملك الناصر صلاح الدين ابن يوسف بن أيوب منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين تغمده الله برضوانه في شهور سنة تسع وأربعين وستمائة في ولاية العبد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفقير إلى رحمة الله افتخار الدين ياقوت الملكي الناصري دام عزه).

وبهذا الشكل تمَّ الانتهاء من بناء القلعة بعد ربط جميع الأبراج بجدران مرتفعة وسميكة ومزودة بمرام بلغ عددها ١٦٤ مرمىً، منها ٦٠مرمىً في الطابق السفلي و٨٠ مرمىً في الأوسط و ٢٤ مرمىً في العلوي وزعت على جميع الجهات بشكل منتظم بحيث يبلغ ارتفاع كل مرمىً ١،٥م وعرض يضيق نحو الخارج ليصل إلى ١٥سم وتأخذ سماكتها سماكة الجدار الحاضن. كما تمَّ ربط أبراج القلعة بالمسرح برواق محيطي مقبب بقبوات فتحت لها من الأعلى فوهات للتهوية والإنارة. كما نفذ هذا الأسلوب في بعض الأبراج وبشكل خاص أبراج العادل الثلاثة حيث تزود كل صالة مركزية في الإيوان بفتحة تهوية وإنارة في أعلى القبة ووسط ساحة الطابق الرابع.

وبلغت امتداد القلعة مع الخندق من الخارج ١٨٠م شرق/غرب و١٥٠م شمال جنوب وبمساحة قدرها ٢٧٠٠٠م٢. كما بلغ ارتفاعها ٢٥م وتكعيبها ٦٧٥٠٠٠م٣ بما فيها المسرح. وبفضل هذه القلعة تمت المحافظة على بناء المسرح من جميع الكوارث الطبيعية التي مرت على المنطقة والعالم وتهدمت نتيجتها معظم مسارح العالم.

وقد صمدت القلعة أمام جميع الهجمات المعادية بما فيها الهجمات المغولية التي لم تستطع أن تهدم أو تغير من بنائها شيءً باستثناء بعض الأضرار التي تمَّ ترميمها في عهد الظاهر بيبرس عام ٦٥٨ للهجرة، ثم أقامت بها حامية عسكرية تسهر على حراسة ومصالح الناس في المنطقة. ويتمتع هذا المزيج المعماري بمواصفات هندسية رائعة تعتبر دراستها مدرسة لعلم الآثار والهندسة المدنية والعسكرية بجميع فروعها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- خليل المقداد - حوران عبر التاريخ - دار حوران - دمشق ١٩٩٦م - ص١١٥.

2- Abel , A , La citadelle eyyubite de Bosra Eski Cham, AAS, 6, 1956 p 95138-.

٣- خليل المقداد - بصرى عاصمة الأنباط - دار عكرمة - دمشق ٢٠٠٤ - ص٢٤٣.

٤- أُنظر المخطط رقم١.

٥- خليل المقداد - مسرح بصرى الأثري - دار عكرمة - دمشق - ٢٠٠١ - ص٢٢٧ - ٢٣١.

٦- أُنظر المخطط رقم٢.

7- J,SAUVAGET.repertoire chronologique d,epigraphie Arabe pp254255-.

٨- اسفهسلار: هو لقب يطلق على أرباب السيوف لدى الأيوبيين وكمرتبة عسكرية مرموقة في الجيش، أما عند الدولة الفاطمية فكان يطلق على صاحب الوظيفة التي تلي وظيفة صاحب الباب؛ ومعناه مقدم العسكر.

٩- يمكن الرجوع إلى مؤلفاتنا التالية لمشاهدة المخططات الهندسية والمعمارية وتفاصيلها الدقيقة بما فيها الصور لكل من مبنيي القلعة والمسرح وهي:

١- خليل المقداد - مسرح بصرى الأثري - دار عكرمة - دمشق - ٢٠٠١م.

٢- خليل المقداد - بصرى عاصمة الأنباط - دار عكرمة - دمشق٢٠٠٤م.

المراجع

١- خليل المقداد- مسرح بصرى الأثري - دار عكرمة - دمشق - ٢٠٠١م.

٢- خليل المقداد- بصرى عاصمة الأنباط - دار عكرمة - دمشق م٢٠٠٤.

٣- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار حوران- دمشق ١٩٩٦م- ص١١٥.

4- Abel, A, La citadelle eyyubite de Bosra Eski Cham, AAS, 6, 1956 p 95138-.

5- J,SAUVAGET.repertoire chronologique d,epigraphie Arabe pp254255-.

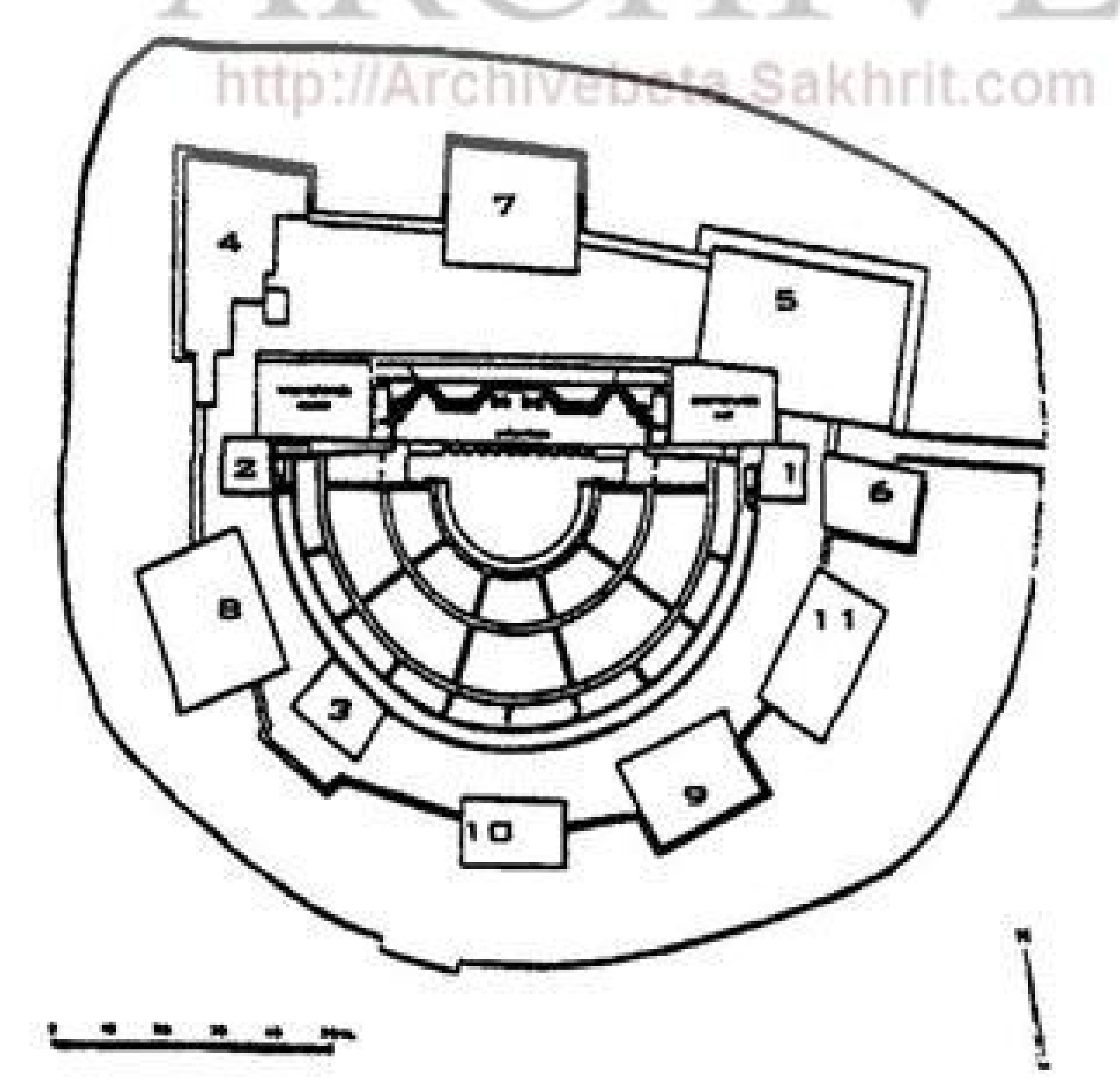

(مخطط ١) ٦٦-مخطط يبين موقع أبراج القلعة وأرقامها حسب تسلسلها الزمني

مخطط يبين موقع أبراج القلعة وأرقامها حسب تسلسلها الزمني

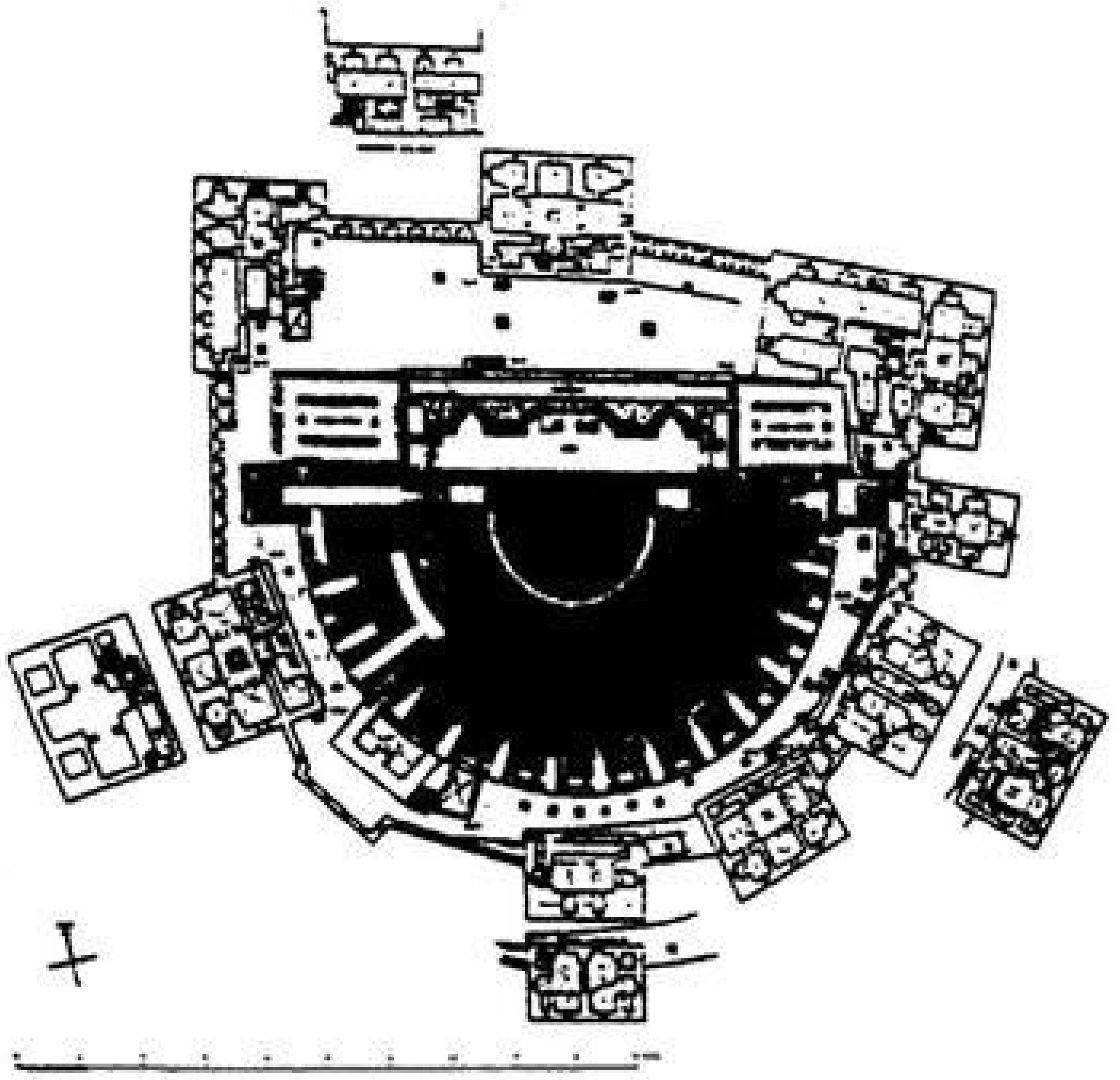

(مخطط ٢)

٦٥-مسقط بناء القلعة والمسرح

مسقط بناء القلعة والمسرح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر المرأة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام

د. ملكة أبيض *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أحد الحوارات التي أجريت مع الروائية العربية المعاصرة غادة السمان، لفت نظري قولها في إحدى إجاباتها «أبيح لنفسي حق معاقرة الحرف في غير أغراض الرثاء كجدتي الخنساء»(1).

وعُدت إلى الوراء لأذكر أن القصائد الوحيدة التي أدرجتها مناهجنا الدراسية في تلك الفترة لشاعرة عربية كانت قصائد الخنساء في رثاء أخيها صخر.

* أديبة وناقدة وأستاذة التربية في جامعة دمشق.

العمل الفني: الفنان مصطفى الصالح.

هـذا ما درسناه وحفظنـاه في طفولتنا، ولكنـي أتساءل الآن: ألم يكـن في الجاهلية والفـترة التي تلتها شاعـرات عربيات غير الخنساء؟

ثـم ألم تكتب هـؤلاء الشاعـرات - إن وجدن - في أغراض غير الرثاء؟

هذه الأسئلـة دفعتنـي إلى البحث عن المراجـع، وإجـراء بعض القـراءات. وهذا البحث يمثل خلاصة مـا توصلتُ إليه بهذا الصـدد. وربما كانت هـذه المعطيات التي سأعرضهـا معروفة لدى البعض، ولكنها جديـدة علينا، نحن الذيـن لم نتخصص في الدراسات العربية، اللغوية والأدبية.

والمرجع الذي أفدت منه في هذا الموضوع هو:

بشيريموت(١٩٩٨). شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيـق وتنقيح وشرح عبد القـادر محمد مايو، حلـب: دار القلم العربي.

علمـاً بأن المؤلف استقـى معلوماته من سبعة وثلاثين مصدراً من المصادر القديمة الشهيرة، والتـي أثبتها في الصفحة الأخيرة من الكتاب.

غـير أننا لا نستطيـع الحديث عن شعر المـرأة العربية في الفترة التـي تعنينا، قبل إعطاء لمحـة عن المجتمـع العربي في ذلك العصر ومكانة كل من الشعر والمرأة فيه.

من المعروف أن المجتمع العربي الجاهلي مجتمع بـدوي قبلـي، معظم أرضـه بادية وصحراء، تتنقل القبائل فيها ويغزو بعضها بعضـاً للحصول على هذه المـوارد، إلا أنها تتآزر أيضـاً وتشكل أحلافـاً لزيادة قوتها ومنعتها وسط هذه الظروف القاسية.

لذلـك كانت القيمة الكـبرى فيه تعطى للشجاعة والفروسية، إلا أنها ترفد بالمروءة والكـرم والوفاء ونصرة الجـار والغريب... للتعويض علـى من حرم منهمـا ومواجهة الظروف القاهرة.

وأروع ما عـبر عن هذه الحياة، بسرائها وضرائها، الشعر.

صحيـح أنه كانـت للعـرب الجاهليين مشاغـل أدبية وثقافية عديـدة كالخطابة، والأنساب، و الأمثـال، والقيافة، والعرافة، والطب، والنجوم.. وقد كُتبت عنها مؤلفات كثيرة؛ إلا أن الشعر كان ميدان تفوقهم على من عداهم. فهو يـكاد يكون تام النمو منذ أول ظهوره. وأقـدم القصائد التي تحدّرت إلينا، والتي نظمت على ما يبدو قبل الهجرة بمئة وثلاثين عاماً.. هذه القصائد «لها سنن وأساليـب متعارفة تنم عن زمن نشوء طويل قطعـت فيه صناعـة الأداء أشواط التطور والتحسـن الأولى حتى نمت قوى اللغة فيها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبرزت في حلة راقية. وللشعراء الذين نبغوا حوالي منتصف القرن السادس الميلادي آثار لهم لم يستطع أحد بعدهم نظم أجود منها...»[٢].

لقد حفظ الرواة هذه القصائد وتناقلوها بطريق السماع إلى أن دُوِّنت خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. وقد تبين أن هذه القصائد مرّت بمراحل من التطوير والتعديل بحيث أصبحت تتفق مع روح الإسلام[٣].

ومن الملاحظات المتكررة بشأن الشعر الجاهلي أنه بسيط بعيد عن التصنع، إلا أنه لا يخلو من التشبيه والمجاز أو الكناية. كما أن الأبواب التي يتناولها هي الفخر والحماسة والغزل والمديح والهجاء. وعن المديح تفرع الرثاء وهو مدح الميت.

والأصل في المديح والهجاء الدفاع عن القبيلة والطعن في أعدائها. ذلك كان غرض الجاهليين من المديح والهجاء. فأكثر مدحهم في قبائلهم ورؤسائها، وفرسانها، ليس على سبيل الاستجداء إلا قليلاً.. وقلما رثوا غير إخوتهم، وأخواتهم، أو أبنائهم، أو بعض أهلهم مدفوعين بالشعور الطبيعي.

وفي منظوماتهم الكثير من الشعر الوصفي. وأكثره في وصف حيواناتهم، ومنازلهم، وفي وصف أخلاقهم، ومناقبهم، ومفاخرهم، ووقائعهم. وكان هناك الكثير من المفاخرة بين قبائلهم وأحيائهم. وكانوا يتخذون الشعراء واسطة في الاسترضاء أو الاستعطاف، أو يجعلونهم وسيلة لإثارة الحروب، فيكون الشاعر لسان حال القبيلة.

والواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب

الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم إنما هو منقول عن أشعارهم في معظمه[٤].

من هنا فإننا لا نستطيع القول إن المجتمع العربي الجاهلي كان مجتمعاً متخلفاً. صحيح أنه كان هناك ذكر لعدم تقبل ولادة الإناث لأنهن لم يكن محاربات، وكن يشكلن عاراً على القبيلة في حال السبي، ولا سيما أن الغزو كان الحدث الأكثر وقوعاً بين القبائل. وهذا ما حدا بالبعض إلى وأد بناتهن. وصحيح أيضاً أنه كانت هناك شكاوى من إرغام الفتاة على الزواج بمن يختاره لها الآباء، وذلك طمعاً في المال أو في المكانة الاجتماعية. إلا أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيَّرن قبل الزواج، فلا يزوِّج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها. وهناك نساء اشتهرن بالبسالة في أثناء الغزوات. ففي معركة أحد[٥] وقع لواء قريش في ساحة القتال، فلم يزل صريعاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها[٦]. ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال إلى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء.

وكان للمرأة في الجاهلية شأن في الشعر والأدب (كما سنرى فيما يلي) فنبغ منهن عدة شواعر أشهرهن الخنساء. وهناك عشرات من النساء الشواعر ذهبت أشعارهن إلا قليلاً جاءنا عرضاً في بعض الأخبار. وكان أبو نواس يروي لستين شاعرة من العرب[٧].

وكان فيهن خطيبات، اشتهر منهن هند بنت الخس، وهي الزرقاء، وجمعة بنت حابس. وكان فيهن طبيبات أشهرهن زينب طبيبة بني أود التي كانت تعالج العين والجراح، غير من كن يرافقن المحاربين ويضمدن الجراح في ساحة الحرب.

وحين جاء الإسلام تابعت النسوة مسيرتهن في مزاولة هذه الأنشطة، وكان الشعر أفضل سبيل للتعبير عن مشاعرهن ومواقفهن.

من هذه المقدمة السريعة انتقل إلى موضوعي «شاعرات العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» لأتعرف العدد التقريبي لمن ذكرهن التاريخ، والموضوعات التي تناولنها في أشعارهن.

إن الكتاب الذي بين يديّ يتحدث عن (١١٩) شاعرة من الجاهلية وصدر الإسلام، مع الأشعار المثبتة لهن، والظروف التي قيلت فيها. وهذه الظروف تكشف عن أحداث خطيرة وقعت في ذلك العصر بعضها معروف، والبعض لم يسمع به قبلاً، أو لم يبلغ علمي على الأقل. أما الأغراض فهي شديدة التنوع، ولا يضيرها أن الرثاء يشغل حيزاً كبيراً فيها، ذلك أن هذا الرثاء يقال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في أحوال شديدة الاختلاف، وتقف وراءه خلفيات لا تقتصر على الموت الطبيعي لأحد الأقارب، بل تدخل فيه الصراعات الداخلية والنزاعات الخارجية ولا سيما مع الفرس. وهكذا يتخذ مضامين لا تقتصر على مدح المرثي والإشادة بأوصافه ومزاياه والحنين إليه والأسى لفقده، بل يتخللها نصرة المستجير، والحض على الأخذ بالثأر، واللوم على خمود الهمة والتخاذل... حتى أن هناك أبياتاً في الرثاء قيلت في الأشخاص قبل موتهم، وبناء على طلبهم.. وهذا ما ذكرني بحادثة قريبة العهد جاءت فيها امرأة إلى شاعر معاصر ترجوه كتابة أبيات في رثائها، لتوضع على شاهدة قبرها بعد موتها. فهذه الظاهرة قديمة العهد في تراثنا . كما يبدو.

ومما قيل في الرثاء على سبيل المثال، قول «أم الأغرّ البكرية» ترثي «غرثان» أخا البراق الذي قتله بنو تغلب، وتُحرِّض بني بكر على الأخذ بثأره:

ألا فَابْكي أعيني لا تملّي
فلي بمُصابنا أبداً عَويلُ
فلا سَلِمَتْ عشيرتُنا وعادتْ
إذا صُرِعَ ابنُ رَوْحانَ النبيلُ
إذا رُحْتُمْ وخلَّفْتُم هُبِلْتُم
لِغَرثانِ فلا راح القبيلُ
فَرِحْتُمْ بالغنائِم حين رُحْتُمْ
وبانَ بموتِهِ الغنمُ الجَليلُ
فَقُلْ لِنُوَيرةٍ وكُليبَ مهلاً
أقيما إنَّ خِزْيَكُما طويلُ

ومنه قول «أم قِرفة»، وكانت زوجة لحُذَيْفة بن بدر الفزاري، قَتَل قيس بن زهير العبسي ولدها قِرْفة وحمل دِيته إلى أبيه فرضيَ بها. وكانت عزيزة الجانب أَنِفة فأنكرت فعل زوجها. ومما قالته في رثاء الابن وتعيير الزوج لقبوله الديّة هذه الأبيات:

حذيفةُ لا سلمتَ من الأعادي
ولا وُقِّيتَ شرَّ النائباتِ
أيَقتلُ قِرْفةَ قيسٌ فترضى
بأنعامٍ ونوقٍ سارحاتِ؟
أما تخشى إذا قال الأعادي،
حذيفةُ قلبُهُ قلبُ البناتِ
فخذْ ثأراً بأطرافِ العوالي
وبالبيضِ الحدادِ المُرْهَفاتِ
وإلاّ خلّني أبكي نهاري
وليلي بالدُّموع الجارياتِ

ومنه، قول الخِرْنق بنت بدر.. البكرية العدنانية، من الشاعرات الشهيرات في الجاهلية وهي أخت الشاعر طرفة بن العبد لأمه. تزوجها بشر بن عمرو بن مَرْثَد من بني أسد وقتله قومه يوم قُلاب فجاء أكثر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعرهــا في رثاء قومها ورثائــه ورثاء أخيها طرفة. توفيــت نحو عام ٥٠ قبــل الهجرة، حوالي ٥٧٠ أو ٥٧٤ ميلادية.

ومما قالت ترثي قومها الذين قُتلوا يوم قُلاب:

لا يَبْعَدَنْ قومي الذين هُمُ
سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ
النازلونَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ
والطيبون معاقِدَ الأُزْرِ
الضاربونَ بحومةٍ نزلتْ
والطاعنونَ وخيلُهم تجري..
هذا ثنائي ما بقيتُ لهم
وإذا هَلَكتُ وجَنَّني قبري

وقالت ترثي أخاها طرفة حين قُتل بأمر عَمرو بن هند:

عَدَدْنا له خمساً وعشرين حِجَّة
فلما توفاها استوى سيِّداً ضخما
فُجِعنا به لَمّا انتظرنا إيابَهُ
على خير حالٍ لا وليداً ولا قَحْما

وإصرار المرأة على الأخذ بالثأر يشير إلى تأصل هذه العادة في الجاهلية إلى حدٍ يجعل المـرأة تُعرِّض حياة مـن تحبهم إلى الهلاك وتهجوهم إذا خذلوها.

والحقيقة أني صُدِمـت لأبيات أم قرفة والعديد من أمثالها التي تعيِّر الرجال بالقعود عن الأخـذ بالثأر، كأبيات «كبشة» بنت معد يكرب الزبيدي أخت الفارس عمرو بن معد يكرب التي تعيِّر فيهـا قومها وأخاها عمراً بالقعود عن الأخـذ بثأر أخيه عبد الله من قَتَلتِه بني مازن وفيها:

ودَعْ عنك عمراً إن عمراً مسالمٌ
وهل بطنُ عمروٍ غيرُ شبرٍ لمطعمِ؟
فإن أنتُمُ لم تثأروا واتَّديتُمُ
فَمَشُّوا بآذانِ النَّعام المُصَلَّمِ

ولكننا لا نستطيع أن نحكم على عادات الجاهليـة، وقد اتخـذت مجتمعاتنا وسائل أخرى لإقامة العدالة.

المهم أن المرأة لم تكن نائحة دوماً. وكانت ترفـع صوتها في مناسبات كثيرة. نذكر منها حادثـة «الحُرقة»، وهي هنـد بنت النعمان ابن المنـذر، التـي طلبها كسرى مـن أبيها النعمان للزواج، فأنـف النعمان أن يزوِّجها من أعجمـي. فجنّد كسرى الجنود وفتك بالنعمـان. ثم «أرسل صوائح في بلاد العرب تنادي أن بَرِئَتْ الذمة ممن يحمي الحرقة أو يؤويهـا». فقالت الحرقة قصيدة ترثي أباها وتتأسف على همـود همة العرب وتخاذلهم أمام كسرى، نقتطف منها هذه الأبيات:

ما كُنت أَحْسَبُ والحوادثُ جمَّةٌ
أني أموتُ ولم يَعُدْني العُوَّدُ
حتى رأيتُ على جرايةِ مولدي
ملكاً يزولُ وشملُهُ يتبدَّدُ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فُدهيتُ بالنعمان أعظمَ دهْـيةٍ
ورَجَعْتُ من بعد السُّمَيْذَعِ أُطردُ
وغشيتُ كلَّ العُرْبِ حتى لم أجِدْ
ذا مِـرَّةٍ حَسَنَ الحفيظة يُوجدُ..

وكان أن أجارتها صفية بنت ثعلبة الشيبانية، وقامت إلى قومها تُعلِنُهم هذه الإجارة ضد كسرى وجيوشه. وهذا بعض قولها:

أحيوا الجوارَ فقد أماتته معاً
كلُّ الأعارب يا بني شيبانِ..
وعلى الأكاسر قد أجَـرْتُ لِحَـرَّةٍ
بكهولِ معشرنا وبالشبّانِ
شيبانُ قومي هل قبيلٌ مثلُهُمْ
عند الكفاحِ وكَـرَّةِ الفرسانِ؟
قومٌ يجيرون اللهيفَ من العِدا
ويحاطُ عمري من صروف زماني..
يا آل شيبانٍ ظفرتُمْ في الدُّنا
بالفخر والمعروف والإحسانِ..

وقام بنو شيبان بجوارها، وحاربوا جنود العجم، وكسروهم كسرة قبيحة، وغنموا مغانم عظيمة. على أنه تبع هذه المعركة معارك، و القصيدة قصائد. في القبائل المتحالفة (بني حنيفة، وبني لُجيم، وبني عِجل، وبني ذُهل) إلى أن جاءت الشاعرة إلى بني شيبان، فسارت وهم خلفها وهي ترجز:

إيهاً بني شيبانَ صفاً بعد صَفْ
من يُرِدِ العلياءَ لم يخشَ التَلَفْ
من حاذَرَ الموتَ تنحّى ووقفْ
إن الشجاع باسلٌ فيه الصَّلَفْ
إن تُقبلوا نظفرْ، ونُحذرْ، ونُخَفْ
وفي الفرارِ يولجوا فينا الأكُفْ
اليومُ يومُ العِزِّ موصوفُ الشرفْ
إن حافظتْ قَومي فما بي من أسَفْ
أنا ابنة العِزِّ وعرضي اليومَ عَفْ
بكلِّ نصلٍ كالشهاب المُختَطِفْ
نخطَفُ قوماً قد عَفَونا بِسَرفْ

وحمل العرب على جنود كسرى (الذي كان يقود جنوده في تلك الوقعة، وقعة ذي قار). وانتصروا بعد عدة وقعات وقصائد جديدة تحرّض عليها.

هذه حرب أشعلتها النساء، وتابعتها بالتشجيع والتحفيز حتى النصر.

وهناك حادثة أخرى مع الفرس لليلى بنت لكيز من بني ربيعة، نزل أبوها في ناحية من بلاد الفرس ومعه ابنته وكانت من أجمل نساء زمانها. فوصل خبرها إلى ملك الفرس، الذي أرسل من اغتصبها من أبيها، ثم عرض عليها جميع المشهّيات والمرغّبات وخوّفها بجميع العقوبات، وعاملها بالتعذيب. وكان لليلى ابن عم من بني بكر، فارس شجاع يقال له البرّاق، فاحتال حتى أنقذها. ومن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نظم ليلى في أثناء ما حصل لها القصيدة الشهيرة التي غنتها أسمهان، ومنها:

ليت للبرّاق عيناً فترى
ما ألاقي من بلاء وَعَنا
عُذِّبت أختكُم يا ويلكُمْ
بعذاب النُّكر صبحاً ومسا
غلَّلوني، قَيَّدوني، ضربوا
ملمس العفة مني بالعصا
يكذبُ الأعجَمُ ما يقربني
ومعي بعض حُشاشات الحيا..

هذا ولم يسكت شعر المرأة عن ظاهرة أسر النساء بعد حملات الغزو. فقد نُسب إلى «الفارعة بنت شداد الخزاعية» قول هذه الأبيات حين حُمِلتْ أسيرة مع نساء من قومها:

ألاقتْ سُليمُ في السياقِ وأفحشتْ
وأفرط في السَوْقِ العنيف إسارُها
لعلَ فتاةً منهُمُ أن يسوقَها
فوارسُ منا وهي بادٍ شَوارُها
فإن سبقتْ عُلْيا سُلَيْمٍ بذَحْلها
خزاعة أو فاتت فكيف اعتذارُها
ألا ليتَ شعري هل أرى الخيلَ شُزَّباً
تُثيرُ عجاجاً مستطيراً غُبارُها
فترقى عُيونٌ بعد طول بكائها
ويَغْسلُ ما قد كان بالأمسِ عارُها

وهناك حادثة على علاقة بعِمْليق (ملك جديس وطَسْم، وهو من طَسْم) وأمرُه بألا تهدى امرأة من جديس إلى زوجها قبل أن تُقَدَّم إليه. فقد زُوِّجَت «عُفيرة بنت عَفّان الجَديسية»، وانطلق بها أهلها إلى عِمليق فافترعَها وخلّى سبيلها. فقالت تحرِّض قومها بأبيات منها:

أيجمُلُ ما يؤتى إلى فَتَياتكُمْ
وأنتم رجالٌ فيكُمُ عددُ النملِ
وتصبحُ تمشي في الدِّماءِ عفيرةً
عُفَيرةُ زُفّتْ في النساءِ إلى بعلِ
ولو أننا كنا رجالاً وكنتُمُ
نساءً لكنّا لا نُقِرُّ بذا الفِعل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوَّكم
ودِبُّوا لنارِ الحرب بالحطب الجزْلِ...

على أن هناك حالة فريدة حذّرت فيها المرأة (جليلة بنتَ مُرّة، أختَ جسَّاس) زوجها (كليب وائل التغلبي) من التعرُّض لناقة خالتها (البسوس). فحين همّ زوجها كليب برمي الناقة قالت تناشده ألا يفعل لئلا يرهق صهره ويقطع رحمه:

أخٌ وحريمٌ داخلٌ إن قطعتَه
وكيف يسوءُ القومَ من قد يسودُها
فما أنتَ إلا بين هاتين واقِعٌ
وكلتاهما وزرٌ وصعبٌ كؤودُها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على أن كليب لم يعبأ بتحذير زوجته جليلة، ورمى ضرع ناقة خالتها البسوس، فقتله أخوها بها، ورحلت هي عن قوم زوجها، ونظمت الكثير في تسويغ موقفها ورثاء زوجها.

وهناك خبر عن شاعرة عربية لا يمكننا تجاهلهُ وهي عمرة بنت الحبّاب التغلبية. فقد لطمها زوجُها لبيد بن عنبسة الغساني الوالي على ربيعة من قبل ملوك اليمن لقول قالته مفتخرة بكُليب سيد وائل، فقالت له: أنا أكرم منك، وذهبت مغضبة إلى كليب، فقالت له:

ما كنتُ أحسبُ والحوادثُ جمّةٌ
أنّا عبيدُ الحيِّ من غسّانِ
حتى علتني من لبيدٍ لطمةٌ
سُجِرَتْ لها من حرّها العينانِ
إن ترضَ تغلبُ وائلٍ بفعالهم
نكنِ الأذلّةَ عند كل رهانِ..

فخرج كليب إلى لبيد حتى صدع هامته بالسيف.

وسواء أكان رد الفعل بدافع الحميَّة القبلية، أو دفاع المرأة عن كرامتها، فإنه ينمُّ عن شعور المرأة بالنديّة، ورفضها الخضوع لقوة الرجل.

إلى جانب هذه الأشعار التي تعكس قوة المرأة في الجاهلية، ووقوفها إلى جانب مُثُلِها وعاداتها، هناك أبيات كثيرة تعبر عن مشاعرها الإنسانية، يأتي في طليعتها حب المكان الذي نشأت فيه، والحنين إليه حين تغترب عنه.

فحين سئلت الشاعرة «جُمْل السُّلَميّة» (وهي من بني سُلَيم من قيس عيلان من مضر): أيُّ البلاد أحبُّ إليكِ؟ قالت:

أحبُّ بلادِ اللهِ ما بين منعجٍ
إليَّ وسلمى أن يصوبَ سحابُها
بلادٌ بها حلَّ الشبابُ تمائمي
وأوّلُ أرضٍ مسَّ جسمي ترابُها

وحين انتقلت «أسماء المريّة» إلى تهامة بعد زواجها سألت زوجها: «ما فَعَلَتِ الريح التي كانت تهبُّ من نجد يقال لها الصَّبا؟ إني ما أراها ها هنا» فقال التهامي: «يحجزها عنا هذان الجبلان» فقالت:

أيا جبلَيْ نَعمان باللهِ خلِّيا
نسيمَ الصَّبا يخلُصْ إليَّ نسيمُها
فإن الصَّبا ريحٌ إذا ما تنفَّستْ
على قلبِ محزونٍ تجلَّت همومُها..
ألا خلِّيا مجرى الجنوب لعلَّه
يداوي فؤادي من جواهُ نسيمُها
وكيف تداوي الريحُ شوقاً مماطلاً
وعيناً طويلاً بالدموع سُجُومُها؟..

وقد سُئلت زينب أم حسّانة الضبِّيَّة، التي زوّجوها واحتملوها من البادية إلى الحضر،

«أليس هذا الحضَر أطيبَ مما كنتِ في البادية؟؟» فقالت:

أقول لأدنى صاحبيَّ أُسِرُّهُ
وللعينِ دمعٌ يُحدر الكُحْلَ ساكبُهْ
لعمري لنهرٌ باللّوى نازح القذى
بعيدُ النواحي غيرُ طَرْقٍ مشاربُهْ
أحبُّ إلينا من صهاريجَ مُلِّئت
لِلعبٍ، ولم تملُحْ لديَّ ملاعِبُهْ
فيا حبذا نجدٌ وطيبُ ترابِهِ
إذا هَضَبتهُ بالعشيِّ هواضِبُهْ
وريحُ صَبا نجدٍ إذا ما تنَسَّمَتْ
ضحى، أو سرت جُنْحَ الظلام جنائبُهْ
وأقسم لا أنساهُ ما دمتُ حيَّةً
وما دام ليلٌ من نهارٍ يعاقبُهْ
ولا زال هذا القُطْرُ يسفر لوعةً
بذكراهُ حتى يترك الماءَ شاربُهْ

ألا تذكّرنا هذه الأبيات بأخرى قالتها ميسون بنت بحدل البدوية الكلبية بعد زواجها من معاوية بن أبي سفيان وانتقالها إلى دمشق وقصر الخضراء؟

هناك جانب عاطفي وهو حب المرأة للرجل، لم يكن من المسموح به للمرأة أن تصرح به أو تعلنه شعراً أو نثراً، شفاهاً أو كتابة. هذا ما عرفناه في طفولتنا، واعتقدنا أنه جزء من تقاليد العرب التي تعود للعصر الجاهلي.

ولكني صادفتُ بين «شاعرات العرب» مَنْ تمرَّدنَ على هذا التقليد، وأفصحن عن حبهن بمنتهى الصراحة. ومنهن «أم الضحَّاك المحاربية» التي تزوّجت رجلاً من الضِّباب يدعى عطية، وأحبته حباً شديداً، وما لبث أن طلّقها فعاشت أمداً تندب حبه في مقطوعات شعرية كثيرة، إلى أن سلاّها طول الفراق؛

والخنساء بنت التيَّحان التي قالت تتشوّق إلى جَحْوَش الخفاجي الشامي:

.. ألا إن وجدي بالخفاجيِّ جَحْوَشٍ
برى الجسمَ مني فهو نضوُ سقامِ

وقالت:

وإن لنا بالشام لو نستطيعهُ
خليلاً لنا يا تيّحانُ مصافيا
نعدُّ له الأيامَ من حبِّ ذكرهِ
ونحصي له يا تيّحانُ اللياليا

أما «عِشرِقة المحاربية» فقد انتظرت حتى أصبحت عجوزاً فقالت تذكر ماضي أيامها:

جَرَيتُ مع العشّاق في حَلْبة الهوى
فَفُقْتُهُمُ سبقاً وجئتُ على رِسْلي
فما لبس العشّاق من حُلَلِ الهوى
ولا خلعوا إلا الثيابَ التي أُبلي
ولا شربوا كأساً من الحُبِّ مُرَّةً
ولا حُلوةً إلا شرابُهُمُ فضلي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كما أن «شاعرات العرب» يورد خبراً عن حب بين شاعرة وابن عمها انتهى بموت العاشقين، على طريقة «روميو وجولييت». وملخص القصة أن سُعدى الأسدية أحبها ابن عمها فمنعه أبوه من الزواج بها، وزوّجها أبوها من رجل آخر، فاشتد وجدُ ابن عمها فأرسل لها بيتين يشكو فيهما حبه، فأجابته:

حبيبي لا تعجلْ لتفهم حُجّتي
كفانيَ ما بي من بلاءٍ ومن جَهْدِ
ومن عبراتٍ تعتريني وزفرةٍ
تكادُ لها نفسي تسيلُ من الوجدِ
غلبتَ على نفسي جهاراً ولم أُطِقْ
خلافاً على أهلي بهزلٍ ولا جدُّ
ولن يمنعوني أن أموتَ برَغمهم
غداً خوفَ هذا العارِ في جَدَثٍ وحدي
فلا تنسَ أن تأتي هناك فتلتمِسْ
مكاني فنشكو ما تحملْتَ من جَهْدِ

فجاءها في الموعد فوجدها ميتة، فاحتملها إلى شعب بذرى جبل وضمَّها ملتزماً لها فمات. ثم أن بعضهم وجدهما فأخبر عنهما فدفنوهما.

هذا ما كان من أمر أشعار العشق التي أوردها كتاب «شاعرات العرب». وللإحاطة بالجانب العاطفي عند هؤلاء الشاعرات لابد من الإشارة إلى ما قلنه للأطفال وفي الأطفال. ولدينا هنا بعض الأمثلة منها:

أن أم الفضل بنت الحارث الهلالية، وهي أم عبد الله بن العباس ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) قالت وهي ترقّص ابنها عبد الله صغيراً:

ثكلتُ نفسي وثكلتُ بكْري
إن لم يَسُدْ فِهراً وغيرَ فهرِ
بالحَسَبِ الوافي وبذلِ الوَفْرِ
حتى يُوارى في ضريحِ القبرِ

وأن ضُباعة بنتُ عامر القشيرية وهي شاعرة صحابية كانت تُرَقِّص ابنها المغيرة بن هشام، وتقول:

نما بِهِ إلى الذرى هشامُ
قَرْمٌ وآباءٌ لهُ كِرامُ
جحاجحٌ خضارمٌ عظامُ
من آلِ مخزومٍ هو النِّظامُ
والهامةُ العلياءُ والسَّنامُ

ولننتقل إلى باب الحكمة عند شاعراتنا الجاهليات. ولدينا هنا ذكر لهند بنت الخُسّ بن حابس بن قريط الإيادي، وهي امرأة فصيحة، كانت ترد سوق عكاظ، ولها أخبارٌ فيه، ولُقبت حكيمة العرب.

ومن أشعارها في التجارب والحكمة:

وكم من كثيرِ المالِ يقبضُ كفَّهُ
وكم من قليلِ المالِ يُعطي ويُسلِسُ

وكم من سفيهٍ للجماعة مُفسدٍ
يَدبُّ بِشَرٍّ بينهم ويوسوسُ..

ومنها:

لقد أيقنتْ نفسُ الفتى غيرَ باطِلٍ
وإن عاش حيناً أنه سوف يهلِكُ
ويشربُ بالكأسِ الزُّعافِ شرابُها
ويركبُ حدَّ الموت كرهاً ويسلكُ
وكم من أخي دنيا يُثمِّرُ مالَهُ
سيورثُ ذاكَ المالُ رغماً ويترك..

ولأختها «جمعة بنت الخس» أيضاً أقوال في الموعظة والحكمة، منها:

أشدُّ وجوهِ القولِ عندَ ذوي الحِجا
مقالةُ ذي لُبٍّ يقولُ فيوجِزُ
وأفضلُ غُنمٍ يُستفادُ ويُبتغى
ذخيرةُ عقلٍ يحتويها ويُحرِزُ
وخيرُ خِلالِ المرءِ صدقُ لسانِه
وللصدقِ فضلٌ يستبينُ ويبرزُ
وإنجازُكَ الموعودَ من سببِ الغِنى
فكُنْ موفياً بالوعدِ تعطي وتنجزُ..

ولابد هنا من ذكر «زرقاء اليمامة» وهي امرأة من جديس حادة البصر، كبيرة العقل. ذكروا من أخبارها أن حسّان بن تُبَّع الحِميري غزا جديس فحذَّرت قومها وأنذرتهم بوصول جيشه فلم يصدقوها، فاجتاحهم عَدُوُّهم.

ومن قولها تحَذِّر قومَها بأن عدوَّهم آتٍ مختبئاً وراء الشجر:

خُذوا حذارِكُم يا قومُ ينفعكم
فليس ما قد أرى بالأمرِ يحتقرُ
إني أرى شجراً من خلفها بشرٌ
وكيف تجتمعُ الأشجارُ والبشرُ؟
ثوروا بأجمعكم في وجهِ أوَّلِهم
فإن ذلك منكم فاعلموا ظفرُ
وعاجلوا القومَ عند الليل إذ رقدوا
ولا تخافوا لهم حرباً وإن كثُروا
وغوِّروا كل ماء دونَ منزلِهم
فليس من دونِه نحسٌ ولا ضَرَرُ..

خاتمة:

الشعر ديوان العرب. وكما نبغ فيه شعراء، نبغت فيه شاعرات منذ الجاهلية، حملنه للدفاع عن القبيلة مطالبات بالثأر ممن يهددونها، وفخرن بالشجعان وذوي المروءة من أبنائها، وعيّرن المتخاذلين منهم. كما سجلن فيه مشاعرهن حزناً على من يفقدن، أو تشبيباً بمن يحببن، أو حنيناً للوطن والأرض التي نشأن عليها، وتدليلاً لأطفالهن. ورفضن بيعهن أو إهداءهن لملك أعجمي، أو سيد قبلي خوفاً من بطشه أو طمعاً في ماله. ولخصن تجاربهن في حكم ومواعظ فريدة.

وهذا الشعر يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- سمـر يزبـك (٢٠٠٨م). غادة السمان، المهنة: كاتبـة متمردة، إصدارات الأمانة العامـة لاحتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية.

٢- فيليب حتي وآخرون(١٩٩٤م). تاريخ العرب، بيروت، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.

٣- طه حسين(١٩٢٧م). الأدب الجاهلي، القاهرة.

٤- جرجي زيدان(١٩٥٧م). تاريخ آداب اللغة العربية، ج١، القاهرة، دار الهلال.

٥- الذين أسهموا في معارك صدر الإسلام رجالاً ونساءً هم ممن نشأ في الجاهلية.

٦- جرجي زيدان، المصدر نفسه

٧- جرجي زيدان، المصدر نفسه.

جميع الأشعار وأخبار الشاعرات من:

بشيريمـوت (١٩٩٨م). شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيـق وتنقيح وشرح عبد القادر محمد مايو، حلب، دار القلم العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زهور حديقة المعرفة

عبد الباقي يوسف *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يواصل الإنسان حياته حتى يتعرف على نفسه بشكل أكثر، حتى يتعرف على الآخرين، حتى يتعرف على العالم بشكل يمكنه من الانسجام مع عوامل ومقومات الحياة.

ليس للإنسان غير التوق إلى المعرفة حتى يستطيع أن يقف وسط الأمور والمجريات، ويتخذ العبر في سبيل حياة أكثر توازناً وعقلانية.

كلما يتقدم الإنسان في التجارب، يدرك قيمة كنز المعرفة، ويبذل في

* ناقد وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان وفاء كريدي.

سبيل التحصل المعرفي وقته وجهده وماله، فيكتشف بأن ما تقدمه إليه المعرفة، لايقدمه له شيء آخر في الحياة.

قوة الشخصية

يريد الإنسان أن يتمتع بشخصية قوية يحقق من خلالها بصمته وحضوره، ولذلك يواصل العمل بجد.

يسعى الإنسان حتى يجعل لنفسه حضوراً في الحياة، ويكون مميزاً في مهنته، وفي تربيته لأولاده، وفي عيادته للمرضى، وفي صلة رحمه، إنه شخص يتقن العمل الذي يقوم به، ويقدم الجودة في عمله، وبذلك فإن الشخص الذي يتمتع بقوة شخصية هو شخص جاد في الحياة، ويترك المواقف التي يتأثر بها الناس ويقتدون بها.

إن أهمية أي إنسان أو قيمته تكمن في العمل الذي يقدمه هذا الإنسان، وفي دقائق حياته الاجتماعية اليومية التي يمارسها.

إذن، نحن نعيش مجريات هذه الحياة المتمثلة بالأحداث والأفكار والمذاهب والميولات، ولابد لنا أن نتفاعل مع كل ما يجري فينا ومن حولنا، فأن تكون هامشيا يعني أنك لاتلتزم الحياة وأن الحياة لاتلزمك لأنك عندذاك لاتكون فعّالا فيها، ولاتكون فعّالة فيك.

نجد الدعوة إلى اكتساب قوة الشخصية في الآداب، ونجدها في دعوات الأنبياء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد عن النار.**

والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار. ولجاهل سخي أحب إلى الله من عالم بخيل».

كم من شخص مجهول خلّده في التاريخ عمل واحد إيجابي، فيُذكر بالخير، وكم من شخص خلده في التاريخ عمل سلبي فيُذكر بالسوء.

في صحيح مسلم عن أبي سعيد خدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيديه، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

ما يهم هو أن يكون لك موقف قولي وفعلي معا، وألا تكون في موقفين متناقضين، فالإيمان ذاته هو موقف متفاعل في نبض المؤمن وفق مستويات ودرجات هذا الإيمان، فعندما نقول /لقمان/ لا تلبث أن تقفز الحكمة إلى أذهاننا وكأنها اقترنت بهذا الشخص الحكيم دون غيره،

وعندما نذكر اسم أبي بكر، نذكر /الصدق/، واسم عمر بن الخطاب نقول /الفاروق/، واسم أسماء بنت أبي بكر، نذكر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بأنها /ذات النطاقين/.

وعندما نذكر معاوية، نذكر /شعرة معاوية/، ونذكر الخنساء، فنتذكر /الرثاء/.

وأيضاً عندما نذكر اسم /نيرون/ فنتذكر بأنه أحرق بلاده روما إضافة إلى أننا عندما نذكر / نزعة السادية/ فنتذكر اسم المركيز دي ساد، و/ المازوخية/ اسم مازوخ، و/الوجودية/ اسم سارتر و/التحليل النفسي/ فرويد.

قال الأوزاعي للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين أما علمت أنه كان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يامحمد، ما هذه الجريدة التي بيدك اقذفها، لا تملأ قلوبهم رعبا.

وقال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يدا واحدة.

فقال: يد الله فوق أيديهم

فقلت له: إن لهم مكرا

فقال: ولا يحيق المكر السيِّئ إلا بأهله.

قلت: هم فئة كثيرة

فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام ترادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه

وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئا قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا

الله، فيقول حسبك الله،الله بيني وبينك،

و بكى علي بن الفضل يوما، فقيل له: ما يبكيك؟

قال: أبكي على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة.

بين الشرق والغرب

عندما تحضر المعرفة، فإن الإنسان يلتقي بالإنسان، ودوماً فإن الإنسان يقرأ الإنسان، ويسافر إلى الإنسان حتى يصغي إليه، ويتعلم منه شيئاً جديداً لم يكن يعلمه من قبل.

لذلك لعب التراث المعرفي والديني الإنساني دوراً بالغاً في التقارب بين الناس في العالم.

يمكننا أن نرى ألوان التقارب الإنساني من خلال القرآن الذي جعل الكثير من اللقاءات ممكنة بين الشرق والغرب، وبين سائر اللغات والأطياف والأعراق الإنسانية.

يجد قارئ القرآن منهج حياة متكاملة في القرآن الذي يتعرض لكل كبيرة وصغيرة تمس مقومات الحياة البشرية، إنه كتاب تحليلي مفصل عن صلب علاقة الإنسان بالحياة، علاقته بنفسه، علاقته بالآخرين، علاقته بالله.

والقرآن وإن خاطب شخصاً معيناً في زمن معين، ولواقعة معينة، فإنه يصلح لإنسان كل زمان ومكان، ولذلك فإننا نقف أمام خطابات عامة، وإن كانت تخاطب شخصاً معيناً فقول:«**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى× أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**»[1] لاينتهي مفعوله بزمن الشخص الذي نزل فيه، بل يجد القارئ في هذا البيان الإلهي منهاجاً لوقائع حياته، ويحتمل هذا السطر، وهذه الكلمات السبع كتباً من الشرح لوقائع الحياة اليومية التي ينتفع بها الإنسان في ليله ونهاره، في حله وترحاله، في علاقاته بالناس من حوله، بأهله، بنفسه، ويمكن أن يتعرف على حكمة الله من خلال هذه الكلمات السبع.

ينظر بأن الله ولحكمته لم يعط الإنسان كل شيء من العلم إلى درجة الاستغناء، لم يعطه الصحة كلها إلى درجة الاستغناء، لم يعطه المال كله إلى درجة الاستغناء، لم يعطه الأمن كله، لم يعطه السلطة كلها.

ولذلك تراه يكد في الحياة ويشقى في سبيل بلوغ المعرفة الناقصة، في سبيل بلوغ المال الناقص، في سبيل الحفاظ على الصحة الناقصة، في سبيل الأمن الناقص، في سبيل الحفاظ على السلطة الناقصة.

من جوهر هذه المعرفة لحكمة الله ترى القارئ يعكس ذلك على نفسه، وكان النبي يقول بأنه لايأكل قبل أن يجوع، وإن أكل لايشبع. إنه يعطي لنفسه حقها، ولكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لايسمح لهـا أن تطغى عليه وتبطر، وتتمرد لأن باب الشهوات يودي إلى التهلكة الروحية والبدنية.

وكان يـوزع وقتـه على سائـر مقومات الحيـاة بحيث يتواصل مـع عناصر الحياة، ولايأتي واجب على حساب واجب آخر.

إن قـارئ القـرآن الذي هو مـع البررة لايعطـي نفسه كل هواهـا، ولايجري خلف الملـذات، وهـو بالوقـت ذاتـه يأخذ حقه وكفايته، إنـه كائن غير مفرط في الحصول على متطلباته، ودوماً هو يجاهد هوى النفس حتـى لايقع في أسرها، لأن السقوط في أسر النفـس لهو أشد من السقـوط في أسر ألدّ عدو بشري.

إنك عندمـا تعطي نفسـك كل هواها، سوف تطغى عليك، والنفس لاتعرف الشبع، ولا تعرف الحمد، كلما لبيت رغباتها، قالت لك: أنت مقصّر، هل من مزيد.

واعلم أن جل الذين يعانون أوبئة النفس هـم علـى الأغلب ضعفـاء أمـام أهوائهم ورغباتهم وشهواتهم.

ثـم أنك إن أعطيت حليلتك كل مطلب، استغنت عن حاجتها إليك، إن أعطيت ولدك كل مطلب، استغنى عن أبوتك له، فتغدو في واقع مُهان تقودك فيه أهواؤك، تقودك فيه حليلتـك، يقودك فيه ولدك وفي هذا يقول المثل السائر في الناس: /**لاتكن ليناً فتُعصر، ولاتكن صلباً فتُكسر**/.

تـدرك هنـا أن الإنسان كائـن محكوم باللاكمـال في الأخـذ، وفي العطـاء، في الإرسال، وفي التلقي، وهو يرتقي في درجات كمالـه البشري على سلّم اللاكمال الإيجابي هـذا الذي خلقه الله عليـه، هذا اللاكمال الذي يوهّج شعلة الحياة أمام ناظرَيه، يجدد أمامـه سبل الحياة، ويحفـزه على الإبداع، والإشـراق الروحـي، ويجعلـه يشعر بقيمة ومعنى الظفر.

إذا نظرتَ إلى رسائـل المنتحرين، رأيت أنهـم أفرطـوا في الجـري خلـف الأهواء والملـذات والشهـوات حتى شعـروا بخواء البدن، وخـواء الـروح، وخـواء العلاقات الإنسانية، وخواء الحياة برمتها.

إنهـم شعـروا بقـرف حتى مـن عناق الذكورة والأنوثة، بقرف من تناول ما لذ من طعـام ومن شراب، بقرف مـن الانتماء إلى المجتمع، بقرف من تلقي المعرفة.

مثل هـذه المشاعر لاتقتصـر على فئة معينـة، بل تشمـل فئات النـاس كافة، من العامـل البسيط، إلى رجل الفكر والفلسفة، فترى أن ماسح الأحذية ينتحر، كما ترى أن السياسي البارز ينتحر، وترى أن رجل الفكر ينتحر، وتـرى أن رجل المـال ينتحر. كلهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتساوون عند فكـرة اللاجدوى التي تهيمن عليهم.

لذلك يمكننـا أن نرى شخصـاً مفكراً من أقصى الغرب، يلجـأ إلى قراءة القرآن، ويتحدث عن مزاياه، وعن أهميته.

يقـول العـالم الإيطـالي كونـت إدوارد كيوجا:

لقـد طالعـت وبدقه الأديـان القديمة والجديـدة وخرجت بنتيجة هي أن الإسلام هو الدين السماوي والحقيقي الوحيد، وأن الكتـاب السماوي لهذا الديـن وهو القرآن ضم كافـة الاحتياجـات الماديـة والمعنوية للإنسان، ويقوده نحو الكماليات الأخلاقية والروحية.

يقول المهاتما غاندي:

يمكـن لأي شخص من خلال تعلم علوم القرآن أن يعرف أسرار وحكم الدين دون أن يحتاج إلى خصائص نص مصطنعة.

لايوجـد في القرآن الكـريم أمر بإجبار الآخريـن عن الرجوع عـن مذاهبهم، فهذا الكتـاب المقدس يقول وبأبسـط صورة: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».

ويرى البروفيسور مونتغمري واث:

مـا يعرضه القـرآن من واقـع وحقائق متكاملة يُعد في نظري من أهم ميزات هذا الكتـاب، والأكيد أن القطع النثرية كافة وما تم تدوينه من روائع الكتابات لايعد شيئاً في مقابل القرآن.

وفي رأي للمؤرخ الإيطالي برنس جيواني بوركيز يقول فيه:

لقد ابتعدتْ مصاديق السعادة والسيادة عن المسلمين بسبب تهاونهم في اتباع القرآن والعمـل بقوانينـه وأحكامـه، وذلك بعدما كانـت حياتهـم موسومـة بالعـزة والفخر والعظمـة، وقد استغل الأعـداء هذا الأمر فشنوا الهجوم عليهم.

نعم إن هـذا الظلام الـذي يخيم على حيـاة المسلمين إنمـا من عـدم مراعاتهم لقوانين القرآن، لانقص فيه أو في الإسلام عموماً، فالحـق أنه لا يمكن أخذ أي نقص على الدين الإسلامي الطاهر.

أما الخبير الفرنسي جول لابوم يقول:

أيها الناس، دققوا في القرآن حتى تظهر لكم حقائقه، فكل هذه العلوم والفنون التي اكتسبها العـرب وكل صـروح المعرفة التي شيدوها إنما أساسها القرآن.

ينبغي على أهـل الأرض على اختلاف ألوانهم ولغاتهـم أن ينظروا بعين الإنصاف إلى ماضي العـالم، ويطالعوا صحيفة العلوم والمعارف قبل الإسـلام، ويتعرفوا بأن العلم والمعرفـة لم تنتقل إلى أهـل الأرض إلا عبر المسلمـين الذيـن استوحـوا هـذه العلوم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمعارف من القرآن، كأنه بحر من المعارف تتفرع منه الأنهار. فالقرآن لا يزال حياً وكل فرد قادر على أن يستقي منه حسب إدراكه واستعداده.

وفي تصريح للفيلسوف الفرنسي فرانسوا ماري فولتر يقول فيه:

أنا على يقين أنه لوتم عرض القرآن والإنجيل على شخص غير متدين لاختار الأول، إذ إن الكتاب الذي نزل على صدر محمد يعرض في ظاهره أفكاراً تتطبق وبالمقدار اللازم مع الأسس العقلية، ولعله لم يوضع قانون كامل في الطلاق مثل الذي وضعه القرآن.

ويأتي العالم البريطاني فرد غيوم ليقول رأيه في القرآن متحدثاً:

القرآن كتاب عالمي يمتاز بخصائص أدبية فريدة من نوعها لايمكن المحافظة على تأثيرها في الترجمة.

للقرآن نغمة موسيقية خاصة وجمالية عجيبة، وتأثير عميق يدغدغ أسماع الإنسان، ولقد تأثر الكثير من المسيحيين العرب بأسلوبه الأدبي.

لقد استمال القرآن الكثير من المستشرقين إليه، فحينما يُتلى القرآن نجد نحن المسيحيين أثراً سحرياً في نفوسنا، حيث نُجذب لعباراته العجيبة وحكمه وعبره، ومثل هذه الميزات تجعل المرء يقتنع بأن القرآن لايمكن منافسته.

والحقيقة هي أن الأدب العربي بما فيه من شمولية في النثر والشعر، ليس فيه ما يمكن مقارنته بالقرآن.

ويقول الأستاذ بجامعة كمبرج كينت غريك:

لم يستطع أحد طوال القرون الأربعة عشرة الماضية، منذ نزول القرآن وحتى الآن، أن يأتي بكلام يشبه كلام القرآن الكريم.

القرآن ليس كتاباً مختصاً بعصر معين، بل هو أزلي يمتد لكل العصور، ومهما ظل العالم والوجود فإن جنس الإنسان يمكنه أن يجعل هذا الكتاب دليلاً له ويعمل وفقاً لتعاليمه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما لماذا كون القرآن أولي ولا يعتق، ويبقى دليلاً للإنسان ما عاش، فذلك لاحتوائه على كل صغيرة وكبيرة، وليس هناك شيء لم يأت في القرآن، وتأكدت أن تأثير القرآن على الأوروبيين واحد، ولكن بشرط أن نقرأه بلغته الأصلية، إذ إن ترجمته لاتترك الأثر الذي يتركه النص الأصلي في النفس.

كما يرى الخبير الألماني بشؤون الشرق السيد بلر في رأي له:

لغة القرآن أفصح لغات العرب، وأسلوب بلاغته قد صيغ بطريقة يجلب بها الأفكار نحوه.

للقـرآن مواعـظ واضحة لـن تجد لها في المستقبـل القريب من يعارضها، وكل من يتبع هذا الكتاب جيداً يحظى بحياة هادئة ومناسبة.

أما المفكر والفيزيائـي الألماني المشهور آلبرت انشتاين فقـد أوضح رأيه في القرآن الكـريم في قوله: القرآن ليس بكتاب جبر أو هندسـة أو حساب، بـل هو مجموعة من القوانـين التي تهدي البشريـة إلى الطريق السوي، الطريق الذي تعجز أكبر النظريات الفلسفية عن تقديمه أو تعريفه.

ويقـول الفيلسـوف الفرنسـي جوزيف آرنست رنان:

تضم مكتبتـي آلاف الكتـب السياسية والاجتماعيـة والأدبيـة وغيرهـا والتي لم أقرأهـا أكثر من مرة واحدة، وماأكثر الكتب التـي للزينة فقط ولكـن هناك كتاب واحد تؤنسني قراءته دائمـاً وهو كتاب المسلمين القرآن، فكلما أحسستُ بالإجهاد وأردتُ أن تنفتح لي أبـواب المعاني والكمالات، طالعت القـرآن حيث أنني لاأحـس بالتعب أو الملل بمطالعته بكثرة.

لـو أراد أحد أن يعتقـد بكتاب نزل من السماء، فإن ذلك الكتاب هو القرآن لاغير، إذ إن الكتب الأخـرى ليست لها خصائص القرآن.

هـؤلاء يقولون معتقداتهم عـن القرآن بكل حرية، وهي آراء قالوها بعد أن اطلعوا على القـرآن الكريم، وقطفت نفوسهم لآلئ وجواهر القرآن، ولذلك ترى البعض وفي ذروة الاضطرابـات النفسيـة والعصبية الحادة، يلجـأ إلى القرآن الكريم سـواء بقراءته، أو بالاستماع إليه، فيشعر براحة وسكينة. لقد هـدى الله تعالى الإنسان بالقرآن وكلما كان الإنسـان مقرباً من القـرآن، كان مقرباً من هدي الله الذي يقيه التشتت والتيه.

يقـول محيي الدين بن عربي في كتابه / الحب والمحبة الإلهية/:

فالحب مقام إلهي وصف الحق تعالى به نفسـه، وتسمّى بالودود،وفيه الخبر بالمحب، فممـا أوحى الله تعالى بـه إلى موسى عليه السلام في التوراة: (يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك مـن أجلي فلا تهتك ما خلقت من أجلـي فيما خلقت من أجلك. يا ابن آدم إني وحقي لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً).

وقـد وردت المحبـة في القـرآن الكريم والسنة المطهـرة الشريفة في حق الله وحق المخلوقين وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم وذكـر الصفـات التي لا يحبهـا الله وذكر الأصنـاف الذين لا يحبهـم الله، فقال الله تعـالى لنبيه صلى الله عليـه وسلم آمراً أن

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

يقول لنا: «**قُلْ إن كُنتُمْ تُحبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**»(**آل عمران- الآية ٣١**). وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» (المائدة- الآية٥٤). وقال في ذكر الأصناف الذين يحبهم: ((إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)) ويحب المطهرين ويحب المتوكلين ويحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب المتصدقين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص. كما نفى عن نفسه أن يحب قوماً لأجل صفات قامت بهم لا يحبها فحوى الخطاب أنه سبحانه يحب زوالها ولا تزال إلا بضدها ولا بد فقال: ((**إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**)) و: ((**وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**)) وضده الصلاح، فعين ترك الفساد صلاح وقال: ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**)) و((**إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**)) و((**اللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**)) و((**ولا يحب المسرفين**)) و((**اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**)) و((**لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ**)) و((**لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**)) ثم أنه سبحانه حبب إلينا أشياء منها بالتزيين ومنها مطلقة فقال ممتناً علينا ((**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**)) وقال: ((**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**)) الآية وقال في حق الزوجين: ((**وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**)) ونهانا أن نلقي بالمودة إلى أعداء الله فقال: ((**لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ**))- والمحبة الواردة في القرآن الكريم كثيرة وأما الأخبار فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قال: (كنت كنزاً لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني) فما خلقنا إلا له لا لنا لذلك قرن الجزاء بالأعمال فعلمنا لنا لا له وعبادتنا له لا لنا وليست العبادة نفس العمل فالأعمال الظاهرة في المخلوقين خلق له فهو العامل ويضاف إليه حسنها أدباً مع الله مع كونها كل من عند الله لأنه قال: ((**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**)) ((**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**)) وقال: ((**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**)) فدخلت أعمال العباد في ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يقول: (**ما تقرب المتقربون بأحب إلي من أداء ما افترضته عليهم ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**) الحديث وفي الخبر (إن الله يحب كل مفتن تواب) وفي الخبر (وجبت محبتي للمتحابين فيّ) وفي الخبر (أحبوا الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لما أسدى عليكم من نعمه) وفي الخبر (إن الله جميل يحب الجمال و(إن الله يحب أن يمدح) وقال عليه السلام (حبب إليّ من دنياكم ثلاث).

أشواك الفوضى

يبحث الإنسان لنفسه ولنمط حياته عن عوامل وقوانين تنظم له حياته، وتحفظ له حقوقه، وتجعله ليس يعطي للآخرين فقط حقوقهم، بل يمنح لنفسه حقها.

الإنسان بنظر نفسه في الحياة هو عبارة عن حالة عامة من فوضى لأنه يشعر بأنه كائن مجهول في كوكب مجهول.

جاء من مجهول ويمضي في مجهول حتى ينتهي إلى مجهول.

المفهوم الأولي العام لديه هو فوضى وعدم رتابة، بناء على جهله للمصير الذي يؤول إليه سواء بعد نصف ساعة، أو بعد نصف قرن، أو بعد ملايين الأعوام القادمة.

ومن هذه النقطة ينطلق الإنسان، ويقرر ما الذي سيكونه في الحياة.

هل سيلبث في حالة تيه وشتات، أم أنه سيحدد لنفسه أهدافا وقيما ورتابة يلتزم بها.

كثيرون يراوحون في حالة فوضى ويتجنبون أي شكل من أشكال الالتزام، لاتعنيهم الأخلاق شيئا، ولايعنيهم النجاح شيئا، ما يهم هو أن يستمروا في الحياة ويحققوا رغباتهم الآنية مهما كانت النتائج، ينجحون في أن يقتلوا في أنفسهم الضمير حتى لايؤنبهم، لايؤمنون بجدوى شيء إن لم يقترن بماديته، سواء أكانت مادية اقتصادية، أو مادية جسدية، أو مادية حسية.

وعلى الأغلب ترى هؤلاء يعيشون دون سمعة طيبة، يفقدون ثقة الآخرين بهم حتى من خلال كلمة يلفظونها، ولايثقون بعهودهم ومواعيدهم، لايأمنونهم على سر. فهؤلاء لايؤمنون بالوفاء، أو الصدق، أو القيم الإنسانية، أو الشهامة، أو التضحية.

إنهم يعيشون حالة متجذرة من النرجسية (العظمة) لايؤمنون معها إلا بأنفسهم وحقيقة اللحظة التي يعيشونها.

فتسمع أحدهم يقول مبرراً لنفسه خطيئة، أو سلوكا شائنا: لأفعل ما أفعل، الدنيا فيها موت.

إنه هنا يشعر بأنه سوف يفسد الحياة وينتقم منها لأنها سوف تجعله ذات يوم ميتاً.

في حين ترى الإنسان المناقض له يقوم بأعمال خيرة وطيبة وهو يريد أن يعيد للحياة شيئاً من جمائلها عليه، فقد عاش ستين أو سبعين، أو حتى عشرين سنة في هذه الحياة بطولها وعرضها، ووهبته خيراتها ومعارفها

وعرفتـه بناسها، ألا تستحـق أن يقدم لها شيئا مجديا حتى لـو كان من خلال موقف أخلاقي، أو من خلال كلمة عدل.

في كتابه شرح الأربعين النووية يقول ابن دقيق:

عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري -رضي الله عنـه- قال: قال رسول الله صلـى الله عليـه وآله وسلـم: (**إن مما أدرك الناس مـن كلام النبـوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**). رواه البخاري معنى قوله (**مـن كلام النبـوة الأولى**) إن الحياء لم يزل ممدوحـا مستحسنا مأمورا به لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين وقوله (فاصنع ما شئت) فيه وجهـان أحدهما: أن يكون خرج بلفظ الأمر على معنى الوعيد والتهديد ولم يرد به الأمـر كقوله (اعملوا ما شئتم) فإنه وعيد: لأنه قد بين لهم ما يأتونه وما يتركون وكقـول النبي صلى الله عليه وسلم (**من باع الخمر فليشقص الخنازيـر**) لم يكن في هذا إباحة تشقيص الخنازيـر الوجه الثاني: أن معنـاه: ائت كل ما لم يستحيـا منه إذا ظهر فاعله ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم (الحياء من الإيمان) معناه: أنه لما كان يمنع صاحبـه مـن الفواحش ويحمـل على البر والخير كما يمنع الإيمـان صاحبه من ذلك ويحمله على الطاعات صار بمنزلة الإيمان لمساواته له في ذلك والله أعلم.

إن الحياة هنا تقترن بوجود الله في نفس هذا الإنسان، فهو يقدم كل هذه السلوكيات لأنـه مؤمن بأن الله يـرى كل هذه المواقف منه، ثم إن هذه الأعمال الصالحة وإن كانت تلبث في الأرضـ إلا أنها تصعد إلى السماء أيضـا حيث سيلحق بتلـك الأعمال ويكون معها.

علـى هذا المفصل يشرق نور الدين أمام الإنسان، ليس المؤمن بالله فحسب، بل المؤمن بقيم الإنسان فيه، المؤمن بروح العطاء وفعل الخير، المؤمن بحب الإنسان لأنه يشعر ويعيش حالة رباط قوي بينـه وبين أي إنسان يراه، إنه يرى نفسـه في الآخرين، ويرى الآخرين في نفسه، فلو كان الإنسان دون إله للبث في حالة الفوضى هذه، ولـكان أبأس الكائنات في الوجـود، لكنه كائن محظوظ لأن له إله، وله خالق ينظم له هذه الحياة التي يعيشها وينقذه من حالة الفوضى الكامنة في أعماقه ويفقهه في حـب الخير والحكمة، فتتحول الظلمات إلى أنوار ويمسي الغموض وضوحا، ويتحول المجهول إلى مدارج مضيئة أمامه.

إنها التعاليم الكبرى من إله شاء أن يخلق هذا الإنسان وشاء أن يوليه عنايته وشاء أن ينظر إليه بالرحمة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي تقديري فإن الإنسان كلما استوعب هذه الآيات من الله، كلما اتسعت مداركه وانفتح نضجه ونظم حالة الفوضى في كوامنه، هذا التنظيم الذي يهب لحياته معنى، ولوجوده كإنسان قيمة غنية.

إننا نحتاج أن نكون مع تعاليم الله، نحتاج أن نتعلم من الله، أعني من صلب علاقته بالإنسان، ومن صلب علاقة الإنسان به، نحتاج أن ندنو من رحاب فالق الإصباح.

إن ما يساعد الإنسان على أن يخفف من الفوضى غير المنظمة هو العقل الذي قسمه له الله، هذا العقل الذي يجعله منضبطا بسلوكه الإنساني وغير متبع لغرائزه العشوائية.

فالمتعة، كل المتعة تكمن في مدى المقدرة على قمع تلك الغرائز العشوائية أكثر مما تكمن في تحقيقها، لأنك عند ذاك تشعر بأنك قادر بشكل فعلي على قيادة نفسك دون أن تتمكن شهواتك أو غرائزك المادية والمعنوية من قيادتك نحو أودية الشتات، ثم أنك هنا تمتلئ شعوراً بأنك قادر أيضا على قيادة أسرتك.

فأنت تشعر بالاعتزاز، نقيض ذاك الذي يفقد هذا الشعور بالاعتزاز، وهذا المعنى بالبطولة وهذا الإحساس في القيادة الذي يجعله يميل إلى العبث واللاالتزام نتيجة فيضان متاهات الفوضى العارمة التي يمضي بمشيئتها.

هنا تدرك بأن الإنسان يقرر ما يكونه في الحياة، يقرر أن يكون ناجحا، أو يكون فاشلا، أن يتمتع بسمعة طيبة، أو يتمتع بسمعة حسنة، وتدرك هنا أن النجاح لايتحقق بالأمنية فقط، كما أن الفشل لايتحقق بالأمنية فقط، مثل أن حصولك على طعام من نتاج جهدك لايتحقق بالأمنية فقط، كما أن حصولك على طعام بسطوٍ لايتحقق بأمنية فقط.

إنك تحتاج إلى أن تصبر على عملك، تحتاج إلى تحمل المشاق، والمتابعة، والإصرار حتى تبلغ هدفك الذي نظرت فيه وتمنيته لنفسك. ترى شخصا يأتي إلى عمل وهو يجر خطاه، وكأنه يأتي جبر الخاطر، كأنه يبحث عن أي حجة حتى يتراجع ليقول في الناس بأنه إنسان غير محظوظ ومكتوب عليه الفشل في أي عمل، إلى جواره ترى شخصا يصر على عمله حتى لو لم يحالفه الحظ مرات عديدة، إنه لايفقد الأمل لأنه يقرن حياته بعمله فتراه يبلغ الهدف ولو متأخرا فيكون أفضل من جاره الذي ركن إلى اليأس ولبث فاشلا في الحياة لامكانة له، ولا بيت، ولا أصدقاء، ولا أسرة حميمة، ولا مكانة، ولا مكانا طيبا في محيطه. وهنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكون أمامك أن تنظر بشيء من التأمل بأن الإنسان هو عمله، وهنا يتسع صدرك لتأخذ مساحات أخرى من التأني في جل خطوات حياتك.

مديح الجمال

الجمال هبة خاصة يتمتع بها بعض الناس من دون غيرهم، وتذوّق الجمال أيضاً هبة يتذوقها البعض من دون سائر الناس.

مفهوم الجمال يختلف من شخص إلى آخر، ولذلك فإن معيار تذوّق الجمال هو معيار مختلف من شخص إلى شخص آخر.

من هنا يمكن المقارنة بين الناس، كذلك التعرف إليهم من خلال مفهومهم الذوقي والتذوقي للجمال، ومن خلال معيار تلقي لمسات الجمال.

في كتابه من المستطرف في كل فن مستظرف يقول الأبشيهي عن جمال النبي صلى الله عليه وسلم: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربعة من القوم، لابائناً من طول، ولاتقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج(٢) مفلج الثنايا(٣)، دقيق المسربة، أزهر الجبين، واضح الخد، أقنى الأنف، كأن عنقه إبريق فضة، ظاهر الوضاءة، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، ششن(٤) الكفين، مسيح القدمين، واسع الصدر من لبته إلى سرّته، شعر يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولاصدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شيبه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس(٥)، أنور المتجرد، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت، التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة كأنه زر خجلة، أو أبيض حمامة، لونه كله جسده، أبلج الوجه، حسن الخلق، وسيماً قسيماً، في جبينه زجج، وفي عينيه دعج، وفي عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطقه خرزات نظم يتحدرن.

قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

منزلة الجمال

والجمال نعمة ينعم بها الله تعالى على عباده، وهو يستحي أن يطعم هذا الجمال للنار، يقول صلى الله عليه وسلم: /**ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه للنار**/.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله جميل، فقد أخرج مسلم في صحيحه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من**

كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس).

وفي ذلك يقول المناوي: إن الله جميل أي له الجمال المطلق جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال، يحب الجمال أي التجمل منكم في الهيئة، أو في قلة إظهار الحاجة لغيره، والعفاف عن سواه. والمسلم يظهر نعمة الله عليه، يقول الله تبارك وتعالى «**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**» ولكن لايصل الأمر إلى أن يسرف المسلم في لباسه أو مركبه بحيث يصل إلى حد التبذير حيث يقول تعالى «**وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً**».

روي عن عائشة أنها قالت لما رجع النبي يوم الخندق: بينما هو عندي إذ دق الباب، وفي رواية: نادى مناد عذيرك من محارب، على دابة والنبي متكئ على معرفة الدابة يكلمه، فرجعت فلما دخل قلت: من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: أورأيته؟ قلت: نعم، قال: بمن تشبهينه؟ قلت: بدحية الكلبي، قال: ذاكِ (بكسر الكاف) جبريل أمرني أن أمضي إلى بني قريظة.

وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال له «يا رسول الله إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً»: «إن الله جميل يحب الجمال». أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم «**الله أولي من تُجمل له**».

قال الله لنبيه: يا محمد ما بيني وبينك إلا صورة الحسن والجمال.

والإنسان أيضاً كائن جميل، وهو يستمد جماله من جمال ربه، لأن الله الجميل قد خلقه على صورته.

وقد روي عن الرسول أنه قال: «إن الله خلق الإنسان على صورته».

مفهوم الجمال عند أهل الفقه

يكتب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وجهة نظره عن هذه الصورة الجميلة قائلاً:

مسكتك في داري لإظهار صورتي
فسبحانكم مجلى وسبحان سبحانا
فما نظرت عيناك مثلي كاملا
ولا نظرت عين كمثلك إنسانا
فلم يبق في الإمكان أكمل منكمُ
نصبتُ على هذا في الشرع برهانا
فأي كمال كان لم يك غيركم
على كل وجه كان ذلك ما كانا
ظهرت إلى خلقي بصورة ادمي
وقررت هذا في الشرع إيمانا
فلو كان في الإمكان أكمل منكم
لكان وجود النقص فيَ إذا كانا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقول ابن عربي:

جميل ولا يهوى جليّ ولا يرى
وتشهده الألباب من حيث لا تدري
ولا تدرك الأبصار منه سوى الذي
تنزهه عنه عقول ذوي الأمر
فإن قلت محجوب فلست بكاذب
وإن قلت مشهود فذاك الذي أرى
فما ثم محبوب سواهو إنما
سليمى وليلى والزيانب للستر

فهن ستور مسدلات وقد أتى
بذلك نظم العاشقين مع النثر
كمجنون ليلى والذي كان قلبه
كبشر وهند ضاق من ذكرهم صدري.

ويقول ابن عربي في كتاب الحب والمحبة الإلهية: قال تعالى: ((**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**)) وأضاف الله الزينة وأمرنا أن نتزين له فقال: ((**خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**)) يريد وقت مناجاته وهي قرة عين محمد صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن لما فيها من الشهود فإن الله في قبلة المصلي ولا شك أن الجمال محبوب لذاته فإذا انضاف إليه جمال الزينة فهو جمال على جمال كنور على نور فتكون محبة على محبة فقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله إذ وقد أخبرت عن نفسك أنك تحب الجمال وإن الله يحب الجمال فإذا تجملت لربك أحبك وما تجمل له إلا باتباعي فاتباعي زينتك هذا قوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: ((**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**)) أي تزينوا بزينتي يحببكم الله فإن الله يحب الجمال فتزين تارة بنعتك من ذلة وافتقار وخشوع وخضوع وسجود وركوع وتارة بنعته عز وجل من كرم ولطف ورأفة وتجاوز وعفو وصفح ومغفرة وغير ذلك مما هو لله من زينه الله التي ما حرمها الله على عباده فإذا كنت بهذه المثابة أحبك الله لما جملك به من هذه النعوت وهو الحب الذي ما فيه منة لأن الجمال استدعاه فتجمل إن أردت أن ترتفع عنك منة الله من هذا الوجه الخاص ويكفيك حكم الامتنان بما وفقت إليه من التجمل بزينة الله فإن ذلك إنما كان برحمة الله ومن هنا نقول للأحبة منزل في المحبة فحبيب جنيب قريب فالمحب إذا كان ذا جنابة فما هو من القرابة وإذا لم يكن جنيبا كان قريبا قرب الحبيب بالاشتراك في الصفة وجنابته في عدم الاشتراك فيها كما أعطت المعرفة: تقرب إلي بما ليس لي لما طلب القرب الولي والذي ليس له الذلة والافتقار فهو الغني العزيز الجبار.

عندما تكون في مكان ما وترى شخصا

يبتسم فتشعـر بأنك تبتسم معـه، وعندما تـرى شخصا نجح في مشروع قام به فتشعر بأنك نجحت،عندما ترى منظرا بهيا فتنعش حواسك، أو أنـك عندما ترى شخصا يتألم فتتألم معه، وعندمـا ترى شخصـا أخفق في مشـروع قام به فتحـزن معه، أو عندما تـرى منظرا مؤلـما فتستاء. هنـا يمكن أن تبلغ الإشـارة الأولى من إشارات شخصيتك الموجبة.

وإن رأيتـك تـدري أو لا تدري تميل إلى رفاق سوء، لا تحزن أمـام شخص أصابته مصيبة، تميـل بطبعك إلى إثارة ثغرات بين شخصين محبين، تشعر بظفر عندما يخفق الآخرون في أعمالهم،لا تزيح أذى عن طريق، يعتريك ضيق أمام شخص يضحك. فاعلم بأنها إشـارة أولى من إشـارات شخصيتك السالبة.

وكمـا أن السلـك السلبي يمكـن له أن يحيل ضوءاً ساطعاً إلى ظلام، فبإمكان سلك إيجابي أن يحيل ظلمة أزلية إلى ضوء.

يمكـن لك وأنت في ذروة يأسك أن تعثر على شخص موجـب يبدد عالما من الظلام ويحيله إلى شـروق وربيع عامر بكل أطياف الطيور والورود.

إنـه عـالم خفي مـن التقـاء النظرات بالنظرات، من تفاعـل الذرات مع الذرات، من عنـاق الحواس للحواس، مـن انسجام النبضات مع النبضات.

كان محيـي الدين بن عربـي(٦) منتبهاً لأهمية الإنسـان الإيجابي في الحياة، وبأنه إنسان استثنائـي يصعد في درجات الكمال البشـري، مستمداً قوته الإيجابية من صلب العلاقـة بينـه وبين الله. ثمـة موشح لابن عربي يقول فيه:

تـدرع لاهـوتـي بنـاسـوتـي
وحـصـل مـوسـى لـيـم تـابـوتـي
فـمـن قـال عـنـي إنـنـي الـعـبـد
وقـد صـح أني المـلـك الـفـرد
قـرب عـلـيـم غـره الجـحـد
فـانـظـر عـزتـي فـيـك وتـثـبـيـتـي
على عـرش تـنـزيـهـي عـن الـقـوتـي!

وهنا تكون لآمال الإنسان الكبرى معقودة على الإنسان الإيجابي الذي تفوح منه رائحة طيب الإنسـان، ورائحة الصنعـة الإلهية. يقول ابن عربي:

ألا يـاحـمـامـات الأراكـة والـبـان
تـرفـقـن لاتضعفن بالشجو أشـداني
لـقـد صـار قـلـبـي قـابـلاً كـل صـورة
فـمـرعـى لـغـزلان وديـر لـرهـبـان
وبـيـت لأوثـان وكـعـبـة طـائـف
وألـواح تـوراة ومـصـحـف قـرآن

أديـــن بـديـن الحـب أنـى تـوجـهـت
ركـائـبـه بـالحـب ديـنـي وإيمـــاني[٢]

كلمة الختام

كلما يتعرف الإنسان على الحياة، يجنح شطــر التواضع، ويتحــول إلى إنسان سلمي أينما يقع ينفع إنه يقطف الزهور من حديقة معرفتـــه، فترى الروائح الطيبة تفوح من كل كلمة يقولها، من كل خطوة يخطوها، من كل حركة يقوم بها.

يشعر الآخرون مدى حاجتهم إلى إنسان كهذا بينهــم حتى يشعروا برفقته بشيء من السكينة.

الإيجابيون هم الذين يجعلون من الحياة مــادة قابلة للعيش، إنهــم مصابيح الهدى. محظــوظ ذاك الذي يجد كائنــا يميل إليه كل الميل، ويتعلق به كل التعلق، ويتفاعل معه كل التفاعــل، وأظن أن هــذه المسألة تكون غاية في الأهمية في العلاقة الزوجية إذ ليس هنــاك أتعس من زوجين يعيشــان في بيت واحد وكل واحد ينفر من رائحة الآخر، وليس هناك أسعد من زوجين كلما احتضنا أحسا بمسافة أخرى لا بد أن يجتازاها ليقتربا من بعضهما أكثر، كلما استنشق أحدهما رائحة الآخر أحس بأنــه في ربيع حافل بكل ألوان الرياحين، فترى الزوجــة أنهارا وهي تنظر في عيني زوجها، تــرى سماء وهي تنظر في جبهته، تــرى وطنا آمنا وهي تتوسد ذراعه، تهــرع إلى حضنه كلمــا شعرت ببرد وخوف وجوع وفراغ لتلمس عالما حافلا بكل شيء.

أظن أن كل تلك التعريفات لبثت وسوف تلبـث عاجزة عن تفســير لحظة واحدة من الحب الكبير الذي يجعلــك تشعر بكل تلك القوة نحو شخص ما، شخص ما دون غيره. إنه يشـرق أمام ناظريك كالشمس، ولاتملك إلا أن تشعر بنشوة وأنت تنظر إليه، ولاأظن أن ثمــة خســارة في العــالم تضاهي خسارة شخص مشـرق لأنه كوكــب مضيء يمشي علــى الأرض، وكذلــك يمشــي في الناس. هاهــو التوافق في الميولات، هاهو الإعجاب بجمالية الــروح والجسد، هاهــي المواقف النبيلة. أظن بــأن الغموض في هذه المسألة يزيدهــا إشراقا وزهــوا وامتــلاء بالمعاني الفائضة. أجل إنهم العظماء الذين يحرص المرء على حياته فقــط من أجل أن يلتقيهم ويستمتع بلحظات التآنس والتآلف الروحي معهم، هؤلاء العظماء الذين يتسلسلون عبر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التاريخ البشري ويتوارثون شجرة الطيب وعناقيد فاكهتها من بعضهم البعض.

حظي الجمال بمديح أهل الفكر والأدب، وهو قيمة يتمتع بها الإنسان، وهي قيمة تميزه وتضفي إليه مسؤولية تمثيل هذا الجمال.

تكمن روح الطبيعة في أن أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتمل هذه الثورة كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاطبيعي.

إن ثورة اللاطبيعة نائمة لايوقظها غير فعل لاطبيعي تقوم به فتنتفض من نومها العميق وتثور على صفاء طبيعتك الساكنة ولاتعود إلى نومها قبل أن تعود إلى طبيعتك أو أن تعيدك إلى طبيعتك بالقوة، وإن كنت عنيدا سوف تحيلك إلى كائن لاطبيعي يعيش حياة لاطبيعية وتبقى يقظة لايدركها نوم، كما أنك تبقى يقظا لايدركك نوم.

الداء لايتحول إلى دواء، إنه في أفضل أحواله مزيد من الداء، دوما عليك أن تكون دائم البحث عن دواء لدائك، وإن لم تجده فإن صبرك الطويل يتحول مع الزمن إلى دواء.

مادامت الشمس تشرق كل يوم فإنها سوف تحمل إليك جديداً لم تكن قد أدركته قط حتى لوكنت في ظلمة كهف.

كل حاضر قابل لأن يتحول ذات حاضر إلى ماض، ما هو غير قابل لأن يتحول إلى ماض لم يكن له حاضر ذات حاضر.

اللامبالاة في أمور صغيرة تؤدي إلى لامبالاة في أمور كبيرة، والاستمرار فيهما يؤدي إلى لامبالاة مطلقة تجاه كل خصائص وميزات إنسان اجتماعي أخلاقي، ثم في مرحلة لاحقة إلى فقدان المسؤولية كاملة تجاه نواميس الحياة برمتها.

ليس أمامك إلا أن تكون جاداً في الحياة، عندما لاتكون جاداً في الحياة، فإنها أيضاً لاتكون جادة فيك.

ليس أمامك إلا أن تكون جاداً في عملك، إن لم تكن جاداً في عملك، فإنه أيضاً لايكون جاداً فيك.

تكمن روح المعضلة في أننا نرسم صوراً وفق ما يزينها لنا خيالنا عن أشخاص نراهم لأول مرة، أو نحدثهم لأول مرة، أو نسمع بهم لأول مرة. تكمن روح المعضلة ونحن نتخذ بشأنهم قرارات كبرى، أو نقف منهم مواقف حاسمة كبرى بناء على رسم مخيلتنا لتلك الصور عنهم.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الهوامش

١- الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق.
٢- أدعج: واسع.
٣- الثنايا: الأسنان في أول الفم.
٤- ششن: خشن.
٥- كراديس: رؤوس العظام.
٦- كان ابن عربي قد أحب فتاة جميلة تدعى /نظام/ ولقبها /عين شمس/ وهي ابنة شجاع الأصفهاني، إمام الحرم المكي، وكانت تميل إلى التصوف، وهي التي ألهمته عذوبة الكتابة في الكثير من موشحاته وقصائده لأنها كانت بالنسبة إليه صورة النقاء، وتمثل قوة الإنسان الإيجابي الذي يرتاح إليه ولذكره الناس.

المراجع

١- ديوان ابن عربي- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٦م- ص٣٦٣.
٢- ترجمان الأشواق- محيي الدين بن عربي- دار صادر- بيروت ١٩٦١م- ص٢٤.
٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- المقري والتلمساني- تحقيق إحسان عباس- منشورات دار صادر- بيروت ١٩٨٦م.
٤- زيغريد هونكه- شمس العرب تسطع على الغرب- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط ٦.
٥- فريدريك نيتشة- إنسان مفرط في إنسانيته- ج٢- ترجمة: محمد الناجي- أفريقيا الشرق- الدار البيضاء ٢٠٠١م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آينشتاين: بين طموح العالم وجموح الفيلسوف

د. جهاد ملحم*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن رؤية المزيد تتطلب الوقوف على أكتاف العمالقة.

«إسحاق نيوتن»

فيمـا يختص بالعلوم الفيزيائية لم يكـن هناك نظير لآينشتاين في القرن العشرين، بل ولا في كل تاريخ الفكر الإنساني.

«محمد عبد السلام»

---

* أستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

ذاكرتنا الثقافية حول ألبرت آينشتاين، أكثر علماء القرن العشرين المنصرم شهرة، مشوشة إلى حد ما بفعل شخصيته الأسطورته المرعبة. إذ لا يوجد سوى عدد قليل من الكتاب لديهم الكفاءة والتقنية اللازمتين لفهم أبحاث آينشتاين والحساسية الكافية لتقدير عبقريته المدهشة. ولمن يريد المزيد حول الموضوع يمكنه العودة إلى أحد هؤلاء الاستثنائيين الذين سبروا أغوار تفكير آينشتاين وهو الفيزيائي الشهير، صاحب المقالات المتنوعة والكتابات الرشيقة، فيلسوف العلم جون أريشبالد ويلر.

ولادة عبقري

ولد ألبرت آينشتاين في ١٤ آذار عام ١٨٧٩ في مدينة أولم الألمانية وهي مدينة صغيرة من أعمال ورتنبرغ لم يكن لها شأن يذكر في حياته، لأن عائلته قد انتقلت إلى ميونيخ بعد عام من ولادته. لم يعرف عن أسلافه من أبيه وأمه، جميعهم كانوا من الطبقة المتوسطة، أنهم أنجبوا من يسترعي الانتباه في قوة الذكاء أو حدة الذهن أو فيض القريحة. وهذا كان حال اليهود عموماً في ألمانيا: خمول وكسل وتواكل. ولم تكن لهم رابطة تجمعهم كشأن سائر يهود العالم. وكذلك لم تستأثر التوراة بألبابهم فكانت تنزل منهم منزلة أي كتاب أدبي من أدباء الألمان الكلاسيكيين. فكان /شيلر/و/لسنج/ و/هاين/ يعدلون سليمان وكتاب أيوب، وكانت مسرحيات شيلر وقصائده على وجه الخصوص بديلاً لهم من قراءة التوراة.

امتلك هرمان آينشتاين -والد ألبرت- مصنعاً كهركيمائياً صغيراً أشرف عليه هو وأخوه الذي كان يساكن العائلة، فكان هذا المدير الفني، وكان هرمان ممول المشروع. وقد جرت العادة وقد أنجز عمله اليومي أن يصطحب الوالد أسرته إلى ظاهر المدينة ليروحوا عن أنفسهم، حيث الجبال الراسيات والبحيرات الحالمة والسهوب الوادعة. هكذا اكتسب آينشتاين من أبيه عشقه للريف وعزوفه عن المدن ومن عمه، وهو مهندس محنك يهتم بدقائق الأمور العقلية، حبه وكلفه بالرياضيات. أما والدته -بولين كوخ- التي كانت من عشاق الموسيقى ومن صاحبات النكتة، فقد ورث عنها هاتين الخلتين البارزتين.

في هذه الظروف البيئية والاجتماعية تبلورت شخصية عالم من طراز رفيع سوف يضع اللبنات الأساسية لمفاهيم الفيزياء النظرية الحديثة، وهي مفاهيم ستغير نظرتنا التاريخية للزمان والمكان وتترك آثارها المديدة على الجنس البشري.

بعد أن تلقى آينشتاين تعليمه في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

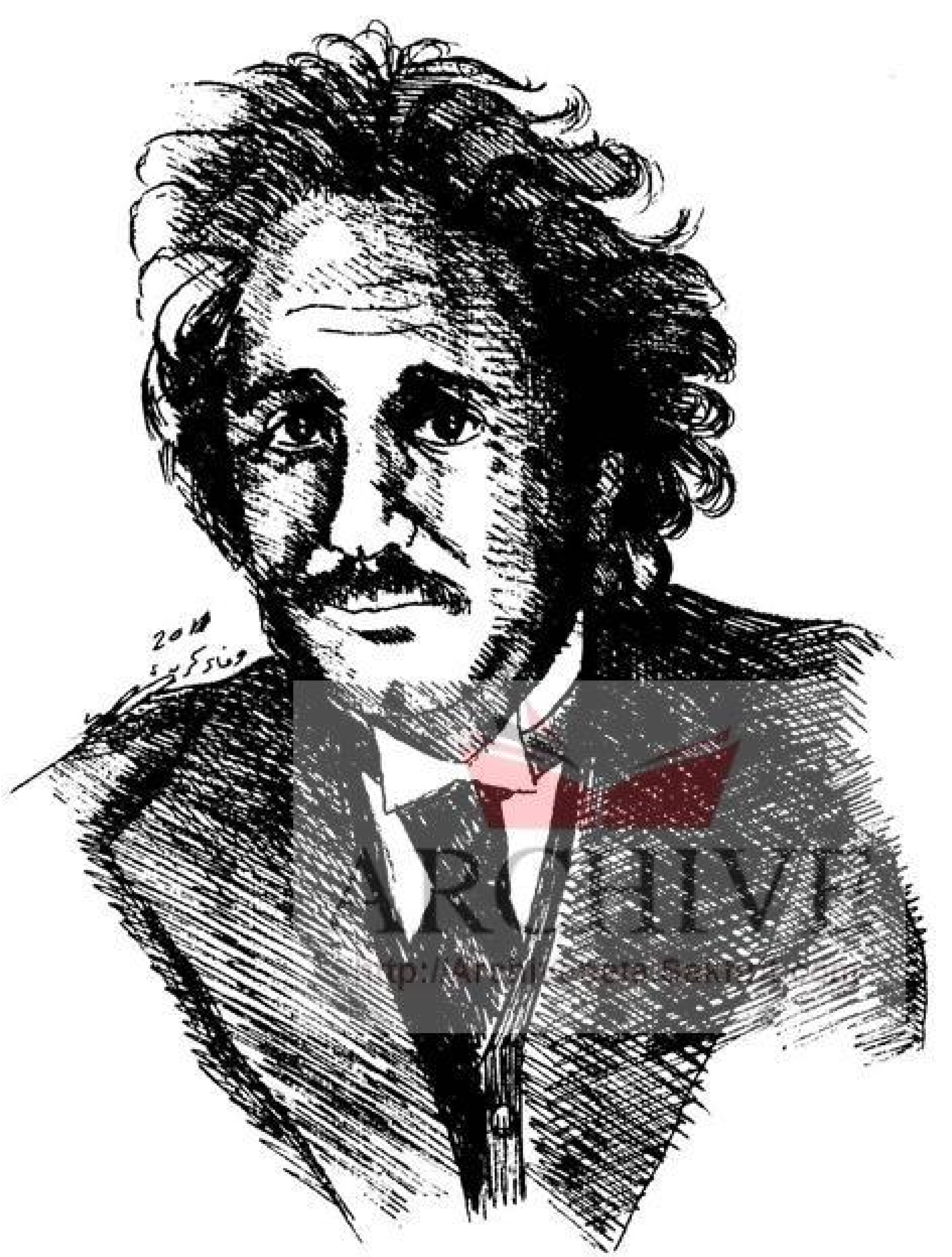

ألمانيا وإيطاليا وسويسرا، ومارس مهنة التدريس في جامعات كل من /برن/ و/زيوريخ/ وبراغ/، تسلّم في عام ١٩١٤ إدارة معهد كايسر فيلهلم للفيزياء في برلين. لكن مع وصول النازيين إلى السلطة وبروز هتلر كقائد مطلق الصلاحية لم يعد لليهود وجود آمن ليس في ألمانيا وحدها بل في كامل القارة الأوروبية، مما اضطره إلى مغادرتها عام ١٩٣٣ باتجاه نيويورك. أصبح أستاذاً في مدرسة الرياضيات في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون في بداية عام ١٩٣٣، وحصل على الجنسية الأمريكية في صيف ١٩٣٦، ومات في برنستون من نيوجيرسي في ١٨ إبريل من عام ١٩٥٥.

في برلين حيث اكتشف ماكس بلانك في عام ١٩٠٠ أن انتقال الطاقة يتم بشكل متقطع (كمّات Quantums) وليس بشكل مستمر، شرح لنا آينشتاين بعد ١٥ سنة من ذلك أن الثقالة ليست شيئاً غريباً وغامضاً يؤثر عبر الفضاء، بل هي مظهر لهندسة

المكان ذاته. كما توصّل آينشتاين إلى فكرة أن الكون لا يستمر على منوال واحد إلى الأبد، بل كانت له بداية أخذ يتمدد من حينها حتى وصل إلى وضعه الحالي. ومعلوم أنه من بين جميع المسائل التي شغلت عقول كبار المفكرين في كل البلدان والأمصار، لا توجد مسألة تفوق أهميتها معرفة كيف بدأ الكون، كما لم يساهم أحد من قبل مساهمة غنية وتنويرية كتلك التي ساهم بها آينشتاين.

في عام ١٩١٥ قدم آينشتاين نظرية هندسية للثقالة لا تزال قياسية وتمثل أنموذجاً أولياً لا يمكن لأي نظرية فيزيائية حتى اليوم تخطي ما فعلته وما ستفعله، لكنها مثّلت بالنسبة له سلسلة تلال نائية شديدة الانحدار عليه أن يتسلقها لهدف أكبر لم يصل إليه مطلقاً. اعتقد آينشتاين أنه كالمتسلق الحالم بالوصول إلى قمة جبل «إفريست» أعلى الجبال الموجودة على كوكب الأرض وما يمكن أن يوجد، قد يكشف له الغطاء عن سر الوجود- هذا ما ناضل من أجله بكل قواه طيلة حياته.

يروي آينشتاين مراراً وتكراراً كيف أن ذروة الجبل قد شدّت انتباهه باستمرار. خارج حدود المرئي يقع هذا الكون الضخم، الذي يوجد بشكل مستقل عنا ككائنات إنسانية وينتصب أمامنا مثل أحجية كبيرة وأبدية..... ولكن الشيء الذي لا يمكن فهمه حول الكون هو أنه قابل للإدراك وأن جميع هذه المحاولات مبنيّة على الاعتقاد بوجود بنية هارمونية (متناغمة) له. لدينا اليوم من المبررات أكثر من أي وقت مضى تمنعنا الابتعاد طوعاً عن هذا الاعتقاد الرائع.

حين يصل المتسلق الجاد باتجاه قمة جبل إفرست إلى ذروة سلسلة التلال الوسطى، يقف عند مشهد جديد من الجمال يعيد فيه تركيزه على الهدف ويضع خريطة مسبقة للوصول إليه؛ لكنه يعلم أنه لا يزال في بداية الطريق، وليس في نهايته. ما فعله آينشتاين في فيزياء الزمكان، في الفيزياء الإحصائية، وفي الفيزياء الكمومية، أنه عاين مثل هذه التلال الوسيطية، كمحطات مرحلية، كنقاط في المنظر العام تهدف إلى المزيد من الإنجازات، وليست كإنجازات بحد ذاتها. تلك المحطات على الطريق لم تكن من أهدافه، ولم تكن وسائل مخططة مسبقاً لبلوغ ما ينشده. هي تعني بالنسبة له أنها مراحل متصلة في طريقه إلى هدفه النهائي والوحيد.

أولئك الذين يعرفون الفيزيائيين وساكني الجبال يعرفون السمات المشتركة بينهما: الروح الحالمة والاندفاع، العناد في سبيل تحقيق الهدف، والانفتاح في تجريب أي مسلك إلى القمة. من منا لا يعرف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعريف آينشتاين لعالم «كانتهازي مجرد من المبادئ الأخلاقية»؛ أو كلماته الإنسانية الرصينة المتكررة في مناسبات عديدة، وما عُرِفَ بسنوات البحث القلقة في الظلام، مع الإرادة القوية، وتبدلات الثقة واستنزاف القوى، وأخيراً الوصول إلى الأضواء. فقط أولئك الذين اختبروا هذه الأمور يمكنهم أن يدركوا ذلك. من أجل رجل كآينشتاين لا توجد لديه أهداف متعددة. كان لديه هدف واحد فقط، هو الوصول إلى تلك الذروة البعيدة التي يطل منها على سر الوجود. ألم يقل في مجالسه الخاصة والعامة: «أريد أن أعرف كيف خلق الله الكون».

من كان هذا المتسلق؟ كيف أصبح مسحوراً بالجبل؟ أين تعلّم تقنيات التسلق بهذه البراعة المنقطعة النظير؟ من كانوا رفاقه المميزين في الرحلة؟ أين تمت بعض من مغامراته؟ وإلى أي حد وصل فيها؟

يروي جون أريشبالد الذي رأى آينشتاين واستمع إليه لأول مرة في صيف عام ١٩٣٣، أي بعد فترة قصيرة من قدومه إلى برينستون وحصوله على الإقامة الدائمة فيها، القصة التالية:

تمت الدعوة إلى سيمينار مصغر وهادئ (السيمينار هو حلقة تجمع اختصاصيين يناقشون موضوعاً معيناً يقوم أحد المختصين بطرحه)، أي من دون إعلان مسبق عنه. موضوع المحاضرة هو نظرية الحقل الموحد، هذا ما اتضح لي بعدما دخل آينشتاين القاعة وبدأ بالحديث. مع أن إنكليزيته ذات نبرة مميزة، إلا أنها كانت واضحة وبطيئة بشكل جميل. أما طريقة إلقائه رغم تلقائيتها وجديتها، فقد رافقها في هذه المرة كما سيرافقها في المرات التالية روح الدعابة والفكاهة. لم أكن متآلفا مع الموضوع في ذلك الوقت، لكن أحسست أن لديه تحفظات حول النسخة المستقلة لنظرية الحقل الموحد التي كان يبحث فيها. كما اتضح لي في هذا اللقاء الذي تمّ مصادفة أن آينشتاين يتابع كثيراً مسيرته الخاصة به بعناد، بغض النظر عن الاهتمام المتزايد في الفيزياء النووية التي كانت في حينه في حالة مدّ عالية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبة. نشير في هذا السياق إلى أن آينشتاين قضى معظم حياته يبحث عن نظرية الحقل الموحد التي تهدف إلى جمع قوة الثقالة مع القوة الكهرطيسية، لكنه لم يصل إلى غايته أبداً. يحاول فيزيائيو اليوم متابعة البحث ضمن معطيات توفرها مسرعات الجسيمات العملاقة، وأهمها المسرع الأوروبي العملاق في جنيف CERN حيث تُسرَّع الجسيمات إلى حوالي سرعة الضوء.

منذ أن كان في السادسة من عمره حرص أبواه على تعليمه العزف على الكمان، فلم يجد في ذلك أولاً سوى ضرب من الإكراه جديد يضاف إلى سلسلة متاعبه المدرسية. لكنه ما إن بلغ الثالثة عشرة حتى تعلم سونات موزارت وكلف بها أي كلف وأجاد العزف أي إجادة.

كما يروي أحد الحاضرين انطباعه قائلاً: الميزة فوق الاعتيادية في آينشتاين الرجل التي بدت لي من نظرة خاطفة ذلك اليوم، وأخذت تتكرر بوضوح أكثر في كل مرة زرته في بيته، عبر صعودنا إلى مكتبه في الطابق الثاني، ونقاشنا حول أشياء غامضة. إضافة إلى الحرارة في علاقاته مع الآخرين ومراعاته لهم، وعلى تفكيره العميق، تبين أن لديه إحساس فريد بعالم الإنسان والطبيعة كوحدة متناغمة وقابلة للفهم يوماً ما، وأننا جميعاً -بنو البشر- نتحسس طريقنا للأمام من خلال الظلام.

في ١٤ نيسان من عام ١٩٥٤ قدم آينشتاين المحاضرة الأخيرة له، أي قبل سنة من موته تماماً، تحدث فيها حول نظرية النسبية العامة. لم يستعرض الطريقة التي ينظر بها إلى هذه النظرية ولا كيفية استنتاجها فقط، بل تحدث معبراً عن انزعاجه من الخواص الاحتمالية وغير القطعية التي يطرحها الميكانيك الكمومي في تفسيره للطبيعة. عندما يراقب شخص فأراً من حوله، سأل بانفعال، «فهل سيغير ذلك حالة الكون؟» كما أصرّ آينشتاين في سياق المحاضرة أيضاً بأن قوانين الفيزياء يجب أن تكون بسيطة، وليس لديه أية شكوك حول ذلك. وحين سأله أحد الحاضرين، ماذا لو لم تكن هذه القوانين بسيطة؟ أجاب، «عندئذ سوف لن أهتم بها».

تلميذ مضطرب

كيف أصبح التلميذ آينشتاين رجلاً هي قصة رويت بأكثر من طريقة، لكن ليست بأفضل من المخطط الذي وضعه آينشتاين بنفسه، وهي قصة أصبحت معروفة إلى حد يحول دون إعادتها هنا. هل يوجد أحد لا يتذكر مشاكله في الدراسة الثانوية، وخصامه مع أساتذته لعزمهم حشوه بالمعرفة حتى الحلقوم، إضافة لمخاصماته الشخصية معهم؟ ألا يشعر من يستقل ذلك القطار السريع من برن إلى زيوريخ أنه ترك قلبه عندما اندفع خلال البلدة الصغيرة المسماة آرو؟ في هذه البلدة الجميلة، نعيد للتذكير، تم إرسال آينشتاين إلى مدرسة خاصة لأنه لم يكن قادراً على المتابعة في مدرسة عامة. وهناك أيضاً، بإشراف أستاذ حكيم ولطيف، أمكنه أن يعمل بالنبائط والمغانط إضافة إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتب والأوراق. أصبح آينشتاين ساحراً. شب عن الطوق. نجح في دخول مدرسة زيوريخ التقنية. ويخبر من كان عميداً للكلية أنه خلال فترة إدارته وجد دفتر محاضرات آينشتاين السنوي ملقىً على الرف. اكتشف العميد أن آينشتاين لم يكن ترتيبه الأخير بين التلاميذ، بل ما قبل الأخير. وما هو الشيء الذي كان يفعله هذا التلميذ المتمرد في المختبر؟ كان دائماً في المؤخرة. لم يزل تلميذاً مكروهاً من أساتذته، أولئك الأساتذة الرائعين كما وصفهم بنفسه. أما أستاذه مينكوفسكي، الذي أصبح فيما بعد أشد المدافعين عن أفكار آينشتاين العالم، فقد كان برغم ذلك منصرفاً عن آينشتاين التلميذ. عبّر آينشتاين التلميذ بصراحة أكثر من مرة أنه لا يحب المحاضرات ولا الامتحانات، لكنه يحب القراءة. إذا كان على المرء أن يفكر حوله كعالم انعزالي، فسوف يرتكب خطأً كبيراً، إذ كان لديه أصدقاء جامعيين كثر. لقد مشى وتحدث، تحدث ومشى، كما فعل المشاؤون في بلاد الإغريق قبل آلاف السنين.

بالنسبة لتطور آينشتاين علمياً وفكرياً، فالقلة من زملائه الجامعيين عنوا له الكثير في هذا المجال؛ لكن الأكثر أهمية بالنسبة له كانوا الزملاء الأقدم الذين رافقهم من خلال قراءة الكتب. من بين هؤلاء كان لايبنتز ونيوتن، هيوم وكانت، فاراداي وهلمهولتز، هرتز ومكسويل، كيرشوف وماخ، بولتزمان وبلانك وعظماء آخرون. تحت تأثيرهم جميعاً، تحوّل من الرياضيات إلى الفيزياء، من موضوع ذي أبعاد متعددة يُطلب من رجل مشوش اختيار بعداً محدداً منها، إلى موضوع بعده الواحد فقط هو هذا العالم المادي الذي يوجّه محاولاتنا.

من بين جميع الأبطال لدى آينشتاين، كان الفيلسوف سبينوزا هو الأعظم على الإطلاق. لم يعبر أحد بقوة أكثر منه في الإيمان بهارمونية وجمال الكون. وأعظم الكل، إمكانية الفهم النهائي له. في رسالة لصديقه القديم والقريب إليه، مورايك سولفاين، كتب آينشتاين، «أنا أفهم كرهك لاستخدام مصطلح الدين لوصف الموقف العاطفي والنفسي الذي يبدو أكثر وضوحاً في سبينوزا. لكنني لم أجد تعبيراً أفضل من«متدين» للإيمان بالطبيعة المنطقية للواقع الذي هو، إلى مدى محدد على الأقل، يبدو متيسراً للعقل الإنساني».

في السنوات الأخيرة، كان آينشتاين قد طالب بكتابة السيرة الذاتية لسبينوزا. لقد أعفى نفسه من كتابة هذه السيرة على أساس أنها تتطلب الصفاء الاستثنائي، الخيال

والتواضع، لكنه كتب المقدمة. إذا كانت تلك هي الحقيقة، كما يخبرنا توماسن مان، فكل واحد منا يجسم حياته بشكل مدرك أو غير مدرك من خلال شخص كان قد غادرنا من قبل، عندئذ من سيكون هو الأقرب لكونه خالق الدور لآينشتاين أكثر من سبينوزا؟

البحث عن مبادئ مركزية بسيطة لهذا العالم المادي- كان قد أصبح هدفاً لآينشتاين. لكن كيف؟ إن الرجل العادي يتصور آينشتاين شخصاً يمكنه أن يصنع قفزة إلى الأمام في عمله من خلال أوراق رياضية معقدة؛ الحقيقة هي النقيض المباشر لذلك. كما وضعها هيلبرت، كل تلميذ درس الرياضيات في غوتنجن يفهم في الهندسة رباعية الأبعاد أكثر من آينشتاين. مع ذلك، على الرغم من كل شيء، كان آينشتاين هو من أنجز العمل الرياضي الكبير وليس الرياضيون. مرة ثانية وفي وقت آخر، في المفعول الكهرضوئي، في النسبية، في الثقالة، التقط الهاوي الفكرة البسيطة التي امتنعت على الخبير. أين أحرز آينشتاين هذه المقدرة الهائلة ليختار الجوهري من غير الجوهري؟

وظيفة لعاطل عن العمل

أحد مستشاري إدارة شركة الحاسبات القوية، الذي يفعل الكثير لانتخاب قادة للمشاريع الضخمة، يقدم النصيحة التالية: ما يفعله رجل شاب ومع من يعمل في أول وظيفة له سيكون تأثيره حاسماً على مستقبله أكثر من أي شيء آخر يمكن للمرء أن يتبينه بسهولة. ماذا كانت الوظيفة الأولى لآينشتاين؟ وفقاً لرؤية العديدين، لم تكن وظيفة في مكتب براءة الاختراع في سويسرا ملائمة بالمطلق، لكنها الأفضل بين ما هو متاح لشخص سجله الجامعي غير واعد. خدم في مكتب براءة الاختراع في برن لسبع سنوات، بدءاً من ٢٣ يونيو، عام ١٩٠٢ إلى ٦ يوليو، من عام ١٩٠٩. في كل صباح كان عليه أن يتفحص نصيبه من التطبيقات المرخصة. في تلك الأيام كان يجب أن يرافق التطبيقات المرخصة استمارة عامل (نموذج معين يجب تعبئته). بالإضافة إلى التطبيقات والنماذج يأتي دور المدير، وهو رجل لطيف وصارم وحكيم. يعطي عادة أوامر محددة: اشرح باختصار، إذا أمكن في جملة واحدة، لماذا تعمل النبيطة أو لماذا لا تعمل؟ لماذا يجب منح الموافقة على التطبيقات أو لماذا يجب أن ترفض؟ يوم بعد يوم كان على آينشتاين أن يستخلص الدرس المركزي من مواضيع ذات تنوع ضخم وأن ذلك الشخص هو القادر على الاختراع. من يعلم طريقة أكثر إثارة للدهشة في اكتساب فهم عملي عما تكونه الفيزياء وكيف تعمل؟ لن يكون مدعاة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للتعجب أن آينشتاين دوماً كان مسروراً جداً للآلية التي يعمل بها الكون- بدءاً من فعل الإبرة المغناطيسية إلى تعرجات نهر، ومن انحرافات الجيروسكوب إلى اندفاع قارب مائي سريع.

أي شخص يسأل كيف ربح آينشتاين قدرته غير المسبوقة في التعبير، دعه يعود إلى أيام وجوده في مكتب براءة الاختراع وإلى رئيسه الذي وصفه آينشتاين نفسه بأنه أكثر صرامة من والده وبأنه هو من علّمه أن يتعامل مع نفسه بشكل صحيح. تُدَرّس كتابات غاليليو في المدارس الثانوية في إيطاليا اليوم، ليس من أجل علو الفيزياء العائدة لها، لكن لنقاوتها وقوة التعبير فيها. لندع طلاب المدارس في هذه الأيام يدرسون كتابات آينشتاين ليروا كيف يصيغون الطريقة الأبلغ في سرد نقاطها الجوهرية، علّهم يستفيدون من الدروس. هذا هو جلّ ما تحتاجه أيضاً مؤسسات التعليم العربية اليوم، حيث تميل الكفة لصالح الطرق التلقينية على حساب الإبداعية منها.

من برن، ساق القدر آينشتاين إلى زيوريخ، ثم إلى براغ، وبعدئذٍ إلى برلين حيث ازدهرت عبقريته. لم تعنِ الصداقة في حياته أبداً أكثر مما عنت له خلال تسع عشرة من عمره هناك، ولم يكن لديه أبداً أصدقاء وزملاء بهذا القدر من المهابة وعلى رأسهم ماكس بلانك، جيمس فرانك، وولتر نرنست، ماكس فون لاو، وآخرون. كما لم تعنِ الزمالة أبداً محادثات متكلّفة ومجاملات عامة، بل عنت مناقشات جدية لمسائل مقلقة ومثيرة للاهتمام. لا توجد أداة زمالة وتواصل أكثر فائدة من السيمينارات. شرح جيمس فرانك ديمقراطية هذه المحاولات من قِبَل محكمين ومجادلين ذوي سوية عالية، وأن المحاضر لا يقف على ذروة عالية، فيما وراء سؤال أي طالب. على العكس تماماً، كان لدى المستمع الحق في أن يسأل وفي أن يجيب.

إذا كانت كتابة الرسائل هي اختبار للزمالة، لا تدع أحداً يشكك في مقدرة آينشتاين في السؤال والجواب. انظر إلى رسائله الضخمة. انظر إلى بطاقاته البريدية التي أرسلها خلال سنوات إلى الأقرب إليه روحياً من بين كل زملائه، باول اهرنفست من ليدن. إنها تتعامل مع المسائل المحببة إلى قلبه في تلك اللحظة، سواء أكان اتجاه الزمن في الميكانيك الإحصائي، أو الترجحات الكمومية في الإشعاع، أو مسألة ما في النسبية العامة. ثم تَفَحَّص مراسلاته مع ماكس بورن، أو ماوريك مولفاين، أو مع أناس عاديين في كل يوم فستجد فيها الممتع والمثير. من أجل تلميذة ذكرت له من بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشياء أخـرى مشاكلها مع علم الرياضيات، أجابهـا، «لا تتضايقي حـول صعوباتك في الرياضيات؛ يمكنني أن أؤكد لك أن صعوباتي معها هي الأكـبر». لماذا كان آينشتاين يقابل ويراسـل النـاس الذين أدعوهـم أنا وأنت بالمهمشين أو الدخـلاء؟ هل كان يدرك بأن الهواة يجلبون نظـرة جديدة قد لا تلامس نظرة الاختصاصي الضيقة من جهة، لكنها قد تتفوق عليها من جهة أخرى؟

منافع الزمالـة مع آينشتايـن اختبرها كثيرون في مـرات عديدة، لكـن دون نتائج مباشـرة حاصلـة أكـثر مما هـي عليه في ميـدان الميكانيك الإحصائـي. في مناقشة مسألـة تخامد الإشعاع، نحيـل القارئ إلى محـاورة مطبوعة في عـام ١٩٠٩ بينه وبين وولتر ريتز. اتفق الرجلان على التعارض في الرأي وأقرا موقفيهما المتناقضين في جملة واحدة واضحة: «يعالج ريتز الحدود لتثبيط المفاعيـل كما لو كانت أحـد أسس القانون الثـاني في الترموديناميـك، بينمـا يعتقد آينشتايـن بـأن لاعكوسية الإشعـاع تعتمد حصراً علـى اعتبارات احتمالية». انسجاماً مع موقـف آينشتاين، اكتشـف فاينمان أن التراتبية الأحادية في زمـن تفاعل الإشعاع يمكن فهمها كما لو أنهـا تنشأ في التراتبية الأحاديـة في زمن الشـروط المفروضة على الجزيئـات الماصة عن بعـد، وليس مطلقاً في القانـون الأولي للتفاعـلات بين جزيئة وجزيئة. لكـن آينشتاين ينتمـي إلى نماذج مختلفـة من العلماء يصـح أن نطلق عليهم صفـة «القلقون» -أولئك الكبـار من أمثال بولتزمـان، اهرنفسـت، وكثيريـن آخرين- الذين يسألـون، لماذا الشـروط الابتدائية؟ لماذا ليست الشروط النهائية؟ أو لماذا ليست خليطاً من الاثنين؟ والأهم من هذا كله، لماذا مثل ذاك وتلك من الشروط الحدية وليست الأخـرى؟ لا يوجد أحد مـن الذين يعرفون اهتمام آينشتاين طيلـة حياته بهذه المسائل يمكـن أن ينجـو مـن إحساس جديد من التقدير الرفيع له عند قراءة أوراقه البحثية الضخمة المبكرة حول الميكانيك الإحصائي، وليس أقلهـا الورقة البحثيـة الشهيرة عام ١٩٠٥ حول الحركة البروانية (حركة حبات الطلع في وعاء ماء). وبشكل مؤكد فإن وجهة النظر الشاملة التـي ربحها من علاقته مع هؤلاء القلقين ستساعده يوماً ما في اجتياز الطريق إلى قمة جبل إيفرست.

تكافؤ الكتلة والطاقة

الأكثر شهرة بـين أوراق آينشاين الثلاثة الصـادرة عام ١٩٠٥، في كل الأحوال، كانت تلـك التي تدور حـول النسبيـة الخاصة. من الآن فصاعداً، كمـا وضع مينكوفسكي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعليمات آينشتاين، «الزمن بحد ذاته والمكان بحد ذاته محكوم على كل منهما أن يتلاشى متحولاً إلى ظلٍ فقط، وأن نوعاً من اتحاد الاثنين فقط سوف يصون الواقعية المستقلة». يخبرنا مؤرخو العلم أنه فيما لو لم يأت آينشتاين بهذه النسخة من الزمان والمكان فمن المرجح أن يكون لورنتز قد جاء بها، أو بوانكاريه، أو أي شخص آخر، والذي يمكنه أيضاً أن يصل في نهاية المطاف إلى المعادلة الشهيرة $E=mc^2$ التي تربط بين الكتلة m والطاقة E وسرعة الضوء c، مع كل ما ينتج عنها من أشياء مدهشة. لكن لا تزال تصل إلينا كمعجزة أن يكون موظفاً مغموراً في مكتب براءة الاختراع هو الوحيد الذي استنتج هذا الدرس الأعظم حول الزمان والمكان من معلومات بسيطة على السطح كتلك التي تقدمها الكهرباء والمغناطيسية. أليست معجزة حقاً؟

ألن تكون معجزة أكبر لو أن شخصاً آخر ليس موظفاً في مكتب براءة الاختراع هو من اكتشف النسبية؟ من هو الآخر الذي بإمكانه أن يستخلص هذه الفكرة المركزية الرئيسية من بين ركام الظواهر الكهرطيسية أكثر من شخص كان عمله المكرر يومياً هو استخلاص البساطة من التعقيد؟

إذا كان بإمكان آخرين أن يمنحونا النسبية الخاصة، فمن غير آينشتاين، قبل ٩٥ عاماً من الآن، أمكنه أن يمنحنا النسبية العامة من الآخر الذي عرف من فوضى الحقائق المتجمعة أن يوثق ما هو مركزي منها بشكل مطلق؟

هل جاءت النقطة المركزية إليه، كإسطورة إلهام، من حديثه إلى الدهّان الذي سقط من السقف مسجلاً شعوراً بانعدام الوزن خلال عملية السقوط؟

نعلم جميعاً أن نفاذ بصيرته عام ١٩٠٨ جاءته بالفكرة الأشد سعادة في حياته- الفكرة القائلة بعدم وجود شيء اسمه ثقالة، بل يوجد سقوط حر فقط.

بتجاهل مفهوم الثقالة هذا، أعادها آينشتاين مرة ثانية إلى كونها مظهر انحناء في هندسة المكان. في النظرية التي قدمها عام ١٩١٥ والتي لا تزال نظرية هندسية للثقالة يمكن تلخيصها، كما نعلم اليوم، بجملة بسيطة واحدة: المكان يُخبر المادة كيف عليها أن تتحرك والمادة تخبر المكان كيف عليه أن ينحني. تبين خلال نفاذ بصيرته تلك بأنه لا يوجد شيء كهذا يشبه الثقالة، وكان لديه ما يكفي من خيال مبدع ليجمع معاً بين تفكيرين كبيرين سائدين من الماضي. أكد ريمان أن الهندسة ليست من مخلوقات الله الكاملة، على حد تعبير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلاسفة الإغريق، لكنها جزء من الفيزياء؛ فقد جادل ماخ أن التسارع لا يحمل فرقاً إلا حين تنسبه إلى جملة تتحدد بوجود كتل أخرى في الكون.

ليس ضرورياً أن نستعيد الاختبارات المبكرة الشهيرة الثلاثة حول نظرية هندسية للثقالة: انحراف الضوء بفعل تأثير الشمس، انزياح الضوء الصادر من الشمس نحو الأحمر، ثم الحركة البدارية لمدار كوكب عطارد حول الشمس. كما أنه ليس ضرورياً أن نفسر أهمية التبصرات التي نتجت من النسبية العامة واستمرت صعوداً. بيّن آينشتاين أن قانون حركة كتلة في المكان والزمان يجب أن لا يتم كبند منفصل في البنية المفاهيمية للفيزياء. إنه بدلاً من ذلك، ينتج مباشرة من قانون هندسي عند تطبيقه على الفضاء المجاور مباشرة للكتلة قيد السؤال. علاوة على ذلك، فإن الهندسة التي حرّرها آينشتاين من عبودية إقليدس، واختار لها أن تحمل قوة الثقالة، وأمكن له أن يفك قيودها، أصبحت محركاً حراً، وتحمل، تحت اسم «الإشعاع التثاقلي»، طاقة من مكان إلى مكان بشكل متكرر ووراء متناول أي طاقة حملتها أمواج كهرطيسية- مفعول أعلنه رسمياً علماء بارزون في مرصد Arecibo عام ١٩٧٨ كدليل مثير للإعجاب.

لا يحتاج المرء أن يسير في نظرية الأجسام المتقلصة تثاقلياً أو الدلائل التي يوجد لدينا منها اليوم، بعضها مثير للإعجاب، وبعضها أقل إقناعاً، كما في حالة الثقوب السوداء: أحد هذه الثقوب في مجموعة كوكبة الدجاجة له كتلة تبلغ عشرة أضعاف كتلة الشمس؛ أما من يقع منها في مراكز العناقيد النجمية الخمسة في مجرتنا، فتصل كتلته إلى حدود مئات أو آلاف أضعاف كتلة الشمس؛ أحدها يقع في مركز مجرة درب التبانة وكتلته ٤ ملايين مرة أضعاف كتلة الشمس؛ وآخر يقع في مركز المجرة M٨٧ بكتلة تبلغ ٥ مليارات مرة أضعاف كتلة الشمس.

يؤشر التقلص في مركز الثقب الأسود إلى «بوابة الزمن» الثالثة، إضافة إلى الانفجار الأعظم والانسحاق الأعظم. حاول آينشتاين أن يتخلص من الثلاثة دفعة واحدة. بعد عامين من النسبية العامة، كان آينشتاين جاهزاً لتطبيقها على الكوسمولوجيا (علم الكون). أعطى أسباباً في اعتبار الكون مغلقاً ويشابه كيفياً إلى ثلاث كرات، التعميم ثلاثي الأبعاد لسطح بالون من المطاط. ما أثار دهشته، أنه وجد الكون متحركاً وليس ساكناً. ماذا يفعل بمعادلاته وقد أفضت إلى خيار لا يتفق مع قناعاته الفلسفية

والفكريـة عن كـون ثابـت وأزلي لا يعتريه التغير والنقصان!

لم يستطـع آينشتايـن أن يتقبل هـذه النتيجـة. أولاً، وجـد عيبـاً في رياضيات ألكسندر فريدمـان. بعدئذ تراجع عن هذا الانتقـاد، وبحـث عـن العيـب في نظريته الخاصـة عن الثقالـة. استنتج من ذلك أنه لا توجد هناك طريقـة طبيعية لتغيير تلك النظرية، لأن حجـج البساطة والتطابق في الحالة الحدية مع نظرية نيوتن في الثقالة لم تترك له بديلاً. كونه لا توجد طريقة طبيعية لتغيير معادلته النظريـة، بحث عن طريقة أخرى غير طبيعيـة في حدها الأدنى أمكنه أن يجدهـا ليعدّل في هـذه المعادلة. أدخل ما يدعى «بالحـد الكوني» مع نقطة مفردة هادفاً من وراء ذلك جعل الكون ساكناً وليس متمـدداً. بعد عقد مـن الزمن، أعطى عالم الفلـك الشهير ادوين هابل، الذي كان يعمل في مرصد جبـل ويلسون، دليـلاً مقنعاً أن الكون يتمدد فعلاً. بعد ذلك، أشار آينشتاين أن الحد الكـوني المضاف هـو أفدح خطأ ارتكبـه في حياته. اليوم، رجوعاً إلى الوراء، يمكن أن نسامحه على خطئه ونمنحه شرف نظرية الثقالـة التي تنبـأت بتمدد الكون. من بـين جميع التنبـؤات الضخمـة التي صنعهـا العلم أبداً عبر القرون، كان لكل منا لـه قائمة خاصة به تثـير إعجابه، لكن من بينهـا جميعاً لا يوجد أبـداً أعظم من تنبؤ صحيـح يخالف كل التوقعـات، هي ظاهرة تمدد الكون الساحرة؟ متى منحت الطبيعة في أي وقت مضى الإنسان تشجيعاً أكبر من تشجيعها الحالي له كي يعتقد أنه في يوم ما سيفهم لغز الوجود؟

فلسفة أم علم؟

لماذا رفض آينشتاين في البداية اكتشافه الخاص القائل بـأن الكون متمـدد وليس مستقراً؟ لماذا رغـب أن يستمر الكون على مـا هو عليه إلى الأبد، مـع أنه بدا واضحاً للجميع مـن التعاليم اليهوديـة والمسيحية أن الخلـق الأصلي (الخلق مـن عدم) هي فكرة طبيعية؟ ولعل البروفسور هانس كونج كان محقاً في تبيانـه أن التأثير الفعال على آينشتاين جـاء من بطله سبينوزا. لماذا حُرِمَ سبينوزا من حقوقه الكنسية عام ١٦٦٥ وكان لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره على يد جماعة يهودية محلية في أمستردام؟

السبب الحقيقي وراء الحرمان الكنسي هو أنـه تجاهل عقيدة الخلـق الأصلي في سفر التكويـن. ماذا كانت الصعوبة مع تلك التعاليـم؟ في جميعها لم يكـن موجوداً قبل الخلق سوى العدم حيث أمكن لتلك الساعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنصوبة هناك أن تخبر متى سيأتي الكون إلى الوجود!

لدينا اليوم صعوبة حقيقية مع هذه النقطة. لا يمكن تجاوز هذه الصعوبة عندما نقول إن الكون يبدأ بالانفجار العظيم وينتهي بالانسحاق العظيم من خلال دورة إثر أخرى من الولادة والموت، أي أنه كون لا نهاية له. لكن لا يوجد لدينا أدنى مسوغ في النسبية العامة لهذا النوع من الكلام. على العكس من ذلك، إنها لا تترك مكاناً أياً كان نوعه لكلمة «قبل» قبل الانفجار الأعظم أو لكلمة «بعد» بعد الانسحاق الأعظم. تسير النظرية الكمومية أبعد من ذلك بكثير. إنها تخبرنا أنه مهما يكن مباحاً الحديث حول المكان، فليس مباحاً الحديث بأكثر من مصطلحات تقريبية للزمان والمكان. يتطلب فعل ذلك تحطيم مبدأ الارتياب، وهو المبدأ القائل باستحالة تعيين مكان وسرعة جسيم كالإلكترون في وقت واحد. أي عندما يطبق ذلك المبدأ على الحركية الهندسية. عندما نأتي إلى مسافات صغيرة جداً سواء في هذه النقطة والآن أو في المراحل القصوى للتقلص الثقالي، يخسر الزمكان كل معنى، ويصبح الزمان بحد ذاته مقولة ليست نهائية في توصيف الطبيعة. لا يوجد أحد يتصارع مع هذه المسارات الثلاثة للزمن، ميراثنا الأكبر من المتناقضات -والواعد- القادم من النسبية العامة يمكنه أن يتملص من جميع التأثيرات الكمومية الغريبة.

كان تأثير سبينوزا على تفكير آينشتاين بشأن علم الكون مُزعزِعاً- لكنه لم يزعزع إيمان آينشتاين بنظرة سبينوزا الحتمية حول هذا الكون. تنص مقولات سبينوزا الأربع والعشرين في علم الأخلاق على ما يلي: لا شيء في الكون يتم مصادفة، لكن كل الأشياء مشروطة بوجودها وتعمل بطريقة خاصة بضرورة الطبيعة الإلهية. لقد قبل آينشتاين الحتمية في عقله، في قلبه، وفي عظامه.

من كان عليه أن يميز بوضوح أولاً أن العالم الفعلي، والعالم الكمومي، هو عالم الصدفة والاحتمال؟ إنه آينشتاين بحد ذاته!

لماذا اتخذ آينشتاين في نهاية المطاف، وهو من فعل الكثير بالاشتراك مع كل من ماكس بلانك ونيلز بور لتقديم النظرية الكمومية إلى العالم، موقفاً معانداً بقوة إلى أبعد مدى ومنعزلاً أيضاً ضد الفكرة المركزية فيها؟ هل يوجد تفسير آخر يمكن إبرازه سوى هذا النزوع الفكري الذي تلقاه من فيلسوفه المفضل سبينوزا؟

العمل المبكر في مجال النظرية الكمومية

الذي قام به بور وآينشتاين هو عمل ثنائي تقريباً. في عام ١٩٠٥، كتب آينشتاين: تنتقل طاقة الضوء من مكان إلى آخر على شكل كمات، يكون وصولها مصادفة في الزمان والمكان. في عام ١٩١٣، كتب بور: تتميز الذرة بسويات طاقة مستقرة، والفرق في الطاقة بين سوية وأخرى يكون على شكل كمة ضوئية. ثم يعود آينشتاين عام ١٩١٥ ليقول: عملية إصدار الضوء وامتصاصه تحكمها قوانين الصدفة، لكنها تحقق مبدأ التوازن بكل تفاصيله. يرد بور عام ١٩٢٧: يمنع مبدأ التتام (التكامل) من تقديم وصفٍ تفصيلي في الزمان والمكان لما يجري في فعل الإصدار. هنا يحصل بين بور وآينشتاين انفصال في الشراكة. آينشتاين تكلم ضد آينشتاين. آينشتاين الذي قال عام ١٩١٥ بأنه لا مفر من تدخل قوانين الصدفة أصرّ عام ١٩١٦، كما فعل طوال حياته الباقية، على رفض الدليل وعلى رفض وجهات نظر أعظم زملائه بقوله الذائع الصيت: الله لا يلعب النرد.

بور يهزم آينشتاين

إذا استطاع جيش مهزوم أن يصمد بإقامة وضع دفاعي بارع، فسيبقى تأثيره فعالاً على قوادم الأيام. لا يوجد أحد في كامل التاريخ الهائل للنظرية الكمومية (الذي امتد عشرات السنين) اشترك في نقاش مع نيلز بور عزز من موقفه وشحذ من عزيمته أكثر مما فعل آينشتاين. كما لم توجد في القرون الحديثة محاورة ثنائية كهذه بين اثنين من عمالقة العلماء استمرت لفترة طويلة حول مسألة أعمق عند سوية أعلى من الصداقة، ولاموضوع أجدر كهذا كي يصوغه مؤلف مسرحي، أو شاعر، أو فنان. من بين الأوائل الذين التقاهم آينشتاين وأحبهم كان العالم الدانماركي بور، وقد تبين ذلك في الخطاب الذي وجهه إليه في ٢ مايو من عام ١٩٢٠، حيث يقول فيه: «أنا أدرس أعمالك العلمية العظيمة. وعندما أواجه عقبة في مكان ما- أتمنى أن أرى الابتسامة على وجهك الشاب وأنت تفسر لي هذه الأمور». ردّ بور على رسالة آينشتاين بالتحية والإعجاب. إن من يقرأ تفسير بور للحوارية الشهيرة، حتى في يومنا هذا، لن يكون في مقدوره أن يتجاوز هذا الفهم المترابط للمسألة المركزية. من يعلم ما يعنيه الميكانيك الكمومي لا ينسى المعارك القاسية، لكنها الودية والتي ربحها بور في نهاية المطاف، سواء في تجربة الشقين المضاعفين، أو في إمكانية وزن الفوتون، أو في تجربة آينشتاين -بودولسكي- روزن، وأخيراً في الخطر المرافق للاستخدام غير الحذر لكلمة الواقعية؟ للمساعدة في إجلاء المسألة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي رافقت السنوات الأخيرة للحوار الثنائي الضخم، وجد بور نفسه مضطراً لإدخال كلمة «ظاهرة» لوصف عملية كمومية أولية تقترب من المعنى بفعل تضخيمي غير قابل للعكس. شكراً لتلك الكلمة، التي استحضرت لتقاوم انتقاد آينشتاين، تعلمناها في زمننا الخاص لصياغة الدرس المركزي للنظرية الكمومية في جملة بسيطة واحدة: لا توجد ظاهرة أولية نعدها ظاهرة ما لم تكن قابلة للمراقبة والقياس.

كيف أمكن للنظرية الكمومية المصححة أن تلقى قبولاً الآن على نطاق واسع، وأن يتم إدراك فكرتها الحاسمة بشكل جيد؟ بالطبع لم يكن ذلك ممكناً لولا وجود عقول مبدعة، على رأسهم آينشتاين، من استطاع بصعوبة استخلاص الجذوات المتقدة وجمعها في شعلة واحدة. لقد كان آينشتاين المحرك الأساسي في تطوير النظرية الكمومية من خلال معارضتها في المؤتمرات العلمية المتكررة، وبالتالي وراء استفزاز بور ودفعه للعمل مع هايزنبرغ وبورن وآخرين للوصول في نهاية المطاف إلى تلك الصياغة الكاملة للفكرة المركزية.

إذا كانت الكمّات وبوابات الزمن هما السمتان الأقوى لهذا الكون الغريب، وإذا كانتا ستكشفان عاجلاً أم آجلاً أنهما جاءتا بمداخل إلى نظرة أعمق بحث عنها آينشتاين، سيتذكر الجنس البشري إلى الأبد مع العرفان بالجميل لهذا الرجل لاشتراكه الحاسم بشكل مطلق في الاثنين معاً.

لا يوجد أحد بمرتبة آينشتاين العلمية ويتلقى دعماً من مؤسسات مرموقة بإمكانه أن يغفل عن تعهداته تجاهها. عليه أن يتكلم عن قيم أعلى إلى أبعد حد بمقدار ماهو مؤهل وقادر على القيام بذلك. مع هذا العبء الذي كان على آينشتاين أن يتحمله كواجب إضافي، فقد فعله بأفضل ما في وسعه. ما دافع عنه لم يكن نزوة، وليس أهواء استبقاها باستخفاف، لكنها أهداف عن الكون أدركها وتاق إليها. إذا كان لديه في هذا المشروع خاصية جزئية تسللت إليه من نبوءة «العهد القديم»، فقد كان لديه أيضاً كل أنواع البلاغة الأخرى. مقولات آينشتاين خلقت أتباعاً، والأتباع خلقوا الدافع نحو المزيد من المقولات الجديدة. ما كان مستمراً منذ زمن القدماء، كما شعر آينشتاين، أخذنا نخسره الآن بسرعة مذهلة. العمق والحدة هما النقطتان الأساسيتان في آرائه. من منا لا يعلم الأسباب التي تجعله يناضل من أجلها! من كان معجباً بالعظمة، دعه يقرأ كلمات آينشتاين حول الأهداف العظيمة ومهابة الزملاء الموتى حديثاً،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالإضافة إلى مهابة موتى الماضي العميق. من أجل العدالة الاجتماعية والمسؤولية الاجتماعية، تكلم آينشتاين مراراً وتكراراً: «مئات المرات كل يوم أذكّر نفسي أن مسيرتي الداخلية والخارجية مبنية على جهود الآخرين، حياتهم وموتهم، وأنه يجب أن أسعى بنفسي للعطاء بالمقياس نفسه الذي تلقيته ومازلت أتلقاه». أكّد دوماً الحاجة إلى نظام سياسي لا يقوم على الإكراه إذا كان على الناس جميعاً أن يساهموا فيه ضمن إمكانياتهم لتحقيقه.

عبّر آينشتاين عن إعجابه بنظام الرعاية الاجتماعية، العائد إلى القائد الألماني بسمارك، الذي أمنّ الرعاية للفرد في حالة المرض أو الحاجة. معاصرة آينشتاين لأوروبة مضطربة ومتقاتلة، جعلته يحتج مرات عديدة حول عبثية الحروب التي رأى فيها خسارة الحياة، توليد البغضاء، فساد القيم؛ لكن حين يكون عليه الاختيار بين الحرب أو الحرية والعدالة، نراه يقف إلى جانب هاتين الأخيرتين. رفض الدعوة لأن يصبح أول رئيس لدولة إسرائيل، وهو موقف يستحق الثناء عليه نظراً للمظالم التي رافقت قيام هذه الدولة العنصرية والتي تمثلت بطرد الشعب الفلسطيني من أرضه، لكن عمل بعد ذلك الرفض بفعالية كما عمل من قبل لصالح التماسك والسلم الاجتماعيين. أما سعيه وراء المعرفة من أجل المعرفة، فهو في الغالب ينبع من حب خيالي للعدالة والرغبة في الاستقلال الشخصي.

السياسة والقنبلة النووية وفلسطين

لم تسر الأشياء في العالم كما كان يأمل آينشتاين ولم تسر الأشياء في الفيزياء كما رغب. وقفت فلسفة الحتمية وحيدة بين الخراب الذي أحدثته الثورة الكمومية في ميدان العلوم وفي الميادين الأخرى، بعد أن سادت هذه الفلسفة مئات السنين. أدى بحثه عن نظرية هندسية موحدة لجميع قوى الطبيعة إلى طريق مسدود- اليوم، مع مفهوم أوسع وجديد لما تكون عليه الهندسة، في مجال ما يسمى نظرية المعايرة، حصل تقدم مدهش باتجاه حلمه في التوحيد، لكنه ليس نهائياً بعد. لقد ترك لنا النسبية العامة كمثال مدهش عن نظرية فيزيائية لا يمكن التفوق عليها أبداً، وأظهر الرجل موهبة فريدة في اكتشاف النقطة المركزية لكل موضوع قدمت الأسبقية الفلسفية المدخل المناسب له. لقد فعل آينشتاين الكثير الذي لم يفعله أي شخص على الإطلاق ليجعلنا نواجه الأحجيات المركزية لهذا الكون الساحر والغريب.

أما على الصعيد العالمي، فقد أصيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آينشتاين بالصدمــة والإحباط من التدمير الرهيب الناتج عن إلقاء القنبلتين النوويتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين عام ١٩٤٥ وارتفاع عدد الضحايا إلى أرقام مخيفــة. فقــد أحــس أن رسالتــه الشهيرة إلى الرئيــس الأمريكي روزفلــت، وبضغط مــن الفيزيائي الهنغاري زيــلارد، سببٌ في انطلاق مشروع مانهاتــن الشهير الذي أدى إلى تصنيع السلاح النووي الرهيب، في حين كان بالامــكان تجنب ذلــك. ولنذكر الرعب الشديــد الذي استولى عليه وصراخه قائلاً: لو أعلــم أن النازيين لا يملكــون القنبلة لما حركت في هذا الموضوع إصبعاً.

وفي زيــارة لــه إلى فلسطين عام ١٩٢٢، وكان في طريقه من اليابان إلى أوروبة، أنحى باللائمة على اليهــود لجحودهم ونكرانهم، وحثهم على تفهم العرب وتراثهم وتاريخهم. ولذلــك فلم يرحــب اليهــود بمقدمه كثيراً ونظر إليــه الصهاينــة المتطرفــون شزراً. وكذلــك المتدينون من اليهــود لأنه لا يهتم بتأديــة الشعائر الدينية، بــل ويسخر منها أحياناً. وبعد أحد عشــر عاماً، تحديداً في عــام ١٩٣٣، ترســل إليه الجامعــة العبرية في فلسطين برسالــة تسند إليه فيها كرسي الفيزياء النظريــة. فرفض ذلك بإباء. فهو لا يريد أن يستغل اسمه لتغذية جامعة دولة ولدت بالقوة.

وعندما يحاول زعماء الصهيونية إقناعه بــأن يتربع رئيساً لدولــة «إسرائيل» يرفض العرضــ ويقول قولته «المشهــورة»: إن دولة تنشأ كمــا نشأت إسرائيل جديــرة بالفناء. وأبى الرجل الإنساني أن يزج اسمه في دولة الظلم والعدوان. وإذا كان في شبابه قد دعم الحركــة الصهيونية سواء بسبب الاضطهاد النــازي لليهود أو لأسبــاب أخرى، إلا أنه لم يرد لهــا أن تمارس الاضطهــاد نفسه على شعب مسالم آخر لا حول له ولا طول.

لقد عمل آينشتاين بكل قواه حتى نهاية المطاف. كان وجهــه في أيامه الأخيرة يبدو متعباً وشاحباً من آثار المرض والشيخوخة. لكنه أعطى البشرية الكثير وكل شيء أعطاه كان لدوافــع خاصة به، ومــن بينها الدافع الأعظــم، أو الهــدف الكبيــر الــذي تسلق باتجاهــه عاليــاً، وهو تلك القمــة المثلجة التــي يشــع ضوءها الآن أكثر مــن أي وقت مضى: «تفسير متناغم تــام للوجود». رحل آينشتايــن دون أن يدري أن حلمه في توحيد قوى الطبيعــة قد لا يتحقق أبــداً، لا الآن ولا في المستقبــل. ولعل ذلــك سيبقى جزءاً مــن الأحجية الكونية الكبرى التي عبّر عنها الفيزيائــي المرموق دافيد بــوم بقوله: نحن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منسوجون في بنيــة الكون بطريقة يستحيل علينا معرفة أبعاده ومراميه!

نعـود مرة أخرى إلى كلمــات جون ويلر الراقية لنختتــم بها صفحات عالمٍ استثنائي وشخصيــة مثيرة للجدل يصعــب أن تتكرر عــبر الأجيال: «عندما ننظر مــن بعيد إلى المنحنى الصخري الشديد الانحدار، يصيبنا الذهول فجأة حــين يتناهى إلينا صوت آلة كمان ضعيف قادماً مــن الأعماق. تتجاوب مع الصوت حالاً أغنية تنطلق من الوادي من أمامنا وورائنــا، ترددها حناجر شابة تنشد عن شموخ القمة، خطــورة التسلّق، وعظمة المتسلــق، رجل الســلام ذا الشعر الأبيض. تتابع كلمات الأغنية قائلة إن آينشتاين لم يعد بعد الآن ينتمــي إلى بلد معين، أو مجموعة معينة، أو عمر معين، بل ينتمي إلى البشرية جمعاء».

مراجع للاستزادة

١- د. عبد الرحمن مرحبا، آينشتاين والنظرية النسبية، دار القلم، بيروت، ١٩٦٩.
٢- جون أريشبالد ويلر، من وإلى ألبرت آينشتاين، أكاديمية العلوم الأمريكية، ١٩٨٠.
٣- جيمس تريفل، الفيزياء الحديثة والكون، لندن، ١٩٨٧.
٤- تيموثي فرّيس، مقالات في الفيزياء، نيويورك، ١٩٩٣.
٥- جيمس تريفل، لماذا العلم؟ سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٠.
٦- د. جهاد ملحم، تاريخ الفيزياء، جامعة تشرين، اللاذقية. ٢٠٠٨.
٧- الأستاذ محمد عبد السلام، المثل العليا والواقع، منشورات دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدراسات والبحوث

قصة الخلق في أساطير الشرق

عيد الدرويش *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يبقى التلمس المعرفي وإنتاجه اللذان شكلتهما ذاكرة الإنسان من مجموعة مقومات ومسارات واقع وجوده، الذي يلفه نوع من الغموض ممزوجا بالرهبة والخوف من المجهول حينا، ونوع من الغموض في سرد أساطير الخلق أحيانا أخرى كل ذلك وفق تصورات العقل بدون سابق معرفة لها ،وبدأ يجسد الخطى الأولى للمعرفة، ليرسم من واقعه خيالات وتصورات مكتظة بالعنف والشكوك مستمدا ذلك من وحشة الطبيعة والكائنات التي كانت تحيط به،

* باحث في التراث العربي (سورية).

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

أينما كان وحيثما حل،كان يجهلها ولم يعرف كيف يتعامل معها، وما هي حقيقتها مرورا بفترات تطوره، حتى استأنس بعضا من الحيوانات، ولم يكن ذلك الشبح الذي كان يخيم على ذاكرته.

إن حالة التوجس والخوف والحذر هي التي دفعت الإنسان إلى استنباط وسائل التكيّف مع الواقع، عندما بدأ يشخص الظواهر بمراحل المعرفة الأولى لها، وتستقر في ذاكرته إلى درجة اليقين بها، حتى يكتشف لما هو أبعد من ذلك، ويخترق المجهول الذي كان في تصوره ويصبح معرفة ليكتشف مجهولا آخر، ويستحث الخطى من أجل اجتيازه مرة أخرى، وهلم جرا، وفي كل اكتشاف له يأنسه، ويتبدد الخوف منه، هي تلك مفردات الأسطورة التي خيمت على ذاكرة الإنسان، ردحا من الزمن عندما أضفى عليها الإنسان مفردات وتصورات من خارج عالمه المألوف، ولم يجد تفسيرا لبعض الظواهر، التي كانت تراوده، كمالم يجد تفسيرا لبعضها الآخر، فضلا عن التباين الفردي والجمعي بالنسبة للمعرفة والقدرات العقلية، وبهذا التباين ظهرت أيضا العديد من الأساطير التي تدوّن ذاكرة الإنسان، وما كان يجول في خاطره، وبصور مكثفة، ولم تكن بعيدة عن التصورات الإنسانية التي تعكس تلك الحياة الاجتماعية للإنسان الذي عاش في العصور الموغلة في القدم.

أسطورة الخلق:

ومما لا شك فيه أن هناك خصائص وسمات مشتركة بين الأساطير التي تتحدث عن الخلق وعن الخالق، فالأسطورة قد تعاظم دورها، وكانت بعيدة كل البعد عن التصورات العقلية كلما توغلنا في القدم لظهور الإنسان على البسيطة، وبدأت تتوضح شيئاً فشيئاً في العصور اللاحقة، فإن في زيادة الوعي تنحسر الأسطورة، ويبقى دورها محصورًا ومتخيلاً في القصة والرواية والملاحم البطولية، ولكن الأجمل في هذا أننا ندرك أنها أسطورة، وهذا يقودنا إلى أن الإنسان لن يستطيع إلا أن يتذكر ويعيش في الأسطورة كنوع من الهروب من الواقع أحيانا، ونوع من التجليات التي يرى الإنسان نفسه يعيش في عالمها، وما زال الإنسان يقتبس شيئا منها، لأن المعرفة لم تنته، وإن كانت الأسطورة قد اختلفت شكلاً ومضموناً، ومع هذا التنوع والتعدد، فقد ظهرت الأساطير التي لا يمكن حصرها، وتعدادها التي أنتجتها البشرية موسومة بطقوس القداسة والمهابة والجلال للبعض من عناصرها من حيث المكان والزمان تتمثل فيها الأشخاص والكائنات والفصول والشمس والقمر والنجوم، وربما تحط

الرحال بالإنسان بـأن يجسد تلك القداسة بتلك الكائنات التافهة أحيانا، أو ربما يلجأ مـرة أخرى إلى التجسيم ليصنع منها الآلهة التي يريد التوجه إليهـا، في أوقات عبادته التي كانت تمخر عبـاب ذاكرته، ولم يستقر له يقين عليها، وتقديم الدعاء والتضرع لها، وكأنـه يجد ضالته فيهـا، أو يجد حالة من حـالات الاستقرار التي يأنس لها، فضلا عن أن مفـردات الأسطـورة تتشابه أحيانا مـن حيث العمر الرئيسـي فيها، بما يتعلق بالخالق والبحث عنه في كل مكان، حتى إذا خارت قواه أن يتخذ رمزا أو شكلا أو جمادا أو ظاهرة ما.

مـن الصعوبـة بمـكان أن نحصر كل الأساطـير التـي عايشها ودوّنهـا الإنسان القديم ولا يوجـد لمثل هذه الأساطير مثلما وجدت في بلاد الشرق، الـذي عاشت فيها أقوام وحضارات كثيرة ومتداخلة، ومن خلال الاطلاع عليها نجد أنها تدور حول مجموعة أفكار، وحول فكرة الخلق والتكوين، وعلاقة

الإنسان بأقرانه بالكائنات الأولى التي يعيش معها، وعلاقته مع الكون كل ذلك كان نتيجة العقل الـذي تميّز به الإنسان دون الكائنات الأخرى.

والكثير من التساؤلات التي كانت تشغله معرفة الخالق والخلق، وقـد اجتهد وأخذ يبتكـر أجوبة لما كان يـدور في مخيلته سواء هذه الإجابات كانت مـن المحسوس، أو من المجـرد الذي عزا عليه قوة هـو يفتقدها، تجسد ذلك من خلال مـا دوّنه أو عبّر عنه في أحاديثه أو في مجالسه أو تعاليمه.

إن البحـث في قصـة الخلـق بحث في عجائبيـة حياة الإنسان القـديم، وكل هذه الأساسيـات كانت هي الأسـاس في تكوين تلك الحياة والأديان والمذاهب بل هو الجزء الكبير في مكوناته، الذي أخذ يتجذر في نفوس الناس عبر التاريخ حتى غدا من يسلك بعض السلوكيات وينطق بعبارات وإشارات ولغات جذورها ضاربة في القدم، وحتى في رسومه وألحانه التي يعبر فيها عن كل هذا وذاك.

لقـد كان للأسطـورة دور هام في حياة الشعـوب لأنها تحمـل بين ثناياهـا جملة مـن نواظـم المجتمع وإرثه الفكـري، الذي استمده مـن الواقع، وكوّن ذاكرته الجمعية، وخيالاته وأوهامه التي يراها حقيقة لا مناص عنها،قربت المسافة منها أو تباعدت.

وإن ظهور الأديان السماوية، قد حدَّ من مغالاة الأسطورة في بعض الجوانب، وأجاب على الكثير من التساؤلات، التي كانت تدور في ذاكـرة الإنسان وتبقـى الأسطورة ضمن فضـاءات فكرية وتصـورات أضفت عليها الصبغة الدينية، والدين ساهم إلى حد كبير بالتركيـز على العلم، ممـا أدى إلى انحسار الأسطورة.

ويتناول الأنثربولوجي البريطاني جيمس فريـزر في صياغة نظريتـه، والعلاقة بين الدين وعلاقته بالسحر في بدايات التحضر البشري (وقدم لنـا وجهة نظـر محكمة وجذابـة بشأن المراحل الأربعة لتطور الفكر الإسلامـي جعلتها في حكـم البدهية التي يصوغها معظم الكتاب دون إخضاعها للنقد المسبـق، غير أن نظـرة فاحصة على مسار الحياة الفكرية للإنسان تظهر لنا بوضوح أن الفلسفة الإغريقية لم تكن سوى بارقاً عارضاً ما لبث أن انطفـأ أمام المد الفكري الديني والأسطوري، ثم تراجع الفكر الفلسفي قرونا عديـدة قبـل أن يُبعث مجـددا في العصور الحديثة متوكئا عصا عربية، أبقت على قبس من الفلسفة متقد على الأطراف الخارجية لثقافة دينية سائدة، سواء في العربية، أم في الثقافـة الأوروبية الوسيطة، أما العلم فعلى الرغم من الأرضية الصلبة التي فرشتها له الفلسفـة مع فترة مدهـا الأولى، فقد بقي أسير التصورات الدينية والأسطورية إلى أن

أينعت ثمار عصر النهضة في أوروبة، وجاء كوبرنيكوس بنظريته الجديدة عن النظام الشمسي الذي كان فاتحة لاستقلال العلم عن الدين، وعن الأسطورة ثم تبع كوبرنيكوس وغاليلو ونيوتن، الذين كان لهم الفضل في وضع أسس التفكير العلمي الحديث).[1]

إن هذه ترنيمة الخلق التي تتحدث عن جوانب تصورات الإنسان لقصة الخلق، وما أضفى عليها من خلال أحاسيسه من جوانب ملموسة، من نواميس الحياة ومفرداتها (لم يكن في العالم وجود ولا عدم،فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك، كلا ولا كانت بردة السماء منشورة في الأعالي، فلماذا كان لكل شيء غطاء؟ ماذا كان موئلا؟ ماذا كان مخبأ؟ أكانت هي المياه بهوتها التي ليس لها قرار؟ ولم يكن ثمة موت، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف الخلود.

لم يكن فاصل بين الليل النهار و«الواحد الأحد» لم يكن هناك سواء، كانت هناك ظلمة،وكان كل شيء في البداية تحت ستار ظلام عميق- محيط بغير ضياء.

والجرثومة التي في اللحاء برزت طبيعة واحدة من البحر.

ثم أضيف إلى الطبيعة الحب.

وهو الينبوع الجديد للعقل.

والشعراء في أعماقهم يدركون -إذ هم يتأملون- هذه الرابطة بين ما خلق، وما لم يخلق.

فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض؟ تتخلل كل شيء، وتشمل كل شيء، أم جاءت من السماء؟ ثم بذرت الحبوب، ونهضت جبابرة القوى.

من ذا يعلم السر الدفين؟ من ذا أعلنه هاهنا؟ من أين، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها؟ إن الآلهة أنفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود، من ذا يعلم من أين جاء هذا الوجود؟ إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم، شاء خلقه بإرادته،أو صدر عنه وهو ساكن، إنه هو ربنا الأعلى في السموات العلا، إنه هو الذي يعلم السر- بل لعله لا يعلم من السر شيئا).[2]

وهناك الكثير من القصص التي وضعها الإنسان ما كان يخالج نفسه مع الصور والمشاهدات الكونية وما حوله ليضفي عليها قصصاً تريح خياله، وصولاً إلى المعرفة الحقيقية، ولم تكن في اضطراد دائم لازم حياة الإنسان فحسب، بل كان منتجا لها (تتحدث الأساطير بأن الإنسان أول ما عبد القمر وصورت هذه الأساطير بأن القمر رجلاً شجاعاً قد أغوى النساء، وقد سبب لهن الحيض مرة كلما ظهر).[3]

وإن استعراضنا لتلك الجوانب ما هو إلا دليل على جوانب التفكير ومعطيات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعرفــة التي بناها الإنســان القديم، وبنى عليها نوعا من الخيالات والقصص، وجسد في الشمس والقمر قصصا وأساطير (وربما حلت الشمس محل القمــر سيدة على دولة السماء عند الديانــة البدائية،وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد، فكان سير الشمس محددا لفصول البذور وفصول الحصاد، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلة الأساسية فيما تدور عليه الأرض من خيرات).[٤]

كما نجد بعض المفــردات التي اختلفت من موضــع لآخر وربما بقيــت حتى يومنا هــذا ذات دلالة ومعنى (كثيرا من القبائل البدائية كانت تلفــظ كلمة الله والتي كانت تعنــي لديهم «السماء» وعند قبائل الزباري والدنــكا معناها المطــر، وكانت السماء هي الإله الأعظم وعند المغوليين، وكذلك الحال في الصــين وفي الهنــد الفيدية، معنى كلمة الله هي السماء الوالــدة،والله عند اليونان هو زيوســ أو السماء مرغمة السحاب وهو «أهورا» عند الفرس أي السماء الزرقاء)[٥].

ملحمة الخلق في بلاد الرافدين:

تزخــر بــلاد الرافديــن بالعديــد من القصص والبطــولات والآلهة التي صوّرها الإنسان القــديم، حيث كان الخيال خصبا، في المراحل الأولى لحياته، لأن كل ما يراه قد يكون يشكل قصة من قصص الخلق،فمردوخ الــذي هزم وحش العماء (تيمــات) وأصبح ملــكا على الآلهة، وهي تــروي قصة الخلق البابلية أنوماليشــ أو ما تسمى عندما كان في العــلا، لم يكن هناك سماء، ولم يكن هناك من أرضــ، ولم تكن الحياة الأولى لهذا العالم إلا تيمــات، أي ما يعيش بها في الظلام من تنــين وأفاعــي، هذه كانت الصــورة الأولى لتلك القصة فانفلقــت الأرض إلى نصفين كان جزؤهــا العلــوي هــو السماء،وجزؤها السفلي هــو الأرض، وهــذه القصص هي ما تتطــرق إليها بعض الكتب المقدسة، مثل سفر أرميا.

لقد كانت معجزة مردوخ من رفع السماء، ونــثر النجوم والكواكب فيهــا، فجعل بعض الكواكب موطنــا للآلهة منهــا: (أنو وبعل) والآلهة الآخرون فقد قسّم عليهم الكواكب، ليكون كل واحد منهم في بيت أي في كوكب.

أما معجزة مــردوخ في الأرض هو خلق الإنسان من أجل أن يعبده ويصلي له، فأخذ يعجن الــتراب بدمائه، ويصنــع من الطين أناسا يقومــون لعبادته والصلاة له، فهكذا تشكلت البشرية،في تلك القصة.

وتتقــارب القصص عند جميع الشعوب التي سكنت بلاد الرافدين من حيث السياق العام، والأفكار التي تدور حولها القصص، فعنــد الأكاديين ساد اعتقاد بــأن العالم في بدء أمره كان يتكــون من عنصر واحد وهو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الماء، ويحوي عنصرين أزليين هما ابسو الماء العذب، وتيامات المـاء المالحة وبتزاوجهما انبثقت الخليقـة، وكان الآلهة يمتازون عن البشر بـأن لهم حياة أبديـة، وتجمعهم مع البشـر نفس الأحاسيسـ، ولكن من صفات البشر عنصـر الشر، واتصلـوا بالمخلوقات اعتقادا منهم بإبعاد أذاها عنهم، وكان العالم ينقسـم عندهم إلى ثلاثة أقسـام- السماء ويسيطـر عليها الإله «أنو»- الهواء والأرض ويسيطـر عليهـا الإلـه «إنليـل»- البحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله«انكي»

«ومــن يعلم حقيقة هــذه الخليقة، ومن يستطيع أن يجهر مــن أين ولدت، ومن أين جـاءت، إن الآلهـة جاءت بعـد أن أوجدت هـذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود هو الأصل الأول للخليقة سـواء كان هو الذي أنشأهـا جميعها، أو لم ينشئهـا الـذي عينه تحكم هـذا العالم من علياء السماء، وهو يعلـم حقيقتها، أو ربما لا يعلمها».[٦]

فقـد استمرت التعدديـة المفرطة وهي سمة الديانة السومرية، فأصبح لكل فرد إله خاص به يحميه، وفق طموحاته الشخصية، يحابي فيه نزعاته وطموحاته وميوله، إضافة إلى افتراض رب، أو ربة لكل ظاهرة طبيعية كبر شأنها أو صغر، كمـا افترضوا لأربابهم صـوراً بشريـة ضخمة وحيـاة تماثل حياة البشر تزاوجوا وتناسلوا وتحابوا وتخاصموا وتقاتلـوا ولكنها كانت حيـاة سرمدية ذات قدرات سرمدية مطلقة

وقد تكونت أسمـاء آلهة شكلوا مجاميع إلهية أشهرها:

مجمـع الآلهة مقـررة المصائر وعددهم سبعة.

مجمع الآلهة العظـام وعددهم خمسون إلها.

وفوق هذه الآلهـة جميعا كانت عناصر الكـون الكبرى ذات الوجـود الدائم الثابت (السماء- الأرض- الهواء- الماء) لهذه الآلهة خصوصيتها.

ويعول السومري على هذه الآلهة الأربعة في انتاج حياة بقية الكائنات وسميت (الآلهة الخالقة).

- آن- إله السماء.
- كي- آلهة الأرض زوجة آلهة السماء.
- آنليـل- إله الهواء ابـن إلهي السماء والأرض.
- آنكي- إله الماء.

ويرجح كريمر أن تكون هذه الآلهة الأربعة هي الأعضاء الكبرى في مجتمع السبع مقررة المصائر ويكون بقية هـذا المجتمع إذن هم الآلهة:

- نانا- إله القمر.
- أوتو- إله الشمس وهو ابن القمر.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- اينانا- آلهة كوكب الزهرة.

فهو العقل المشترك لأبوي الحياة وهو الماء الذي استقر في رحم الأرض لتظل دائما مصدرا مستمرا للحياة وهذا الاعتقاد الذي ساد لدى السومريون أن مياه الأنهار تنبع من مياه العمق تحت الأرض، وهو ما يشككنا في ترجمة «إبسو» بماء العمق، فكلمة ابسو تحمل معنى الغور البعيد فتصبح العبارة (المياه الكامنة في الرحم) أو السائل المخصب لهذا يتفرد السومرية بأن الماء هو الآلهة الخالقة.

التكوين (عند السومريين): الأرض القرص السفلي في الحياة، وهو مقر الأموات ويلي مقر الأموات مياه العمق (السائل المخصب) والسماء قرص يعلو قرص الأرض، ولكنه على شكل قبة (محدب) تحيط بالقرص الأرضي، وما بين القبتين (السماء والأرض) يمرح الهواء.

وندرك ذلك بأن عندما انتهى آنليل من فصل السماء عن الأرض وبعد ما نظم كونه، وبعدما تقرر خلق البشر على الأرض، وعين اسم الإنسان، اتحد آنليل بآلهة الأرض بعد أن أزاح أباه للاستيلاء على الأم، والأسطورة الأخرى تقول: إن الأرض أنجبت الزرع والحيوان والإنسان خرجوا من طينها كالدود والحشيش ثم تصور هؤلاء البشر تصويرا يكاد يعطيهم مشروعية علمية فتقول البشر الأول لم يعرفوا أكل الخبز بعد.

وهذا ما جاء في أحد الألواح التي تعبر عن ذلك وتصور الحياة التي كانت تسود في تلك الفترة من خلال الترجمات نرى مايلي:

يسيرون على أيديهم وأرجلهم.

كالخراف يعلفون الحشائش.

ومن القنوات كانوا يشربون الماء آنذاك.

في المكان الذي كانت فيه الآلهة في معبدها.

التل المقدس..........المعبد.

المكان الذي تأكل فيه الآلهة الخبز.

(فهل كان هذا النص تسجيلا لقصة بشر تطور أو بشر ظلوا على حالتهم الحيوانية)

خلق الإنسان ماءه الطين بالذات:

يقول -جان بوتيرو- (إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل يعتبر صورة طبيعية جدا في بلد يلعب فيه الفخار دوراً كبيراً حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخاري بشكل إنسان عملا منتشراً بصورة واسعة).(٧)

- وببساطة أنه كان يكفي السومري أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر- نبات- ديدان) حتى تنشأ لديه قناعات أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة

عموما، ولمّا لم يكن لديه شاهد عياني على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة كالزرع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخاري لأجداده الأوائل.

كما ترد كلمة دلمون في تلك القصص، فقد كانت مسكنا للآلهة وموطنا لها، ومواضع أخرى بأن دلمون هي المكان الذي قامت الآلهة فيها بخلق أول بشر على الأرض.

سفر التكوين البابلي:

(يعتبر سرجون هو صاحب أول قصة في الإلقاء في اليم، فكتب عن نفسه، سيراً كثيرة ما ترددت بعد ذلك في سير أبطال الملاحم، وعمل سرجون على توحيد مدن سومر في دولة مركزية موحدة انتفع البابليون ببعض عناصر الفكر السومري عن أصل الخلق المادي والمعنوي في دنياهم، وخرجوا بنظرية عن نشأة الوجود جعلوا ربهم قطب دائرة) ويضيف (بوتيرو) إن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداما كليا للأشياء، كأصل للوجود، بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بخلق لكن يبدأ بتنظيم ما هو في حالة فوضى.

إن قصة التكوين السامية (أكادية-بابلية) تسمى (سفر التكوين البابلي) ولم تختلف كثيراً عن (سفر التكوين السومري).

وهذه القصص أخذت طريقها إلى التراث السامي في مختلف مناطق الهلال الخصيب مع تعديل طفيف في التفاصيل من دون الأصل مع تغيير خلع الإله الخالق وتنصيب غيره بتغير السادات فالإله آشور يأخذ دور(مردوخ) عندما تخضع الرافدين للآشوريين بينما يكون لدى الكنعانيين هو (بعل) الذي يقوم بمهمة الخلق التي قام بها البعل البابلي (مردوخ) و(آنليل) و(آنكي) السومريين.

إن مصير الموتى في مختلف العقائد السامية ظل العالم التحت أرضي قائما، وأن طعامهم هو من الطين، وأن غذاءهم هو من التراب لا يرون النور أبدا، فهم يسكنون بالليل، ويعيش الموتى عيشة كئيبة يشربون الماء القذر، ويأكلون التراب ولا يمكن التخفيف من هذا البلاء إلا بالقرابين يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه الذين لا يزالون على قيد الحياة.

يذكر ديورانت في قصة الحضارة (إن فكرة البابليين عن الحياة الأخرى كانت في جملتها فكرة أموات منهم قديسون وأنذال، ومنهم عباقرة وبلهاء يذهبون إلى مكان مظلم في جوف الأرض).

كل هذه الأفكار البدائية التي ابتدعها الإنسان البدائي خلال مراحل تفكيره في الخلق والخالق عاشت مع الإنسان بعد ذلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حتى بداية الديانات السماوية، فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الديني، ومع ذلك فإن بعض هذه الأفكار، ما تزال لها بقايا في معتقد كل أمة، حتى الأمم التي تعيش في ظل الصناعة والعلوم فيها بقايا معتقدات لاتزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الإنسانية بوجه عام.

- فالفراعنة فسروا الفيضان في أساطيرهم بأنه حقيقة الدموع التي تسفحها إيزيس، وهي تبكي أخاها أوزوريس، الذي قتله ست، وعندما جاءت المسيحية مصر، وأزالت عبادة إيزيس استمرت أسطورتها تعيش في معتقدات الفلاحين في شكل تصور مسيحي جديد يقول: إن الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذي كان كلمّا حلّ ميعاد الفيضان يدخل العرش الإلهي يرجو الله أن يرحم عباده المصريين، فيأمر بزيادة النيل، ويظل يتضرع ويبكي حتى يستجاب دعاؤه، ويفيض النيل من فيض دموعه.

- عقائد إنسانية كثيرة أخذت مكانها في أفكار كثيرة وبين شعوب عديدة في أرجاء الكون.... في محاولات جديدة لرحلة البحث عن الله

- ومن أجل أن تهدي السماء الناس..... أرسلت الرسل برسالات محددة إلى أهل الأرض لتبعدهم عن الجاهلية الأولى.

قصة الخلق في بلاد فارس:

لم تكن قصة الخلق بعيدة عن حياة الفرس، ومادوّن من قصص الخلق الشيء الكثير التي تعكس رؤاهم حول الخلق والخالق، فهم يرون أن أول الخلق (خلق الإنسان الأول كيومرد) وأن أهرمان قد قتل الثور وكيومرد وبعد أربعين سنة كانت بذور كيومرد في الأرض، فنتج عنها أول زوجين من بني آدم، كانت تسود بلاد فارس عادات وعقائد، بأن الأرض مقدسة، ولا يجوز تدنيسها وكذلك الماء والنار، فكانوا لا يحرقون جثث الأموات كما كانت تعتقد الهندوسية، إيمانا منهم بأن النار مقدسة، وأن الإنسان عندما يموت لا يعود مقدسا، فيضعون أمواتهم على أبراج لكي لا يلوثوا الأرض التي منها يأكلون، وقالوا بتحريم حمل الجثث أو لمسها، وإن هناك طائفة معينة من الناس معنية بذلك، وتدعى بالمجوس، وهم لا يختلطون بالناس من بلاد فارس، وينتمون إلى جذور هندية.

وذات يوم قال زرداشت لزوجته (سأذهب بعيدا لأعيش ناسكا فترة من الوقت أفكر خلالها في الخير والشر، فربما تبينت مصدر العناء في العالم).[٨]

لقد كان يبحث عن الحقيقة وعن مسألة الخير والشر وآلهتهما، وهو يدعو إلى ترك عبادة الأصنام، وهناك مساجلات بينه وبين

الملك ومع كهنته، وإن دعوته بأن هناك آلهة الخير (أهور مازدا) أو إله النور، و(أهرمان) آلهة الشر أو آلهة الظلمة إن آلهة الخير في الأعلى، أما آلهة الظلمات ففي الأسفل، وأول عهد يأخذه الزرداشتي على نفسه كما جاء في الأفستا (لن أقدم على سلب أو نهب ولا تخريب ولا تدمير، ولن آخذ بالثأر وأقرّ أني أعبد الإله الواحد أهورمازدا وأني أعتنق دين زرداشت وأقرّ أني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح).(٩)

وجاء في الأفستا المقدسة (سوف تبتهج نفوس الخيّرين في الحياة الثانية الخالدة كما سيتعذب الكاذبون إلى الأبد).(١٠)

جاء في الأفستا (يبعث الموتى وتعود الحياة إلى الأجسام وتتردد فيها الأنفاس ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال).(١١)

وأن تعاليم زرداشت مبنيّة على أن هناك قيامتين القيامة الأولى عند الموت، أما الثانية فهي لإخضاع إمبراطورية الفرس التي أسسها كورش في عام ٥٣٨ق.م في ولاية ميديا مسقط رأس زرداشت، وقد أعلن زرداشت النبوة، أن هذه التعاليم قد استقاها من الإله أهورمازدا، ويتجنب الزرداشتيون الطيور، والحشرات التي تأكل اللحوم الميتة، أو الوسخة، وأن الضفادع، والأفاعي هي من خلق الشيطان.

إن هذه المبادئ قد تتطابق في بعض جوانبها مع الأديان الأخرى التي تلتها من الرسالات السماوية ولكنها قد تختلف في الشكل (وقد تطرقت إلى مسائل الحياة الأخرى الحياة الثانية للإنسان (فجعلوا الضمير الخلقي مقياس الثواب، والعقاب، ونشأت تفاصيل كثيرة حول فكرة المحاكمة الفردية، فقيل أن روح المبعث تجلس فوق رأسه ثلاثة أيام، وهي تفكر في أفعالها السابقة وتزن خيرها وشرها، وفي هذه الأثناء تحضر ملائكة الخير عند الروح إذا كانت صالحة، فيما تعذبها الشياطين، وتقودها نحو العقاب إذا كانت شريرة، وفي اليوم الرابع تشق الروح طريقها إلى جسر حيث تقف أمام ثلاثة ديّانين يحمل أحدهم واسمه راشنو الميزان الذي توزن به أفكار الإنسان وأقواله وأفعاله، وبعد إصدار الحكم تعبر الروح ذلك الجسر حتى تبلغ حافته، فإذا كانت خيّرة امتد الجسر فوق النهر لتكمل عبورها عليه، وإذا كانت شريرة خطت خطواتها الثلاث الأخيرة خطوة الفكر، وخطوة القول، وخطوة العمل قبل سقوطها في هوة الجحيم.

ويشير البعض إلى هذه المسألة بالملاحظة أن ذلك السياق قد كتب بعد الفتح الإسلامي لأن ذلك ما جاءت به الديانة الإسلامية، وهذا عمل لاهوتي من قبل معتنقي هذه الديانة٠ الوضعية.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الشنتو:

هي مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية في اليابان، والمعتقد الرئيس فيها هو الإيمان بالقوى الغامضة المسماة (بالكامي) والكامي تترجم (بإله) أو(الآلهة) وتشمل أيضا قوى خارقة في الطبيعة خيرة وشريرة وأصبحت لهذه القوى مكانة لسموها وللتوقير والاحترام. وهذه التسمية للعقيدة الدينية التي كانت سائدة في اليابان، وكان يطلق عليها اسم (كامي- نو- ميشي) وعرفت أكثر بالاسم الصيني (شنتو) وهذه التسمية مأخوذة من معتقدات الديانة الصينية للذين كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة والأرواح الخيّرة، فالأرواح الخيّرة تسمى (شن) وتعاليم الحكيم الصيني القديم (لاو- تسي) تسمى (تاو) بمعنى الطريق، وأصبحت (شن تاو) بالمعنى الصيني الطريق إلى الأرواح الخيّرة، وإن الأرواح التي كانت تسري في كل شيء هي عقيدة أهل اليابان، ولم تكن ديانة الشنتو بعيدة عن المعتقدات الدينية التي سادت في تلك المنطقة، إلا في بعض الجوانب وإن كانت هي مزيجا من الديانات المتاخمة لها، أو التي جاءت وافدة عليها «كما أن للعقيدة صورتين الأولى تتجه إلى عبادة الحاكمين الأسلاف، وهم الآلهة الذين أسسوا الدولة، وأقاموا بناءها، والثانية تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة، وبهذا عبد اليابانيون أباطرتهم، وأنهم ليسوا كباقي البشر، وإلههم كالجبل، أو الشمس، أو القمر فيجب أن يعبد».[١٢]

لقد وضع لهذه الديانة كتابان، وهما «الكوجيكي» و«النيهونجي».

وتروى قصة واردة في الكتابين المقدسين من أنه كانت الآلهة تولد ذكرا وأنثى، ثم تموت حتى حدث في النهاية في زمن كان يعيش فيه الجيل السابع من الآلهة، وحين أصدر شيوخ الآلهة أمرهم إلى إلهين شابين هما (إيزاناجي) و(إيزانامي) بأن يخلقا الأرض، ويقيما عليها الحياة وتسرد القصة إلى أن يتزوج هذان الإلهان، وينجبا أربعة آلاف ومئتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان بكل ما فيها من جبال وأنهار وصخور وحيوان ونبات، وكما تقول الأسطورة تساقطت جميعها من الثقب الذي حدث في السماء، وتساءل الإلهان يوما لماذا لا يخلقان ابنا جديدا يكون سيدا لكل هذه الأرض؟ ولم يكن هناك ما يمنع من التنفيذ، وولدت «إيزانا مي» أنثى هي (أما تيراسو) ربة الشمس، ومنحها (إيزاناجي) مملكة النهار، وكذلك أنجبا الابن (نسوكى يومي) إله القمر، ومنحها (إيزاناجي) مملكة الليل واستمر الأبوان ينجبان فجاء لهما (سوزانو) إله العواصف ثم (كاجوتشوتشي) إله النار، وتحكي القصة في الكتابين المقدسين كيف

أنه بعد ذلك كافح الأب ليحاول إنقاذ زوجته من العالم السفلي، ولكن كل جهوده ذهبت عبثا، فاضطر إلى الهرب من الجحيم عائدا إلى الأرض.

قصة الخلق عند الهندوسيين:

إن كثرة المعتقدات والأديان التي كانت في بلاد الهند، كانت من وراء كثرة قصص الخلق، وربما كانت القصة الأكثر رواجا أو ربما تعتمد عليها كل قصص العشق القصصي حول الإله براهما، وهو إله مفترض، يرى الهندوسيون أن قصة الخلق بدأت عند براهما وهو روح العالم لأنه خلق (مانو) أول البشر ومنه خلقت البشرية، فمن أطراف أصابع براهما شيئا هائلا كبير الحجم ليكاد يعدل جسمه عملاقا وعملاقة تعانقا ونفخ في الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين..... نصف رجل ونصف امرأة.

وعلى سطح الأرض نشأ في العالم أول زوج، وأول زوجة، واجتمع الزوجان، فكان نسلهما البشر، ويبدو الغرابة كانت بادية على المرأة حول شيء لم تفهمه وتساءلت كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجني من نفسه، ثم يخرج مني كل هذه الكائنات، إنه لشيء رهيب،خارق، شيء يجعلني أبتعد عنه وأختفي عن ناظريه.

- حتى غدا نهار بعد ليل كانت الزوجة قد اختفت في صورة بقرة والزوج انقلب إلى ثور وزاوجهما وتولدت الماشية.

- امتلأت الزوجة رعشة جديدة لتتخذ لنفسها هيئة فرس، ولم يمهلها الزوج الذي انقلب هو الآخر إلى جواد.

- وحولت المرأة إلى حماره، والآخر تحول إلى حمار فتولدت لهما ذوات الحوافر

- وانقلبت على عنزة فانقلب تيسا وتحولت إلى نعجة فتحول كبشا، فتكونت الماعز والخراف.

وعلى وجه الأرض راحت الكائنات الجديدة بالظهور بين الإناث والذكور، وبلغ فيها التدرج حتى النحل.

- من قمة اللانهائيات أطل براهما، وقد أدرك تلك الحقيقة، أنه هو هذا الخلق نفسه لأنه أخرجه من نفسه.

وعلى هذا النحو نرى الهندوسية تقسم الطوائف إلى طبقات على النحو التالي: أربعة أنواع من البشر جاؤوا من مانو

- من رأسه أفضل الناس وأعظمهم وأقدسهم وهم الكهنة

- من ذراعه جاء من يليهم من الأفضلية،وهم الملوك والمحاربون ويسمون بالأكشترية.

- ومن فخذيه جاء أرباب المهن في العالم بين زراع وتجار ممن يوفرون مسائل العيش للكهان والملوك والحكام وهم الفيشية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- ومن قدميه جاءت بقية الناس، وهم يقومون بخدمة الطوائف الثلاث السابقة ويسمون بالشودرا أو المنبوذين.

- إن أول خلق في الهندوسية (مانو) وبراهما خلق الذكر والأنثى وبدا التناسخ.

كما تشير الديانة الهندوسية إلى أن الإله فيشنو نزل من السماء تسع مرات إلى الأرض راكبا طائر (الغار ودا) وفي الانحدار العاشر جاء ممتطيا جوادا أبيض، ويحمل سيفا من لهب، وفي نهاية الأمر ينزل إلى الأرض ليهلك الأشرار.

فالمرحلة التي بدأت بالبراهما التي تدعو إلى التحول من عبادة الطبيعة إلى عبادة الإله، إلا أن حالة التصوف هذه تكمن في تعاليم الأوبانشاد، وتعني التتلمذ على يد أستاذ وقد تعمقت هذه الأناشيد لدى القسيسين.

ورغم أن هذه الديانة قديمة جداً فإننا نرى كيف نظرت إلى مسألة العقل وكيف تضع النواظم والاستنتاجات.

«إن أول دراسة يعلمها حكماء اليوبانيشاد لتلاميذهم المخلصين هو قصور العقل إذ كيف يستطيع هذا المخ الضعيف الذي تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمع في أن يدرك يوما هذا العالم الفسيح المعقد الذي ليس مخ الإنسان إلا ذرّة عابرة من ذراته وليس معنى ذلك أن العقل لا خير فيه بل إن له المكانة المتواضعة».[١٢]

وقصة الخلق في بلاد الصين، تروى هذه الأسطورة (إن هناك حقباً امتدت لأكثر من مليوني سنة حكمت مجموعات من البشر في هذه الحياة، فقد ظهر الإنسان الأول، وكان اسمه (كو) قبل ملايين السنين، وكان حجمه يفوق أكثر من أربعة أضعاف حجم الرجل العادي، والعالم في حالة فوضى، وحمل إزميلا ومطرقة لكي يفصل السماء عن الأرض وأمكنه ذلك حيث دام ذلك ١٨ ألف سنة، وحفر الأودية على سطح الأرض وأمكنة الشمس في السماء، فوزع نفسه على الكون بعد أن ازداد، أنفاسه الريح،وغدا صوته الرعد، ولحمه الحقول، ولحيته النجوم، وعرقه المطر، أما الحشرات التي كانت ملتصقة بجسده، فقد كانت البشر)

لقد كان لتلك القصص التي ذكرناها أثر واضح في رسم الملامح الرئيسية للمعرفة واستنباطها، من خلال العقل المحض الذي بدأ ينمو، حتى وصل إلى يقينيات بأنه لا يستطيع أن يبلغ أكثر من ذلك في هذا المضمار، وجاءت الشريعة لتدل العقل على الطريق القويم ومساقات المعرفة، كل ذلك قد ساعد العقل على الولوج في المعرفة على أرضية صلبة استطاع من بعدها أن يتقدم ويتطور في مجالات عدة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- الأسطورة والمعنى- دراسات في المثيولوجيا- ص٢٧.
٢- معجم ديانات وأساطير العالم- المجلد الثالث- ص١٨٨.
٣- قصة الحضارة- ج: ١- ص: ١٠٢.
٤- قصة الحضارة- ج: ١- ص: ١٠٣.
٥- قصة الحضارة- ج١- ص: ١٠٣- ١٠٤.
٦- حكمة الأديان الحية- ص: ١١٤
٧- قصة الخلق- سيد القمني- ص٥٣.
٨- قصة الديانات- ص ٢٨٥.
٩- قصة الديانات- ص٣١٢.
١٠- المصدر السابق- ص٣١٢.
١١- المصدر السابق- ص٣١٣.
١٢- قصة الحضارة- ج٥- ص١٣ .
١٣- قصة الحضارة -ج٣- ص٤٦.

المصادر والمراجع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١- قصة الديانات- سليمان مظهر- مكتبة مد بولي- القاهرة- ٢٠٠٢م.
٢- قصة الحضارة- وول ديورانت- ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود- جامعة الدول العربية- الطبعة الخامسة.
٣- حكمة الأديان الحية- تأليف: جوزيف كاير- ترجمة: المحامي حسين الكيلاني- مراجعة: الأستاذ محمود الملاح- دار الحياة- بيروت ١٩٦٤م.
٤- المعتقدات الدينية لدى الشعوب- تأليف: جفري بارندر- ترجمة: د.إمام عبد الفتاح إمام- مراجعة: عبد الغفار مكاوي- الطبعة الثانية- مكتبة مد بولي -القاهرة ١٩٩٦م.
٥- قصة الخلق- سيد القمني- المركز المصري لبحوث الحضارة- مصر- الطبعة الثانية- ١٩٩٩م.
٦- معجم ديانات وأساطير العالم- د.إمام عبد الفتاح إمام- القاهرة.
٧- حكايات وأساطير من عالم الشرق القديم- هاينز كرايسيك- ترجمة: قاسم طوير- وزارة الثقافة- ١٩٨٣م.

أخلاقيات الحرب عبر التاريخ
-الشرق العربي نموذجاً-

نزار مصطفى كحلة ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان مـن الطبيعي لمنطقة شاءت الأقدار أن تقع بين قارات العالم القديم، إضافة إلى كونها ملتقى الطرق التجارية عبر التاريخ، وما زالت، ولاعتبارها مهد الحضارات والديانات السماوية وغير السماوية، ومنبع الفكر والفلسفة والفن والجمال والإبداعات الخلاقة، ومغامرات العقل الأولى، عبر اعتبارها أرض الأساطير والعقائد والأفكار والفلسفات، التـي ارتقت عبر مراحل التاريخ البشري لتكوّنَ الإرهاصات الأولى لـكل الحضارات الأخرى، مروراً بأسبقيتها عبر التاريخ ببنـاء القرى ومن ثم المدن الأولى، ومن بعدها الدول

٭ ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان عماد الوهيبي.

والممالك والإمبراطوريات الكبرى، عدا عما تختزن بداخل ترابهـا، وعلى سطحها، وفي فضاءاتها المختلفة من خيرات كثيرة، أقول: كان مـن الطبيعـي أن صارت مـع كل هذا وذاك، قبلـة كل غازٍ، سواء مـن أبنائها، أو مـن غير أبناء جلدتهـا، راغب في السيطرة عليهـا، فكان أن شهدت هذه المنطقة حروباً ومعارك، لم تعـرف منطقة أخرى على وجه الأرض حروباً بقسوة حروبها، ومعارك بعدد معاركهـا، حتى تكاد لا تعثر على حبة تراب من ترابها لم تمتزج بقطرة سالت من دم طفل قُتِلَ وهو يختبئ خلف جدار، أو شيخ توارى في معبدٍ أو مسجدٍ، أو امرأةٍ اغتصبت عنوة، أو شـاب ذبِحَ وهو يدافع عن بلده، أو بسيف غازٍ لم يعرف سوى رغبة القتل والتدمير، ولا شيء سوى القتل والتدمير بلا رحمة.

وبما أننا نتحدث عن الحرب وأخلاقياتها، فإن من الطبيعي أن تم اختيار هذه المنطقة، فرحاً مني حيناً لسهولة البحث فيها، لكثرة أمثلتها، وحزنـاً عليها طوراً، لكثرة ويلاتها، وعلـى اعتبارها بلادي التـي أحب وأنتمي وأرغب في دراسة تاريخها.

ويبـدو لنا تاريخ المشرق عامة من خلال وثائقـه المكتوبة، ونقوشه ونصبـه الباقية، مليئاً بأعمال الحرب والغـزو، ويرى ديهيه المـؤرخ الفرنسـي للتاريـخ القـديم، هذا التاريـخ: «سلسلة حروب وفتوح، حيث تبنى الممالـك ومن ثـم تقوض وتهـدم، وثورات تتأجـج أو يقضـى عليها بالحديـد والنار، ومـدن وأرياف منكوبـة مسلوبة، وغزاة من البـداة أو سـكان الجبال يتلـذذون بتهديم مدن الـترف والنعيم». يمكن لنـا القول إن عهود الأمراء والملوك لم تعرف إلا الحرب ولم تركن يومـاً للسلم، وكان منهم أمراء وملوك آشوريون وماريّون وبابليون وحثيون، ولم يشذ عن هذه القاعدة (ملوك التوراة) نظرياً، ولا أمراء العهود المتأخرة الكلدانية والأخمينية الفارسيـة. ولم يكن مفهوم الحرب أنه كارثة ومصيبة بقدر مـا كان برهاناً على شجاعة الملوك وتكريساً لجبروتهم، وإذا كانت وجدت حالات نـادرة حيث يجنح فيها أمير أو ملك إلى السلم لينأى ببلاده عن الحرب، فلم يكن لينأى عن تهمة التخاذل والجبن.

أخلاقيات الحرب

إننـي حينمـا أتحدث عـن أخلاقيات الحرب، فإننـي أعني بكلامي ذلك السلوك الذي كان ينتهجه عـادة القادة العسكريون في الساعات أو الأيام وربما الأسابيع الأولى التي تلي الانتصار وهزيمة الخصم مباشرة، فقـد كنت أصادف العديد مـن الحالات والسلوكيـات المختلفة التـي يسلكها القادة عقب انتهـاء أعمالهـم العسكريـة، والتي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تراوحت ما بين اللين والرحمة حيناً مع قلة نماذجها، وبين القسوة والوحشية طوراً مع كثرة حدوثها، والتي يبدو أنها كانت السمة العامة لهذه السلوكيات، فكان أن تولد لديَّ تساؤل عن أسباب هذه السلوكيات ودوافعها.

فمن خلال دراسة معمقة لهذه الحالات، تبين لي أن هناك أسباباً ودوافع كثيرة تكمن خلف هذه السلوكيات، وهي دوافع تتعلق بعدة قضايا كان لابد من الإشارة إليها، لفهم أسباب هذه الأفعال والسلوكيات، ومنها:

أولاً: الديانة التي ينتمي إليها الفاتح أو القائد العسكري، حيث حضَّت بعض الديانات على القتل بشكل مباشر أو غير مباشر، وخير مثال نسوقه هنا هو ما كان يقوم به الآشوريون واليهود من قسوة وقتل وتهجير لسكان البلاد التي يفتحونها.

- أمّا عن الآشوريين، فقد كانت العقيدة العسكرية لديهم مبنية على أن إلههم آشور هو إله الحرب والعسكر، فعندما سيطر الآشوريون على بلاد ما بين النهرين وأنشؤوا دولتهم العسكرية، رفعوا إلههم آشور إلى مرتبة السيادة، فأصبح إله الحرب والنصر بعد أن كانت وظائفه زراعية.

لقد كانت الصفة الحربية القاسية تغلب على الآشوريين نظراً لطبيعة بلادهم الجبلية القاسية، فكان الطابع المميز للدولة العسكرية التي أنشأها الملوك الفاتحون هو القوة والعنف بالاعتماد على الجيش والأرستقراطية العسكرية، وقد كان آشور يبرز في تماثيله وهو مسلح بقوس في وسطه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سهم كدليل على قوته وجبروته، وكانت زوجته عشتار الآشورية محاربة كزوجها، ويسميها آشور (ريش- إيشي) أي «بطلة المعارك التي لا تبقي على أحد من أعداء آشور» وكان آشور مثل مردوخ (عند البابليين) يرأس مجمع الآلهة ليحدد مصائر البشر.

لقد كان نظام الحرب والجيش محور المجتمع الآشوري، وكان الجيش الآشوري من أفضل الجيوش المشهورة في التاريخ، حيث كان يقوم على نوعية جنده وإعداده وعدتهم ونظام التدريب والضبط الصارم، وكان الجيش الآشوري في بداية أمره مكوناً بالدرجة الأولى من طبقة الفلاحين الأشداء من بلاد آشور نفسها، ويعزى الكثير من نجاح الجيوش الآشورية في فتح المدن والحصون إلى ما كانت تزود به من آلات الحصار ودبابات النقض والمنجنيقات واستعمال الحديد في صنع آلاتهم ومكناتهم الحربية الرهيبة بالنسبة إلى ذلك الزمان.

لقد كان عقاب المدن المفتوحة عنوة هو الحرق، وكان كل شيء يُحمل على أنه غنيمة حرب، وكان السكان يتحولون إلى عبيد وأسرى ومهجرين، فقد اعتمد الآشوريون سياسة التهجير لسكان المدن التي يستولون عليها، بغية قتل الروح الوطنية للسكان في بلاد المهجر، وهذا المنهج كان متبعاً لديهم مع جميع المناطق التي غزوها وليس حصراً مع اليهود في فلسطين كما يُروَج لذلك!!.

ففي إحدى حولياته يحصي سنحريب غنائمه بعد فتح بابل بـ٢٠٨٠٠٠ أسير، وهو رقم مبالغ فيه حتماً. وقد كان هذا السلوك من عادة ملوك الشرق بغية دب الرعب في قلوب خصومهم وتضخيم انتصاراتهم، أما مصير المهزومين من ملوك وحكام، فهو القتل واستعراض جثثهم أو أعضاء منها فقط في موكب النصر، ولم ينج من هذا المصير سوى الكهنة وخدام المعابد، فقد حافظ المحاربون القدماء على عكس محاربي العصور الوسطى، على تقليد، هو حفظ أماكن العبادة من التدمير في كثير من الحالات، ولكن بعضهم وفي بعض الحالات الشاذة هدموا المعابد ونقلوا أوابدها وممتلكاتها المقدسة من تماثيل وقرابين إلى بلادهم، فقد مارس مثل هذه الأعمال الحثيون والعيلاميون، لأنهم كانوا يأملون في الحصول على بركة الآلهة المنكوبة في بلادهم.

لقد تميز الآشوريون ببشاعة التنكيل بأعدائهم، الذين صورتهم المنحوتات الآشورية مقيدين بالأغلال يجرون عربة الملك المنتصر، وقد قطعت أنوفهم وآذانهم، واقتلعت عيونهم وألسنتهم، وبعدها يساقون إلى الموت خوزقة.

إلا أن عقوبات الآشوريين ضد أعدائهم كانت مختلفة من شعب إلى آخر، فقد بني

هذا الاختلاف على معلومات ودراية مسبقة بعادات وتقاليد تلك الشعوب، حيث أدرك الآشوريون أن إهانة العدو أو معاملته بعنف يزيد تأثيره على نفسيته ونفسية أتباعه وشعبه لما هو كريم وما هو مهين، ومن هذه الأمثلة نذكر:

يذكر نص للملك الآشوري شلمنصر الأول ١٢٧٤- ١٢٤٥ق.م أن هذا الملك اصطدم مع الحثيين وحلفائهم وأنه تمكن من هزيمتهم وذبح جنودهم كالخراف، ويفتخر توكلتي نينورتا الأول ١٢٢٤- ١٢٠٨ق.م أنه قطع رؤوس القتلى وزيّن بها أعلى قمم الأسوار المهدمة لمدنهم، فيما يذكر تجلات بلاصر الأول ١١١٥- ١٠٧٧ق.م في نص له: أن الأقوام التي حلت محل الحثيين، الذين أطلق عليهم اسم Kutmuhi وقفت ضد المصالح الآشورية، وأنه قام بمهاجمتهم وهزمهم، ثم ألقى بجثث الجنود القتلى من أعالي الجبال بما يشبه العاصفة، وجعل دماءهم تسيل من الجبال إلى الوديان، أمّا آشور ناصر بال الثاني ٨٨٤- ٨٥٩ ق.م فيذكر أنه عامل بيت خالوبي المملكة الآرامية على الخابور والثائرة على حكمه بأنه ألقى القبض على مغتصب العرش (أهيا بابا) ومعاونيه، ثم قام بقطع رؤوس معاونيه، ثم سلخ جلودهم ولفَّ بها أثراً أقيم أمام بوابات المدينة، وأما جثثهم المقطوعة الرؤوس فقد وضعت فوق الخوازيق، وعلقت رؤوسهم كتيجان فوق الأثر، أما بالنسبة لمغتصب العرش نفسه فقد نقله إلى نينوى ثم سلخ جلده حياً، وقام بتعليقه (الجلد) بالمسامير على جدران المدينة، فيما يذكر أسرحدون في نص آخر أنه عندما قام شخص عربي يدعى (وهب) بثورة ضد (يطع) الموالي للآشوريين، لم يتردد الملك الآشوري من الوقوف إلى جانب (يطع)، بل تمكن من هزيمة (وهب) وقيده مع أتباعه، ثم اقتيدوا إلى عاصمته نينوى، حيث أنزل بهم العقوبات المهينة، وهي أنه ربطهم على بوابة مدينته وجعلهم حراساً له، كما يذكر أنه وضع أطواقاً في رقابهم، وقيدهم على قائم بوابته في نينوى. أما الملك سنحريب ٧٠٥- ٦٨١ق.م فقد ذكر في ذكر عقوبات من ثار عليه سنة ٦٩٨ ق.م أنه تمكن من أسر ذلك الحاكم الثائر، حيث أحضر إليه في نينوى، وقد قام بسلخ جلده حياً.

لكن الآشوريين ومن بعد حين لاقوا نفس مصير الشعوب التي انهزمت على يدهم، فقد سقطت آشور على يد التحالف الميدي البابلي عام ٦٠٩ ق.م، وهناك قصيدة لشاعر يذكر فيها أحداث ما جرى من أهوال للمدينة، إذ يقول:

اسمعوا قرقعة السياط ! اسمعوا زمجرة العجلات!

إن الجياد تعدو، والعربات تطفر فوق الطرقات.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والفارس يمرق بحصانه كالسهم.....

والسيف يتألق، والرمح يرسل البرق تلو البرق.

والجرحى يملؤون كل مكان، والموتى بالأكداس!

جثث على مدى النظر، يدوسها السائرون!

إن رعاتك يغطون في النوم، يا ملك آشور،

إن عظماءك قد أغفوا!

ولقد تبعثر شعبك فوق الجبل.

دون أن يجمعه أي إنسان.

- أما عن اليهود، فعلى الرغم من تحفظنا على ما كتب عن تاريخهم، استناداً إلى كتاب التوراة المشكوك بصدقيته كثيراً كمصدر تاريخي، ومع عدم قبولنا لهذا التاريخ، إلا أن وجود هذه الأفكار فيه، والتي تستند إلى فكر (شديد التعصب) قائم بحد ذاته (رغم اعتراضنا عليه)، إلا أنه ما زال يمارس حتى الآن. فقد أعطى هذا الفكر للإنسان حق القتل والتدمير، اعتماداً على أوامر دينية تأتي من الخالق مباشرة، وهو هنا في هذه الحالة الإله (يهوه) هذا الإله المنحول لدى اليهود اليوم، والذي يدعى لديهم إله الحرب أو رب الحرب والجنود، وهو الذي يسمح ويبرر لهم أعمال الإجرام التي ما تزال تمارس على يدهم حتى اليوم. فعندما استطاع يشوع إسقاط مدينة أريحا على حد زعمهم، فقد اقتحم الجنود اليهود المدينة بعد سقوط أسوارها، وأجهزوا على سكان المدينة جميعهم ما عدا راحاب وعائلتها (لأنها تعاونت معهم في فتح المدينة)، ولم تنج من تلك المذبحة الرهيبة حتى الحيوانات، وبعد أن انتهت المذبحة المروّعة أحرق الإسرائيليون المدينة وحولوها إلى رماد، لكنهم لم ينسوا قبل أن ينسحبوا أن ينهبوا الذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة التي كانت قد خصصت مسبقاً لخدمة الرب وكهنة يهوه. ففي الكتاب المقدس (يشوع- الإصحاح السادس) يرد: «فسقط السور في مكانه وصعد الشعب من المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة، وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف...... وأحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما فيها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب....» وكل هذا بالطبع بأمر الرب (يهوه) ورعايته وبركته.

وإن كانت هذه الأحداث لا تمت للواقع بأي صلة، فحتى الآن لم يثبت منها شيء، لا تاريخياً ولا أثرياً، لكنني استشهدت بها لأدلل على هذا الفكر السادي المعادي للإنسان والإنسانية، والذي مازالت طريقته تمارس حتى الآن.

ففي العصر الحالي ما زال اليهود

الصهاينة يعتمدون الوحشية والقتل والتدمير مع خصومهم اعتماداً على أوامر إلههم (يهوه) راعي هذا الفكر!!!.

فقد قسَّم اليهود الناس إلى يهود وغوييم أو أمماً (أي غير يهود) وتدل كلمة غوييم عندهم على الوثنيين والكفرة والبهائم والأنجاس، أي أن اليهود هم المؤمنون فقط، وهم مخلوقون من نفس الله وإن عنصرهم من عنصره، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار جوهراً، على حين أنه خلق غيرهم (الغوييم) من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة، ولم يخلق الله (يهوه) (الغوييم) إلا لخدمة اليهود، ففي بروتوكولاتهم المشهورة يرد في البروتوكول الأول: «إن خير النتائج في حكم العالم هو ما ينتزع بالعنف والإرهاب لا بالمناقشات الأكاديمية الحرة...» وفي بروتوكولهم السابع يرد: «عن ضخامة الجيش والقوة البوليسية كوسيلة ضرورية لإتمام الخطط الصهيونية»، وفي البروتوكول الرابع عشر يرد: «يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان....»، وهذا كله يبرر بالنسبة إليهم المجازر الكبيرة التي ارتكبها الصهاينة بحق العرب وغيرهم في مجازر دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا وجنين ومؤخراً في غزة وغيرها، على يد عصابات الهاغاناه والشتيرن وعلى يد جيش القتل والإرهاب المدعوم أمريكياً، وغيره من عصابات القتل والإرهاب.

ثانياً: المستوى الحضاري للغازي أو الفاتح، فقد لعب التفاوت الحضاري بين الدول والممالك بثقافاتها دوراً هاماً في السلوك الأخلاقي للقادة العسكريين في فترة ما بعد الانتصار.

- لقد سقطت مملكة أور الثالثة السومرية على يد العيلاميين القادمين من الشرق والذين ساروا بحملة مدمرة إلى أور، وقد ساعدهم في ذلك جماعات السو (Sua) البدوية، التي كانت تسكن جبال زاغروس إلى الشمال من عيلام وهم متخلفون حضارياً جداً عن السومريين. فقد دمر العيلاميون بمساعدتهم المدينة وأخذوا الملك إبي سين ٢٠٢٨- ٢٠٤٤ق.م آخر ملوك سومر أسيراً إلى سوزة عاصمتهم في حدث لم يسبق له مثيل من قبل، خلَّده الأدب السومري في قصيدة حزينة من أكثر ما خلَّفه الأدب السومري تأثيراً، تصف فيه تلك الكارثة، ومنها نعرف ما حدث في أور الرائعة من سلوك وحشي للجيش العيلامي المدمر، تقول القصيدة:

رجال موتى لا كسرات من الفخَّار

يغطون المداخل

وفي الجدران والأسوار فتحت الثغرات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعند البوابات العالية وعلى الطرقات

تراكمت أجساد الموتى.

وفي الشوارع الجانبية حيث كانت تجتمع

الحشود المختلفة.

تتمدد الجثث الآن وهي مبعثرة هنا وهناك.

في كل الشوارع والطرقات ترى الأجساد ملقاة

في الحقول الرحبة وفي الطرقات التي كانت

تعج بالراقصين

تراهم الآن أكواماً متكدسة...

لقد ملأت الدماء المسفوكة تجاويف الأرض

كما يملأ قالب السبيكة معدن مصهور...

وتتحلل الأجساد لتمتزج بالتراب كما يذوب

الدهن تحت أشعة الشمس..

- وفيما بعد نرى كيف فعل الرومان في قرطاجة التي كانت تسبقهم على المستوى الحضاري، وكيف فعل الصليبيون في إنطاكية وفي معرة النعمان والقدس وطرابلس، إضافة إلى ما فعله المغول في حلب ودمشق وما فعله التتار مرة أخرى في نفس المدينتين من تدمير وإحراق للناس وقتلهم، إضافة إلى أكل لحوم البشر وأشياء أخرى تقشعر لها الأبدان، وهذا ما سنعرفه لاحقاً.

ثالثاً: مقاومة البلد المحتل وصموده لفترة طويلة، فقد كان لهذا أثر كبير جعل من القادة العسكريين ينتقمون من المدينة الصامدة لمدة طويلة أبشع انتقام، وهذا ما فعله الآشوريون في صور بعد صمودها ثلاث عشرة سنة تحت الحصار، وما حصل لطرابلس جرَّاء صمودها أمام الصليبيين، ولدمشق أمام المغول والتتار.

رابعاً: درجة العداء الكبيرة السالفة والمستحكمة بين الخصمين، فقد كان لهذا العداء دورٌ كبير في زيادة أفعال العنف والقسوة بين الخصمين، خاصة إذا ما كانت على درجة عالية من هذا العداء، كما فعلت روما بقرطاج من إحراق وتدمير، يدل على كراهية وحقدٍ دفينين، وكما فعل العباسيون بأبناء عمومتهم الأمويين في دمشق عام ٧٥٠م.

خامساً: كانت هذه السلوكيات تزداد أيضاً في حالات الغزو الكبرى، والاجتياحات ذات المدى البعيد، حيث يصل الأمر بالجنود لكثرة ما سفكوا من الدماء، أن أصبح القتل لديهم كمن يذبح شاة، أو كمن يطارد الظباء في رحلة صيد، أو كمن يجترع الخمر في حفلات الجنون الكبرى، فلا فرق بين امرأة وشيخ، أو بين مقاتل يحمل سيفه، ولا فرق بين سورٍ أو ساحةِ قتال، وبين مسجد أو دار عبادة أو سرير طفل يغفو بسلام، وهذا ما فعله المغول والتتار والصليبيون بمدن الشرق العربي إبان اجتياحاتهم الكبرى، وكما كان قد فعل الأكاديون والآشوريون، وغزاة شعوب البحر مع خصومهم فيما سبق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سادساً: أسباب أخرى معظمها نفسية (تربوية)، ومنها:

أ - العقيدة العسكرية التي تزرع في عقول ونفوس الجنود منذ الصغر، حيث تلقوا التربية والتدريب العسكري منذ نعومة أظفارهم، وهذا ما كنا نراه في آشور وإسبرطة، وما شاهدناه عند المغول والتتار والصليبيين، والصهاينة فيما بعد.

ب - إرث مغروس في نفوس العسكريين على أنهم قساة بالطبيعة، وذلك من خلال ما شاهدوه من سلوك من سبقهم، أو لأنهم شاهدوه بأم أعينهم عندما تعرضوا هم له. ولابد وأن يكون للدافع العدواني والشهوة الطبيعية للقتل والشر الموجودة داخل الإنسان بالفطرة، أثر كبير في هذا السلوك، إضافة إلى مفاعيل الخطابات التجييشية والتشجيعية على القتل والتي يقوم بها عادة القادة العسكريون قبل المعارك، من أثر كبير على ذلك، كما أن منظر الدماء عادة ما يثير في نفوس الجنود طلب المزيد منها، خاصة بعدما يبلغ جنون القتل حده الأعظم.

ج - الرغبة البشرية التي عادة ما تنزع نحو امتلاك ممتلكات الغير، في حال سُمِحَ لها بذلك، أثر في حالات النهب والتدمير.

د - الغيرة من الخصم وحضارته، مما يولد في نفوس المحاربين الرغبة في تدمير الخصم وإزالته من الوجود، كما حدث مع الرومان عندما دخلوا قرطاجة ١٤٦ق.م.

هـ - الحالة الاقتصادية للجنود، خاصة عند الفقراء وشذاذ الآفاق الذين تتاح لهم فرص الاشتراك في الحملات الكبرى، وخاصة عندما تستباح المدن الغنية لمدة من الزمن.

و - حالات فردية نفسية، قد تنزع نحو سلوكيات جنسية (اغتصاب)، إما بأمر القائد المستكبِر الراغب بإهانة خصمه، أو تحقيقاً لنوازع نفسية سادية، كما عند الصليبيين والمغول.

ز - عُرفٌ متفقٌ عليه، كان يسري على الجميع، وكأنه اتفاق غير مدون، لكنه كان ينفذ دائماً، فهو قانون واجب الالتزام به، أو ما يسمى بحق (الفتح)، وهو أنه يحق للقادة العسكريين استباحة أي مدينة أو قرية يتم الاستيلاء عليها لمدة من الزمن قد تتراوح ما بين ساعات وربما أسابيع عدة، وقد تصل إلى سنوات كما يفعل الصهاينة الآن في القدس المحتلة. وفي فترة الاستباحة هذه، يلقى خلالها السكان أبشع أنواع العذاب والذل والقتل والتدمير، والتي وصلت في بعض الحالات إلى حد أكل لحم الخصوم، كما حدث في معرة النعمان وإنطاكية إبان دخول الصليبيين إليهما.

لكن الدراسات التاريخية أثبتت بما لا يقبل الشك أن هذه السلوكيات لم تكن على سوية واحدة عند كل الشعوب وعبر كل مراحل التاريخ، فكنا نعثر دائماً على حالات متباعدة من السلوك الحضاري من بين تلك التي تنزع عميقاً نحو البطش والقسوة، هذه الحالات التي ربما كانت مثالاً يُحتذى في الفتح الحضاري لمناطق الخصم، وهذا ما حصل لدى معظم الفتوحات الإسلامية في المراحل الأولى.

وقد يتساءل البعض عن دور الديانات السماوية في الحد من هذه السلوكيات المشينة، لكن الحقيقة أنه وقبل مجيء الإسلام، فإن الديانة اليهودية خرجت عن قواعدها السليمة، بأن تم تزوير التوراة لدرجة أن اعتبر الإله ((الله)) لديهم حامي الجنود ورب الحرب، وأطلق عليه اسم (يهوه)، وهو الذي يأمر بالقتل والإرهاب. فيما ذهبت المسيحية دين المحبة والسلام إلى تعصب أعمى وردات فعل انتقامية أبعَدَها أيضاً عن سلوكها الصحيح، فبقيت تعاليم المسيح حبراً على ورق، وهذا ما ستؤول إليه كل تعاليم الديانات السماوية بعد مضي وقت على نزولها، وهذا ما أصاب الإسلام فيما بعد أيضاً في كثير من مراحل التاريخ الإسلامي، وخاصة في حالات التعصب الشديد ضد المذاهب والفرقاء الآخرين. فما مارسه السلاجقة المسلمون والأتراك العثمانيون زعماء الإسلام لقرون طويلة، ومن قبلهم المماليك وبعض المنحرفين عن جادة الإسلام من بعض قادة الأمويين والعباسيين والقرامطة، ليس إلا خروجاً على قواعد الإسلام الحنيف، فيما يخص الحرب وأخلاقياتها، فقد كانت لهم بعض الممارسات التي تقشعر لها الأبدان، فما فعله الأمويون بمعارضيهم، وما فعله العباسيون معارضو الأمس بخصومهم الأمويين من قتل ونهب وسبي لأمر معيب، فحتى المساجد لم تسلم من الدمار وانتهاك حرماتها.

وما فعله السلاجقة الأتراك المسلمون بصراعاتهم الداخلية، وببقايا الإمارات العربية المسلمة ما كان إلاّ خروجاً على قواعد الإسلام الصحيح، فيكفي هنا أن نذكر ما فعله إتسز بن أوق الخوارزمي (وكان من أبرز زعماء التركمان المسلمين) بمدينة دمشق عام ١٠٧٦م، فبعد حصار طويل وصمود كبير لأهلها، دخل إتسز دمشق فأنزل بأهلها قوارع البلاء، فقد أنزل الجند في دور الشاميين بعد إخراجهم منها، واغتصاب أملاكهم والقبض عليها، لقد عانت دمشق كثيراً من هذا البلاء، حتى إنه لم يبق فيها سوى ثلاثة آلاف إنسان. وبعد إتسز حكم دمشق تتش بن ألب أرسلان السلجوقي وقد

التحق بخدمته اثنان من أسوأ قادة التركمان سمعةً، وهما صندق والأفشين، الذان يعتبران من أكثر مقدمي التركمان الذين دخلوا بلاد الشام قتلاً وتدميراً، وأكثرهم قسوة وأشدهم وطأة وفظاظة على الناس والبلاد، ويروي كل من غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ وابن العديم تفاصيل ما قام به الأفشين بعدما ترك تتش وتوجه شمالاً يريد الأراضي البيزنطية، فيذكر ابن العديم أن تتش وفي عام ١٠٧٩م دمر بلدة رفنية واستباح أهلها وحريمها، كما أنه نزل قسطون (وهي من مدن جسر الشغور) فجرى أمرها من النهب والعقوبة مجرى رفنية، ثم تنقل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جبل السماق وغيرها حتى لم يبق موضع ولا برج إلا افتتحه وأهلكه، واستباح حريمهم وأولادهم، ثم دمر سرمين والمعرة بالمنجنيقات، ففتح أبراجها وحصونها بالسيف وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه، وغلب أهلها فهلك منهم خلق كثير، وسار إلى معر تاح (من أعمال كفر طاب) فتحصن أهلها في أبراجها، وتعذرت عليه فأحرقها، وهلك من كان فيها.

ويتابع ابن العديم الذي شهد الغزو المغولي ورأى بأم عينيه ما فعله التتار في بلاد الشام، حديثه فيقول: «وجرى من هذا الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله وتلف أهله بعد ذلك بالجوع، ووجد قوم قد قتلوا وأكلوا لحومهم، وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينار وما سوى ذلك». وبعد قرابة عشرين سنة من هذه الأعمال استولى الصليبيون على أنطاكية، ثم مروا في هذه المنطقة الجبلية الصعبة في طريقهم إلى القدس، دون أن يلقوا أية مقاومة تذكر. ويشير هذا إلى حقيقة مؤلمة هي: أنه حتى بعد عشرين عاماً من هذه النكبة، لم تستطع هذه المنطقة أن ترمم بعض ما لحقها من تشعيث وتهديم.

الحالات الأخلاقية (الحضارية)

كل هذه الحالات التي رأيناها سابقاً كانت تخالف قواعد الإسلام الحنيف، هذه القواعد التي كانت قد طُبقت بشكل كبير مع بدايات انتشار الإسلام، حينما كان المسلمون يضعون القرآن معهم أثناء القتال، ليهتدوا به في التعامل مع أعدائهم. ولكي يتذكروا لحظة بلحظة تعاليمه التي كانت تحضهم على التسامح والعفة في القتل والنهب والسبي. فقد كان المسلمون خير مثال للفاتحين العظام، الذين قدّموا مثالاً في الأخلاق والشهامة في التعامل مع الخصم، وهذا ما كان يحضهم عليه دينهم.

فالإسلام لم يشرّع القتال إلا لنشر الدين وحرية الفكر وحماية الضعفاء من الطغيان، وهذا ما جاء في القرآن: «**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**».

لقد حرَّم الإسلام الحرب في صورها الأخرى، باستثناء الدفاع الشرعي عن النفس، فقد أنكر الإسلام حروب التخريب والتدمير، وكانت له قواعد حاسمة اتبعها في فتوحاته وأعماله الحربية، والتي تعتمد على عدة قضايا هامة منها:

١- تجنب الغدر ومفاجأة العدو: ففي بداية الدعوة الإسلامية، اعتمد القادة المسلمون على دعوة الخصم قبل المعركة إلى واحدة من ثلاث: إما الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وعادة ما يعطى الخصم مدة ثلاثة أيام ليأخذ قراره.

٢- تجنب قتال غير المقاتلين، مثل الشيوخ والمسنين والنساء والأطفال والمنقطعين للعبادة والفلاحين والتجار والصناع أي المدنيون عامة، فقد نُقل عن النبي(ص) حرصه على عدم قتل الشيوخ والنساء والأطفال والأجراء وأصحاب الصوامع، وفي القرآن الكريم ذكر في قوله تعالى: «وَلاَ تَعْتَدُواْ» أي لا تقاتلوا من لا يقاتلكم.

٣- كما حتم الإسلام على قصر ويلات الحروب على المحاربين من الأعداء في جبهة القتال، من دون النساء والأطفال.

٤- كما احترم الإسلام الفضيلة الإنسانية أثناء الحرب: ففي قوله تعالى: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ»... أي المعاملة بالمثل.

٥- وفي مسألة معاملة الأسرى، فقد عامل المسلمون أسراهم بالحسنى، وقبلوا بالفدية أو باعتناق الإسلام أو بتعليم القرآن بغية فك الأسر، وهذا ما طبقه المسلمون على مدى التاريخ وخاصة في أيامهم الأولى، وما فعله صلاح الدين الأيوبي مع أسراه بعد فتح القدس لخير دليل على ذلك، وإن كان في حينها من الأخطاء العسكرية الكبيرة والتي دفع ثمنها غالياً فيما بعد، فيما كان خصمه ريتشارد قلب الأسد قد قتل ثلاثة آلاف أسير من المسلمين جلهم من الأطفال والشيوخ والنساء، بعد تقييدهم بالسلاسل، بأن تركهم طعمة لنهم سيوف جنوده للدماء، فكانت مجزرة تقشعر لها الأبدان.

لقد ترددت هذه التعاليم الإنسانية التي تحترم حقوق الإنسان في وقت الحرب، بعد الرسول، في صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين، ففي وصايا أبي بكر لأسامة بن زيد: «لا تخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيراً إلا لمأكلة..»، وكان عمر بن الخطاب يوصي قادته أثناء عقد الألوية: «ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً، ولا امرأة، ولا وليداً ....».

إن كل ما طُبق وفق ما سبق من قيم أخلاقية، يمثل الحالات الأخلاقية للحرب عبر التاريخ، والتي ظهرت مع بداية الفتوحات الإسلامية ولفترة وجيزة فقط، إضافة إلى بعض الحالات الفردية فيما بعد، في ظل هيمنة الحالات اللا أخلاقية الطاغية عبر التاريخ.

الحالات اللا أخلاقية (الوحشية)

لقد دوَّن لنا التاريخ حالات كثيرة من السلوكيات الشاذة، والتي أخجلت مدونيها من مؤيدي المنتصرين، وأبكت مؤرخيها من مؤيدي الخاسرين، وكانت وصمة عار في جبين الإنسانية عامة، وجبين القائمين بها وورثتهم خاصة.

الرومان

ففي عام ١٤٦ق.م ومع انتهاء حلقات الصراع ما بين حضارة القوة الرومانية وقوة الحضارة القرطاجية، كان من الطبيعي أن ينهج الرومان منهجهم التقليدي في التعامل مع خصمهم اللدود، الذي كان فيما مضى قاب قوسين أو أدنى من القضاء عليهم، أقول كان من الطبيعي أن يصب الرومان جام غضبهم وهمجيتهم على قرطاجة مدينة وشعباً، ففي الربيع من عام ١٤٦ق.م وبعد صمود استمر لمدة ثلاث سنوات، ماتت قرطاجة، وكأنها لم تكن. ووصف مؤرخون قدماء أمثال بوليبيوس الذي شهد الأحداث بأم عينه، والذي أخذ عنه أبيان بعد ذلك، وصفوا بكل دقة، وكأنهم يقدمون تقريراً، تلك المشاهد الوحشية التي توالت أثناء الأيام العشرة الأخيرة، ويذكرنا هول حرب الإفناء هذه مباشرة بتلك المجازر الرهيبة التي كانت تختفي فيها فيما مضى مدن كاملة.

لقد جرت معارك مخيفة في الشوارع التي كانت تكتنفها من جانبيها أبنية من ذوات الطوابق الستة التي كان سكانها يدافعون عن أنفسهم خطوة خطوة من الأقبية حتى الأسطح العالية. وبعد أن انهارت المدينة ببطء كانت قد ابتلعت الأحياء والأموات، وكانت زمر من الجنود الرومان مسلحين بالمعاول والرفوش يجوبون بين الأنقاض يسحبون الجثث لرميها في الحفر، وكان يُرى بين كتل الأنقاض جرحى لا يزالون يتحركون لبعض الوقت في انتفاضات فجائية. وفي اليوم السابع هجر خمسون ألفاً من الأشخاص بين رجال ونساء وأطفال قلعة بيرسا التي كانوا يلتجئون إليها بعد أن ذاقوا آلام الجوع، وسلموا أنفسهم لرحمة العدو فبيعوا بعد ذلك في سوق النخاسة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولجأ آخر المقاومين إلى معبد إشمون الذي كان يسيطر على الأكروبول وأشعلوا النار في أنفسهم مختارين بذلك ميتتهم. ولم يكتف الجنود بتدمير البيوت جزئياً، بل هدموا كل شيء بالقوة، وبفعل ذلك أصبح الصخب أكثر علواً، وسقط الكثير من الموتى مع الأحجار على الشوارع. وكان آخرون ما زالوا على قيد الحياة، وخاصة كبار السن، والأطفال والنساء الذين اختبؤوا في الأجزاء الداخلية من بيوتهم، وكانوا جرحى أو نصف محروقين، ويطلقون صرخات ألم مرعبة، ومرة أخرى سقط آخرون محطمين من ارتفاعات عالية مع أحجار ودعامات ونار، وشوهوا بشكل مخيف، ومزقوا إرباً إرباً، ولم يكن ذلك نهاية آلامهم، فمجموعات الإخلاء التي أزالت الأنقاض بوساطة الفؤوس وبلطات وكلاليب الزوارق لفتح الطريق، انهالت بما كان في حوزتها على الموتى والباقين على قيد الحياة في حفر الأرض، وسقط آخرون بأرجلهم وبقيت رؤوسهم فوق الحفر، فسحقتهم سنابك الخيل التي داستهم.

لقد دامت الفوضى ستة أيام وست ليال، وكان يجري تبديل القوات كي لا تُقصِّر في أداء «واجباتها» نتيجة انعدام النوم والإعياء والقتل ورؤية الأشياء المرعبة، إلا أن سكيبيو أعطى أوامره، ومن دون أن يرتاح سار إلى هناك، وهناك دون كلل وتناول الطعام وهو يعمل حتى نزل مرهقاً ومتعباً في موقع عال يمكنه من رؤية الأحداث، كان ما يزال الكثير لتدميره. وبدا أن على آلة التدمير أن تعمل طويلاً. لقد رأى سكيبيو أمام عينيه تلك المدينة التي ازدهرت لأكثر من سبعمئة سنة (٨١٤- ١٤٦ق.م) منذ تأسيسها وسادت منطقة كبيرة وبحراً وجزراً، وكانت تعد غنية إلى حد بعيد، مفرطة بالغنى، وكانت تقارن بأقوى الدول. رآها اليوم مدمرة، ويقال أن سكيبيو هذا بكى، عندما رأى مصير قرطاجة.

لقد استمرت النيران تأكل قرطاجة عشرة أيام، وعندما علمت روما بهذه الخاتمة السعيدة، نظمت احتفالات كبرى، وسارع مجلس الشيوخ بإرسال لجنة لتحيل الأراضي البونية في أفريقيا إلى ولاية رومانية، ولتصبّ اللعنة على خرائب المدينة الميتة، وأمر سكيبيون بهدم كل ما بقي من جدرانها، وأعلن اللعنات التي تحظّر على الناس دخول هذه المدينة المكرسة منذ الآن وإلى الأبد لآلهة الجحيم وعليها ينشر الملح.

. ولم يكتف الرومان بصب جام غضبهم على قرطاجة، بل وبعد حوالي أربعة قرون من ذلك الزمن، ففي عام ٢٧٢م فعل أورليان بمدينة تدمر ما كان فعله سلفه بقرطاج.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فبدافع من الغرور والحقد صبّ جام غضبه على مدينة عظيمة كتدمر، سارت مسار شقيقتها قرطاج في بناء دولة حضارية قوية، لكن يبدو أنها ارتكبت المحظور، فلا شيء يعلو سلطان روما ((العظيمة))، فكان عقابها موازياً لعقاب قرطاجة.

فبعد أن انتصر أورليان على زينب ملكة تدمر وأسرها، قامت ثورة في تدمر على الحامية الرومانية التي وضعها أورليان قبل رحيله آخذاً معه زينب أسيرة، فما كان منه إلا أن عاد وصبّ جام غضبه على هذه المدينة الثائرة، فأعمل السيف في سكانها وأباحها لجنوده، فأعملوا فيها يد التخريب والسلب، وهناك رسالة لأورليان نفسه يعترف فيها بأن الإعدام الرهيب لم يقتصر على المتمردين، بل تعداه إلى الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين.

الفرنجة (الصليبيون)

عندما وصل الفرنجة (الصليبيون) إلى إنطاكية في عام ١٠٩٨م، وبعد مؤامرة فتح الأسوار ودخول الجنود الصليبيين إلى داخل المدينة، بدأت المجزرة الحقيقية، فقد غاصت المدينة في النار والدم، فالرجال والنساء والأولاد يحاولون الهرب في الأزقة الموحلة، ولكن الخيالة يمسكون بهم ويذبحونهم وهم في أرضهم، وما هي ساعات حتى اختنقت صيحات الذعر التي كان يطلقها آخر الناجين، وحلَت محلها أصوات نشاز صادرة عن الناهبين الفرنج الذين كانوا قد ثملوا، وارتفع الدخان من البيوت المحروقة الكثيرة، وما حلَّ الظهر حتى كانت تلف المدينة غلالة من الحداد. ويتحدث ريمون دي سانجيل عن أعمال النهب والسلب والغنائم، فيقول: «ليس بمقدورنا أن نقول كم من الغنائم أخذت إجمالاً في إنطاكية، فإذا تصورتم بأقصى ما يسمح خيالكم، فاحسبوا أكثر من ذلك» لقد تم قتل المئات من سكان المدينة، وانتشى الجنود الصليبيون بسيول الدماء التي سفكوها، فهم لم يفرقوا بين مسيحي (يونان وأرمن) ومسلم، ويفيد ريمون ثانية: «لم يأسروا أياً ممن التقوا بهم في الطريق» وقد امتلأت جميع الساحات، كما يشهد شاهد عيان آخر، بجثث القتلى: «بحيث أن أحداً لم يكن بوسعه أن يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية، ولم يكن بوسع أحدٍ أن يمر في الشوارع إلا (بالسير) على الجثث». وينعت مدون الأخبار الأرمني (متى الرهاوي) المذابح التي اقترفها الفرسان الصليبيون في إنطاكية بالمجزرة الرهيبة.

لقد واصل الصليبيون سيرهم الدموي على أرضٍ لم تكن قد تعافت بعد مما فعله السلاجقة التركمان منذ عشرين عاماً، نحو

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قلعة معرة النعمان، يحرقون في طريقهم كل ما يحرق، ويقتلون كل ما يقتل إلى أن وصلوا المعرة، وبعد حصار استمر لمدة أسبوعين ومكيدة انطلت على سكان القلعة، سقطت بأيدي الغزاة في ١٠٩٨/١٢/١١م، حيث نهبت المدينة بلا رحمة وتمت إبادة السكان بلا شفقة ولا رحمة. قال فارس من حاشية بوهيموند: «كان الإفرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلاً أم امرأة، حيثما يجدونه» وقد تميز سلوك بوهيموند في معرة النعمان ببالغ القسوة والجشع والغدر، فعند احتلال المدينة، أمر بوساطة المترجمين بأن يجتمع كل سكان المدينة: «مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في القصر القائم أعلى البوابة واعداً شخصياً بإنقاذهم من الموت وعندما اجتمع السكان هناك قبض عليهم الأمير وانتزع منهم كل ما معهم، أي الذهب والفضة ومختلف المجوهرات..... وأمر بقتل بعضهم، وبسوق الآخرين إلى إنطاكية من أجل البيع كعبيد».

أما ريمون دي سانجيل، فقد كان الأقسى بالتعامل مع السكان، كما قام البروفانسيون بإجبار السكان الذين اختبأوا في الأقبية على الخروج منها خشية النار والدخان، ويعرب مدون أخبار ريمون دي سانجيل عن الأسف لكونهم: «وجدوا القليل من الغنائم هناك».

لقد تمَّ قتل جميع سكان المدينة: «وكانوا يلقون من أعلى أسوار المدينة» ويروي المؤرخ العربي ابن القلانسي أن الإفرنج: «نهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به».

لقد دامت المجزرة لمدة ثلاثة أيام وتمَّ قتل ما يزيد عن مئة ألف وسبي الكثير، وهذا الرقم على ذمة ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، ولا بد وأنه مبالغ فيه، وربما كان الرقم الأصح هو عشرة آلاف.

لكن أسوأ ما يمكن أن يتخيله العقل مما فعله الفرنج في المعرة، فقد جاء في ذكر بعض مؤرخيهم، وهو (راول دي كين): «كان جماعتنا في المعرة يغلون وثنيين بالغين في القدور ويشكّون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين» !!!.

كما كان للصليبيين في القدس ملحمة أخرى من ملاحم القتل والتنكيل وسفك الدماء، ففي أحداث سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة، الموافق ١٠٩٩م، يقول ابن الأثير في البداية والنهاية: «وفي هذه السنة أخذ الفرنج لعنهم الله بيت المقدس شرَّفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا. قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة زنة كل واحد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منها ثلاثة آلاف وستمائـــة درهم...... إلخ من النهب والسلب».

وعندمـــا أدرك الـــوالي الفاطمـــي على القدس (افتخار الدولـــة)، استحالة الدفاع عنهـــا، أدرك أنـــه لا مندوحـــة مـــن تسليم المدينـــة فانسحب في ذلـــك اليوم المهول من ١٠٩٩/٧/١٥م إلى بـــرج داود، وهـــو حصن مثمـــن الأضلاع لُحمت أسســـه بالرصاص، ويعـــد أقوى نقطة من نقـــاط السياج، وكان في وسعه الصمود عدة أيام أخر، ولكنه كان يعلـــم أن المعركة قد حُسِمـــت، فلقد اجتيح الحيّ اليهـــودي والشوارع مـــلأى بالجثث، والعراك دائر منذ وقت عند أطراف المسجد الجامع، ولن يلبث أن يُحاصر هو ورجاله من كل صوب، ومع ذلك فهو مستمر في القتال، فماذا في مقـــدوره أن يفعل غير ذلك. ولكن وبعد مفاوضات مع الصليبيين قرر أن ينجو بحياته سالمـــاً، فسلَّم الـــبرج إلى الصليبيين لتقع المدينة بكاملها تحت رحمتهم.

لقد تدفق الجيش الصليبي داخل المدينة فتقهقر المدافعون المسلمون إلى منطقة قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك، وهناك عمـــدوا إلى الصمود الأخير ضد الصليبيين الغزاة، ولكن تنكريـــد ورجاله ألقوا القبض على العديد منهم قبل أن يتمكنوا من متابعة المقاومة، فوعدهم بأنهم سيسلمون بأرواحهم لقاء فدية ضخمة، وعندما وافقوا أعطاهم رايته لتعلق فـــوق الجميع بصفة أنهم تحت حمايته، وعلى أية حال، لم يؤدِ ذلك إلى فائدة، فما أن تغلغل الصليبيون داخل المدينة حتى عرضوا السكان لمذبحة دموية مرعبة هائلة، لقـــد قام الصليبيون بقتـــل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامـــين، وهم يرون أنهم كانوا «ينفذون إرادة الرب» وقد دامت المذبحة طوال ذلك اليوم، وقسماً من الليلة التالية.

وعندمـــا ذهـــب الراهب ريمونـــد أوف أغويلر لزيارة منطقـــة المسجد الأقصى في صبـــاح اليوم التـــالي وجدها قفـــراء مليئة بالجثـــث، حيث أن المسجـــد الأقصى وعلى سطحه يرفـــرف لواء تنكريد وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين، الذين وصلت دماؤهـــم لمستـــوى الركب، أمـــا الأشخاص الناجون وحدهم من المدينة بأرواحهم فكانوا الحاكم الفاطمي وطائفة حرسه الذين سمح لهم ريموند بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليـــم خزائن هائلة، وذبـــح الباقون، وما تبقى منهم فقد أضرمت النار بهم في المبنى وهم أحياء.

وعندمـــا لم يبـــق مـــن يقاتلونـــه ســـار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي مازالت مفروشة بالجثث وتفـــوح منها رائحة الموت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر إلى الرب لرحمته العظيمة. ويسجل ابن الأثير الحدث على طريقته فيقول: «وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون من المسلمين...... وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً».

أما ابن القلانسي الذي يتجنب الأرقام فيقول: «وقُتل خلق كثير، وجُمع اليهود في الكنيس وأحرقوها عليهم.... وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام». ومن بين المساجد التي خربها الغزاة مسجد عمر الذي شيد تخليداً لذكرى استخلاص ثاني خلفاء النبي (ص) عمر بن الخطاب، مدينة القدس من أيدي الروم عام ٦٣٨م، ولن يألوا العرب جهداً فيما بعد للتذكير في كثير من الأحيان بهذا الحدث ابتغاء إظهار الفرق بين سلوكهم وسلوك الفرنج.

ومأثرة أخرى من مآثر الصليبيين كانت قد ارتكبت بحق سكان طرابلس عام ١١٠٨م، هذه المدينة الجميلة الوادعة المتحضرة على شواطئ المتوسط، والموالية للفاطميين (فاطميي عصر الضعف وانفلات السلطة). فبعدما يئس واليها فخر الملك من وصول إمدادات الفاطميين، وعندما اختبر شجاعة ونخوة حكام بغداد من السلاجقة وعلى رأسهم خليفة ألعوبة بأيدهم، لمساندته ضد الصليبيين المحاصرين لمدينته طرابلس، عَرِفَ أنه لوحده في المعركة، فقرر العودة، وما أن بلغ دمشق في آب ١١٠٨م حتى أُبلِغَ الخبر المشؤوم، فقد قرر وجهاء طرابلس، وقد فتَّ في عضدهم غيابه الطويل، أن يعهدوا بالمدينة إلى صاحب مصر الذي وعد بحمايتها من الفرنج، فقد أرسل الأفضل بن بدر الجمالي سفناً تحمل المؤن ومعها حاكم لتولي شؤون البلد مهمته الأولى وضع اليد على أسرة فخر الملك وأنصاره وأمواله ورياشه وأمتعته الشخصية، ونقل كل ذلك بالبحر إلى مصر!!.

وفي هذه الأثناء اجتمع قادة الصليبيين تحت أسوار طرابلس، بلدوين صاحب القدس وسيدهم، والبردويل صاحب الرها، وتنكريد صاحب إنطاكية وغيرهم.... لرؤية ما يرونه مناسباً.

وفي تموز من عام ١١٠٩م وبعد ألفي يوم من المقاومة خُرِبت مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة المثقفين على يد محاربي الغرب، ونهبت مئة الألف مجلد التي كانت في (دار العلم) ثم أحرقت لكي تُمحى الكتب «الملحدة» على حد زعمهم من الوجود.

وبحسب مؤرخ دمشق فإنه: «تقرر بين الجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البلد وما منه، والثلثان لابن صنجيل (دي سانجيل) وأفردوا للملك بلدوين من الوسط ما رضيَّ» والواقع أن معظم الأهالي بيعوا عبيداً ونهبت أملاك الآخرين وطردوا. وسوف يذهب كثيرون منهم إلى ثغر صور، ويقضي فخر الملك بقية أيامه في نواحي دمشق.

أما عن الأسطول المصري فيقول ابن القلانسي: «وصل إلى صور في اليوم الثامن من فتح طرابلس، وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها».

كم ستتحمل الأمة الإسلامية من ويلات، وكم بمقدورها أن تصمد في وجه الأطماع الخارجية، وفي وجه من جعلوها قبلة كل جيوشهم، ومائدة شهية تجتذب وتسيل لعاب قادتهم، ورقاب سهلة المنال في انتظار رؤوس رماحهم ونِصالِ حرابهم. ذلك في ظل تراجع دور العرب في قيادة الأمة الإسلامية، وتسليم دفتها للسلاجقة الأتراك، ممن امتهنوا القتل وسفك الدماء، والصراع على السلطة، غير آبهين بأمة الإسلام وعزة المسلمين، فعاثوا فساداً في الأرض تاركين أبوابها مشرعة على الاتجاهات كافة، حتى تراخت أوصالها وضعفت عواصمها، وعندما انتهى دورهم في التخريب والدمار، كانت الأمة قد وصلت إلى ذروة الانحطاط والضعف، ولولا وجود أشخاص أمثال عماد الدين وابنه نور الدين الزنكي ومن ثم صلاح الدين، لكانت الأمور بحال يرثى لها.

المغول (التتار)

وفي ظل الصراع على السلطة، ما بين الأمراء الأيوبيين في الشام والأمراء المماليك في القاهرة. كانت الفرصة سانحة للمغول سفاكي الدماء، كي يتفردوا ببغداد، في ظل حكم متراخ، ومن ثم حلب ومن بعدها دمشق، هؤلاء المغول الذين لم ترهبهم العروش القوية، فما بالك بالعروش الضعيفة المفككة، وهذا ما جعل بغداد قبلتهم ومحط أنظارهم، فبعدما قضوا على آلموت مقر الدولة الإسماعيلية النزارية في إيران وتدميرها وإحراق مكتبتها، وبذلك أصبحت الطريق أمامهم سالكة إلى بغداد عاصمة العروبة والإسلام حينذاك ليعيثوا فيها خراباً وتدميرا.

ففي عام ٦٥٦هـ- ١٢٥٨م سقطت بغداد بأيديهم، ويقول ابن كثير في البداية والنهاية: «في سنة ست وخمسين وستمئة أخذ التتار بغداد وقتلوا أكثر أهلها حتى الخليفة، وانقضت دولة بني العباس».

لقد كان الخليفة العباسي غير مبال بما يحدث، ففي حين كان التتار بقيادة هولاكو يحاصرون بغداد ويرشقونها بالسهام، كان

هـو يلاعـب محظياته في قصـر الخلافة، يقـول ابـن كثـير: «وأحاطت التتـار بدار الخلافـة يرشقونها بالنبال مـن كل جانب حتـى أصيبت جارية كانـت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانـت تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيـك فقتلهـا وهي ترقصـ بين يدي الخليفـة، فانزعج الخليفة مـن ذلك وفزع فزعاً شديـداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديـه فإذا عليه مكتـوب: إذا أراد الله إنفـاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم، فأمـر الخليفة عنـد ذاك بزيادة الاحتراز».

وقد كان هولاكـو قد جاء بجنوده كلهم، وكانـوا نحو مئتـي ألف مقاتـل إلى بغداد، وكان قد قتل الخليفة خنقاً وربما غرقاً.... وأما عن سلـوك التتار في بغداد فيقول ابن كثـير: «ومالوا على البلـد فقتلوا جميع من قـدروا عليه من الرجـال والنساء والولدان والمشايـخ والكهول والشبـان، ودخل الكثير من الناس في الآبار وفي قني الوسخ، وكمنوا بذلـك أيامـاً لا يظهـرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعـون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، ففتحهـا التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعـالي الأمكنة فيقتلونهـم بالأسطحة، حتى تجـري الميازيب من الدماء في الأزقة، وكذلك في المساجـد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سـوى أهل الذمة من اليهود والنصارى... وعادت بغداد بعدما كانت آنس المـدن كلها خراب ليسـ فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة». وما زال السيف يقتل أهلهـا أربعين يوماً، وكان قد قُتل الخليفة ومعه كل أفراد أسرته، وكان الرجل يستدعى به إلى دار الخلافة من بني العباسـ فيخرج بأولاده ونسائه فيذهب إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه ليكن بـين محظيـات القادة المغـول. وقد اختلـف الناس في كمية مـن قتل في بغداد مـن المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمئة ألف، وقيـل ألف ألف وثمانمئـة ألف..... وهي أرقام لا شك مبالغ فيها ولكنها توحي بهول المصيبة.

ولـمـا انقضـى الأمر المقـدور وانقضت الأربعـون يومـاً، بقيت بغـداد خاوية على عرشها وليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلـى في الطرقـات كأنهـا التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهـم البلـد، وتغير الهـواء فحصل بسببه الوبـاء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بـلاد الشام، فمات خلق كثير من

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

تغير الجو وفساد الريح. إلا أن أهم مأثرة من مآثر المغول في بغداد كانت وكما فعل المغول بآلموت، أنهم أحرقوا مكتبة بيت الحكمة ورموا ما تبقى من الكتب في نهر دجلة الذي تغير لونه نحو السواد لمدة سبعة أيام على حد زعم بعض المصادر، وبذلك خسرت المكتبة العربية الملايين من المجلدات والدراسات الهامة لأعظم المفكرين والعلماء العرب، وذهبت أدراج الرياح علوم ومآثر فكرية وعلمية كانت للغرب خير منبع فكر ونهضة، ولنا لو بقيت مناراً يُضاف إلى منارات العرب والمسلمين، والتي باتت تتهاوى تباعاً تحت أقدام غزاة كرهوا الإنسان قبل أن يكرهوا علومه.

وفي حديثنا عن التتار، فقد أورد الموفق بن عبد اللطيف في خبرهم ما يلي: «هذه الأمة لغتهم مشوبة بلغة الهند، لأنهم في جوارهم، وبينهم وبين مكة أربعة أشهر، وهم بالنسبة إلى الترك عِراضُ الوجوه، واسعوا الصدر، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سُمر اللون، سريعوا الحركة في الجسم والرأي، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه، نساؤهم يقاتلن كرجالهم، والغالب على سلاحهم النشّاب، وأكلهم أي لحم وجد، وليس في قتلهم استثناء ولا بقاء، يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكأن قصدهم إفناء النوع، وإبادة العلم، لا قَصْد الملك والمال». كان من الطبيعي أن ينال هؤلاء منا ونحن في غفلة من التاريخ، يحكمنا خلفاء ضِعافٌ، ويسيطر علينا قومٌ غرباءٌ، وأمراء همّهم كراسي الحكم ومحظيات الليل.

وبعد سقوط بغداد جاء دور حلب، الحاضرة الثانية للعرب والمسلمين بعد بغداد، فبعد حصارٍ لها وتخاذلٍ من قبل الأمراء الأيوبيين، سقطت المدينة بيد المغول بقيادة هولاكو. وفي رواية سقوطها على رواية الصارم أزبك الأشرفي في رحلته من حلب إلى الموصل فالشام، يقول: «وما لبثت حلب أن سقطت بيد التتار في ٩ صفر سنة ٦٥٨هـ (كانون الثاني ١٢٦٠م) فبذلوا السيف في أهلها من نهار الأحد إلى الجمعة ثم أمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان، ولم يسلم من أهل المدينة إلا من التجأ إلى دار علم الدين بن قيصر الموصلي (وغيره) ممن كانت لديهم فرمانات من قبل التتار، وكذلك كنسية اليهود .... فسلم من القتل ما يبلغ خمسين ألفاً».

وفي رواية ابن تغري بردى، يذكر: «في ثاني صفر من سنة ثمان وخمسين وستمائة حاصروها حتى استولوا عليها في تاسع صفر بالأمان، فلما ملكوها غدروا بأهل حلب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم».

وبعد حلب سقطت دمشق ونالت من التخريب والدمار ما نالته حلب وربما أكثر، فقد نهبت وسلبت ونالت من الذل ما لم يقبله عقل ويرضى به شرع.

لقد كان مقدراً على هذه الأمة أنها كلما انتعشت فترة من الزمن وجددت بناء نفسها من جديد، وقامت من تحت الأنقاض، واكتسبت رونقاً وجمالاً، جاء من يدمرها من جديد، ويعيد لها سيرتها الأولى من الخراب والدمار. ففي عام ٨٠٢هـ- ١٤٠٠م، سوف نتعرف على غاز من نوع خاص، غازٍ يكره الحياة ويحب الموت، غاز يمتلك من الحقد على كل شيء جميل، ما يمكنه من تدمير العالم بأسره ويحوله إلى مأوى للغربان وملاذ للبوم والأشباح، إنه التتري تيمور لنك.

ففي مسيرته المشؤومة نحو بلادنا، أراد هذا السفاح أن ينال من حاضرتي الشام والإسلام، حلب ودمشق، فكان لحلب السبق في الدمار والاستباحة.

ففي حلب وعند هروب الأمراء المماليك إلى داخلها خوفاً منه، هلك تحت حوافر الخيل من البشر ما لا يدخل تحت حصر، وقد تناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضاً حتى صارت الرمم طول قامة، لقد حاصر تيمورلنك حلب بجيش قوامه ثمانمئة ألف مقاتل، وبعد قتال استمر أربعة أيام، لم يستطع تيمور لنك الاستيلاء على حلب، التي نقل إليها الناس أموالهم، فإن تيمور لنك كافح فيها سودون نائب دمشق ودمرداش نائب حلب كفاحاً مريراً، حتى أعلن تيمور لنك إعطاءهم الأمان ومن معهم من الأعيان والقضاة، ولكنه وبعد أن اطمأنوا إليه واستسلموا له، أمر بحبسهم، ثم سيق إليه من بقي من سكان المدينة أسرى. وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والأشياء الفاخرة، ووزعها على أمرائه وأخصائه، أباح المدينة للسلب والنهب والقتل فيمن بقي من أهلها، وقد لجأ تيمورلنك إلى إشعال النار بالمدينة وأعمل رجاله السيف في رقاب ساكنيها من شيوخ ونساء وأطفال دون رحمة أو شفقة، حتى إن طرقات حلب وأزقتها وحاراتها ومدارسها كانت قد امتلأت بالقتلى، ثم أمر بقطع الأشجار، وهدم البيوت، وإحراق المنازل حتى: «جافت حلب وظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لا يجد الشخص مكاناً يمشي عليه إلا وتحت رجليه رِمَّة...» ولا شك في أن هذه الأعمال تذكرنا بما فعله هولاكو في مدينة بغداد سابقاً.

وفي غدر تيمورلنك لأمراء حلب وقسوته عليهم، فإن ابن عرب شاه في كتابه (عجائب المقدور في أخبار تيمور) يذكر: «أنه وبعد سقوط القلعة، قبض تيمور لنك على سودون، وأما تمرتاش فخلع عليه، وقبض على الطنبغا العثماني نائب صفد، وعلى عمر بن الطحان نائب غزة، وجعل الكل في القيد» ثم يذكر: «أنه شرع في استخلاص الأموال وضبط الأثقال والأنفال وقد ملأت القلوب هواجس هيبته، وانتشر في الآفاق شرار صولته، ثم أنه لم يكتف بما أزهقه من النفوس، حتى بنى الميادين من الرؤوس، وسبب ذلك أن ذا قرابة البريدي الذي أرسله إلى حلب، وضرب نائب الشام (سودون) عنقه وسلبه السَلَبَ، ذكَّر تيمور بقصته، وأراد القَوَدَ من أهل حلب لذي قرابته، فأجاب سؤاله فمكنه، فيمن يختار منهم أن يفعل فيه ما استحسنه، فقتل منهم وبنى رؤوسهم كذا وكذا مئذنة». وبعد أن أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها مظلمة بآثار الحريق، وسار قاصداً دمشق.

وفي دمشق كانت الموقعة الأهم في حياة تيمورلنك الإجرامية، فقد شفى غليله من الدمشقيين لأنهم صمدوا أمامه، فهو لم يستطع دخول دمشق إلا بالحيلة، ولأنه أيضاً أراد إرهاب سلطان المماليك بفعلته هذه، مع أن السلطان فرج بن برقوق تخلى عن قتاله وترك أمر الدفاع عن دمشق لأهلها.

فبعد الخديعة التي انطلت على ابن مفلح قاضي القضاة في دمشق، حيث طلب تيمورلنك من الشاميين إعطاءه الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف والأموال، وأنه لا يريد سوى ذلك، فقام ابن مفلح بثني الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف بين راغب في القتال وراغب في السلام، ولكن سرعان ما ساد رأي ابن مفلح ومؤيديه خاصة بعد مغادرة السلطان فرج بن برقوق إلى القاهرة، ففقدوا الأمل بمساعدته، وحين قُرِئَ الأمان بالجامع الأموي، فُتح الباب الصغير (باب المدينة القبلي)، ثم طمأن تيمور الناس، حين بعث بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية، وصلب تيمور بعض عساكره الذين نهبوا بعض أسواق دمشق.

ومن ثم انتقم تيمور من المدينة أبشع انتقام، فلم يكتف بأخذ ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق، بل أخذ كل أموال دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع ما في المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش،كما قبض على ابن مفلح. وقد أورد ابن تغري بردى وصفاً لما حدث في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دمشق من عذاب نال الناس، فإضافة إلى ما سبق، يذكر: «أنه أجرى على أهل دمشق أنواع من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يُخلى عنه حتى يستريح، تُعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المُعَاقَبُ يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة حتى الموت، ويقول: يا ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه !!..... ومع هذا كله تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المُعَذب امرأته وابنته وهي توطأ، وولده وهو يُلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللوّاط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها، منها أنهم يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه، ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان، ومنهم من كان يربط إبهام يدي المُعَذب من وراء ظهره، ثم يلقيه على ظهره ويذرّ في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقرُّ على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا أفرغ ما عنده لم يصدقه معذبه على ذلك، ولا يزال يكرر عليه العذاب حتى الموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتماوت، ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلق ثانية. واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً، آخرها يوم الثلاثاء ثامن عشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة ٨٠٣ هـ- ١٤٠١م، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى..».

وحين عزم تيمورلنك على ترك دمشق، قام بدك معالم الحضارة فيها، حيث أشعل فيها النار في يوم عاصف، وعملت النار في المدينة ثلاثة أيام حتى احترقت معظم دورها ومبانيها وحاراتها وأسواقها وحماماتها ومدارسها وخاناتها، والخلاصة أن تيمورلنك ترك دمشق أطلالاً بالية، وما فيها من أطفال معرضين للجوع والموت، وأخذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده، حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته.

الأمريكان

لن تنتهي القصة عند هذا الحد ولن تنزع النفس البشرية نحو السلام والمحبة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فما زال هناك الكثير مما يمكن روايته حول مآثر الإنسان في انتهاك حقوق أخيه الإنسان، فبرغم مرور عشرات بل مئات السنين، ما انفك الإنسان يقتل أخيه الإنسان، بغية كسب أو إرضاء لشهوة أو كرهاً أو حقداً عليه، لأنه قاومه وصمد في وجهه، أو لأنه تفوق عليه، أو لأسباب داخلية نفسية قاهرة أو مرضية. وما زالت أطماع الآخرين تنصب نحو هذه المنطقة، فإن كان موقعنا الاستراتيجي والديني وخيراتنا وفخامة قصورنا وجمال نسائنا، هي الدوافع التي جذبت الغازين إلينا فيما مضى، فقد زادت في أيامنا أطماع الغرب والشرق فينا، وقد زاد وجود البترول شهوة وأطماع الآخرين فينا، وزاد عليه تراثنا التاريخي والأثري والفكري الغني، وعقول علمائنا رغبة الآخرين في تشويهنا، وسرّع تفككنا وضعفنا وقوعنا لقمة سائغة في يد المستعمِرين والمستثمرين، كل على طريقته وأسلوبه في استغلال نصره علينا. وما جرى مؤخراً في بغداد عام ٢٠٠٣م أثناء الغزو البربري الأمريكي عليها، إلا دليل على همجية الإنسان الطامع في ثروات الآخرين، وإن ما فعله الأمريكان في متحف العراق المليء بالكنوز الحضارية والتي حركت غيرة الغرب الخالي بتاريخه من هذا الإرث الحضاري، إضافة إلى البترول والموقع الاستراتيجي، إلا دليل على ما تقدم من دوافع تجعل الطامع يسلك مسلكاً وحشياً في تدمير أخيه الإنسان وسلب ثرواته وتدمير تاريخه، وما السرقة المنظمة للمتحف العراقي سوى دليل على ذلك.

لقد أباح الأمريكان بغداد (كما أباحها من قبلهم هولاكو) لجنودهم ولصوص الآثار الإسرائيليين وشركات القتل (بلاك ووتر) ليس أياماً محدودة فحسب، بل لقد استمرت الاستباحة لسنوات، وقد كان للإسرائيليين دور بارز في نهب متحف بغداد الثمين وقتل الكثير من العلماء والمفكرين، وما زالت الاستباحة مستمرة حتى الآن، حتى نال بغداد من القتل والدمار ما لم تنله مدينة أخرى حتى الآن، فقد قتل فيها أكثر من مليوني قتيل، وربما أكثر، وما زالت العجلة مستمرة في دهس معالم الحضارة والحياة في هذا البلد العظيم بتاريخه وإنجازاته، حتى بات سماعنا خبر مقتل العراقيين في التلفاز كخبر خسارة مباراة في كرة القدم، وربما أقل تأثيراً.

هذه هي أخلاقيات الحرب التي مارسها الإنسان ضد أخيه الإنسان عبر تاريخه، وما زال يمارسها حتى اليوم، وسيبقى الإسلام في تعاليمه الأولى هو الأرحم في التعامل مع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

خصومه في حالات الحرب، ولكن هيهات ما بين هذه التعاليم وبين ما يحدث اليوم تحت شعار الإرهـاب المنسوب ظلماً إلى الإسلام، والإسلام منه بريء.

المصادر

١- ابـن عرب شاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، الكتاب الشهري، ٦٢، ٢٠٠٨م.
٢- الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ط٥، م٦، ج١٢، ١٩٨٣م.
٣- الحافظ ابن كثير: المصدر نفسه، ط٦، م٧، ج١٣، ١٩٨٥م.
٤- السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
٥- الكتاب المقدس: يشوع- الإصحاح السادس.

المراجع

١- أحمد ايش: دمشق في عصر سلاطين المماليك، دار الشرق للطباعة، دمشق، ط ١، ٢٠٠٥م.
٢- إرنولد توينبي: الحرب والحضارة، ت فؤاد ايوب، سلسلة الافكار- ٢- دار دمشق للطباعة والنشر.
٣- أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ت. احمد غسان سبانو- نبيل الجيرودي، مراجعة سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.
٤- أمين معلوف: الحرب الصليبية كما رآها العرب، ت. عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٨م.
٥- برهان الدين دلو: حضارة مصر والعراق، دار الفارابي، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
٦- بروتوكولات حكماء صهيون، ت. محمد خليفة التونسي، مكتبة دار التراث، القاهرة.
٧- زينون كاسيدوفسكي: الواقع والأسطورة في التوراة، ت.حسان ميخائيل إسحق، دار الأبجدية للنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.
٨- سهيل زكار، سميحة أبو الفضل: تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي الثاني، دمشق، ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م.
٩- شكران خربوطلي، سهيل زكار: تاريخ الوطن العربي القديم- الجزيرة العربية، دمشق،٢٠٠٢- ٢٠٠٣م.
١٠- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار البيان بغداد، دار الثقافة بيروت، ط١، ج١، ١٩٧٣م.
١١- عادل زيتون: تاريخ المماليك، ط٥، دمشق، ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م.
١٢- عيد مرعي، فيصل عبد الله:تاريخ الوطن العربي القديم- بلاد الرافدين، دمشق، ط ٤، ٢٠٠١- ٢٠٠٢م.
١٣- فرانسوا دوكريه: قرطاجة الحضارة والتاريخ، ت يوسف شلب الشام، دار طلاس للنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٤م.
١٤- فيصل عبدالله، عيد مرعي: المدخل إلى تاريخ الحضارة، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م.
١٥- فينفريـد إلليغر: قرطاجة- مدينة البونيين والرومان والمسيحيـين، ت. عيد مرعي، دار روافد للثقافة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠٠٨م.
١٦- محمد حرب فرزات: تاريخ فارس وحضارتها- قبل الإسلام، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٣- ٢٠٠٤م.
١٧- ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ت. إلياس شاهين، دار التقدم موسكو، ١٩٨٦م.
١٨- نزيه الشوفي: التلفيق الصهيوني واغتيال التاريخ، اتحاد الكتاب العرب، ط١، ج٢، دمشق، ٢٠٠٢م.

الدوريات

١- عارف أحمد إسماعيل: مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ٩٩- ١٠٠، ٢٠٠٧م.
٢- عبد الواحد زنون طه: مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ٧٥- ٧٦، ٢٠٠١م.

شعر

على صَهَوَاتِ الموج

سليمان العيسى *

إلى الملاَّح العربي العظيم ابن ماجد.. في وقفةٍ عند مراسيه الخالدة.

على صَهَواتِ الموجِ كنتَ تُخَيِّمُ
وتُسرِجُ عنقاءَ المُحيط وتُلْجِمُ

على صَهَواتِ الموجِ..

* شاعر العروبة الكبير.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والــــــريــــــحُ خِــــــرْقَـــــةٌ
بـكـفَّـيْـكَ.. مـا شـاءَ الـشـراعُ تُـدوِّمُ
تُــزَمْجِــرُ في قلبِ الـعُـبـابِ فينتشي
بـفـارسـهِ قـلـبُ الـعُـبـابِ ويَـنْـعَـمُ

وتُجـــدبُ مـن حـــولي الـضِّــفـافُ..
وحيثُما
رسَــوْتَ بـمـجـذافَـيْـكَ كـانـت تُـبرعِـمُ

شـراعٌ عـلـى مَـدِّ الـــرُّؤى وقـصـيـدةٌ
تـلـوِّنُ مـا شـاءَ الـهـوى وتـنـمـنِمُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شِراعٌ وملاَّحٌ..
وتنتعلُ المَدَى
تَـخُـطُّ عـلـى زُرقِ الـفِـجـاجِ وتَـرْسُـمُ

إلى أيْــنَ؟ يـا شـوقـاً إلى كـلِّ غـامضٍ
ويـا ظـمـأً لِـلـمُـشْـتَـهى لـيس يُـهْـزَمُ

عـلـى الـزَّبـدِ المـجـنـونِ ظِـلُّـكَ هـائمٌ
يـروضُ لُجَّـاً بـعـد لُـجٍّ ويَـقْـحَـمُ

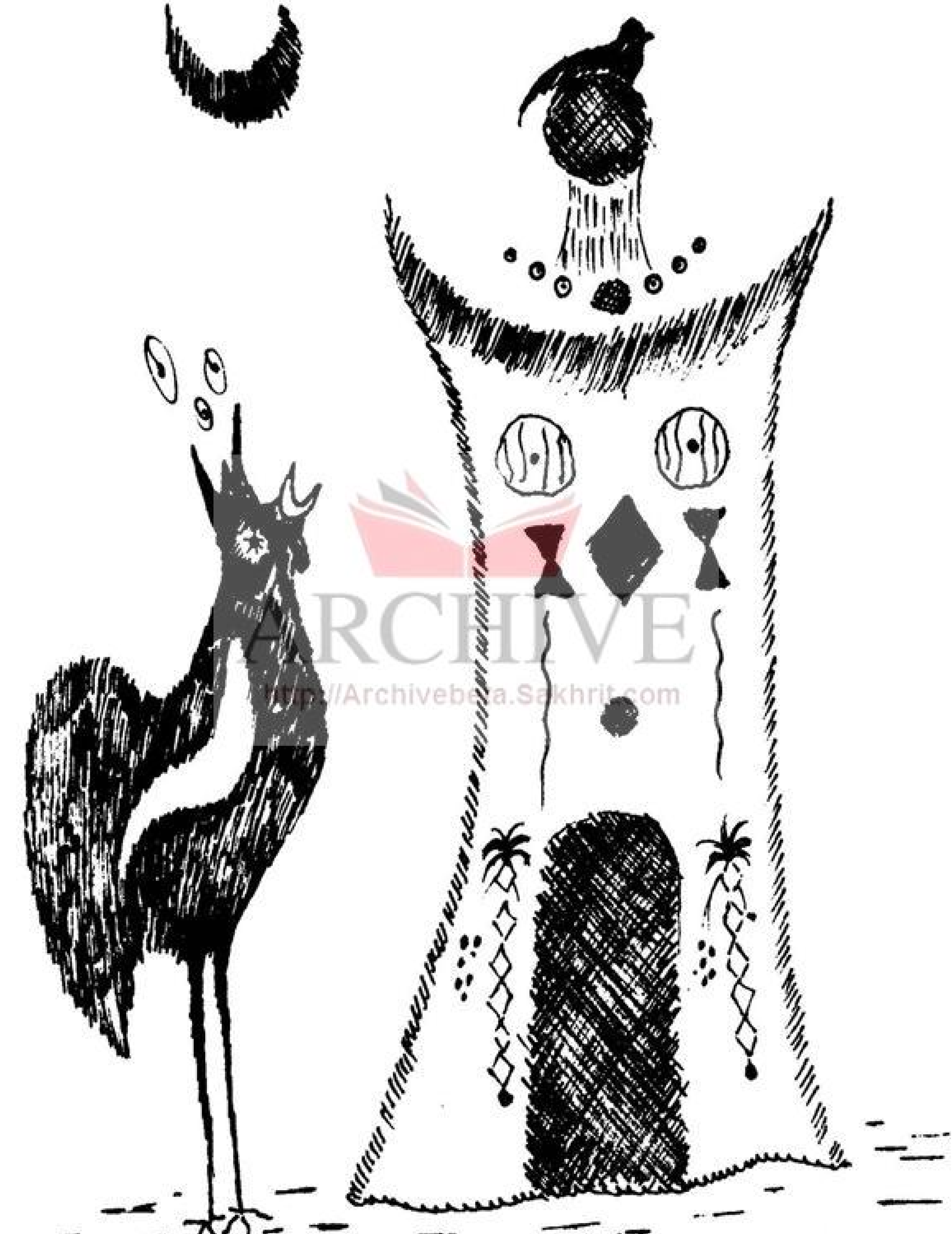

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتُنشِدُ أشعارَ الشموسِ مُفاخِراً
وأنتَ بقايا أُمَّةٍ تتحطَّمُ

تُذيعُ على الدنيا بقِيَّةَ ومضِها
فتلتقِطُ الضوءَ البحارُ وتُلْهَمُ

رويدَكَ، يا أسطورةَ اليَمِّ،
ما الذي تَبَقَّى؟
وماذا عن عُبابِكَ نعلَمُ؟

طويناكَ في الأعماقِ..
كلُّ كُنوزنا

على الأرضِ في أيدي الغُزاةِ تُقَسَّمُ

على صَهَواتِ الموجِ..
آخِرُ موجةٍ
تسنَّمتهَا..
للريحِ والموتِ تُسلِمُ

وأحرِقُ في ليلِ القصيدةِ دَمعَةً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويَسْخَرُ مني الدمعُ.. والليلُ
أسْحَمُ

* * *

أبا الموجة الزرقاءِ..
دعني حِكايةً
على شطِّكَ المسحورِ،
بالأمسِ تحلُمُ
أنا الوَتَر الدامي، زرعتُ عشيرتي
بصدري، معاً نُسقَى الهوانَ ونُطْعَمُ

معاً.. لا عِنادُ الحُلْمِ يُلْقي سلاحَهُ
ولا لمعةٌ في حُلْكَةِ العمرِ تبسِمُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أتيتُكَ.. لي عند المرافئِ وَقْفَةٌ
بكلِّ انكسارات الصدى تتلعثمُ

أتيتُكَ، يا ليثَ البحارِ، ثُمالةً
لِحُلْمٍ بأيدي صانعيه يُهَشَّمُ

ألوذُ بظلٍّ من شراعكَ شامخٍ
وعنكَ بأعماقِ الردى أتكلَّمُ

أمُدُّ يدي،

والشطّ جاري،

وأنثني

بقبضةِ رملٍ منكَ.. عني تُترجِمُ

❁ ❁ ❁

أبا الريحِ.. تَذْروها كما شئتَ خلِّني
مع الريحِ، لحناً في العَراءِ يدمدِمُ

على صَهَواتِ الموجِ مازلتَ طافراً
وفي عَتَماتِ القهرِ مازلتُ أجثُمُ

أمدُّ يدي.. والشطُّ شَطُّكَ سامري
وقِلَعُكَ في رأسي ضَبابٌ يهوّمُ

عَزاءُ اليتامَى

أنَّ طيفَ جُدودِهم

يمرُّ على أوتارِهم.. ويغمغِمُ

❁ ❁ ❁

أبا الريحِ.. لم تُنْصِفْكَ ريحٌ تعلَّمَتْ
لديكَ، وراحَتْ في الزمانِ تُعَلِّمُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سلامٌ على الذكرى..
سلامٌ على الحَصَا
يُضَمُّ على اسمِ الخالدين ويُلْثَمُ

سلامٌ على قيثارةِ اليّمِّ..
إنَّها
بمـا كـنـت تُمـلـي.. لم تَـــزَلْ تــترنَّمُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

سقف الضياء

عصام ترشحاني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لماءٍ يراني حزيناً
وَأُشبهُ جرحَ رؤاهُ،
لماءٍ تركتُ لهُ صورتي
وهي تبحثُ
عن وردةٍ
أشعلَتْها يداهُ..
لماءٍ.. بلون الرصاصةِ.

شاعر فلسطيني مقيم في سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

والحبِّ.. والقبلتين..

وغامض روحي

ويقرأ في شرود الشجرْ

لماءٍ.. يُحوّمُ بالنور حولي

وحين يصير الغروب قريباً

من امرأةٍ أرتديها

أراهُ.. يُلملم خلفي سفوحي

لهُ.. أيها النازفونَ من الوجدِ

دمُ الوردةِ المطْلقة..

لهُ -والسنابلُ في لهفتي تنحني-

أنحني باسقاً

كلما قامت العاشقة..

• • •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صباحاً..

يجيء مع الماء ظلي

وفي حالةٍ

تُسرج الخيل..

قبل التجلّي

أراهُ..

-وأعرف أنّ حبيبي-

سيرحل عني

إلى.. بقعةٍ

في الكتاب القديم،

إلى.. بقعةٍ
من ندى الغابرين،
إلى سوسنٍ
مِنْ دَم هائم وانتظار..
إلًى ما يُحايثُ
شَوْقَ الجنون الخفيِّ
لأُنثاهُ.. أُمّ النهار..
وأعرفُ أنّ حبيبي
يرى في تحدي الجحيم
ملاذاً..
لأهزوجة الحالمين
بِحُريَّةِ المنتهى
وأعرف كيف
بتلك البروق التي فيهِ
كيف بتلك الحواس التي
لا تُرى..
يُعاينُ.. فيما يُسمّى السلام الذي
يتناوب بين الردى والحصار..
فماذا..
يُخبئُ هذا الجميل المدجّجُ
بالحبِّ والماءِ..
والسيف والأضرحة؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هو الآن بين يديها..
يشمُّ ذراها..
ويصعد في كلٍّ لونٍ
يعانق سروَ
السماوات والأرض فيها
ومثل الينابيع
يوغل في كل شيء
ويكتظ.. يكتظ بالمدهشينَ..
وبالمذهلاتِ
هو الآنَ-
يشرب شاياً مع الطيبينَ،
ويقرأ شعراً
لهُ هالة الورد..
والحلم حيناً
وحيناً.. لهُ..
هالة الزلزلة
عميقٌ حبيبي..
كبحرٍ من الكائناتِ،
رهيفٌ.. ككوثر زهر النساءِ،
جَسورٌ.. كأنشودة الفاتحينَ،
ورعدِ الدماء..
هو الشهداء جميعاً..
إذا ما ادلهمَّ الفناءُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونادت مآذن كلِّ المساجدِ..
أجراسَ كلِّ الكنائس
حَيَّ على النصر..
حانَ الوضوء الإلهيُّ
حانتْ..
صلاةُ المدى الملحميِّ
لسقف الضياء..
هو الانفطار النجيُّ
لشعبِ البنفسج،
في ساعة الصبر
آن ارتجاف السماء..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

قصص قصيرة جداً

نجيب كيالي*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جغرافيا رجل

وُلِدَ بين شفراتٍ أربع!

أحاطتْ بجسده شرقاً، غرباً، شمالاً، جنوباً!

كبر وقلبه جرةٌ مملوءةٌ بالرهبة.

ذاتَ ربيع تبرجتْ لعينيه زهرة.

مدَّ أصابعه نحوها، صاحت به الشفرات بصوت واحد: إياك.

* قاص سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

أغمض الخوفُ عينيه، لكنَّ الزهرة نبتتْ في باطن أجفانه!

دعكَ الأجفانَ ليطردها من هناك، فإذا بها تتفتح في خياله!

مع تفتحها سمعها تناديه باستماتة: تعال.

تدفقَ في قلبه شلالُ شوق جارف، اندفع نحو الزهرة بصدره، فغاصتْ في ضلوعه الشفرةُ الأمامية.

قبل أن يموت ألصقَ الزهرةَ بأنفه، فاستنشقَ منها عمراً جديداً!

* * *

بين خَطَرين

أمامه جبّ

ومن خلفه دبّ

وخائفٌ هو يناجي الرب

في تلك اللحظة نبتتْ في قلبه ثلاثةُ أحلام سريعةٍ صغيرة بحجم حبات العدس:

أن ينبتَ له جناحان، فيطيرَ من مكانه.

أن يمتلئَ الجبُّ تراباً.

أن يصابَ الدبُّ بجلطة.

أما الجب فكان واثقاً من أنه سيظفر به.

الدب كان واثقاً أيضاً.

والنهايةُ صارت خبراً عند راوي الحكايات.

* * *

صيد السحاب

عيونُ الصيادين خلف بنادقهم، وأصابعهم على الزناد.

أهدافهم بضعُ سحابات عابرة، سينظِّفون منها السماء.

توالى إطلاقُ النار، وتوالى معه سقوطُ السحابات مضرجةً بدمها الأبيض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نجحتْ سحابةٌ في الفرار، ناورتْ، وهبطتْ نحو رجل عابر، له ملامحُ طيِّبة.

استجــارتِ السحابةُ بالرجل الذي كان يتابــع المشهدَ متأملاً، فتحَ بسرعة أزرارَ قميصه قائلاً: ادخلي.

اختبأت السحابةُ تحت القميصــ، دفّأها الرجل بحرارة قلبه، لكنه بعد قليل أخذ يشعر بلسعاتٍ باردة، احتملها بصبر، بينما كانت السحابةُ تذوب.. تذوب.

حين ابتعد الصيادون ووصل الرجل إلى البيت، نشرَ قميصه المبلل تحت أشعة الشمس، فخرجتْ من القميص سحابةٌ جديدة، صارت كلما اشتد الحر تأتيه من أقاصي السماء تمشي فوقه، وتظلل رأسه.

• • •

شيء عزيز

حين كبرتُ قالت لي جدتي ذاتَ يوم:

- سأريكَ شيئاً قديماً يخصُّك.

فتحتْ صندوقاً فيه أشيــاءُ عزيزةٌ على قلبها للمرحوم جدي: لباسُه العربي، كتبُــه الدينيــة، مسبحتُه، ثم سحبتْ مِرْطــاً قماشياً[1] معقــوداً على شكل وردة، قالت:

- خـذ.

- ما هذا؟!

- رِبَاطُ الحب بيني وبينك.

- رِبَاطُ الحب! كيف يا جدتي؟

- اسمــعْ يا روح جدتك: في صغرك كنتَ مغرماً بي كثيراً، أزوركم، فتريدني أن أبقى عندكم، صوتُكَ مازال في أذني: (تيتي.. دخيلك لا تروحي)، فإذا صممتُ علــى الذهاب، كنتَ تغافلني، وتربط بهذا المــرط رجلي برجل الكرسي، سقطتُ

مرة، وهمَّتْ أمك بضربك، لكنني منعتُها قائلة: الصغير يحبني على طريقته. هل تكافئين المحبةَ بالضرب؟ ومن يومها أخذتُ المرط، عقَدْتُه على شكل وردة، خبَّأتُه في الصندوق، وحين أشعر بالوحدة أُخرجه، أضعه على قلبي.

• • •

رفسة قديمة.. رفسة جديدة

في عام مئة و... قبل الميلاد سدَّد إليه بغلٌ رفسة. كانت قياسيةً جعلتْهُ يسبح عـدةَ قرون في الفضـاء! عاد إلى الأرض في عام ألفـين و... بعد الميلاد. طلبوا

أوراقه، فتلعثم، فوجئ بالبغل نفسه يخرج من مكانٍ ما، وقبل أن يرفسه همس في أذنه:

- عدم المؤاخذة.. مطلوبٌ مني رقمٌ قياسيٌّ جديد.

• • •

غيمة الدخان

وسط غيمة من دخان المقهى يجلس أبو سلطان.

الدخان المعطَّر يفتح نفسَه للضحك و(الفذلكة).

يقـول لجلسائه: لا أدري.. هـل المشكلةُ فينا أم في الدنيا يا شباب؟ كنا عبيداً فيهـا، ففككنا قيودنـا بفضل الواحد القهـار، لكننا وقعنـا في عبودياتٍ جديدة (مودرن)!

يأخذ سحبةً من نارجيلته، ويُكمل رأيَه لأصحابه:

خذوا مثلاً سكانَ العمارة التي أعيش فيها..

مسعود صار عَبْدَ المحطات الفضائية!

فادي عَبْدَ (الهمبرغر) ولعبةِ (الفيفا)!

دلال عبدةَ الأصفرِ والأحمر والنيلي المنيَّل من القماش!

أبو سمير عَبْدَ الموبايل.. حتى في بيت الخلاء يستقبل المكالمات، ويردُّ عليها!

المعلم حميد عَبْدَ الدوراتِ التعليمية ينتظر الأطفالَ عند بطون أمهاتهم، فإذا نزلوا أمسكَ بهم، وأخذهم إلى الدورة!

يتذكـر أبو سلطان نفسه، فيغرق في ضحكة طويلة، ثم يتابع: وأنا عبد المقهى والقرقـرة بالنارجيلـة، وهذه مـن العبوديات القديمة، فأنـا- والحمد لله- مع الأصالة!

• • •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سُكّر مُكّر

غنَّتْ بَهيرة وهي تُعلِّم ابنَها المشي:

(سكَّرْ، مُكَّرْ، ياللا، يا شاطرْ قومْ اتشطَّرْ).

ويـومَ حمـلَ كتبه، وصـار يذهـب إلى المدرسة علَّقـتْ تحت ثيابـه حجاباً، وتمتمتْ:

(يا برعمْ وردْ أخضرْ. إنشالله العمرْ عمرينْ).

لكنَّ الحجاب لم يحمه من دراجة نارية طائشة، وحين رأته ممدداً صرختْ:

– لا. ابنــي لم يمت، وهو لا يتحرك لأنني لم أغـنِّ له أغنية المشي منذ فترة طويلة.

خرجَ صوتها متهدجاً بطيئاً:

– سكَّر، مكَّر، ياللا...

لكنها قبل إتمام الأغنية صارت بحاجةٍ إلى مَنْ يرشُّ الماء على وجهها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثعلب صغير

تسلل ثعلب صغير إلى بستان، تتوسطه (فيلا) ضخمة في مدينة (أم الثعالب).

كانـت الدوالي محمولةً علـى زنود خشبية، والعناقيد تظللهـا شماسي الورق الأخضر.

تلفَّـتَ يميناً وشمالاً، ثـم استجمع قوته، وقفز، فتناول عنقـوداً، نهشَ نهشةً، ورغم جوعه قذفها من فمه بسرعة:

– ما هذا؟! لا عنباً ولا حصرماً حتى! سأعود بعد أيام ربما ينضج.

عاد الثعلب فأسقط عنقوداً، لكنه كالمرة الأولى وجده بلا طعم! فجأة سمع قهقهةً عالية! رفع رأسه، رأى ثعلباً عملاقاً على باب الفيلا، قال الثعلب العملاق:

- يـا أخانا الصغير. في مدينـة (أم الثعالب) صار العنب ينبت على أشجار البرتقال.

ذهـب الثعلب إلى شجرة البرتقال، دقق النظرَ في الأغصان، لم يجد عنباً، ولا برتقالاً! قال لنفسه:

- ربما في الأعلى.

تسلـقَ الشجرةَ، لكـنَّ شوكةً قاسية اخترقتْ ساقَـه، وأجبرتْه على النزول. في الأسفل رأى ثعلباً عملاقاً يقهقه، قال:

- يـا أخانا الصغير.. تريد العنـب؟ في مدينة (أم الثعالب) صار ينبت على أشجار الزنزلخت.

لم يذهب الثعلب الصغير إلى أشجار الزنزلخت، بل تمتم حزيناً:

- الآن فهمـت: في مدينة (أم الثعالب) صـار مستحيلاً أن تعرفَ أين ينبت العنب!

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجوهرة

أرسلتْ جوهرةٌ إشعاعَها إلى قلب رجل.

كان بينها وبينه بحران وبرَّان.

اجتاز البحرين، قطعَ البرَّين.

وعلى مقربة من مكانها هاجمَتْه الريح التي تقوم بحراستها.

ضربت الريحُ ذراعه، كسرَتْها، فتابع السير إلى جوهرته بذراع مكسورة!

هاجمَتْـه مرةً ثانية بوحشيـة، فشقتْ صدره، ومزقتْ لحمـه، ولم يسلم منها هيكله العظميّ، فأخذتْ تضربه بصخرة حتى تفتت!

بقيَ من الرجل ركبتاه، تابعت الركبتان الزحفَ نحو الجوهرة!

* * *

عائلة سماوية

كانت الأرضُ وإخوتُها الكواكب عائلةً سعيدة، صهرهم الحب في رقصة أزلية لولبية.

ذات يوم غار إله الرقص من تفوقهم عليه: كيف يرقصون آلافَ القرون الضوئية، ولا يتعبون؟! لا بدَّ من عمل شيء.

اقترب منهم الإله، همس:

- رائع..! ويكون أروعَ لو زدتم السرعة.

أطلق الإخوةُ العنانَ لرشاقتهم، وفجأة تناثروا..!

وجدتِ الأرضُ نفسَها وحيدةً لأول مرة، نادتْ إخوتَها، فلم يسمعوا! مدَّتْ يديها، فقهرتهما المسافة!

بكتْ عندئذ بدموع مالحة، فتجمعتْ على صدرها البحار! وحين لمحتْ في البعيد لمعانَ وجوه إخوتها بكتْ بدموع حلوة، فسالتْ في جوانبها الأنهار!

نظر إله الرقص. قال بغيظ:

- بهذا الماء ستنتصر الأرضُ عليّ!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- المِرْط في العامية: قطعة من قماش، كأنها حبل قصير.

قصة

القــــرينة

فيصل خرتش ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جلبـت فوزية الجميلـة جداً كلَّ الأشياء التـي طلبها منها، وهاهي أمامهـا، الحصيـات السبعة والتي كل واحدة بلـون، وذيل العقرب مع رجـل السلحفاة، وجسـد الخفاش المصبّر والمملـح، وناب الذئب وسن الأرنـب، هذه الأشياء التـي اشترتها من سوق المدينـة. طلب منها أن تحضرهـا وتضع لها المـاء، بالإضافة إلى هذه الورقـة المكتوبة، وتبدأ بغليهـا.. ساعة.. ساعتان، هذا لا يهم، المهـم أن تنشف الماء في القدر

٭ أديب وقاص وروائي سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

الذي وضعت فيه.

كانت ابنة خالتها عائدة ذات السن المكسور هي التي دلتها على الشيخ معروف ذي الكرامات، لابل إنها ذهبت معها عندما عرفت أن نقودها في حقيبتها تنام آمنة مطمئنة.

حكت لها فوزية قصتها في غرفتها، هنا وهما تشربان القهوة، قالت لها: إنها يئست من هذه الحياة مع أنها في أوّل عمرها، فلا نساء دققن بابها ولا التقت برجل إلى الآن يملأ عينيها، مع أنها تذهب إلى الأسواق وتجلس في الحدائق وتزور الجيران، لا تدع أحداً يعتب عليها بشيء، قالت لها ابنة خالتها عائدة، هيا بنا إلى الشيخ معروف صاحب الكرامات، فزيارة واحدة له، ويكون الرجل قاعداً عند درجات الدار.

وبين بهجة الفرح وإشراقة الأمل وتأكيد ابنة الخالة، وصلتا إلى الحارة القديمة، وعند حنفية السبيل عوجتا، وأمام باب أسود صغير قرعتاه وانتظرتا قليلاً لتسمعا الصوت من الداخل يصرخ: من هناك؟ فأجابتا: نحن.

دخلت الفتاتان عندما فتح الباب، فوزية أدهشها أن ترى في أرض الدار شجرة تين، بينما لم تندهش ابنة خالتها عائدة ذات السن المكسور لأنها تزور المكان كل فترة. وعندما أرادت عائدة أن تشرح له الموضوع الذي جاءتا من أجله، طلب إليها أن تصمت، وتابع قراءته في كتاب أمامه.

الشيخ معروف يجلس تحت شجرة التين، وهو يرتدي عباءة صوف، مصنوعة من وبر الجمل، ويلف رأسه بمنديل، ويضع وسادتين على جانبه الأيسر، وذقنه تهشّ للقادمين بما تبقى لها من لون أسود، لم يتحرك من مكانه، فمن هو الذي فتح لهما الباب يا ترى؟

جلست فوزية الجميلة جداً وعائـدة ذات السن المكسور، على مقعد غير مريح، ريثما ينتهي الشيخ معروف من قراءته، لأنه ما إن انتهى وأغلق الكتاب بعـد أن وضـع ورقة في المكان الذي أنهى قراءته فيـه، وصمـت قليـلاً، وهما أيضـاً صمتتا، إلى أن طالت فـترة الصمت قليلاً، عندئـذ قال لهما بـكل هـدوء، تفضلي يا ابنتي، مشـيراً إلى فوزية الجميلـة جداً، فنهض ونهضت، ودخلا إلى غرفة، بعد أن تركا عائدة ذات السن المكسـور وحدها تنظر إلى شجرة التين وإلى المـكان الذي كان يجلس فيه الشيخ معروف.

بعـد فترة من الزمن تقدر بساعة، خرجت البنـت فوزية من الغرفة، وقعدت تحت شجـرة التين، كان لونها أصفر شاحباً، نهضـت عائدة ذات السن المكسور إليهـا لتسألها ماذا بها؟ وهنا خرج الشيخ معـروف وجلس في مكانه وفتح كتابه على الصفحة التي تركها قبل أن يدخل مع البنت فوزية، وأخرج قلم كوبية وورقة

وشرع يكتب عليها بالطول والعرض وبالتثليث والتربيع والدوائر، أعطاها إيّاها وطلب منها أن تغليها مع الأشياء التي ذكرت سابقاً وأن تشتري هذه الأشياء من سوق المدينة من عند دكان فلان الفلاني، من سوق العطارين، وطلب منها أن تأتيه قبل أن يصبح القمر بدراً.

نهضت الفتاتان، أو لنقل أن عائدة ذات السن المكسور أنهضت ابنة خالتها، وهذه فتحت حقيبتها، أعطته شيئاً من مالها، ومضتا صامتتين.

في الطريق لم تتكلم أي واحدة بشيء، ركبتا سيارة، وانطلقت بهما إلى بيت الخالة، وعندما وصلتا، نزلت فوزية الشاحبة قليلاً وبقيت عائدة في السيارة، توكأت فوزية على نفسها حتى دخلت البيت ونامت بكل ثيابها، وحمدت الله على أن أمها لم تكن موجودة، وإلا لكشفت الأمر بأسئلتها الجهنمية.

في اليوم التالي لبست فوزية وتغندرت تريد سوق المدينة، وما إن وصلت إليه، حتى ذهبت إلى سوق العطارين، إلى دكان فلان الفلاني، اشترت منه السحر، الذي كان في صرّة وعادت إلى البيت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الليل الذي ما بعده ليل، انتظرت فوزية ذات الجمال الشاهق أن ينام الجميع، وعندما ناموا، تسللت إلى المطبخ، أخذت غلاية القهوة الكبيرة، ووضعت فيها السحر، ثم وضعت فوقه الماء، ثم الورقة التي كتبها الشيخ معروف، ووضعته على النار بعد أن غطته.

ساعة، ساعة ونصف ولم تأتِ القرينة، انتظرت نصف ساعة أخرى، ولم تأتِ القرينة.

الشيخ معروف قال لها أن تستمر في غلي السحر حتى تخرج القرينة، إذاً لتنتظر قليلاً، إنها تسمع صوت أقدام تزحف، إنها القرينة، الأصوات تقترب،

تقترب أكثر، إنها تمسك بقبضة الباب، لعله الرجل الذي تحلم به، أغمضت عينيها، فتح الباب، واختلطت الرائحة الكريهة بصوت القرينة: «ماذا تفعلين يا مقصوفة الرقبة؟» وهنا فتحت فوزية عينيها لتجد أمها بوجهها.

أمسكت بغلاية القهوة، فلسعتها يدها، اهتزت الغلاية، وانسكب السحر على الأرض واندفعت في المكان رائحة مقرفة تشبه رائحة وبرٍ نتن يحترق، أمسكتها الأم من شعرها، وهنا يوجعك وهنا لا يوجعك حتى صاحت الديكة عند الفجر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوطن العربي
وقضايا الأمن الإعلامي في الظروف المعاصرة

د. محمد البخاري ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التبـدلات الجذرية التي جرت في أواخر القرن العشرين وشملت مجالات الاتصـال والمعلوماتية، رافقتها تبـدلات في وجهات نظر الباحثين العلميين، ورافـق تلك التبـدلات توسع كبير في مجـال استخدام تقنيـات المعلوماتية والاستشعـار عن بعد، وأدت كلها لحدوث تطورات هائلة في مجال تكنولوجيا المعلوماتيـة والاتصـال والاستشعار عن بعد، وفي مجـالات البحث العلمي، والتعليم، والتجارة، والإنتاج الفكري والمادي.

✪ عربي سوري مقيم في أوزبكستان.

وظهر في المراجع العلمية أن الباحثين في مجالات أمن الدولة كانوا يركزون في دراساتهم على المضامين العسكرية فقط، ولكن الذي حدث مع التطورات الحاصلة في مجالات استخدام تقنيات المعلوماتية والاستشعار عن بعد أن شهدت تلك الدراسات قفزة نوعية أصبحت معها تعتبر المعلوماتية والاستشعار عن بعد من العوامل الرئيسية للأمن القومي وإدارة العالم المعاصر، ووسيلة أساسية لتدعيم السلطات السياسية.

وأدت النتائج التي حققتها ثورة المعلوماتية إلى تشكل مجتمع معلوماتي معاصر. وبدوره جاء المجتمع المعلوماتي هذا ليفرض تبدلات اجتماعية عالمية أخذت تتركز في مختلف المجتمعات منذ نهايات القرن العشرين، الأمر الذي فرض معه ضرورة القيام بدراسات علمية تحلل الوسط المعلوماتي الجديد في المجتمع الدولي من جوانبه السلبية والإيجابية.

ولوحظت في العديد من دول العالم محاولات جرت ومن بينها في الدول العربية لتحليل المشاكل التي اعترضت طريق الأمن المعلوماتي في الوسط المعلوماتي الجديد على المجتمعات العربية. وظهر أن الأمر لم تعد تكفيه إجراءات التضييق القانونية والتقنية فقط، لأنه أصبح يفرض حاجة ماسة للاهتمام بهذا الموضوع الهام من كل جوانبه، عن طريق تشكيل لجان مشتركة تضم إدارات الأمن القومي، والإدارات الحكومية، والهيئات المختصة بالأمن المعلوماتي، لتقوم بدراسة ووضع مشاريع وبرامج تتضمن طرقاً ووسائل لحماية مصالح الأفراد، والمجتمعات، والدول، على الساحة المعلوماتية الدولية المفتوحة التي غدت تخترق الحدود السياسية والجغرافية للدول دون عوائق تذكر.

وبدأت وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية العربية تتناول قضايا المعلوماتية والنشر الإلكتروني من وجهة نظرها أو وجهة نظر كتابها وأخذت تغطي أخبارها وأبعادها. ومن الأمثلة على ذلك ما نشرته صحيفة الثورة الدمشقية للباحث عدنان حبال الذي أشار إلى «أن علوم وسائل الاتصال الحديثة والتي نسميها المعلوماتية لم تستطع إزاحة الوسائل القديمة تماماً من طريقها كي تحل محلها، أي أن الحاسوب لم يحل بعد مكان الكتاب، لكن هذا الوضع آت يوماً ما لا محالة، فها هو ذا الكتاب يشكو من تناقص عدد قرائه ومحبيه، وها هو ذا الأدب المكتوب بالإلكترون يبدأ بالظهور على شاشة الإنترنت. وأن تراجع الأدب أمام المعلوماتية كان بالدرجة الأولى نتيجة ضعفه وقوتها، وإهماله لنفسه وقرّائه، وحرصها على نفسها وعلى خدمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإنسان الذي أوجدها، وهكذا فإن على الأديب أن يعترف بهذا الواقع وأن يمد يده للمعلوماتية فيعاملها معاملة الند للند، بل يتعاون معها كما تعاون مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية قبلها كالإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة المطبوعة، وعليه أن ينظر معها إلى الأمام وليس إلى الوراء، إلى المستقبل فيكتب من أجله، وليس إلى الماضي فيكف عن اجتراره، وعليه أن يبذل المزيد من الجهد كي يقترب من الناس ويؤسس للأدب والفكر جمهوراً واسعاً وذوقاً جديداً من قراء الشاشة الإلكترونية سواء أولئك الذين كانوا يقرؤون الكتب المطبوعة أو لا يقرؤونها، وهذا الجمهور لن يستغني عن الأدب بكل أجناسه وإن اختلفت وسائل وصوله إليه، لكنه سيظل يكره السردية والإسهاب في وصف ما هو قادر بنفسه على فهمه وتخيله عندما يقرؤه بمحض إرادته سواء في كتاب أم على شاشة الإنترنت التي ستدخل قريباً كل بيت وتعتمد كما فهمت على المثل العربي القائل: إن خير الكلام ما قل ودل. وتعتمد اللغة العربية إحدى لغاتها الرئيسية الحية».

ومن أوجه الاهتمامات العربية الأخرى نشر الباحث السعودي د. فهد العرابي الحارثي دراسة على الصفحات الإلكترونية للإنترنيت، أشار فيها إلى أن «اتجاهات الإعلام تبدلت اليوم وشهدت صناعة وسائل الإعلام في العالم، وتحديداً في الغرب، تغيرات هائلة في السنوات الأخيرة، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، أو طرق العرض، أو حجم الإيرادات المالية أو سلوك المستهلكين. وتمكنت قطاعات جديدة مثل الإنترنت والجوال ووسائل الإعلام الرقمية الأخرى من تجاوز وسائل الإعلام التقليدية من إذاعة مسموعة أو مرئية، وصحافة مطبوعة، من ناحية معدلات النمو وانتزاع بعض من حصصها. وفي هذا السياق أشار لاستطلاع، اشترك فيه ٧٠٤ من رؤساء تحرير وكبار محرري الصحف الدولية، وخلص إلى أن ٤٤٪ من الناس سيحصلون على الأخبار من الإنترنت خلال السنوات العشر المقبلة. ولا تتوقف المنافسة عند المواقع الإلكترونية الإخبارية، والصحف الإلكترونية الخالصة، أو المواقع الإلكترونية التي تتبع لصحف ورقية، بل المنافسة شملت ساحات أخرى للسباق، مثل موقع التعارف الاجتماعي الشهير «فيس بوك». الذي بدأ أساساً كموقع للتعارف الاجتماعي أو الـ Social Networking، وهو يعتمد بشكل كبير على المحتوى المزود من قبل المستخدم، أو الـ User Generated Content، مثل الآراء والمعلومات الشخصية والصور وغيرها. واعتبر الغرض الأساسي من الموقع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التواصل بين أعضائه المسجلين. وبالإضافة لـ«فيس بوك» هناك مواقع تعارف اجتماعية أخرى حققت نجاحاً لافتاً مثل «ماي سبيس» و«آي سمول ورلد» و«لينكد إن». فضلاً عن «تويتر» الذي بدأ خدمة التدوين المصغر منذ العام ٢٠٠٦. وموقع «فليكر» الذي يزعم أنه يحوي أكثر من ٣ مليارات صورة عن مختلف الموضوعات، يقوم مستخدموها بتحميلها والإضافة إليها باستمرار. وموقع «فليكر» كان نتيجة طبيعية لتنامي انتشار الكاميرات الرقمية وسهولة التحميل على أجهزة الحاسب الآلي. وقد نفذ «قوقل» خطوة استراتيجية لافتة، وهي شراء موقع «يوتيوب» الذي تفوق على خدمة «غوغل فيديو» التي كان الموقع قد قدمها سابقاً، وقد لاقى موقع «يوتيوب» أهمية كبرى، حيث أصبح لعدد كبير من قادة العالم بمثابة قنوات خاصة بهم يتواصلون من خلالها مع العالم، ومن بينهم الملكة رانيا العبد الله، والرئيس باراك أوباما، ورئاسة الوزراء البريطانية. وكانت آخر أخبار الموقع أن أطلق نسخة منه باللغة العربية وباللغة العبرية.

وأشار د.فهد إلى أن الإحصاءات تشير إلى أن حصة الإنترنت اليوم من سكان الأرض بلغت نحو مليار ونصف المليار مستخدم أي ما يوازي ٢٣٪ من مجموع سكان كوكب الأرض. وأن التوزيع والإعلان تراجع في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٧ بمقدار ٣٪، وهبط معدل التوزيع في أوروبة بمعدل ١,٩٪ وتراجع توزيع الصحف في أمريكا على مدى السنوات الخمس الماضية بنحو ٨٪، ومع ذلك فإن الأسواق الأمريكية والأوروبية، ما تزال تسيطر على نحو ٦١٪ من سوق الإعلان العالمي.

وأضاف: إنه كي يكون الصحافي صحفي إلكتروني Online Editor، وأن يكون متوافقاً مع التطورات الجديدة لابد أن يكتسب مفهوم ومهارات التحرير غير الكتابي، أي أن يراعي التغيرات التي دخلت على صياغة القصص الخبرية، مثل اختيار الوصلات الفائقة المناسبة لخدمة النص، والقدرة على التعامل مع الوسائط الأخرى كالفيديو والتصوير الرقمي والصوت. فالمخرج الصحافي تحول إلى ما يشبه المخرج السينمائي، لأن النص الصحفي نفسه اليوم بات أقرب إلى النص السينمائي، تتداخل فيه مواد عديدة صوتيه وبصرية. وأصبحت النصوص الفائقة والوسائط المتعددة التي تزخر بها الصحافة الإلكترونية هي التي تؤكد مفهوم ثراء الوسيلة الإعلامية Media richness الذي بسببه يزداد عدد قراء الصحف الإلكترونية بمقدار الضعف تقريباً عن قراء الصحف الورقية. وأن القارئ أصبح يفضل الوسائط المتعددة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والنصوص الفائقة بمقدار ٧٥٪. ولذلك لابد أن يلـم الصحفي الإلكتروني بمهاراتها التي تعترض مستقبل النشر الورقي، وهو الذي يواجه الكثير من الذعر بسبب استفحال النشر الرقمي. وزاد من حدة ذلك الذعر أن أعلنت مؤسسات وشركات نشر كبرى إفلاسها في أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول الصناعية المتقدمة.

وهذا كله رافق الأزمة المالية العالمية، ولهذا لجأ المتفائلون إلى ذريعة الأزمة نفسها التي أدت لانخفاض الدخل، ولاسيما من حيث تضاؤل أحجام ميزانيات الإعلان، مما أدى إلى ما يشبه الانهيار الشامل. أما المتشائمون فقد اعتبروا أن الإفلاس كان نتيجة لانصراف الأجيال الصاعدة عن النشر الورقي مفضلين الخيارات الرقمية، واعتبر المتشائمون أن ماحدث ما هو إلا إرهاص يتبعه موت محقق للنشر الورقي برمته خلال سنوات قليلة جداً، وقد بدأت الصحافة الورقية تعاني منه، ولن يتوقف إلا بعد أن يأتي على كل الوسائل التقليدية للمعرفة. وعليها فإن تحقيق مشروع التكامل والاندماج بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بكل أشكالها، لم يعد وحده الوضع الذي ينذر بالتهديد الحقيقي للصحافة الورقية التي تعاني أصلاً من الركود وتراجع حجم الإعلان، ولاسيما في أوروبة والولايات المتحدة، وأنه هناك من يرى أن الأوضاع الجديدة قد تقدم فرصاً لإعادة هيكلة وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بطريقة تضمن البقاء والاستمرار للجميع، إذ ليس من شروط نمو الجديد أن يكون على حطام القديم، بل على العكس قد يكون في التكامل ما يفتح آفاقاً جديدة لأوضاع اقتصادية تمكن الجميع من الاستمرار وتقديم الخدمة المتوخاة بمستويات عالية من الاحترافية. وبهذا فإن من مكاسب الأوضاع الجديدة توسيع نشاطات المؤسسات الإعلامية عبر الإنترنت والجوال للوصول إلى شريحة واسعة من القراء خاصة من الأجيال الصاعدة. أي إنه لا يفترض الخروج النهائي للصحافة الورقية من حلبة السباق الإعلامي.

وتابع د.فهد «نحن نقول: إنه من قبل أن نعلن وفاة الصحافة الورقية دعونا ننظر في مقترح آخر قادم من الدنمارك، وهو مقترح يستند إلى تجربة قائمة بالفعل، ولم يتخل عن الوسيلة الورقية بل يدعو إلى التكامل بينها وبين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الجديدة، إذ يرى بير لينغباي، المدير الإداري ورئيس تحرير المجموعة الإعلامية «نوردجيسكي» في الدانمرك. أن الكلمة المفتاح اليوم لإنقاذ الصحافة الورقية، ما تزال هي المثابرة، ولقد أضيفت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إليها أربعة مصطلحات أخرى هي: التكامل والاندماج؛ والتحول؛ والتنويع؛ والتوسع. وانطلاقاً من تجربة شركته، قال لينغباي إنه: «قبل سبع سنوات، قالت شركتنا وداعاً للأساليب التقليدية في العمل، وللأحادية في الترويج للوسائل. وكانت التكنولوجيا في يوم من الأيام عائقاً بين الصحف المطبوعة والإذاعتين المرئية والمسموعة، أما اليوم فإن إنتاج هذه الوسائل مرتكز على اندماج هذه الوسائل». وأن تطوير التجارب التي قادتها بعض الصحف مثل نيويورك تايمز يدفع إلى التفكير الجاد في مثل هذا النوع من التكامل بين ما هو ورقي وما هو إلكتروني».

وهنا نرى أن التبدلات الاجتماعية العالمية التي جرت مع نهايات القرن العشرين جاءت لتطالب بتحليل إيجابي للوسط المعلوماتي في المجتمع العالمي. مع ضرورة الإشارة إلى أن مشاكل توفير الأمن المعلوماتي القائمة سابقاً في البلدان العربية، لم يتم النظر إليها عملياً، بل جرى تجنبها. واعتبر البعض أنه يمكن حلها عن طريق السرية التامة وفرض التضييقات، وعلى سبيل المثال خلال السنوات الأخيرة في روسيا فقط وهي دولة عظمى سابقة تم إدراك أهمية هذا الموضوع، وأحدثت ضمن مجلس الأمن الفيدرالي الروسي لجنة مشتركة للإدارات المختصة بالأمن المعلوماتي. وأعدت تلك اللجنة مشروعاً وبرنامجاً تضمن طرقاً ووسائل لحماية المصالح الهامة للأفراد، والمجتمع، والدولة في عالم الساحة المعلوماتية العالمية المعاصرة.

وجاءت اهتمامات السلطات الحكومية السورية بتنظيم النشر الإلكتروني، بنشر وزارة الاتصالات السورية على صفحتها الإلكترونية، مسودة مشروع قانون الإعلام الإلكتروني، المتضمن ٤٦ مادة في خطوة لتنظيم عملية النشر الإلكتروني. وكان من المفهوم أن مسودة مشروع القانون هذا جاء استكمالاً للقانون رقم ٤ الصادر عام ٢٠٠٩، والقاضي بإحداث الهيئة الوطنية لخدمات شبكة الإنترنت، وأشارت الصفحة الإلكترونية لوزارة الاتصالات السورية إلى أن مشروع مسودة قانون الإعلام الإلكتروني التي وزعتها وزارة الاتصالات على رؤساء تحرير الصحف الإلكترونية داخل سورية ونشرت في موقع الجمل. تضمنت في الباب الأول: القصد من المصطلحات الواردة، في معرض تطبيق أحكام القانون، والمعاني المبينة إلى جانب كل منها، ما لم يدل سياق النص على خلاف ذلك وهي: القانون: أي هذا القانون، الناظم للتواصل مع العموم على الشبكة؛ والتعليمات التنفيذية وهي: التعليمات التنفيذية للقانون؛ والوزارة وهي: وزارة الإعلام؛ والوزير وهو: وزير الإعلام؛

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

والهيئة وهي: الهيئة الوطنية لخدمات الشبكة، المحدثة بموجب القانون رقم ٤ لعام ٢٠٠٩؛ والوسائل الإلكترونية وهي: وسائل إلكترونية أو كهربائية أو مغنطيسية أو كهرطيسية أو ضوئية أو رقمية أو أي وسائل مشابهة تستخدم في تبادل البيانات أو المعلومات أو معالجتها أو حفظها أو تخزينها؛ والتواصل الإلكتروني: أي إرسال أو استقبال أو بث أو نقل أو نشر للمعلومات، سواء أكانت نصوصاً أم أصواتاً أم صوراً ثابتة أو متحركة أم غير ذلك، بالوسائل الإلكترونية؛ والمحتوى وهو: المعلومات التي يجري تداولها في إطار التواصل الإلكتروني؛ والشبكة وهي: شبكة معلوماتية، كالإنترنت والشبكات النقالة، تسمح بالتواصل الإلكتروني لتبادل البيانات والمعلومات بين المرسل والمستقبل؛ والتواصل الإلكتروني مع العموم وهو: التواصل الإلكتروني الذي يجري فيه تداول معلومات ليس لها طابع المراسلات الشخصية، يضعها في متناول عامة الجمهور أو فئة منه. ويشمل التواصل الإلكتروني مع العموم: البث السمعي والبصري، والنشر بالوسائط الرقمية، والتواصل على الشبكة وهو: شكل من أشكال التواصل الإلكتروني مع العموم يجري فيه عبر شبكة، أو أي وسيط معلوماتي مشابه، وضع محتوى في متناول أي فرد من العموم، بناء على طلب منه؛ والمحتوى الإعلامي وهو: محتوى يغلب عليه الطابع الإعلامي، ويتضمن معلومات ومواداً وأخباراً وتحقيقات وملاحظات وتعليقات تتعلق بالأحداث العامة؛ ومقدم الخدمات على الشبكة: أي من مقدمي الخدمات الذين يعملون في إطار التواصل على الشبكة. ومن أصنافهم: مقدم خدمات النفاذ إلى الشبكة، ومقدم خدمات التواصل على الشبكة، ومقدم خدمات الاستضافة على الشبكة؛ والموقع الإلكتروني وهو: منظومة معلوماتية أو حاسوبية، لها اسم أو عنوان محدد، تتضمن بيانات ومعلومات وخدمات يمكن الوصول إليها عن طريق الشبكة، كالإنترنت؛ ومقدم خدمات التواصل على الشبكة وهو: مقدم الخدمات الذي يتيح التواصل مع العموم على الشبكة، وذلك عن طريق موقع إلكتروني أو أية منظومة مشابهة؛ ومقدم خدمات الاستضافة على الشبكة، وهو: مقدم الخدمات الذي يوفر البيئة والموارد المعلوماتية اللازمة لتخزين المحتوى، بغية وضع الموقع الإلكتروني الذي يستخدمه مقدم خدمات التواصل مع العموم على الشبكة. ويسمى اختصاراً المضيف؛ ومقدم خدمات النفاذ إلى الشبكة وهو: مقدم الخدمات الذي يتيح للمشتركين لديه النفاذ إلى الشبكة، والوصول إلى المعلومات والخدمات المتوافرة عليها؛

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والصفة الاحترافية وهي: صفة يتصف بها مقدم خدمات التواصل على الشبكة عندما يكون عمله الاقتصادي الأساسي مرتبطاً بالمحتوى الذي يضعه في الموقع الإلكتروني الخاص به؛ والموقع الإلكتروني الإعلامي وهو: موقع إلكتروني يقدم خدمات التواصل على شبكة، وخاصة الإنترنت، يتصف بالصفة الاحترافية، ويصدر باسم معين، ويشتمل على محتوى إعلامي يجري تحديثه باستمرار؛ والإعلان الإلكتروني وهو: وضع محتوى لدى مقدم لخدمات التواصل على الشبكة، يروج لشخص أو جهة أو حدث أو منتج، لمصلحة جهة مستفيدة، ويمكن التعرف على صفته الإعلانية بوضوح؛ والموقع الإلكتروني الإعلاني وهو: موقع إلكتروني إعلامي متخصص بنشر الإعلانات والخدمات المرتبطة بها على الشبكة؛ وصاحب الموقع وهو: كل من يملك موقعاً إلكترونياً يستخدمه مقدم لخدمات التواصل على الشبكة. ويجوز أن يكون صاحب الموقع شخصاً اعتبارياً أو طبيعياً أو مجموعة من الأشخاص؛ والمدير المسؤول وهو: الشخص الطبيعي الذي يعينه صاحب الموقع، ويمثل مقدم خدمات التواصل على الشبكة أمام الجهات الإدارية والقضائية، ويكون مسؤولاً عما يوضع في الموقع الإلكتروني على الشبكة. ويسمى أيضاً آمر النشر في حالة المواقع الإعلامية الإلكترونية؛ ورئيس التحرير وهو: الشخص الطبيعي الذي يقوم بمهام رئيس التحرير في موقع إلكتروني إعلامي؛ والنص أي: كل من يورد أو يدون محتوى أو مادة أو خبراً أو تحقيقا أو ملاحظة أو تعليقاً لدى مقدم لخدمات التواصل على الشبكة، سواء أكان يتمتع بالصفة الصحفية أم لا؛ وكاتب وثيقة الاعتماد وهي: وثيقة تصدرها الوزارة تثبت اعتماد الموقع الإلكتروني الذي يستخدمه مقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ وصاحب الاعتماد وهو: صاحب الموقع الذي تسجل باسمه وثيقة الاعتماد؛ والقاعدة الإلكترونية وهي: قاعدة بيانات تنشئها الوزارة، وتتضمن بيانات عن الجهات العاملة في مجال التواصل مع العموم على الشبكة؛ وسجل المواقع الإلكترونية اسم النطاق العلوي وهو: أوسع نطاق ينتمي إليه موقع إلكتروني ما على الإنترنت، ويكون الحقل الأخير من اسم هذا الموقع؛ واسم النطاق العلوي الوطني وهو: اسم نطاق علوي قياسي تندرج تحته جميع مواقع أو موارد الإنترنت التي تديرها سلطة واحدة ذات صبغة وطنية؛ واسم النطاق العلوي السوري وهو: اسم النطاق العلوي الوطني للجمهورية العربية السورية، وهو .sy، أو أي نطاق آخر يُعتمد لاحقاً.

وتضمن الباب الثاني: أحكام عامة

شملت: حرية التواصل مع العموم على الشبكة؛ وعلنية التواصل مع العموم على الشبكة؛ وانطباق القانون على مقدمي الخدمات على الشبكة؛ ومراعاة حقوق المؤلف والملكية؛ والمبادئ العامة في التواصل مع العموم على الشبكة. وأن التواصل مع العموم على الشبكة يقوم على المبادئ العامة التالية: احترام المصالح العليا للبلاد، والحفاظ على الوحدة الوطنية والنظام العام والآداب العامة؛ واحترام كرامة الدول والشعوب وسيادتها الوطنية، والحياة الخاصة للإنسان، وحريات الآخرين؛ وتحري الصدق والدقة والأمانة والموضوعية في نشر البيانات والمعلومات والأخبار والوثائق، واتباع وسائل نزيهة وقانونية في الحصول عليها؛ واعتماد المصادر المعروفة الهوية، وضمان سريتها إلا في الحالات التي ينص القانون فيها على غير ذلك؛ واحترام الهوية الوطنية والقومية، والنهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة؛ وتعزيز وجود المحتوى الرقمي العربي، والخدمات المرتبطة به؛ واحترام حقوق المؤلف والحقوق المجاورة، وحقوق الملكية الفكرية والتجارية والصناعية وبراءات الاختراع؛ وضمان الحق في الرد والتصحيح للمتضررين.

وتضمن الباب الثالث: مقدمي الخدمات على الشبكة وشملت: مسؤوليات عامة؛ ومسؤوليات مقدم خدمات النفاذ إلى الشبكة؛ ومسؤوليات مقدم خدمات الاستضافة على الشبكة.

وتضمن الباب الرابع: مقدمي خدمات التواصل على الشبكة واعتمادهم وشمل: التعريف عن الموقع الإلكتروني لمقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ واعتماد الموقع الإلكتروني لمقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ والتنازل عن اعتماد الموقع الإلكتروني لمقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ وإلغاء اعتماد الموقع الإلكتروني لمقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ وتنظيم دفاتر التجارة؛ وصاحب الموقع؛ والمدير المسؤول؛ ورئيس التحرير؛ والصحفيين العاملين في المواقع الإعلامية؛ وسجل المواقع الإلكترونية؛ والمواقع الخاصة بالجهات العامة والأحزاب والمنظمات؛ والموقع الإلكتروني المرتبط بمطبوعة دورية.

وتضمن الباب الخامس: الإعلان الإلكتروني على الشبكة وشمل: الإعلان لدى مقدم خدمات التواصل على الشبكة؛ والموقع الإلكتروني الإعلاني؛ وشروط الإعلان الإلكتروني.

وتضمن الباب السادس: محظورات النشر والرد والتصحيح وشمل: محظورات النشر على المواقع الإلكترونية؛ والإخبار عن

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الطابع غير المشروع لمحتوى الشبكة؛ والحق في الرد والتصحيح.

وتضمن الباب السابع: المسؤوليات والجرائم والعقوبات وشملت: مسؤولية صاحب الموقع والمدير المسؤول ورئيس التحرير وكاتب النص؛ وحجب موقع الكتروني؛ وعدم الإخلال بعقوبات أشد؛ والإخلال بالالتزام بحفظ نسخة من المحتوى وبيانات الحركة؛ وإفشاء البيانات والمعلومات؛ والامتناع عن إجابة طلب السلطة القضائية؛ والامتناع عن التصريح عن تغير البيانات المطلوبة لاعتماد موقع الكتروني؛ وإخفاء دفاتر التجارة أو الامتناع عن تنظيمها؛ والإعلان لدى مقدمي خدمات التواصل على الشبكة غير المعتمدين؛ ومخالفة محظورات النشر؛ والامتناع عن حذف محتوى غير مشروع أو تعديله أو تصحيحه؛ ومخالفة أحكام الرد والتصحيح؛ وانطباق قانون المطبوعات.

وتضمن الباب الثامن: أصول المحاكمات وشملت: الاختصاص القضائي؛ وأصول المحاكمات الجزائية؛ والتفتيش والضبط.

والباب التاسع: أحكام ختامية شملت: عدم الإعفاء من الحصول على التراخيص الأخرى؛ وتوفيق الأوضاع.

ومع ذلك أظهرت الدراسات أن الأوضاع السياسية العالمية على ضوء التبدلات الاجتماعية العالمية أصبحت تحتاج مبدئياً لمدخل آخر يتجاوز إصدار التشريعات، ويقوم بدراسة تأثير الوسط المعلوماتي على الأمن القومي، والقيام بالتحليل الإيجابي للوسط المعلوماتي، وتحليل مضامين ومراحل تطور كل القطاعات السياسية، والجغرافية، والمعلوماتية. على ضوء التساوي الذي حققته المنجزات المحققة في الدول التي تتمتع فيها المعلوماتية بأهمية استراتيجية وإمكانيات كبيرة وتستطيع فعل الكثير، وأثبتتها نتائج «الحرب الباردة» التي كانت قائمة بين الكتلة الشرقية بقيادة الاتحاد السوفييتي السابق، والكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، والتي جرت من خلال تقنيات المعلوماتية الإلكترونية، وانتهت بتحقيق الولايات المتحدة الأمريكية لنجاحات كبيرة في المجالات العسكرية على الاتحاد السوفييتي الذي تحمل خسارة فادحة في المواجهات المعلوماتية الإلكترونية. ولكنها سرعان ما أصبحت مسبباتها مفهومة من قبل الروس، وجرى تقييم نظرة القيادتين العسكرية والسياسية في الولايات المتحدة الأمريكية لدور المعلوماتية من قبل الباحثين الروس سكفرتسوف أ.، وكلوتكوف أ.، وتوركو م. في دراستهم «استخدام العوامل الجغرافية والسياسية من أجل القيام بمهام الأمن القومي والحكومي» وأشاروا في تقييمهم إلى أن أسبابها كانت في الزيادة

الدائمة بتمويل مشاريع تطوير وترشيد تكنولوجيا المعلوماتية. وأنه في عام ١٩٨٠ فقط أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية نحو ٨ مليار دولار أمريكي على شراء تكنولوجيا المعلوماتية، بينما أنفقت في عام ١٩٩٤ أكثر من ٢٥ مليار دولار أمريكي. وإذا حاولنا بشكل موضوعي تحليل أسباب هزيمة الاتحاد السوفييتي في «الحرب الباردة»، يجب أن نشير إلى أنه إلى جانب الجوانب الاقتصادية، والأيديولوجية، وغيرها، كانت هناك نواح سلبية نتجت عن عدم تقدير القيادات العسكرية والسياسية في الاتحاد السوفييتي لدور وأهمية عوامل المعلوماتية الإلكترونية، وغياب التكنولوجيا الفاعلة اللازمة للمواجهات المعلوماتية الإلكترونية والاستشعار عن بعد وغيرها. خاصة وأنه مع بداية ثمانينيات القرن العشرين، زاد دور التأثير المعلوماتي والسيكيولوجي في العمليات السيكيولوجية التي نفذت من خلال نظام الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية بشكل ملحوظ.

وقدم رولاند ريغن بعد انتخابه مباشرة استراتيجية للأمن القومي تتألف من أربعة عناصر: دبلوماسية؛ واقتصادية؛ وعسكرية؛ ومعلوماتية. وأوضحها كتاب «العمليات السيكيولوجية ومواجهتها» بأن الهدف من تركيزها على عناصر المعلوماتية الإلكترونية كان الحفاظ على الوثائق التي تهم الأمن القومي. وأن رونالد ريغين وقع في يناير/ كانون ثاني عام ١٩٨٣ على وثيقة «قيادة دبلوماسية الدولة، وأهداف الأمن القومي»، التي أعطت تعريفاً أشمل لنشاطات الدبلوماسية الحكومية، وأكدت على أنها «تتضمن نشاطات حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، من أجل توفير الدعم لسياسة الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية». ومثل هذا التفسير يعني طبعاً تنظيم وإدارة وتنفيذ نشاطات معلوماتية وثقافية واسعة. والأكثر من ذلك وفر هذا التفسير الظروف اللازمة لإعداد آليات للتخطيط والتنسيق في مجالات النشاطات الاجتماعية، والمعلوماتية، والسياسية، لإدارة الولايات المتحدة الأمريكية، وفي المسائل المتعلقة بالبث الإذاعي المسموع والمرئي. ومن بينها كانت الجهود التي بذلها جورج سوروس في عام ١٩٨٧ كمحاولة أولى لدخول الساحة المعلوماتية للإتحاد السوفييتي بهدف تنفيذ برامج رونالد ريغين لمحاربة «إمبراطورية الشر»، وتنفيذ عناصر المعلوماتية الإلكترونية للبرنامج الأمريكي للأمن القومي. وكان جورج سوروس قد حصل على شهرته العالمية في البداية عام ١٩٩٢ عندما قام بعمليات مالية أدت إلى انهيار سعر الجنيه الإسترليني، وحصل نتيجة لتلك الأزمة على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أرباح بلغت نحو ملياري دولار أمريكي، استخدمها لإقامة صندوق سوروس للنشاط على ساحة الدول الاشتراكية في أوروبة الشرقية، ويعمل الصندوق في الوقت الحاضر في أكثر من ٣٠ دولة، واستطاعت بيلاروسيا فقط منع نشاطات الصندوق قانونياً وعملياً، بعد أن مول نشاطات المعارضة المعادية للرئيس البيلاروسي، وتبعتها روسيا بإجراءات مماثلة.

ومع استلام إدارة رونالد ريغن السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية جرت تغيرات جذرية في نظرية وتطبيق تأثيرات الأمن المعلوماتي. ورافقها عصر الصراع العالمي للسيطرة على الوعي الاجتماعي للشعوب باستخدام تكنولوجيا المعلوماتية الإلكترونية الحديثة، ونشطت من خلالها أجهزة الإدارة الحكومية الأمريكية والتجمعات العابرة للقارات. وغدت الأجهزة الحكومية في عهد رونالد ريغن تستخدم بشكل كبير وبنوعية عالية مراكز تنسيق التأثير المعلوماتي والسيكولوجي. ولعب مجلس الأمن القومي دوراً مركزياً في عملية تنسيق نشاطات الأجهزة المختصة بوسائل المعلوماتية الإلكترونية والسيكولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي الأجهزة المتخصصة ببرامج «الدعاية السيكولوجية، والأمن القومي». واعتبر مجلس الأمن القومي الفقرة الرئيسية في نظام إجراء عمليات سيكولوجية إلى جانب الهيئات الحكومية، والمنظمات الدولية، والإدارة المركزية للاستخبارات الأمريكية، ووكالة المعلومات في الولايات المتحدة الأمريكية (يوسيدا). ورافقتها آليات عالمية لتنسيق التأثير المعلوماتي والنفسي على المجتمع الدولي، شملت نشاطات: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية؛ ومجلس الأمن القومي؛ والوزارات والإدارات والمنظمات في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن دون أدنى شك أن تنسيق نشاطات أجهزة المعلوماتية الإلكترونية، والسيكولوجية، في المنظمات الحكومية، والاجتماعية، والتجارية، أتى بثماره وساعد الولايات المتحدة الأمريكية على دخول الساحة المعلوماتية الإلكترونية العالمية. حتى إن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى اليوم من خلال تطويرها لشبكة الإنترنت لوضع استراتيجيتها الخاصة لقيادة الساحة المعلوماتية العالمية في القرن الحادي والعشرين.

وفي إطار المواجهات الجارية عالمياً من خلال التركيز على أفضليات الأمن القومي حملت الفيدرالية الروسية مؤسسات البحث العلمي النظرية والتطبيقية مهمة إعداد اتجاهات جديدة لمواجهة مشاكل الأمن السيكولوجي. وجرى في الفيدرالية الروسية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطبيق نظام لتوفير مستوى ضروري لحماية أمـن المواقـع الشخصيـة، والاجتماعيـة، والحكومية، اعتماداً علـى قانون «الأمن». ولكن البعض يرون في هـذا القانون وغيره من القواعد القانونية، أنها لا تتضمن مفهوم «الأمـن السيكيولوجـي» في الأمن القومي الروسـي، ولا التبدلات الجذريـة الجارية سريعـاً في العالم خلال الآونة الأخيرة، وكلها تحتاج لحل مشـاكل المعلوماتية الإلكترونية والسيكيولوجيـة للأمن القومـي الروسي، وحمايـة السكان والعسكريـين من تأثيرات المعلوماتيـة الإلكترونيـة والسيكيولوجيـة السلبية. ولمواجهة الوسائل الجديدة للتأثير على سيكيولوجية البشـر وإدارة تصرفاتهم التـي حدثـت فعـلاً. وظهرت مـن خلال التفاعـلات الدائمـة للمعلوماتية الجديدة الناتجة عـن البرامج الأمريكيـة «إم كيه- أولـترا»، و«أرتيشـوك»، ومـا يشبههمـا من البرامج، المعدة في فرنسا، وألمانيا، وإسرائيل، واليابان، وغيرها من الدول.

وكمـا هو معـروف فـإن المعلوماتية في جميـع مراحل تاريخ تطورهـا كانت هدفاً للمواجهـات. والمواجهـات المعلوماتيـة الإلكترونيـة جرت عملياً خلال كل الحروب الحديثة. ويعتمد مضمونها أساساً على تقديم مؤثرات مختلفة من قبل الجهات المتصارعة، والقيام بعمليات الاستطلاع ومحاربتها على المـدى الطويـل. ولوحظت تبـدلات كمية ونوعية في المواجهات المعلوماتية الإلكترونية استخدمت في مجال إنشاء الساحة المعلوماتية العالميـة منذ بداياتهـا الأولى. وأدت الثورة العلميـة والتقنيـة إلى انقـلاب حقيقي في طرق ووسائل تقـديم المعلوماتية للنشاطات الإنسانيـة. وظهر إعـلام جماهيري موجه لأوسـاط غير محددة مطبوعـاً، ومسموعاً، وعـن طريق أفـلام الفيديـو، وغيرها من الوسائط الإخبارية. وأحدثت وسائط سريعة لنشرهـا. وهنا يجب التمييز بين المواجهات المعلوماتيـة بمفهوميهما الواسـع والضيق، إن كان في المجـالات العسكرية الهجومية أو الدفاعية. لأن المواجهـات المعلوماتية وفق المفهوم الواسع ما هـي إلا شكل من أشكال الصراع، تستخدم فيه وسائل خاصة سياسية، واقتصادية، ودبلوماسية، وعسكرية، وغيرها من الطـرق والوسائل للتأثـير على الوسط المعلوماتـي الإلكـتروني للمتواجديـن على الساحـة المعلوماتية الإلكترونيـة، وحماية المصالح الخاصة وبلوغ الأهداف الموضوعة من قبل القائمين بالاتصال.

والمواجهـات المعلوماتيـة في المجـالات العسكرية ما هي إلا مجموعة من الإجراءات هدفها توفير المعلومات، والتأثير المعلوماتي، وحماية المعلومات الجاري تداولها من أجل التخطيط للاستيلاء والتفوق المعلوماتي على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخصم أثناء الإعداد والقيام بالعمليات الحربية، والدخول إلى الساحات المعلوماتية القومية، والعالمية، والإقليمية. وهنا لابد من الإشارة إلى شكلين من أشكال المواجهات المعلوماتية الإلكترونية في المجالات العسكرية وهي: -مجالات تكنولوجيا المعلوماتية؛ - ومجالات المعلوماتية السيكولوجية.

وتعتبر التكنولوجيا هدفاً رئيسياً للتأثير أثناء القيام بالمواجهة المعلوماتية الإلكترونية. وتعتبر نظم المعلوماتية التكنولوجية أثناء الدفاع من: نظم الاتصالات، ونظم الاتصالات المرئية، ووسائل الاتصال المسموعة، وغيرها هدفاً رئيسياً للدفاع من التأثير؛ - وأن الهدف الرئيسي للتأثير والدفاع أثناء المواجهات المعلوماتية السيكولوجية هو الحالة السيكولوجية لأفراد القوات المسلحة، ووحدات الخدمات الخاصة، والسكان ضد الجهات المعادية؛ - ومجالات نظم تشكيل الوعي العام، والرأي العام واتخاذ القرار.

وتتضمن المواجهات المعلوماتية في المجالات العسكرية ثلاثة أوجه هي:

الأول: مجموعة الإجراءات الهادفة للحصول على المعلومات عن الخصم في ظروف الصراع المعلوماتي الإلكتروني؛ (الحالة العراقية من فرض الرقابة المعلوماتية الإلكترونية على العراق قبل اجتياحه من قبل قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية)- وجمع المعلومات عن القوات؛ (الحالة الإسرائيلية في مواجهة القوات العربية في جميع الحروب التي جرت بينهم)- والتعامل مع المعلومات وتبادلها بين الأجهزة ونقاط القيادة بهدف تنظيم والقيام بالعمليات العسكرية. (الحالتين اليوغسلافية، والعراقية) فالمعلومات يجب أن تكون مؤكدة ودقيقة بالكامل، والمعلومات يجب اختيارها في الوقت المناسب. ويرافقها إقرار المهام التي يجب أن تكون منطقية عن طريق اختيار المعلومات لإدارة القوات والأسلحة ضد الخصم.

والثاني: التأثير المعلوماتي. ويتضمن إجراءات منع الوصول، والتعامل مع المعلومات وتبادلها، وإدخال معلومات مضللة. (الحالة العراقية عندما قام الجيش العراقي بتضليل بعض الصواريخ الأمريكية الموجهة ضده)

والثالث: إجراءات حماية المعلومات، ومن ضمنها إجراءات الوصول للمعلومات الممنوعة، والضرورية لتوسيع مهام الإدارة، ومنع المعلومات المضللة، المنشورة والمدخلة في نظم الإدارة.

ونظرية المواجهة المعلوماتية الإلكترونية المعدة يجب أن تراعي أنها تجري على المستويين الاستراتيجي، والعملياتي. وأساساً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هي على المستوى الاستراتيجي ويجب أن يعمل بها الجهاز الأعلى للسلطة في الدولة، والاستخبارات والخدمات الخاصة، والقطعات العسكرية الميدانية، على المستويين العملي والتكتيكي.

ويختلف مفهوم «المواجهات المعلوماتية» و«الحروب المعلوماتية» عن بعضهما البعض. فالمواجهات المعلوماتية ما هي إلا مجموعة من الممارسات المشتركة للقوات، والوسائل المعلوماتية الإلكترونية أثناء المواجهات والصدامات المسلحة. ولكن الصراع المعلوماتي الإلكتروني يختلف عن الصراع المسلح، لأنه يجري في أوقات السلم وفي أوقات الحرب. وينمو دور ومكانة المواجهة المعلوماتية في نظم توفير الأمن القومي لأي دولة باستمرار. فالدول المتقدمة في العالم في الوقت الحاضر تملك مقدرات معلوماتية قوية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان، وفرنسا، وألمانيا، وغيرها التي يمكنها الوصول لأهدافها السياسية، في ظل غياب القواعد القانونية الدولية المحددة لإجراء المواجهات المعلوماتية الإلكترونية. ولحماية المواقع الاجتماعية من التأثيرات السلبية أثناء المواجهات المعلوماتية الإلكترونية العالمية، ولا بد من إحداث نظم لتوفير المعلوماتية الإلكترونية والسيكيولوجية كجزء أساسي من نظم الأمن القومي. وهذه النظم يجب أن توفر حماية الحالة السيكيولوجية للمواطنين والسكان والعسكريين من التأثيرات المعلوماتية والسيكيولوجية المعادية. وأن تكون مهمتها الرئيسية توفير الأمن السيكيولوجي للفرد، والمجتمع، والدولة.

ويتم تأثير المواجهات المعلوماتية الإلكترونية والسيكيولوجية عن طريق إنتاج ونشر معلومات خاصة موجهة، للتأثير إيجاباً أم سلباً على وظائف تطورات الوسط المعلوماتي والسيكيولوجي للمجتمع، وسيكيولوجية وتصرفات السكان، والعسكريين. وتعتبر مختلف أشكال التأثير المعلوماتي والسيكيولوجي تأثيراً سيكيولوجياً ودعوياً. ومع ظهور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الإلكترونية وتطورها السريع زادت الحاجة لحد كبير لتوفير آراء تؤثر بشكل كبير على التفاعلات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، وخاصة وظائف الوسط المعلوماتي والسيكيولوجي للمجتمع، والوضع السيكيولوجي للعسكريين أثناء الحروب والصراعات المسلحة. ولهذا يعتبر نظام تشكيل الرأي العام من المواقع الرئيسية لتوفير أمن المعلوماتية الإلكترونية والسيكيولوجية، ومن الضروري دراسة خصائص تشكل ووظائف الرأي العام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أثناء الصراعات المسلحة، وعلى أساسه يجب اختيار الطرق العملية لتوفير الأمن السيكولوجي للعسكريين. لأن المعلوماتية الواسعة المتوفرة للقوات العسكرية خلقت أوضاعاً نوعية جديدة تطور معها العمل العسكري. ومن مظاهرها الصراعات المسلحة والحروب خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين (الصراع العربي الإسرائيلي، والحرب اليوغسلافية، واجتياح أفغانستان والعراق). ومن تحليل تلك الصراعات نرى أنه أثناء العمليات العسكرية على أي مستوى في العالم المعاصر تحدد نتائجها بالكثير فنون إجراء المواجهات المعلوماتية الإلكترونية والاستشعار عن بعد. وظهر من دراسة الصراعات المسلحة في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين أنه جرى نقل الجهود من استخدام القوة المسلحة إلى وسائل التأثير المعلوماتي والسيكولوجي في المراحل المبكرة، من شهر إلى شهرين وحتى قبل عدة سنوات قبل بدء العمليات الحربية (الحالة العراقية)، وظهرت وسائل جديدة وأساليب للتأثير المعلوماتي الإلكتروني والسيكولوجي (الأسلحة المعلوماتية). لأن الأسلحة المعلوماتية الإلكترونية ما هي إلا أجهزة ووسائل مخصصة لإلحاق أكبر الخسائر بالجهة المقابلة أثناء المواجهات المعلوماتية الإلكترونية عن طريق تأثيرات معلوماتية خطرة، وتشتمل مواقع تأثير الأسلحة المعلوماتية الإلكترونية على: - نظم المعلوماتية الإلكترونية والتكنولوجية؛ -ونظم تحليل المعلومات؛ -ونظم المعلوماتية التكنولوجية، وتشمل مستخدميها من البشر؛ -والموارد المعلوماتية؛ -ونظم تشكيل الوعي الاجتماعي والآراء، التي تعتمد على وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية والدعوية؛ - وسيكولوجيا الإنسان.

إن تصنيف الأقطار العربية في تقرير عام ٢٠٠٣ جاءت أرقامه متدنية مشيرة إلى خلل في البنية الاقتصادية، والتنمية البشرية وكان ترتيبها الدولي وفق التسلسل التالي: قطر ٤٠؛ والإمارات٤١؛ والبحرين ٤٣؛ والكويت ٤٤؛ وليبيا ٥٨؛ وعمان ٧١؛ والمملكة العربية السعودية ٧٧؛ ولبنان ٨١؛ وتونس ٨٦؛ والأردن ٩٠؛ والأراضي العربية المحتلة ١٠٢؛ والجزائر ١٠٣؛ وسوريا ١٠٦؛ ومصر ١١٩؛ والمغرب ١٣٤؛ والسودان ١٤١؛ واليمن ١٥١؛ وموريتانيا ١٥٢؛ بينما جاءت الولايات المتحدة في المرتبة الـ١٠؛ وإسرائيل في المرتبة الـ٢٣.

ولمعرفة أشمل وللدخول في مكونات التنمية، والمعرفة، ومستوى المعيشة، ولاستقراء وتحليل الأرقام المكونة لعناصرهما ولنكون على قناعة بالواقع التصنيفي،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولمحاولة اقتراح بعض الحلول، يجب أن نستعرض ما تم في مجال المعرفة العربية وعمادها الأول: التعليم بجميع مراحله والذي يفترض أن يركز في تطويره على متطلبات الواقع المتبدل مع المحافظة على الأسس والمرتكزات الثقافية. فقد ازدادت أعداد الطلبة الجامعيين بسرعة، وارتفع الرقم من ١٦٣ ألف طالب عام ١٩٦٠ إلى ١,٤٤ مليون طالب عام ١٩٨٠، ووصل إلى أكثر من ٦,٢ مليون طالب عام ٢٠٠٠ في ١٧٠ جامعة على امتداد العالم العربي. واللافت للنظر أن التعليم لا يلبي احتياجات المجتمع المتطورة، فكانت نسبة أعداد العاطلين عن العمل من الخريجين الجامعيين تتزايد في استمرار، إذ لم يكن هناك ربط وترابط بين الحاجة ونوعيات التخصصات في التعليم.

بينما في الولايات المتحدة الأمريكية، ورغم التطور العلمي والتعليمي فقد عمد الكثيرون من المدرسين والمدربين إلى استخدام الشبكة الدولية للمعلوماتية لبث مواضيع تتناول إدارة الأعمال، والتسويق، والبرمجة، وغيرها من المواضيع التي تهم المجتمع عبر شبكات المعلوماتية الإلكترونية، ووجدت حوالي ٢٠٠٠ مؤسسة تعنى بهذا التوجه، مما شكل نسبة ٧٠٪ من الجهود التعليمية مقارنة بالجامعات، وكان من المتوقع أن تصل نسبته إلى ٩٠٪ في مطلع عام ٢٠٠٧، ورغم كل التغييرات الإيجابية التي حدثت فقد اكتشفت الولايات المتحدة الأمريكية ومنذ عدة سنوات أن التعليم في اليابان، وكوريا، ومناهجهما تتفوقان على المناهج المتبعة في الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا عقد المختصون مؤتمراً تحت عنوان «الأمة في خطر» لتدارك نواقص التعليم، وللعودة إلى تفوق الخريجين على نظرائهم في العالم، وتنبهت العديد من دول العالم إلى أهمية التعليم في التنمية الشاملة، وعقدت إحدى البلدان النامية مؤتمراً لتطوير التعليم تحت عنوان «أمة لها مستقبل».

وفي هذا الإطار ومع أهمية التطوير التعليمي الذي يحافظ ويثبت الأسس الثقافية، فقد عملت أقطار عربية عدة على تغيير مناهجها لا باتجاه تغطية الاحتياجات إنما في اتجاه محو الإرثين التاريخي والديني بغرض تجفيف «منابع الإسلاميين»، وازدادت حدة التغييرات بعد أن أصبح «الإرهاب» يربط بالدين الإسلامي تجنياً على قيمه السامية وعلى معتنقيه. وهذه الحكاية قديمة، إذ أسست في عام ١٩٧٩ منظمة عالمية ترعاها «اليونسكو» وأطلق عليها اسم منظمة «الإسلام والغرب» ترأسها اللورد كارادون وتكونت من خمسة وثلاثين عضواً عشرة منهم من المسلمين، وجاء في دستورها في العام ذاته: «أن مؤلفي الكتب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المدرسية لا ينبغي لهم أن يصدروا أحكاماً على القيم سواء صراحة أو ضمناً كما لا يصح لهم أن يقدموا الدين على أنه معيار أو هدف، ومن المرغوب فيه أن الأديان يجب عرضها ليفهم منها التلميذ ليس أهداف الدين الأساسية لكن ما تشترك فيه أيضاً مع غيرها من الأديان، وكان الواضح والجلي أن تختزل المعلومات الدينية إلى مجرد طقوس وعبادات بدل الرؤية الشاملة والمنهجية والعلمية للإنسان والكون والحياة».

وبدأت الضغوط على الحكومات الرسمية ولاسيما حكومة الولايات المتحدة الأمريكية منها لإجراء تعديلات جوهرية على المناهج الدينية والتاريخية، لا بل ووضع صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي شرطاً ملزماً لتقديم القروض، وهو تغيير المناهج واستبعاد أجزاء من المقرر، والشرط نفسه فرضته الدول الأوروبية على دول جنوب المتوسط الراغبة في الدخول إلى الشراكة الأوروبية، وحتى الدخول في اتفاقية التجارة الحرة «ألغات»، وكان شرطها الأساسي تعديل المناهج وتغييرها، وتغير المناهج بدأ من مصر بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وجرت في تلك الفترة قفزة واسعة في التغيير، واستمر التغيير حتى في السنين الأخيرة، بحيث شطب قسم من التاريخ العربي لصالح التاريخ الفرعوني وحتى مناهج الأزهر لم تنج من ذلك.

ومثل ذلك جرى في الأراضي المحتلة بعد توقيع اتفاقية أوسلو، فقد غيرت كل المواضيع التي تحض على مقاومة الاحتلال، وقالت مدرّسة فلسطينية: «إن مادة التربية الدينية لم يطرأ عليها أي تغيير منذ عهد الاحتلال الصهيوني والتزمت بصيغة الحياد والبعد عن واقعنا الفلسطيني» ومنعت سلطات الاحتلال تدريس بعض الآيات القرآنية من سورة الأنفال لأنها تحض على المقاومة والجهاد، والتعليمات الصادرة عن وزارة التربية والتعليم الفلسطينية حذرت من الخوض في اتفاقية السلام أو طبيعة الجهاد، وطال التغيير دولاً عربية أخرى، والهدف من كل ذلك كان محو الإرثين الثقافي الإسلامي والعروبي لهذه الأمة. وهذا لا يعني أنه لم يطرأ أي تغيير على المناهج العلمية من أجل تحديثها لكن ذلك لم يكن له التأثير الكبير على الحياة العامة.

ومستويات المعيشة: هي الركن التقييمي الثاني لمعدلات التنمية البشرية، وبينت الدراسات أن الناتج المحلي الإجمالي العالمي ارتفع من ثلاثة آلاف بليون دولار عام ١٩٦٠ إلى ٤٠٨٥٠ بليون دولار عام ٢٠٠١، لكن الهوة اتسعت أكثر وأكثر بين الفقراء والأغنياء، ومن بين كل خمسة أشخاص يعيش شخص تحت خط الفقر، أي دخله اليومي يقل عن الدولار، وهو المؤشر على حدود هذا الخط،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد عـرّف تقرير صادر عـن هيئة الفقر الوطنيـة الفقر عام ١٩٩٨، بأن الفقراء هم أولئك الذين ليس بمقدورهم الحصول على سلـة السلع الأساسية التي تتكون من الغذاء والملابس والمسكن، إضافة إلى الاحتياجات الأخرى مثـل الرعاية الصحية والمواصلات والتعليم، كما وأن الإحصائيات الدولية تشير إلى أن نحو ٣٠٠ مليون شخص يشكلون ١٤٪ من سـكان العالم انتقلـوا في الآونة الأخيرة مـن الفقر إلى حافة الجـوع، وأن ١٣ طفلاً يموتون جوعـاً كل دقيقة في الدول الفقيرة، ويتوقع الباحثون أن يتضاعف عدد الفقراء في العالم إلى ٤ مليارات نسمة خلال السنوات العشر القادمة، ففي عـام ١٩٧١ كان عدد الـدول الفقـيرة في العالم ٢٥ دولـة وارتفع هذا العدد إلى ٤٨ دولة في مطلع تسعينيات القـرن الماضي ليتجـاوز الرقم ٦٣ دولة في عام ٢٠٠٠.

أمـا في العالم العربـي فقد حذر المؤتمر الثامن للجمعية العربية للبحوث الاقتصادية الذي انعقـد في ٢٠٠٧/٤/١٩ مـن ازدياد معدلات الفقر في الـدول العربية مبيناً أن أكثر من ثلثي سكان العالم العربي يعانون من الفقـر، وسيزداد عدد سكانـه خلال الـ٢٠ عامـاً القادمـة بمقدار ١٥٠ مليـون نسمة بينما عددهم الحـالي ٣١٠ مليون، وبالتالي فمعـدلات البطالة سترتفع مـن ١٥ مليون حاليـاً إلى ٥٠ مليون مستقبلاً، لذلك طالب المؤتمر برفع نسبة معـدلات النمو السنوي إلى ما بـين ٥-٦٪، وبينت نشـرة أصدرها البنـك الدولي أنـه كان في مصـر واليمن والضفـة الغربية وقطاع غزة المحتلين أعلى نسبة في الفقر، وأن نسبة الفقر في الأراضي العربيـة المحتلة أعلى من نسبـة الجزائر، وأن الأرقـام هـي ٢٠,٣ مقابل ١٥,١على التـوالي، وعاد تقرير التنميـة البشرية عام ٢٠٠٦ ليثبـت تقريبـاً التسلسلات الرقمية التـي ذكرناها مع تعديلات طفيفة، وتراجع ترتيـب مصر من رقم ١٠٩عـام ١٩٥٥، إلى ١٢٠ عـام ١٩٩٩. وأن دخل الفرد في اليمن متـدن جداً ويصل إلى ٣٨٠ دولاراً سنوياً، كمـا وأن ٤٠٪ من سـكان الجزائر يعيشون تحت خط الفقر، وفي العراق بعد الاحتلال ارتفعـت النسبة لتصل إلى ٧٢,١٪ في المدن والمناطق الحضرية وإلى ٨١,٨٪ في المناطق الريفية، وعزا الباحثون الضعف في التنمية إلى انتشار الفساد والإنفاق العسكري. وبينما كان متوسط إنفاق الفرد على الدفاع عالمياً يبلغ نحو ١٤١ دولاراً، كان في الدول النامية ٢٤٠ دولاراً، بينمـا كان في الكويـت ٢٠١٩ دولاراً، وفي سلطنة عمان ١١٤٩ دولاراً، وفي هـذه النقطة بالذات تتباين الآراء بين مؤيد ومعارض. فالمؤيدون يرون المبرر لهذا الإنفاق في الأخطار المحيطة بالعالم العربي، بينما يرد

آخرون بأن من ينفقون أكثر على التسليح هم ممن يطبعـون ويقيمون العلاقات مع العدو الإسرائيلـي، وأن شراء المعدات والتجهيزات ليس إلا تنفيـذاً لأوامر الولايـات المتحدة الأمريكيـة لتلبية أوامـر احتكارات السلاح الأمريكي أصلا، ولاحظ بعض الباحثين أن الأنظمة التي طـال عمرها وظلت محتفظة بمواقعها القيادية تتراجع الأوضاع الإنسانية والبشريـة في بلدانها عامـاً بعد عام وتعتبر هـذه الأنظمة دليلاً على «نجاح» في تحقيق تطلعات وأماني شعوبها.

وأمام هذا الواقع القـاتم المؤلم فلم تعد هناك من حالة مزريـة إلا ولها أثرها على الحياة العربية من احتـلال مباشر وتأجيج للصراعات الأهليـة والحركات الانفصالية وقمـع للحريات، بينمـا بعـض مؤسسات المجتمع المدني ما هـي إلا واجهات لا حول ولا قـوة لهـا، وأن الانصياعـات المتمادية والمتكاثـرة لأوامر خارجية ضاغطة لا تريد إلا تدمير القيم والأصول والروح والشخصية العربيـة والتاريخ والثقافة وحتى المعتقدات الدينية. وفوق كل ذلك يخيم عليها جميعها البؤس والفقـر الذي أصبح عناوين المرحلة الحاليـة، وتحديها لا يكـون إلا في التنمية الشاملة وهي الحل المؤمل والواجب والملزم، لأن فيه الرد الواقعي على محاولات الغرب، وإسرائيـل، وأعداء الأمـة، ومن يسيرون في ركابهم ليبقوا المنطقة وفـق رأي العديدين وفي طليعتهـم جيمس بـرادون نائب وزيرة الخارجية الأمريكيـة السابقة أولبرايت في مقال كتبه في الغارديـان ينصح فيه الغرب وليس الولايات المتحدة الأمريكية فقط بأن يحافظ الجميع علـى المسلمين أذلاء فقراء لأنهم كلما تحرروا أو اغتنوا تمردوا.

إذن، فالحريـة والتنمية والأمن عناوين لعـودة الروح لهذا الوطـن الغالي بشموليته ولابد من استراتيجية تنموية تغطي مساحات شاسعـة من فـروع التنميـة: الاقتصادية، والسياسيـة، والبشريـة، والثقافيـة، والاجتماعية، وتحقق أهداف الأمن القومي والمعلوماتي وتكفينا المآسي التي جرتها علينا بعض الأنظمة، ودمرت كل شيء، ولا بد من العودة إلى الشعـب ومؤسساته المدنية التي هي الأصل والحـل. وجميعنا لا يعرف أين يسـير في ظل هذه الأوضـاع المزرية، ولا بد من فعل شيء ليعود الألق وتكثر الانتصارات وتلتـف الجماهير حول قياداتهـا المخلصة وتنتصـر، لأنهـا حقيقة تاريخيـة لايمكن نكرانها ولايمكن التخلي عنها.

معارك تاريخية مظفرة خلدها الشعر العربي

د. نزار عوني ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حفـل شعرنا العربي القديم بقصائد غراء، دبجت بمداد المآثر الخالدة، وسبكت بلغات الرماح والسيوف، فكانت سفراً رائعاً، يطالع فيه المرء ما كان لأجداده من صولات وجولات، يقرأ في ثناياه ملامح المجد التليد الذي صاغه رجـال صدقوا فأوفوا، وقاتلوا فانتصروا، فكانت لنا من أيامهم ذخيرة العزة والشمم. ولعلَّ أروع تلك الوقائع هي التي سبكها شعراً أبو فراس الحمداني، وأبو الطيـب المتنبي، وأبو تمام الطائي، وابن هانـئ الأندلسي، وابن عنين،

٭ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان مصطفى الصافي.

وآخـرون كثر، سجلوا الملاحـم التي سمعوا أنباءهــا أو اشتركوا فيهــا، فأشاعوا عرف البطولات، وأذاعــوا في الأصقاع ما صنعته العزائم العربية من أمجاد وانتصارات.

ورغم أن الحكم على تفوق هذا الشاعر أو ذاك لا يعدو أن يكون ضرباً من الانطباعات التي تخلقها هــذه القصيــدة أو تلك، فإن من بــرع من الشعراء وأجــاد إجادة ظاهرة في جانــب تصوير المعارك هــو الحارث بن سعيد أبو فراس الحمداني الذي اجتمعت له إمارة السيف والقلم اجتماعاً ندر أن يتم لغيره، فكان فحل الكلمة والميدان، وصاحب البيــان والطعــان، كيف لا وهــو الذي قاد بنفسه جيوشاً صنعت المعجزات الخالدات، ففي قصيدتــه «الرائيــة» الذائعة الصيت يصور أبو فراس بلغة الشاعر المقتدر معركة طاحنة مع جيوش الروم، وفيما يتتبع القارئ تفاصيل الملحمة تتبعاً دقيقاً، بدءاً من تقدم الجيشين، وانتهــاء باستثمار الفوز وتعزيزه، فها هو يصف تقــدم جيشه في بلاد العدو، واقترابه من جيش الروم بعد أن سارت كتائبه العربيــة ستين ليلة متواصلــة وعبر الأبيات التي يسوقها الشاعر في هذا الاتجاه يلحظ القــارئ عظمة جيشــه، ويستشف الثقة في نفوس رجاله، وهم سائرون إلى سوح الوغى. يقول أبو فراس الحمداني:

وجـبن بـلاد الـروم ستين ليلة
تـغـادر ملك الـروم فيمن تغادر
ولما أردنـا (الـدرب) والـروم فوقه
وقـد (قسطنطين) أن ليس صادر
ضربنا بها عرض (الفرات) كأنما
تـسيّرنا تحت السروج الحوائر
إلى أن وردنـا (الرقـتين) نسوقها
وقـد نكلت أعقابها والمقاصر

وتدور الدائــرة على الأعــداء، وتلتقي الأسنة، وتتقارع الكتائب، ويتمكن أبو فراس الحمــداني وجيشه من دحــر (قسطنطين) الذي يولّي هارباً، مستنجداً بقوات جديدة، فيأتيــه المــدد من قائــد رومــاني آخر هو (الدمستــق) فيعمــل أبو فراس السيوف في الجيش الجديــد، فــلا تنفــع الكثرة ويولّي (الدمستق) الأدبار. ويقول أبو فراس الحمداني:

ومازلن يحملن النفوس على الوغى
إلى أن خضبن بالدماء الأشاعر
وولى على الرسم (الدمستق) هاربا
وفي وجهه عذر من السيف عاذر

لقــد تحملت خيــول الحمــداني عبء المعركــة ثقيــلا، إلى أن خضبــت أشاعرها بالدمــاء، وكل ذلك كان ثمنــاً للنصر، حيث اندحر جيش الروم شر اندحار.

ولم تكــن قصيــدة أبي الطيــب المتنبي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«الحدث الحمراء» إلا واحدة من غرر الشعر العربي، ففيها خلد الشاعر واحدة من أعنف الوقائع وأشدها هولاً، فجاء النصر فيها على قدر المصاعب التي حملها الرجال، وكانت الكرامة بحجم ما بذل الأبطال، يقول المتنبي في مطلع القصيدة

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

لقد رافق الشاعر القائد العربي سيف الدولة في تلك الوقعة فأذهلته عظمة جيش الروم الذي ملأ الأرض، وسد منافذ الكون، لأنه جمع فرساناً من كل الأصقاع والألسن، لا رابط بينهم سوى قتال العرب، يقول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيه كل لسن وأمة
فما تفهم الحدّاث إلا التراجم
فلله وقت ذوّب الغش ناره
فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

ثم يتحدث الشاعر عن دخول سيف الدولة المعركة، حيث أطبق جيشه على جيش الروم، وأحاط به من كل الجهات، ففر من آثر الحياة ومات من بقي في الميدان، فكان النصر حليف سيف الدولة وجيشه العربي المقدام، يقول المتنبي:

تقطّع ما لا يقطع الدرع والقنا
وفرّ من الأبطال ما لا يصارم
ضممت جناحيهم إلى القلب ضمة
تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللبّات والنصر قادم

لقد فتك سيف الدولة بالأعداء شر الفتك، ونثرهم قتلى على الحضيض، وانجلت المعركة لصالح الجيش العربي، يقول المتنبي:

نثرتهم فوق الأحيدب نثرةً
كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرا
وقد كثرت حول الوكور المطاعم

وإذا جاز لنا أن نسمي وقعة «عمورية» باسم، فإنها تستحق أن تسمى ملحمة الكرامة العربية، ففي هذه الوقعة أسقط العرب هيبة الروم، فكانت وقعة ولا كل الوقائع، استطاع المعتصم فيها أن يسجل نصراً مشهوداً على أعدائه. وقد خلد الشاعر أبو تمام الطائي هذه الوقعة بقصيدة عصماء تناول في مستهلها دعاوات الأعداء في أن «عمورية» لن تسقط أبداً، وأن أي جيش لا يمكن أن يدخلها، فوقف الشاعر يصب شواظ غضبه على المنجمين وأصحاب الأقوال المغرضة، مشيراً إلى أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

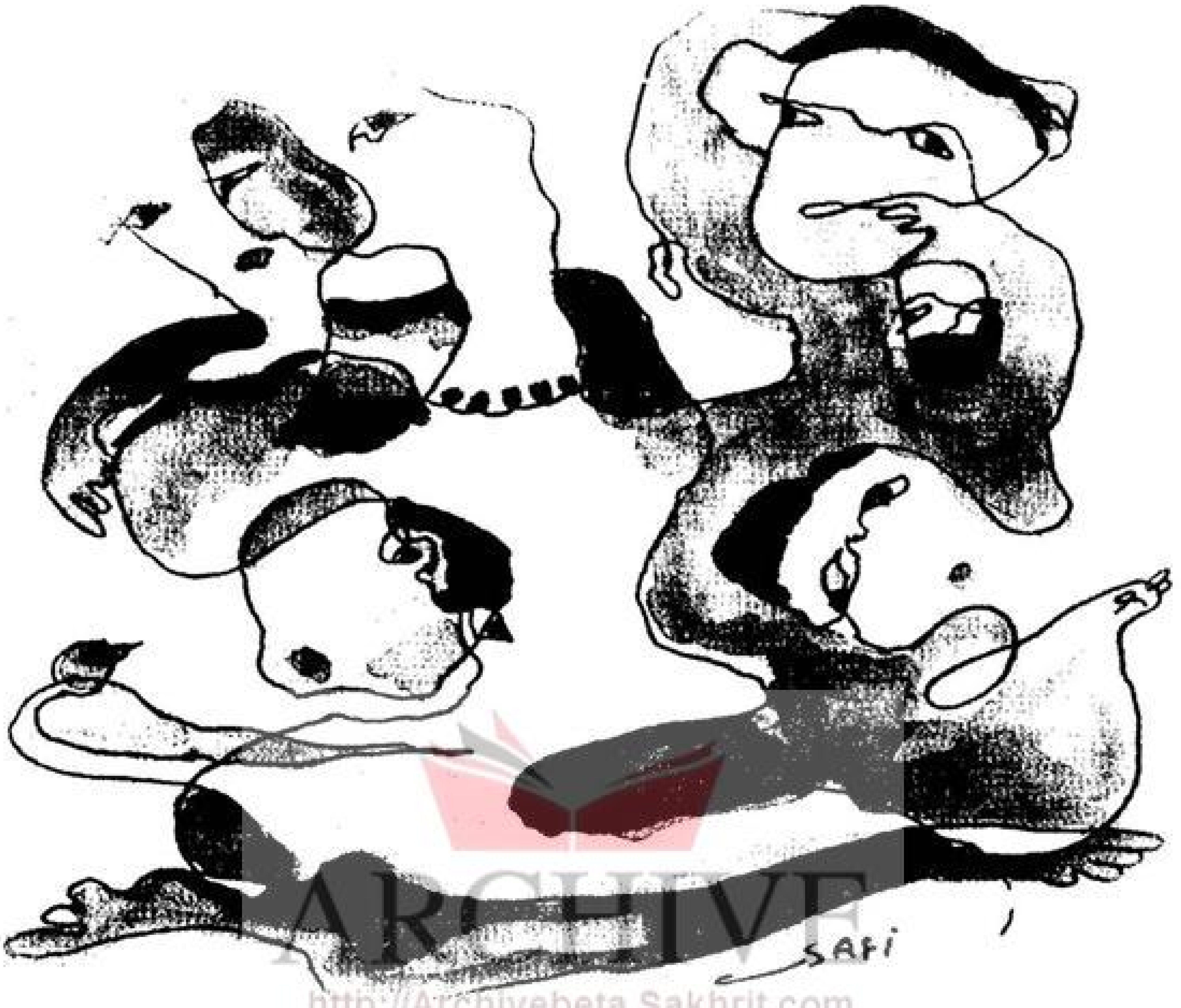

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لغة السيف هي أصدق اللغات، وفي هذا رفع لمعنويات جيش المعتصم، ورد على ما يروجه الأعداء من أنهم أقوياء لا يهزمون، وكأنه ينبهنا هنا إلى حملات التشكيك التي يقوم بها الأعداء من أجل خلق الضعف في نفوس المقاتلين، ففي هذا يقول:

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب

أجل لقد كانت «عمورية» عصية على الفاتحين منذ أقدم العصور، إنها فتية تتحدى كل من جاءها فاتحاً.. أما المعتصم فقد قهر أنقرة وتركها موحشة، وأتى عمورية وجعلها نهبا للنيران، وحوّل ليلها إلى نهار يخطف بريقه أبصار المتحصنين بها.

يقول أبو تمام:

وبرزة البلد قد أعيت رياضتها
كسرى وصدت صدودا عن أبي كرب

من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى
يشله وسطها صبحٌ من اللهب

ويروي الشاعر تفاصيل سقوط «عمورية» فقد هاجم الجيش العربي الأبراج، وهدم فيها المعاقل الحصينة والنقاط المنيعة، كل ذلك بقوة العزيمة وعظمة الإيمان يقول:

رمى بك الله برجيها فهدّمها
ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها
والله فتّاح باب المعقل الأشب
وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد
للسارحين وليس الورد من كثب

وحين علم (توفلس) قائد القلعة المحاصرة بأن الهزيمة لاشك واقعة، عمد إلى المال، وراح يبذله لجيشه علّه يصمد، ولكن هذا البحر اللجب من عطائه لجنوده لم يجد نفعاً، لأن المعتصم غزا ثأراً للكرامة لا طلباً للمال، وشتان بين من يقاتل من أجل المبدأ وبين من يقاتل انبهاراً ببريق الذهب، يقول أبو تمام في ذلك:

هيهات زعزعت الأرض الوقور به
عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
أحذى قرابينه صرف الردى ومضى
بحيث أنحى مطاياه من الهرب

لقد فر توفلس سريعاً، تدفعه رياح الخوف إلى هاوية الهزيمة بعد أن ترك تسعين ألفاً من جنوده طعاماً للنار، وقد أنضج لهيبها أعمارهم، يقول أبو تمام في هذا الموقف:

موكّلاً ببقاع الأرض يشرفه
من خفة الخوف لا من خفة الطرب
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
أعمارهم قبل نضج التين والعنب

ولم تكن موقعة «ثغر دمياط» سنة ٦١٩ هجرية أقل شأناً من موقعة «عمورية» ففي هذه المعركة استطاع الأيوبيون قهر الصليبيين الذين جاؤوا من كل حدب وصوب لإذلال العرب، وقد خلد الشاعر شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين هذه الوقعة، وفيها نعاين جيش الروم الضخم، وهذا أسلوب ذائع عند الشعراء القدامى، فمن عادة العرب أنهم لا يقاتلون الضعفاء، وإنما يتباهون بقتالهم الأقوياء، يقول ابن عنين عن لقاء الجيش العربي جيش الروم:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنّا
إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غداة لقينا دون «دمياط» جحفلا

من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

لقد هيأ الصليبيون أسباب الحرب كلها، وأطمعتهم كثرتهم ببريق النصر، ولكن هذا الغرور قد انقشعت غمامته، حين استفاقوا على صليل السيوف العربية التي سقتهم كأساً نفت عنهم الكرى، وحرمت عليهم المنام، حيث استجاروا من العرب بالعرب، يقول ابن عنين:

وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا

إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا

فما برحت سمر الرماح تنوشهم

بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

سقيناهم كأسا نفت نهم الكرى

وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

ويبين الشاعر دافع الصليبيين إلى حربهم العرب، فهم قد أتوا تحت ذريعة حماية الدين المسيحي في الشرق رغم اختلاف أجناسهم ولغاتهم الموزعة بين الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والجرمانية، ولكن يجمعها رأي واحد وهو مقاتلة العرب:

قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة

ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت

جموع كأن الموج كان لهم سفنا

ودارت الحرب، فقاتل الأعداء وصمدوا، وهذا الاعتراف الذي يسوقه الشاعر ليس مجانياً، وإنما لإبراز قوة العرب، فلم يجدوا من سبيل سوى الاستسلام، بعد أن رأوا الموت من زرق الأسنة أحمر:

لقد صبروا صبراً جميلا ودافعوا

طويلا فما أجدى دفاعُ ولا أغنى

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا

فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا

أما ابن هانئ الأندلسي، فقد خلد معركة فاصلة من معارك الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مع الروم وذلك في قصيدته الذائعة التي يقول فيها:

يوم عريض في الفخار طويل

ما تنقضي غرر له وحجول

ويبدو أن الشاعر قد أدرك أثر الروح المعنوية في نفوس المحاربين قبل دخول المعركة، حيث راح يذكر الجيش العربي بهزائم الروم، ويظهر كيف أن الروماني «الدمستق» قد غرر بأحد قواده واسمه «منويل»، فدفع به إلى حرب العرب، حيث

لقي حتفه، وكأن الشاعر يعني هنا أن مصير الآتين من الروم سيكون كمصير «منويل» الذي سبقهم إلى الموت، يقول ابن هانئ:

قل «للدمستق» مورد الجمع الذي
ما أصدرته له قنا ونصول
سل رهط «منويل» وأنت غررته
في أي معركة ثوى «منويل»

ثم يتكلم عن جيش «الدمستق» المتوجه إلى الحرب فنجده جيشاً جراراً يفوق الجيش العربي عدداً وعدة، ولكن لابد من النصر رغم العدد القليل، يقول الشاعر:

جمع الكتائب حاشداً فثناهم
لك قبل إنقاذ الجيوش رعيل
جاؤوا وحشو الأرض منهم جحفل
لجب، وحشو الخافقين صهيل

وقد لجأ الخليفة الفاطمي إلى أسلوب الحرب الخاطفة الحاسمة، حيث لابد من ذلك من أجل إنهاك العدو، وهذا ما كان، فقد دارت رحى الحرب، وسال الدم على الدم، وغاصت الخيول إلى ركبها بنجيع الفرسان، يقول ابن هانئ:

ثم انثنوا لا بالرِّماح تقصُّد
بادٍ ولا بالمرهفات فُلُول
لم يتركوا فيها بجَعْجاعِ الرَّدَى
إلاّ النجيعَ على النجيع يسيل

وكانت النتيجة أن اندحر الروم في حرب تأكل نفوس الفرسان وتشربها، ولم يجدوا بداً من الاستسلام وهذه هي جبلة الجبناء، وصفة الضعفاء، يقول الشاعر ابن هانئ في هذا الموقف:

حتى إذا ارتعص القنا وتلمّظتْ
حرب شروب للنفوس أكول
رجعوا فأبدوا ذلّة وضراعة
وإلى الجبلّة يرجع المجبول

أجل، لقد كانت للعرب أيام جديرة بأن تعاد بعزائم الأحفاد، فما زالت الأرض تنادي والحق يصرخ، فلتكن لنا من تلك الأيام الدروس العظيمة في البذل والإصرار على صنع النصر وحفظ الكرامة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنمية الموارد: بدائل الطاقة ضرورة ملحة

د. خير الدين عبد الرحمن ✻

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوضح بداية، أن التفاصيل الدقيقة لخيارات بدائل الطاقة والمفاضلة العلمية فيما بينها ليست هدف هذا البحث، فلهذه التفاصيل من هم أكثر تخصصا ودراية بها، لكنني أحاول رسم بعض ملامح غد تضطر فيه إدارة الموارد الطبيعية والبشرية في مجتمعاتنا إلى مواجهة ساعة الحقيقة، عارية صارخة، تصفع المتلكئين في الاستعداد الجاد لمقابلة القادم من التحديات.

تعاني التكنولوجيا في انطلاقتها الهائلة المتسارعة من سلبيات الأداء

✻ أديب وناقد وباحث سوري.

وثغرات التطبيق شأن كل ظاهرة جديدة، أو مرحلة من مراحل التغيير الحضاري التي تؤثر جذرياً في أساليب الإنتاج والاستهلاك والتعامل، وبالتالي في أنماط الحياة البشرية. لقد سعى كثير من الجهد إلى التطوير والتحسين على نحو يمنع الخلل من التفاقم والتحول إلى أزمة، ويمنع الأزمة من الاستحكام والتشعب والتحول إلى مأزق. فرضت التكلفة الباهظة للتقنية الفائقة High Tech. -على سبيل المثال- البحث المستمر عن بدائل أرخص أو أسهل أداء أو أغزر إنتاجاً أو أقل إرباكاً لكل من التفاصيل والأجزاء والأساليب والقواعد التنظيمية في أي مشروع. كما فرضت التعقيدات التقنية والترابط الشديد بين الوظائف والمسارات تشديداً أكبر وصرامة أشد في توفير واحترام معايير الأمان، بعدما صارت آثار أي خلل تتجاوز في الغالب موضعه وما حوله لتنتشر سلبياتها متسلسلة مكاناً وزماناً ووظائف ومراحل. لكن طيفاً فائق الاتساع والتنوع من العوامل يتدخل في إجراءات التطوير والإصلاح والتنظيم، فمن تغييرات تفرضها الابتكارات والاختراعات والاكتشافات الجديدة، إلى سياسات وإجراءات تتحكم بها العوامل الاقتصادية ومعايير الربح والخسارة والديمومة والتجديد، إلى اعتبارات سياسية محلية أو إقليمية أو دولية تفرض نفسها وتأثيراتها، إلى عوامل استراتيجية ترجح أمرا أو تجمد خطة.

لو استذكرنا مثلاً ما قد فتحه أي اكتشاف أو اختراع، فور الكشف عنه، من آفاق وتصورات مستقبلية تترتب عليها تغييرات فيما هو قائم مما يرتبط به، ومشاريع جديدة، وتعديلات متشعبة ومتعددة المجالات، ثم نقارن ما قد تم تطبيقه أو حدوثه على أرض الواقع فعلاً، فنجد اختلافاً، وأحياناً اختلالاً، بالقياس لما كان من تقييمات أولية. لا تقتصر أسباب الاختلاف والاختلال على مسائل علمية بحتة، أو قضايا فرضتها ظروف التطبيق وشروطه، وإنما كثيراً ما تشمل هذه الأسباب ما يبدو غير منطقي، أو غير اقتصادي، أو غير علمي. يحدث هذا في البلدان الأكثر تقدماً التي تقرر مصالح الاحتكارات الكبرى فيها دور صاحب القرار إلى حد بعيد، وكذلك في بلدان ما سمي عالماً ثالثاً. كما يحدث هذا على نحو أكثر وضوحاً في عالمنا العربي- حيث تتحكم مناورات السياسة اليومية البائسة التي طغت عليها شخصنة موغلة في تقديم الذات الفردية ومصالحها الضيقة على أي اعتبار آخر آني أو مستقبلي، بحيث كاد يصح ما قيل من أن كل شيء بات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسيساً في العالم العربي إلا السياسة التي ظلت متشخصنة قبلية متخلفة.

نأخذ مثلاً البدائل العديدة المتاحة التي امتحنت جدوى تطبيقاتها لاستخدامها بدائل للنفط في توفير احتياجات البشر من الطاقة. لقد تم تجميد العديد من تلك البدائل عندنا، على الرغم من سلامة الحكم عليها بكونها بدائل أفضل وأنظف وأرخص لعالمنا العربي بالذات. فكثيراً ما تتدخل حسابات الغرف المغلقة والمصالح المتحكمة بعيدة المدى متجاوزة ما هو راهن أو مباشر أو مجرد من عوامل واعتبارات. هذا ما يجدر بنا أن نعيه دائماً.

توقع ألفين توفلر مثلا موجة رابعة في بدايات هذا القرن الميلادي الحادي والعشرين يفرض فيها اتحاد الثورة الرقمية مع التكنولوجيا والثورة الحيوية (الوراثية) تغييراً جذرياً في الحياة البشرية، بعد الموجة الأولى التي بدأت قبل عشرة آلاف سنة بحياة فطرية بسيطة متماثلة العناصر والأساليب والأنماط في كل أنحاء كرتنا الأرضية، والموجة الثانية التي بدأت بالثورة الصناعية في أوروبة وأفرزت الحركة الاستعمارية لتوظيف موارد ثروات وجهود الأمم الأخرى في خدمة التغيير الذي أفرزته هذه الثورة في أوروبة إنتاجاً واستهلاكاً وأسلوب حياة وتعامل وتفكير، بعدما زادت سرعة إيقاع الحياة وسبل الاتصال والوصول في تنقل البشر وحركتهم وتعاملهم، ثم الموجة الثالثة التي تبلورت بعد أربعمئة سنة فقط من الموجة الثانية، أي في منتصف القرن العشرين، معممة دور المعلوماتية والإلكترونيات. لقد بدأت تطبيقات الطاقة الجينية تفرض الانتقال بعالمنا من عصر الطاقة التقليدية والثورة الصناعية إلى ثورة جينية تجتاح كل مجالات الحياة وعناصر الحضارة من زراعة وصناعة وتجارة ووقود وملابس ونقل وتعليم وأدوية وسواها، فتلغي ثلاثي نظرية آدم سميث في العمل، أي: (التخصص والجودة والإنتاج)، وهي العناصر التي قامت على أساس قدرات الإنسان في ظل الطاقة التقليدية المحدودة، ليحل محلها وضع غير مسبوق من الإنتاج الموحد فائق الاتساع والغزارة، ذي توالد ذاتي متسارع شديد الغزارة، إلى التراسل الإلكتروني عن بعد في التجارة والمبادلات والعلاقات والتنظيم والإدارة والتخاطب، وإلى اتساع آفاق التعامل مع الذات والآخر على مدى شبه لا نهائي يتطابق مع المدى الذي يتيحه الفضاء الإلكتروني..

لكن هذه الآفاق، مهما ابتعدت بالإنسان عن كوكبه الصغير المحدود، قد لا تستطيع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اقتلاعه ولو افتراضيا من الأرض إلا في أطر زمنية وعملية محدودة، بحيث يعود لمعطيات الواقع الأرضي الدور الرئيس في تحديد الخيارات والاحتمالات. وهنا تبدو مسألة بدائل الطاقة في غدنا محكومة بالمتاح أكثر مما هي محكومة بالافتراض. لكنها في الوقت نفسه خاضعة لقواعد ومصالح لعبة القوى الكبرى المهيمنة.

اتسعت تجربة استخدام الطاقة النووية مصدراً ظهر في بداية انتشاره نظيفاً وشديد الوفرة والغزارة لتأمين احتياجات الطاقة في الصناعة والحياة اليومية، بحيث تغطي حاليا ١٧٪ من الاحتياجات العالمية من الطاقة دون تلويث للهواء وتسبب بزيادة حرارة الغلاف الجوي من خلال إطلاق غاز ثاني أكسيد الفحم وسواه من المخلفات والنفايات الضارة، إذ تعادل الطاقة المستخرجة من ٢ سنتمتر مكعب من الوقود النووي التقليدي ما ينتجه طن ونصف من الفحم، ومن دون أن يتأثر إنتاج الطاقة من المفاعلات النووية بالأحوال الجوية.

عمل العلماء مثلاً لأربعين سنة من أجل استنباط وسيلة فاعلة ومتحكم بها لإحداث الدمج النووي، بحيث يتم مثلا تسخير الطاقة الهائلة التي تضئ الشمس أو تلك التي تفجر القنبلة الهيدروجينية في توفير مصدر سهل ورخيص لكهرباء نظيفة لاتسبب تلوث البيئة، أو صنع خلايا تختزن الطاقة الشمسية لتسيير السيارات براً والزوارق بحراً والطائرات جواً. وقد تمّ فعلا عرض زوارق شراعية إلكترونية تعمل بالطاقة الشمسية وأخرى تعمل بمحركات كهربائية في معرض لندن الدولي للزوارق سنة ١٩٩٣، كما تسير آلاف السيارات فعلا ببطاريات تختزن الطاقة الشمسية في شوارع عشرات المدن، ونجحت في تموز ٢٠١٠ رحلة طائرة نقل طارت لأربع وعشرين ساعة بالطاقة الشمسية المخزنة في خلاياها. كما صار متاحاً استخدام الطاقة المتولدة من حركة التيارات البحرية أيضاً، كما كان من الخيارات توليد الكهرباء من مخزون نظائر الهيدروجين في مياه الشرب العادية.

قبل ذلك، استطاع علماء من أربعة عشرة دولة في العام ١٩٩١، إجراء تجربة دمج نووي ناجحة للذرات(Fusion) بدلاً من الشطر التقليدي للذرات (Fission)، في المفاعل النووي الأوروبي المشترك بالقرب من مدينة أبنغتون البريطانية محققين إنتاج أكثر من ١٥٠٠ كيلوواط من الطاقة الكهربائية خلال ثانيتين فقط، فاعتبر مدير المشروع الأوروبي المشترك بول- هنري ريبو نجاح التجربة خطوة هامة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على طريق استخدام الدمج النووي مصدرا بديلا للطاقة. خلاصة التجربة التي كان من أول من شرح فكرتها سنة ١٩٥٠ العالم أندريه ساخاروف في الاتحاد السوفييتي السابق، تشكيل غاز الهليوم ذي الوزن الذري الأثقل من خلال تأمين التحام نويات ذرات الهيدروجين الحقيقية باستخدام مجالات مغناطيسية قوية تحصر التفاعل تحت درجة حرارة قدرها ٢٠٠ مليون درجة مئوية توفرها مفاعلات خاصة، مما يطلق دفعات هائلة من الطاقة [1]. إن الوقود المستعمل في مفاعلات الدمج أو الالتحام هو الهيدروجين الثقيل (الديوتريوم) الذي تحتوي نواته على بروتون واحد وإلكترون واحد، لكن تفاعله شديد الصعوبة. وقد أثبت باحثو هذا المركز الأوروبي إمكانية إنتاج طاقة أكبر بإضافة كمية صغيرة من مادة الترتيوم المشعة، وهي من نظائر الهيدروجين، وتضم نواتها اثنين من النيوترونات، بحيث يصبح تفاعل الديوتريوم والترتيوم أسهل بنحو ثلاثمئة مرة.

أثار نجاح هذا الدمج الكثير من التوقعات والآمال والخطط التي تجاوزت التفكير بعالم يستغني نهائيا عن الوقود المستخرج من باطن الأرض، الفحم الحجري والبترول والغاز، ويستغني عن استخدام مبدأ الانشطار النووي في المفاعلات النووية لاستخراج الطاقة الكهربائية أيضاً، الأمر الذي يحد من تفاقم كارثة التلوث البيئي التي تراكمت آثارها السلبية وتعاظمت على نحو بات يهدد الصحة العامة ونمط الحياة البشرية. كما أن المخاطر الناجمة عن التسرب والتلوث الإشعاعي ودفن النفايات النووية أو معالجتها أصبحت شديدة الوطأة، بحيث راحت دول عديدة تعمل على التخلص من منشآتها النووية. لكن جهات كثيرة تدافع عن الاستمرار في الاعتماد على الطاقة النووية مع السعي للحد من المخاطر، مستشهدة بالآفاق الواسعة لمشاريع من قبيل تحلية مياه البحر بتكاليف تقل حتى عن تكلفة جر المياه من مصادرها ومجاريها الطبيعية إلى المناطق العطشى المنكوبة بالجفاف، الأمر الذي يحقق توسعاً هائلاً في استصلاح الأراضي ومضاعفة الإنتاج الزراعي عدة مرات.[2]

لقد ظلت مشكلة التوسع في استخدام الطاقة النووية التقليدية المستخرجة من اليورانيوم متمثلة أساساً بالآثار السلبية للإشعاع المنبعث لعدة قرون من الوقود النووي المستنفد، والملوثات السامة المتخلفة عن تعدين وتنشيط اليورانيوم ومصاعب تخزينه ونقله، إضافة إلى أن كميات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اليورانيوم في باطن الأرض محدودة ولا تسمح بتوسع كبير في استخدام هذا المعدن في مفاعلات نووية.

بعد عشر سنوات من تجربة الدمج باستخدام الوقود الجديد، شهد العام ٢٠٠١ سباقاً محموماً بين عدة أطراف لاختبار محركات طائرات مفرطة السرعة تسمح بطيران تزيد سرعته على ثمانية آلاف كيلومتراً في الساعة. كان مركز الطيران فارط السرعة في جامعة كوينزلاند الأسترالية من المتنافسين الجادين في هذا المجال، إذ أنجز بنجاح في منتصف ذلك العام اختباراً أولياً لمحرك طائرة سرعته ٧٫٦ ماخ على ارتفاع يتراوح بين ٢٣كم و٣٥كم فوق سطح الأرض. دعمت القوات المسلحة الأسترالية والقوات الجوية الأمريكية وإدارة الدفاع البريطانية وهيئات متخصصة يابانية وألمانية وكورية مشروع هذا المحرك المصمم على أساس استخدام دفع الهواء في السرعة العالية لاستخراج هيدروجين من الهواء المحيط بالطائرة، مبشراً بوقود نظيف رخيص(٣). وتعزز نجاح هذه التجربة يوم ٢٠٠٢/٧/٣٠ عندما نجح فريق علماء ذلك المركز بقيادة راي ستوكر في إطلاق طائرة تطير نظرياً بسرعة تعادل خمساً وعشرين ضعف سرعة الصوت، بحيث تقطع المسافة بين سيدني ولندن في ساعتين فقط. لم تصل سرعة محرك الطائرة في ذلك الاختبار العملي إلى الحد الأقصى، لكنها بلغت فعلا ثمانية أضعاف سرعة الصوت عندما أخذ المحرك يعمل بعدما حمل صاروخ تلك الطائرة في المرحلة الأولى مسافة ٣١٥كيلومتراً. شكل الأكسجين وقودا لتحريك محرك الطائرة النفاث، دون حاجة إلى تخزينه في خزانات تحملها الطائرة شأن أنظمة الدفع الصاروخي التقليدية،إذ إنها تستعين بأكسجين الهواء المحيط بالطائرة وقودا لمحركها بعد عزله. كذلك شجعت ميزات متعددة يختص الهيدروجين بها على اهتمام استثنائي باعتماد استخدامه مصدرا للطاقة. فهذا الغاز الذي يتكون من ذرة تتضمن بروتوناً واحداً وإلكتروناً واحداً هو أبسط عناصر الطبيعة تركيباً وأكثرها انتشاراً وغزارة في الأرض وغلافها الجوي، وفي الكون بأسره، وإن كان لا يتوافر نقياً ومنفصلاً، بل هو مرتبط بعناصر أخرى، سواء كانت غازات أخرى كما هو حال الهيدروجين في الهواء، أو متحداً مع غاز آخر كاتحاده مع الأكسجين ليكونا الماء، أو توافره في تركيب العديد من المركبات العضوية كالهيدروكربونات (البنزين والغاز الطبيعي والميثانول والبروبان) أو ارتباطه

بمعادن، وهو يوفر طاقة نظيفة في المصانع والبيوت ووسائل النقل المختلفة براً وبحراً وجواً ولا تلوث البيئة، والمتوقع أن تكون طاقة رخيصة لأن الهيدروجين أكثر عناصر الطبيعة انتشاراً وتوافراً، وبالتالي يؤثر ترويض طاقته إيجابياً على مستوى الرفاه وتكاليف المعيشة ودرجة النمو الاقتصادي.

يذكر أن مركز أبحاث لانغلي التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) قاد مشروعاً متزامناً مماثلاً للمشروع الأسترالي هو Hyper - X. لكن الاختبار الأول لمحرك X ٤٣ A لطائرة غير مأهولة في سياق هذا المشروع قد آلت إلى تحطمه يوم ٢/٦/٢٠٠١ وسقوطه في البحر قبالة شاطئ كاليفورنيا.

إن مبدأ هذا المحرك هو امتصاص الأكسجين من الغلاف الجوي لإشعال كمية ضئيلة من الهيدروجين لعشر ثوان فقط، بحيث تطير الطائرة بعدها بقوتها الذاتية مسافة سبع وعشرين كيلومتراً بسبعة أضعاف سرعة الصوت، أي بسرعة ٨٠٤٧ كم/ سا، وبالتالي تستغني هذه الطائرة عن خزانات الوقود[٤]. لم يكن هذا المشروع هو الأول من نوعه بالنسبة لوكالة (ناسا)، فهي قد استخدمت الهيدروجين السائل منذ سبعينيات القرن العشرين كوقود لحمل الصواريخ الفضائية ومكوكات الفضاء إلى مدارات خارج الجاذبية الأرضية، كما أنها تستخدم خلايا الوقود الهيدروجينية حاليا لتوفير الطاقة الكهربائية لمعدات المكوكات الفضائية ولاستخدام طاقمه البشري وتأمين ماء الشرب له. نشير إلى أن هذه الخلايا قابلة لإعادة الشحن باستمرار، بحيث لا تنفذ طاقتها. وقد سجلت وكالة (ناسا) نجاحاً هاماً من ناحية أخرى في العام ٢٠٠٣ عندما أطلقت أول طائرة غير مأهولة تعمل بأشعة الليزر من دون أي وقود. تمَّ التحكم بالطائرة من خلال شعاع ليزر انطلق من أرض ميدان الاختبار في ألاباما نحو الطائرة مولداً طاقة استطاعت تشغيل المحرك بنجاح. تستمر هذه الطائرة في طيرانها تحليقاً وتحويماً لمدة غير محدودة ما دام شعاع الليزر المنطلق نحوها لم ينقطع.

شددت الإدارات الأمريكية المتعاقبة، منذ نجح العرب في فرض حظر نفطي جزئي على الدول الأكثر دعما للاحتلال الإسرائيلي في أواخر العام ١٩٧٣، على تحقيق الاعتماد على بدائل طاقة غير تلك المستخرجة من باطن الأرض، وضمان أن يتم هذا بتكلفة رخيصة، عبر تطوير أساليب أرخص وأكثر فاعلية لإنتاج الطاقة النووية وتوظيف طاقة الرياح، والطاقة المائية التي توفرها التيارات البحرية وحركة المد والجزر،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والطاقة الشمسية، والطاقة المستخلصة من الهيدروجين. أبدت الإدارة الأمريكية في عهد جورج بوش الابن مثلاً إصرارها على تطوير خلايا وقود هيدروجينية اقتصادية للسيارات بدل محركات الاحتراق الداخلي البترولية.

يتم الحصول على الهيدروجين عبر طرق متعددة، مثل إعادة تركيب Reforming المركبات الهيدروكربونية المتوافرة بكثرة في الطبيعة باستخدام الحرارة، أو فصله عن أكسجين الماء باستخدام تيار كهربائي، أو الاستفادة مما تنتجه العمليات الحيوية للطحالب البحرية والبكتريا التي تستمد طاقة من الشمس، مرشح للاستخدام على نطاق واسع كحامل وموصل للطاقة ومخزن لها، تماماً كما تستخدم الكهرباء حالياً.

تكمن أهمية هذه الميزة في كون استخدام الهيدروجين وعاء لتخزين الطاقة يتيح استفادة مثلى من الطاقة المستخرجة من الشمس أو من الرياح أو من التيارات البحرية عبر تخزين الفائض المتاح استخراجه من مصادر الطاقة الطبيعية المتجددة لاستخدامه في الأوقات والأماكن التي تخف فيها الرياح أو تختفي الشمس.

كانت مناطق عديدة من العالم قد عرفت تركيزاً متزايداً على ابتكار وتعميم وسائل جديدة لاستخدام الطاقة الشمسية في مجالات متعددة تتعدى تسخين المياه للاستخدامات المنزلية بخلايا شمسية، وهو ما انتشر في مجتمعات كثيرة. أقيمت في ديفس بولاية كاليفورنيا الأمريكية مثلاً محطة اختبار كبرى لتطوير الخلايا الشمسية من أجل إنتاج طاقة كهربائية رخيصة جداً من الطاقة الشمسية. وقد اعتمدت هذه المحطة عدة أساليب وتقنيات مبتكرة، مثل اعتماد مواد تركيبية جديدة في صنع الخلايا الشمسية وترقيد الطبقات الشفافة الرقيقة لاستلام أطوال موجية ضوئية أكثر، واستخدام دوائر فولطية ضوئية وعدسات رخيصة لتكثيف ضوء الشمس، وحشر كريات سيلكونية متناهية الصغر بين طبقات الألمونيوم في الخلايا الشمسية لاختصار زمن معالجة الخلايا تقنياً. واستخدمت شركة أمريكية في دالاس أنظمة متطورة لعدسات تجميع وتكثيف بلاستيكية لأشعة الشمس، مما يقلص عدد الخلايا الشمسية السيلكونية اللازمة في منظومة واحدة. كما قد نجح علماء في تقليص المساحات الشاسعة من الأرض التي كانت لازمة لنشر الخلايا الشمسية بابتكار لفائف لهذه الخلايا بطول ألفين وخمسمئة قدم لكل منها لا تحتاج سوى إلى حيز صغير من

الأرض. وعلى نسق محطة أوستن الشمسية في تكساس، وهي من أضخم المحطات التي تستخدم تقنية تكثيف الضوء بالعدسات. خاضت محطة العاصمة الباكستانية إسلام أباد الشمسية تجربة تطوير نظام تكثيف ضوء الشمس بالعدسات محققة نجاحاً كبيراً، على الرغم من توافر الغاز بكميات كبيرة إذ تنقله شبكة واسعة من الأنابيب إلى المنازل والمصانع والمنشآت المختلفة.

تعتبر تجهيزات هذا النظام الشمسي الباكستاني من أضخم مثيلاتها في العالم. لقد نجم عن هذا التطوير المتشعب ازدياد الإنتاج العالمي للطاقة الكهربائية باستخدام الخلايا الشمسية بنسبة ٣٠٪ سنوياً في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٧٨ و١٩٩٢، أي أن الإنتاج قد تضاعف خمساً وأربعين مرة خلال تلك الفترة[٥]، مما أغوى بحديث عن بدء عصر اقتصاد الطاقة الشمسية!

تمثل الرياح بدورها بديلاً لا ينضب لطاقة بديلة نظيفة ورخيصة. لقد بلغ إجمالي كمية الطاقة الكلية المولدة من الرياح في العام ٢٠٠٢ في جميع أنحاء العالم واحدا وثلاثين ألف ميغاواط، أي بزيادة ٢٨٪ عما كان عليه إنتاج الطاقة من الرياح في العام السابق ٢٠٠١، وأربعة أضعاف ما كان عليه في العام ١٩٩٧. ثم شهد العالم نمواً سنوياً قدره ٣٢٪ في زيادة الطاقة المولدة من الرياح. لكن نسبة ما تستطيع الرياح توفيره من طاقة بديلة تظل محدودة، إذ بلغت حتى الآن ٤ر٠ فقط من حاجة العالم من الطاقة، ويتوقع أن ترتفع نسبة ما توفره طاقة الرياح من الحاجة العالمية الكلية من الطاقة إلى ١٢٪ مع حلول العام ٢٠٢٠. وقد تفوقت أوروبة في استثمار طاقة الرياح إذ إنها تستثمر نحو ٧٥٪من الرياح لديها لتوفير الطاقة، بما يغطي ٢٪ من احتياجات أوروبة من الكهرباء. تأتي ألمانيا في مقدمة الدول المنتجة لطاقة الرياح إذ تنتج أكثر من اثني عشر ميغاواط سنوياً- بما يزيد عن ثلث الإنتاج العالمي الكلي، تليها إسبانيا في المرتبة الثانية،فالولايات المتحدة الأمريكية، ثم الدانمرك، ثم الهند.

نشير من ناحية أخرى إلى تجربة فذة غير مسبوقة اعتبرتها صحيفة لوس أنجلس تايمز آنذاك في عددها الصادر يوم ١٩٩٣/٢/٤ دليل تفوق روسي هام على الأمريكيين والفرنسيين واليابانيين في حقل الفيزياء الفضائية. خلاصة التجربة أن رائدي الفضاء الروسيين جينادي ماناكوف وألكسندر بولتشوك قد نجحا قبيل فجر ١٩٩٣/٢/٣ في تشغيل مرآة عملاقة حملتها مركبة (غروس) التي تنقل مواد التموين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى محطة مـير الفضائية الروسية. فقد تمَّ إطلاق المرآة على سطح محطة مير، فعكست أشعة من ضوء الشمـس بقطر عشرة أمتار من الفضاء الخارجي إلى منطقة واسعة في أوروبة ضمت مـدن ليون الفرنسية وجنيف وبـرن السويسريتين وشتوتغـارت وميونيخ الألمانيتين وبراغ التشيكيـة ولودز البولونية وبرسـت البيلوروسية وجوهل الأكرانية. بلغ قطر المرآة العملاقة ٢٢ مترا ووزنها أربعين كيلوجرامـاً وسمكهـا خمسـة ميكرونـات (الميكرون هو جزء من الألف من المليمتر)، وهي مصنوعـة من مادة (ميـلار) شديدة الصلابة. وقد وصفت الصحيفة الأمريكية تلـك المـرآة الفضائية الروسيـة العملاقة بنواة مركبة شمسية تدفع نفسها بنفسها في رحلات بين الكواكـب مستفيدة من الطاقة الشمسية. تكمـن أهمية هذا الإنجاز أيضاً فيمـا يفتحه من آفاق عمليـة لا حدود لها في إضاءة مناطق شاسعة من الكرة الأرضية مجانـاً عبر عكس أشعة الشمس من الفضاء الخارجـي،أي توفير إنارة نظيفـة بيئية لا تتطلب تجهيـزات أرضية. وهي مهمة على نحـو خاص في المناطق القطبية التي تعيش شهوراً مـن الظـلام المستمـر، أو المناطق التـي تتعرض إلى كـوارث تدمـر مصادر الطاقـة، وفقاً لما قاله البروفيسور فلاديمير سيرومياتنيكـوف، صاحـب فكـرة مشروع المرآة الشمسية الفضائية العملاقة العاكسة لضوء الشمـس. مولت شركـة «إياممبورغ غاز دوبيتشا» الروسيـة العاملة في المناطق القطبيـة الشماليـة هـذا المشـروع، آملة الاستفادة منه لإضـاءة مناطق عملها أثناء الليل القطبـي الذي يدوم أربعة أشهر يعيق فيها عمل الشركة.[٦]

لقـد تدخلت عوامل وتطـورات عديدة لتقلص أو تؤجل مـا كان قد بـدا وشيكاً من انتشـار واسع لبدائل مصـادر الطاقة المستخرجة من باطـن الأرض. فبعد حرب الخليـج الثانية التـي اعتـبر آلان غريش، رئيس تحريـر شهرية لوموند دبلوماتيك الفرنسيـة، أن الأمريكيـين «قـد أمسكوا عبرها بعنق العالم بعدمـا أحكموا الإمساك بنفطه»، تكشفت أبعـاد وأسرار العديد من التطورات والتحركات والتحالفات الأمريكية والإسرائيليـة النشطـة التـي تلاحقت في دول آسيـا الوسطـى وما حولهـا، إذ تبين مدى ارتبـاط تلك التطـورات والتحركات والتحالفـات والمنـاورات، بمـا فيها حرب الولايات المتحدة وحلفائهـا في أفغانستان، بعمليات اكتشاف واستخراج واستثمار حقول النفط والغاز الضخمة في حوض بحر قزوين والقوقـاز، وكذلك بالزلـزال الاستراتيجي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المتمثل بالغزو الأمريكـي للعراق واحتلاله، استكمـالاً وتكريسـاً لهيمنـة أمريكية على نفط الخليـج وسواه، وبالتـالي على معظم نفط العـالم. وهكذا بدا توجـه استراتيجي نحو تأجيـل تعميم بدائل للنفط على نطاق عالمي، تمَّ اعتمـاده إلى أن تستنفد الولايات المتحـدة استثمارها الأقصـى لنفط العالم.

وقـد تبين أيضاً -بالمناسبـة- أن احتياطي روسيـا النفطي أكـبر بكثير ممـا تداولته المعلومـات قبل تفكك الاتحـاد السوفييتي، واستخدمـت روسيا تصديـر نفطها عاملاً فاعلاً في معالجة أزمتها الاقتصادية. ولئن كانت أوروبة مرتاحة إلى الانطلاقة الضخمة التي بدأتهـا سنة ١٩٩٤ للتوسع في تجاربها الناجحة لتوليد الكهربـاء من الرياح، على نحو ما فعلت الولايات المتحدة أيضاً، بحيث بلغ مستوى إنتاج الكهرباء من الرياح في دول الاتحاد الأوروبي أربعـة آلاف ميغاواط في العام ٢٠٠٠، ويتجه هذا الإنتاج إلى الارتفاع ليبلغ مئة ألف ميغـاواط قبل العام ٢٠٢٠، فإن نطاق استثمار الريـاح لتوليد الكهرباء قد بات يتسع في الصين واليابان والمكسيك والهند ودول أخرى أيضاً. كما تعتمد اليابان أيضـاً على استخدامـات متقدمة للتيارات البحرية وحركة المد والجزر في إنتاج الطاقة الكهربائيـة، إضافـة إلى محطـات نوويـة لتوليـد الطاقة الكهربائية. نشير هنا إلى أن النشاطات المتزايدة للمدافعين عن البيئة في الولايات المتحدة وأوروبة الغربية والوسطى واليابان تدفع إلى إجراءات متزايدة لتطوير نظـم الأمـان في المحطات النوويـة لتوليد الطاقـة، ولاعتمـاد ونشر بدائـل أرخص وأنظف وأكثر أماناً.

لقد طـرق العلماء العديـد من الأبواب والآفاق الجديـدة لتأمين مصـادر جديدة رخيصـة ووفيرة مـن الطاقة، سـواء عبر تطوير استخـدام طاقة الريـاح أو الطاقة الشمسيـة أو طاقـة المحيطـاتOcean Energy واستثمـار حركـة التيـارات المائيـة في البحار على نحو مـا يتم بنجاح في اليابـان ودول قليلة أخـرى،أو استخدام الطاقة الحرارية المتوافرة في أعماق الأرض Geothermal أو استثمار الطاقة الحيوية Bioenergy، يظل السـؤال يزداد إلحاحا ونحـن نتابع إنجازات العالم وما يرافقها من منـاورات وتكتيكات في سيـاق توفير بدائل طاقة رخيصة ونظيفة: أيـن عالمنا العربي في هـذا المجـال الـذي تتوافـر لدينا كل مقوماته الطبيعية(٧): شمساً ورياحاً وتيارات بحرية، وهـواء وماء وباطـن أرض؟ تزداد أهمية المسألة مع التمعن في نتيجة دراسات مفصلـة متنوعة نشرتها مجلـة الأكاديمية

القومية الأمريكية للعلوم في منتصف العام ٢٠٠٢ مقـــررة أن البشرية قد تجاوزت حد الاستغــلال المستدام للمــوارد الطبيعية في الأرض والبحر والهواء بكثير منذ ثمانينيات القــرن العشريــن الميلادي، فــازداد ضمور الغابات وتقلصت ثروات المحيطات وازدادت حرارة المناخ.. لقد تخطى الاستغلال البشري للموارد الطبيعية المعروفة منذ العام ١٩٩٩م قــدرة الأرض على تجديــد مواردها بنسبة ٢٠٪. فــإذا ما أضفنـــا إلى هذا ما تأكد من أن النفــط كان محرك مواقـــف وسياسات وإجراءات وحروب الغرب في منطقتنا على امتداد القرن العشرين، وأساس جوهر التبني الغربــي للغـــزوة الصهيونيـــة الاستيطانية التوسعيـــة في فلسطين وما حولها وما ترتب على هذا الدعم من مآس للعرب كان آخرها احتـــلال العراق. وهو أيضا قد كان المحرك الحقيقـــي لحـــرب الولايـــات المتحـــدة في أفغانستان المتكاملة مع نشاطاتها العسكرية والسياسيـــة والاستخباراتيـــة والاقتصادية في دول آسيا الوسطـــى الإسلامية وسواها، يصبـــح التحـــدي أكثر إلحاحـــا بالنسبة لنا نحن العرب كي نتجنـــب الإحباط في مجال الاستعداد لاقتحام المستقبل بإبداع في توفير مصادر طاقة بديلـــة بعدما خنقتنا أطماع القوى الكبرى وتدخلاتها في معظم المجالات الأخرى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- المجلة، لندن، العدد ٦٢٢، ١٤/١/١٩٩٢، ص ٦٣.
٢- الكفاح العربي، بيروت، العدد ٦٩٥، ٢٥/١١/١٩٩١.
3- Michael Christic, The Race is on to build hypersonic jets, Arab News, London ,23.2.2001, P.22.
٤- الاتحاد، أبو ظبي، ٤/٦/٢٠٠١، ص٣٤.
٥- د.حسام الراوي، الطاقة الشمسية هي الحل، مجلة الشرق الأوسط، لندن، العدد ٣٣١، ٢٨/١٠/١٩٩٢.
٦- السفير، بيروت، ٥/٢/١٩٩٣.
٧- د. خير الدين عبد الرحمن، آفاق الاستخدام العربي للطاقة البديلة، مجلة الخفجي، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤ ص١٤- ١٧.
٨- عالم الفكر، الطاقة النووية، الكويت، آب (أغسطس) ١٩٩١.
9- Nuclear Power and the Environment; IAEA,Vienna.
10- Martin,A. ,Harbison, S.A.,An Introduction to Radiation Protection; Chapman and Hall Ltd., London,1979
11- Orbis, Several issues.
12- Flight International , Several issues.

الجنة والنار

د. نبيل طعمة ⚙

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تتعلقـان بالناتج الإنسـاني، وهما من نتاج أفعال الخـير والشر. فالعمل الإيجابـي الذي يحافظ علـى الإنسان ووجوده وأسباب وجـوده ويؤدي إلى خدمة أخيه الإنسان والموجودات المحيطة به ويتمتع بالسلوك الخير والطباع الجيـدة التي تتفاعل مع الحيـاة بالحب والعمل وعلـى إدراكه بالإيمان به مـن أجل إفادة البشرية هـو الذي يخلد في ذاكرة التاريـخ ويؤدي إلى العالم الافتراضـي في العقل ومساحته الجميلة التـي نسميها الجنة. والشر يعيش

⚙ باحث وأكاديمي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

في العالم المعاش يرافقنا يفنـي ليفنى نراه على شكل القصاص بكل أشكاله وتنوعاته من فشل وذل ومهانة واكتواء من حرقة عدم الوصول للنجاح الإيجابي يراه الجميع ويتابعونه ليتعلموا منه الابتعاد عنه وهذا ما نسميه جهنم (النار) من هذه البداية

نعتقد أنهما مكانان لا ماديين وحالتان رمزيتان الأولى (الجنة) تعيش في العقل والقلب على شكل نور والثانية (النار) تعيش في الشهوة وتكون بين المعدة والجنس وبما أن العقل والقلب يعيشان في النور اللامادي ومن دون شهوة ورغبة فهما مركز إشعاع ضوئي لا يعرف الظلمة أبداً وبالعودة إلى القصص الإيماني الذي حدثنا عن اللحظات الأولى لآدم وحواء وهما في جنان الخلد أي دار البقاء الأزلي الإيجابي ودار الفناء السلبية التي نعيشها من أجل الوصول إلى تلك الدار وأثناء رحلة السعي للوصول لها فإما أن نصل إلى تلك الدار أو نفنى حيث نحن، من هنا أتقدم وأعني ما أقول أن آدم وحواء وقبل أن يزلا ويأكلا من شجرة التين كانا نورانيين أي العقل متعلق بالإله الخالق يتغذيان من نوره ويعيشان على نوره إلى أن أكلا من تلك الشجرة فتحركت الغرائز، كيف هذا حصل وتشكلت معه النار بكون أن أي مادة تدخل إلى الجسم الإنساني تحرك كل الأعضاء في داخله لتعمل على هضمها وفرز الحاجة الإيجابية ليستفيد منها الجسد ثم يطرح الفائض منها هنا نقول إن الجسد مثل الآلة وعندما تعمل الآلة ترتفع درجة حرارتها وحرارة منتجها فنجد أن المعدة كالفرن الخامل ينتظر إلى أن تدخل إليه المادة فيحرقها وينتج منها الحريرات اللازمة لدفعه للحركة والفعل والتفاعل حيث تتولد لديه الطاقة المحمولة من المادة إلى اللامادة وفي حالة الجنس فإن منتجه المنوي يخرج حاراً أيضاً حتى لعابه حار وهو نتاج ما يوجد في معدته من هنا نجد أن عالم النار الإنساني موجود ما بين المعدة والجنس فإن خرج عن إرادة العقل النوراني لم يشبع وكلما سألته هل امتلأت يقول هل من مزيد فالتوازن الطبيعي ما بين العقل والقلب والمعدة والشهوة يحكمه النوراني بكون الثاني هو بحاجة الأول أي السفلي بحاجة العلوي وعلى الرغم من أن المحرك لا يعمل إلا بالزيت والجسم يحتاج إلى الطاقة الحيوية التي تنتج من الطعام فهي حاجة لتفعيل دور العقل وتأجج النار يدفئ العقل فيعمل مرتاحاً من خلال التدفؤ به أما إن خالطه وترك للنار استباحته أحرقته وابتلعته ولم تذر منه شيئاً، لقد كان الخلق الأولي نورانياً حيث لم تكن هناك حاجة

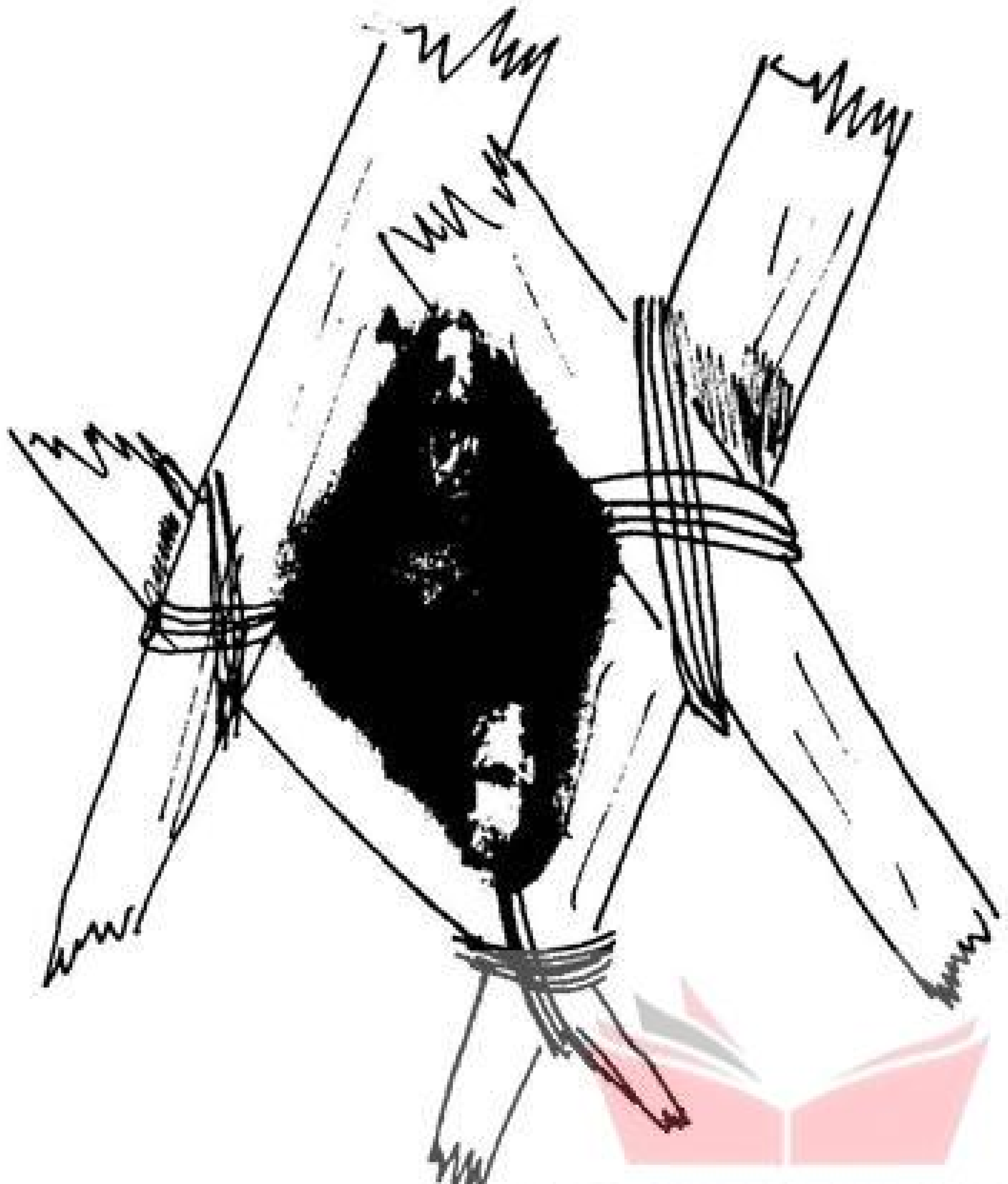

للنار حتى ظهر آدم وحواء والملائكة النورانيون ومن هنا نبدأ حيث أن النور الطبيعي لا ظلمة فيه أي بمعنى البياض الصافي وبدقة الأبيض هو اندماج ألوان قوس قزح السبعة وظهوره يكون من مزيجها المتجانس وارتفاع درجة حرارته يغير لونه حيث كلما اشتدت الحرارة عليه وضمنه وتفاعلت معه غيرت لونه متدرجة به إلى أن تصل به إلى الظلمة السوداء وتحول الأبيض إلى أسود وبما أنه في البديهية نوراً ومعناه الإيجابي لا خلل فيه وبدخولنا عليه نعلم أنه عالم الصفاء والنقاء والحقيقة والجمال حيث تسوده الكينونة والسكينة والألق وبعودتنا إلى ذلك الشيء الذي تناوله آدم وحواء نجد أنه المادة الأولية التي شكلت مستصغر الشرر الذي يعمل رويداً رويداً لتتأجج النار ويظهرها محولاً إياها إلى فعل وجود مادي بعكس النور ومحرقاً رويداً رويداً النور الذي نحمله من حياتنا المعاشة التي نعيشها ونحيا بها بشكله اللامادي وغايته الوصول إلى الظلمة.

وبما أن القوانين الطبيعية التي أنجبت الفهم الذي تطور إلى علم أوجدت له التخصصات الفيزيائية والكيمائية حيث حدد الشكل والمظهر والباطن والجوهر وعرف الشعاع وكثافة الطاقة الضوئية مع طول موجة الضوء ودرجة حرارة الجسم كي يتحدد تحديد لون الطيف الضوئي الذي يبثه الجسم الساخن فقط اعتماداً على درجة حرارته ليكون لدينا علاقة مباشرة بين درجة الحرارة التي تغير لون المادة وعليه يكون تأثير الضوء في الأجسام تأثيراً كبيراً من حيث تبديل ألوانها وأشكالها فيحدث فهم أن النور غير الضوء، واللون مادي محسوس والضوء لا مادي والنور إشعاعي

إيماني يعيش في عقل وحقيقة الكون وجسده المؤمن أما الظلمة فتعيش في المادة والأشكال المادية وحركتها المتبدلة.

لنتفق أن اللون مـادي والضوء لا مادي اللون يظهره الضـوء والضوء موجود كوني يحجـب لحين فمـن دونه لا حيـاة وسرعة وصولـه هي سرعة إبعاد الحجـاب عنه أو الستـارة، إذن لماذا أقول هـذا وما علاقته بالجنة والنار نشرح بـأن الضوء أداة النور، والفعـل والانفعـال وإظهـار الأشياء على حقيقتها هي أدوات الضوء.

إذن، النور هـو الجنة التي تسكن العقل والقلـب أما النار فهي نتـاج تفاعل الأشياء مـع الضوء العامل علـى إفنائها في ناتجها النهائي أي احتراقها وتآكلها أي تحويلها إلى رماد أو رفـات لتحمل الظلمة والسواد بعد مـروره بكل التدرجات اللونية التي تبدأ من الأبيض وتنتهي بالأسود.

الآن لون المخ أبيض بكونه مخلوق نوراني وطبيعة عمله توفـير المناخات لولادة العقل الـذي بـدوره يعمل على استقبـال وتحليل وتخزين المعلومات الـواردة إليه من مجموع الحواس ينظمهـا ويبرمجهـا ويجهزهـا ويعيدهـا على شكل أوامر تعقل الإنسان في هذه الحياة وعـبر مسيرته تقوده إلى الصح أو تنفلت منه إلى الخطأ وبها يصل إما إلى الجنة التي يحلم بها في عقله متخيلاً إياها على أنها بساتين وحور عين وأنهار من عسل ولـبن وخمر وماء وهي موجـودة في عقله إما إلى النار التي بها درجات أعماله السيئة يستذكرهـا فيخافها أيضاً في عقله الباطن وكلما كبرت إساءته كبر تخيله لها حتى يصل به الحـال إلى الدرك الأسفـل منها والذي يكون هـو وقودها فدرجاتهـا ألوانها التي تتراوح ما بين الأحمر والأسود النهائي مروراً بالأزرق والرمادي وبينهما يستعرض الأبيض الصافي فيتمنـى لو تمسك به ولم يتغير نتاج فعله الحياتي السلبي أي إن البناء الإيجابي في مسيرة حياة الإنسان يكافأ عليها بالإيجاب والاستجابـة والعمل السلبي يـؤدي به إلى تغـير ألوانه التي يشاهدهـا العقل النوراني ويحكم عليها بالاحـتراق أي إنه وصل ناره واكتوى بها وبما أن العقل يحمل عالمين عالم طبيعـي معاش وعـالم افتراضي يحمله معه طيلة حياته يرافقه مع كل عمل أو فعل يقوم به يحادثـه في عمق ذاته اللامادي قائلاً له هـذا إلى الجنة وهذا إلى النار بكونه يعرف مـا يفعل فإما أن يصر علـى إنجاز الجودة بكل ما تعنيه فيكون سلوكه وأخلاقه وأفعاله وعلاقته وارتباطاتـه نورانية ضوئية جيدة بامتياز أو أن تكون حياته هامشية تخريبية هدامة لا أخلاقيـة ولا سلوكيات أمينه بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وشكلها حاسدة ومنافقة ولعوبه فيعلم حاملها أنه سائر إلى تغير الألوان ونهايته السواد الذي يعني مروره بكل تدرجات الألوان أي الاحتراق بالنار.

سؤال لماذا ارتبطت الجنة بالأعمال الإيجابية المفيدة والصالحة والإيمان والحلم والنار أعدت للأشقياء والجبناء والمخربين والخبثاء والمنافقين، إن الوصول إلى الجنة يحتاج العقل والعقل يحتاج العلم والعلم لا يأتي إلا بعد حصول التأمل الذي يؤدي إلى التعلم وتعلم السلوكيات التي تمتلك جملة اعتراف الإنسان بأخيه الإنسان فيكون العمل جيداً لا بل ممتازاً ويحصل الحصول على الثواب وهو راحة النفس التي يطمئن لها العقل فلا يشغله أي شيء سوى أنه وصل بأمن وأمان وهو السعي الذي يستذكره الإنسان إما من أول حياته فيسير به كي يصل إليه وهو عالمه الافتراضي الذي علم به وإلا يكون في عالمه السفلي الذي يأخذ به إلى ناره التي يعيشها ليل نهار وهي الاضطراب والقلق والفوضى والتعاسة وعدم رضائه عن نفسه التي تأمره دائماً بالسوء الذي سيأخذ به في تصوره إلى النار من دون أن يعلم أنه بها يراه الآخرون على شكل القصاص الذي يقتص منه في مسيرة حياته ويأكله كما تأكل النار الهشيم والغث والثمين.

لقد ورد اسم الجنة في الكتب المقدسة ومنذ أقدم القدم فكان منها دار الخلد بكون أصحابها لا يخرجون منها أبداً كما أعطيت اسم المأوى بعد أن قدم الجهد والتعب وأراد أن يرتاح كما أسميت عدن لتدل على مكان الإقامة وأطلق عليها النعيم من خلال التنعم الذي يعيشه أهلها ففيها كل أنواع السعادة المادية والمعنوية من طعام وشراب ومشهد جميل وصوت حسن، وبها الأمان حيث أسميت المقام الأمين للأمن المنتشر فيها ودار السلام ليعيش فيها الجميع بسلام ومع كل هذه الأسماء أعتقد كما بدأت بأنها رؤية لا مادية تعيش في العقل الافتراضي الذي ينقلنا إلى العالم الافتراضي لتكون الجزاء العظيم والثواب الجزيل لجملة الأفعال الخيرة والطيبة وتعبيراً عن التعب والجهد الإنساني الكبير الذي يقوم به الإنسان في أداء رسالة وجوده والحفاظ عليه والبناء فيه وتهذيبه وتشذيبه فمن يعمل جيداً وصالحاً يثاب والروح الخالدة تثاب بأن تطوف باستقرار جميل وهي تراقب إنجازاتها وعدم الوقوع في الأخطاء والأداء الحسن الذي قامت به أثناء سكناها للجسد إنها وعد للمؤمنين أي لكل من آمن بحقيقة الحياة المخلوقة من «كن» وعمل حسناً وصالحاً له فيها مكان أمين يمنحه إياها العقل الافتراضي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمـا بالنسبة للنار التي تظهر من لهيبها وحرارتهـا الحاملة للإغـراء والجمال وفي ذات الوقـت الاحـتراق والفنـاء والتحويل إلى رمـاد تـذروه الرياح فلا يعـرف له أثر ولا وجـود بكونها تفني البقـاء وتمحي أثر الوجود فتمنع الخلود تراها الحواس وتعيش مـع الجنس وفي البطـون كمثل مـن يأكل الزقوم تتفاوت درجات حرارتها من أساسها إلى قمتهـا التي يمكـن أن تمسها ولكنك لا تستطيـع أن تمسك جمرهـا أو تقترب من مادياتها المحترقة ولنا أن نعرف من أسمائها جهنم والنـار وسعير وسَقَر وهـذه الأسماء متعلقـة من الأعلـى إلى الأسفل فنقول نار جهنم التي بها السعير وأسفلها سَقَر وتتدرج ما بين الأحمر والأصفر والأزرق إلى أن تصل إلى الرمـادي الذي يسكـن في قلب الظلمة أي السواد القـاتم وتغيير ألوانها تشير على شدة قوتها التي تبدأ من خفة وتنتهي بالثقل العنيف المتأجج كما أنها على علاقة بالخطأ الـذي يرتكبه الإنسـان وتدرّجه فيه إلى أن يصـل عظيم فعله السيئ الذي يكون على شكل الأخطاء القاتلـة فلا يخرج منها أبداً لتكون النار في انتظاره وحسب درجات فعله وأفعاله الخاطئة.

إن الخوف من النار وطلب الجنة خوف من مخلـوق مادي وطلب من صورة لا مادية والمخلـوق المادي دائماً يخطـئ وعليه ينال العقاب ولذلك يخاف الإنسان العقاب بكونه يدرك حجـم الحرق والاحتراق بهذا الكائن الناري الـذي يشعله الإنسان بيديه ويتناوله مـن فمه فيحرق أناملـه إن لامسه ويكتوي بناره إن أكله زوراً وبهتاناً أي إنه أكل ما ليس له واشتهى ما يملكه أخوه الإنسان بعقله فهو يمتلك المعرفة والإدراك بين الصح والخطأ وتجرأ بما يملكـه على هذا أو ذاك وله من عقله النـوراني الخوف مما فعل والثقة بما يفعـل وعليه يقـدر مقدار مـا ارتكب من خطيئـة وأنه ذاهب إلى النـار من خطيئته فيجلس يرتجي ويطلب إبعاده عنها معاهداً ومقسمـا على أن لا يعود إليها وكل ذلك هو نتاج خوفه من الاحتراق لذلك اقترنت النار بالخطيئـة والجنة بالعمل الخـير الصالح وعلى أنهـا الثواب ونرى الإنسان يفرح عند فعـل الخير ووجهـه مبيض حيـث جوهر الخـير أبيض ويخاف ويحزن ويكفهر وجهه ويسودّ حيث جوهر الشر والخطأ والخطيئة أسـود وهذا ما يحـدث عنـد النهاية وفي لحظات الانتقال الخاطف أو وهو على فراش الصـراع حتى الموت يستقبـل البياض وهو الوحيـد الذي يعلم إلى أين هو راحل وكثيراً مـا حدثنا أناس وهـم في لحظات الانتقال أنهم يشاهدون أو شاهدوا البساتين والأنهار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يشوبهـا البياض وأناسهـا يلبسون الأبيض وكم رأينا على وجوههم البسمات والارتياح والتمتمات الجملية وهم ينتقلون إلى عالمهم الافتراضي عالم الجنة الموعودين بها ولذلك نرى كثيراً من رجال الدين يعتمدون اللباس الأبيض بكونه صورة أهـل الجنان وهناك من يعتمدون اللـون الأسود على أنه ظاهراً جوهره أبيض وكم رأينا أيضاً أناس يغادرون الحيـاة وهم مكفهرو الوجـه لا يعلمون إلى أيـن هم ذاهبون أحسسنـا أنهم يكتوون من خـلال تذكر أعمالهم السيئة التي قاموا بها قلقون لا يريـدون التكلم ولا الكلام وهناك من يغادروننا خطفاً مـن دون علم أو سابق إنـذار هم وحدهم لا نراهم يرون اللحظات الأخيرة تغادر معهـم رؤياهم إنه عالم موغل في القدم وأيضاً سيوغل في المستقبل مروراً من الحاضر يأخذنا معه كما أخذ السابقين وكمـا سيمر على اللاحقـين ضمن عوالم لم يحدثنا أحد عنها ممن غادرونا ولكن كتبوا لنا وأنجزوا وتفكروا وتأملوا وتعلموا وعملوا كي نتابع التأمل والتفكر والتعلم والعمل وأن نـترك من كل ذلك العبرة والعبر لمن يريد أن يتفكر ويعلم ويعمـل من أجل من آمن وأمن كي يكون مؤمناً يؤمن بأخيه المؤمن حسب ما كتب في كتب القداسة والشرح والتفسير إنما المؤمنون أخـوة وعليهم واجب العلم والعمل وعليه يكون للمؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار ولغيره النار.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحسد والغيرة لدى الأطفال

عبد اللطيف الأرناؤوط *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغيرة لون من العذاب النفسي، ينتاب الطفل إذا اكتشف أن الآخر يملك ما ليس لديه، فالطفل لاعتماده الشديد على الذات يتعذر عليه الاعتراف بالآخر أو بحقوقه، ويعتقد أنه محور العالم بسبب أناه الطاغية. والشعور بالغيرة لديه مرتبط بنمو مشاعره وعلاقاته في السنوات الأولى من عمره.. فهو يدرك العالم من خلال سلوك أمه نحوه؛ ففي الأشهر السبعة الأولى تصبح العلاقة بينهما قوية، وهذا الانتماء العاطفي للأم يدفعه إلى الرغبة

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

في الاحتفاظ بها، فلا يحتمل أن تغيب عنه، لأنها توفّر له عنصر الأمان، ثم تغدو هذه العلاقة لوناً من التملك، فلا يطيق أن ينافسه أحد في الاستحواذ عليها.

وتظهر الغيرة في السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل، وتتجه تدريجياً من امتلاك الأم إلى تملك العالم. فكل ما يحيط به هو ملكه، يتمسك بلعبه ويرفض مشاركة الأطفال الآخرين اللعب بها، كما يلاحظ أن ما يملكه الطفل هو ملكه، فيحاول تجريد إخوته الكبار من لعبهم. والاستئثار بكل ما حوله.

ويثيره أيضاً أن يرى أحد إخوته في حضن أمه، أو يكتشف أن رعايتها موجهة إلى سواه، إلا أن الأطفال بعد الثالثة من العمر يخضعون لعملية خضوعهم للعالم المحيط بهم. والتكيف مع الواقع، وهي عملية قد تصطدم برغبة الطفل أن يمارس حرية لا تحددها القيود، ولا تخلو من قسر وعنف قد يرتد على نفسيته فيخالجه القلق لأنه يجهل أن يكون ممنوعاً عند الآباء أو مسموحاً به، وتُعرف هاتان العمليتان اللتان يمر بهما الطفل بالمطابقة والتمثيل أي إخضاع العالم له، ثم إخضاعه للعالم، وينجم عن امتناع الطفل بعنف عن تحقيق رغباته مخاوف ونكوصات وتحويل، فيعبّر عن كبته بالعنف أو بالاحتجاج غير المباشر عن الامتناع. وقد يتعرّض للأذى إذا تُرك على هواه أو تمّ منعه بعنف فيصاب بالانحراف.

وإن أكثر ما يواجه الطفل من صور الغيرة ولادة طفل جديد يحتل مكانه من حضن أمه، فيثير لديه مشاعر الحيرة والألم النفسي، فهذا الطارئ المغتصب يجب إبعاده بكل الوسائل، فيعبر عن عذابه بمزاحمة المولود في تملك حضن الأم، وقد يتحول إلى العدوان، فيلجأ إلى عضّه أو ضربه أو إتلاف حاجاته.

وقد يتحول الشعور بالغيرة بعد الخامسة من العمر إلى لون من الحسد. فكل نجاح أو إطراء يناله أي طفل يجرح الطفل ويلمس فيه انتقاصاً له، كالهدايا التي تقدم والأشياء التي يلعب بها الآخرون ولا يملك مثلها، أو الثناء الموجّه من الأم أو الأب أو المجتمع للأطفال الآخرين.

* * *

الطفل الوحيد أو المتوحّد:

ربما تكون ظاهرة التركيز على الذات أشد لدى الطفل الوحيد، لأنه يخضع للدلال المفرط بين الأبوين، فتطلق له الحرية في تحقيق رغباته، فينشأ أنانياً يرفض أن يخضع للعالم أو يتكيّف معه، ويعسر عليه

أن يكتشف طفلاً يمتلك مالا يمتلكه، أو ينال من الثناء مالا يناله، وتتجلى الغيرة التي تتحول إلى عدوانية لدى الطفل المفرط الحركة الشديد التركيز على الذات، فهو منصرف عما حوله، قليل الاهتمام بالآخرين يعيش في عالمه الخاص، فهو متوحّد مع ذاته، وقد يتحول توحده إلى عدوانية نحو الأطفال الآخرين، وقد يعتدي عليهم ويسلبهم أشياءهم، ويرفض اللعب معهم أو مشاركتهم إياه في ألعابه.

أما الطفل الذي ينشأ في أسرة عديدة الأطفال فيُدرك بالتجربة أن الأبوين ليسا له وحده، وأن إخوته يشاركونه في رعاية الأبوين، ويتعلم كيف يعترف بالآخر، ويتنازل عن بعض رغباته في الحياة المشتركة والتكيّف مع الواقع.

وللأمراض أثرها في تأجيج الشعور بالغيرة والحسد لدى الطفل، فالمعوق الذي يعجز عن مزاولة أي نشاط يحسد أقرانه الأصحاء ويبعث عجزه في نفسه إحساساً بالاختلاف عنهم أو بالحرمان، وهو محتاج إلى تربية خاصة يتجاوز من خلالها شعوره بالنقص. وحقده على القدر، ولعل العلاقات الجسدية أقسى على الفتيات منها على الفتيان، ونتائجها أعمق أثراً في حياة الفتاة وسلوكها.

هل يمكن القضاء على الغيرة؟

سؤال قد نستطيع الإجابة عنه من خلال ملاحظة حياة الكبار والصغار.. فالعالم يقوم

على التنافس، والتربية تثير لدى الطفل تقدير الذات والمنافسة الإيجابية، فللغيرة نتائج إيجابية إذا وجهت نحو الطموح لتحسين الحياة، وتحقيق الأهداف النبيلة، والغيرة التي تقود إلى المنافسة والسعي دور في توجيه الطفل إلى تحقيق ذاته، أما الغيرة المرفوضة فهي الغيرة السلبية التي تتمثل بحسد الآخرين وتجاهل مواهبهم وسعيهم، ومحاولة طمسها، وهي ثمرة إهمال تربوي لازم الطفل منذ صغره إما بدلاله المفرط أو قمعه الزائد حتى ينطوي على ذاته.

وتنشأ الغيرة لدى الطفل لسوء تصرف الأبوين أو المربين أو المجتمع والتربية في جوهرها هي تعليم الطفل أن يكون محباً ومحبوباً، وأن يتحرر من عالم الاستئثار بالأشياء، ويتعود العطاء مثلما يتعود الاحتياز، وأن الحب الذي يمنحه الآباء لأطفالهم غاية في الأهمية، فالأطفال يتعلمون الحب من الآباء، لكنه ليس الحب المفرط الذي يحبسهم في قمقم الذات. يجب أن يكون حباً منفتحاً على العالم المحيط والكائنات فيه، لينشأ الأطفال عطوفين ودودين يمنحون الناس الحب، ويوفرونه لهم، وهو ليس ذلك الحب الأناني الذي يجعل الطفل ينظر إلى نفسه كأنه قطب العالم وهو مسخّر لمشيئته.

ويقوم جوهر التربية على توفير التوازن في شخصية الطفل بين رغباته ومتطلبات العيش المشترك مع الناس، فتطويع الطفل للعيش في المؤسسة الاجتماعية يفرض تربية تعلم الطفل التنازل والاعتراف بالآخر وحقوقه وتوسيع أفقه ليتجاوز ذاته، وإن أول درس من التربية الاجتماعية يوفره لعب الأطفال مع الأقران، حيث تكثر الخصومات بسبب طبيعة المرحلة التي يمر بها، ومن اللعب يتعلم التنازل والمشاركة وقبول الآخر والتخلي عن الذات والتحرر من المواقف المتصلبة والأنانية المفرطة التي يضع الطفل فيها نفسه وكأنه يواجه عالماً يعاديه ويهدده، وأن عليه أن يواجهه بالحذر والعدوان، وقد يجد صعوبة بعدما يكبر في عقد صداقات، أو التعامل مع الآخرين، وتتضخم لديه عقدة النقص فيشعر أن العالم يضطهده من غير أن يلاحظ أن تصرفاته وانغلاقه على ذاته هي المسؤولة عن هذه المعاملة التي يلقاها من الناس.

صحيح أن الغيرة ليست ظاهرة مرضية، فهي طبيعية يفرضها نزوع «الأنا» فينا إلى تحقيق الذات، وهي وسيلة يعبّر بها الطفل عن شخصيته وارتداده إلى مرحلة الطفولة، لكن إذا أحسن توجيهها يمكن أن تعود بأطيب الثمرات على الأطفال، وتتحول من موقف دفاعي عن الأنا لإثبات الوجود ومن ردّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فعل طفولي ساذج إلى سلوك اجتماعي راق يقتطف الطفل منه الحب والتقدير بينما لا يجني من الغيرة العاطفية سوى الحسرة والألم، فإذا تعود أن يعترف بأن في عالمه من هو أجمل منه أو أذكى منه أو أكثر غنى من أهله توافرت له القناعة بأن يعيش في عالم متباين الأفراد، وأن عليه أن يتكيف معه من دون أن يمنعه هذا التسليم من السعي لتحقيق أهدافه المعقولة، وإلا فسيظل أشبه بدون كيشوت يصارع كل ما حوله حتى طواحين الهواء وهو يعتقد أنه يثبت ذاته ويُخضع العالم لرغباته. وإذا كانت الغيرة تعبيراً عن شعور بالنقص يعانيه الطفل فإن على الأبوين والمربية واجب دراسة شخصية الطفل وردود فعله السلبية وسوء تكيفه مع محيطه، ويتطلب ذلك وعياً من الأبوين إذ عليهم أن يدركوا أن بعض حالات السلوك التي تبدو من الطفل محاولة للتعويض عن قلقه وخوفه من فقد الرعاية والحنان أو الخوف من خطر يهدده من الخارج، أو الشعور بأنه مهدده وخير وسيلة يلجأ إليها الأبوان تعويد الطفل الاعتماد على ذاته في مأكله وملبسه ليشعر أنه يستطيع الاعتماد على نفسه، وتشجيعه على مشاركة الأطفال في لعبهم، وتطويعه على أن يعطي الآخرين ويشعر بسعادة في العطاء، كأن يتنازل عن بعض لعبه، ويقدم لأقرانه وإخوته الهدايا، وتشجيعه على محبة الآخرين والتعبير عن هذه المحبة بأساليب بناءة، ولكل مرحلة أساليب تربوية تلائم نضج الطفل، ولكل سنّ اهتمام تربوي يساعد على أن يجتازه الطفل بلا عقبات وآثار مدمرة.

باستطاعة الأبوين أن يمهدا لقدوم الطفل المولود الجديد بتعويد طفلهم خدمة الأطفال الذين هم أقل سناً وإقناعه أنهم يحتاجون لرعايته ويرغبون أن يشاركهم في هذه الرعاية. فإذا قدم المولود الجديد يشعر الطفل أنه مسؤول عن رعايته فيشارك أمه في هذه الرعاية، ولا يجوز الانتقاص من قدر هذا الوافد المنافس، أو إظهار كرههم له لإرضاء طفلهم، لأنه يشعر أن رعايتهم له تتناقض وما يدّعونه من أنه غير محبوب لأنه يوسخ ثيابه ذلك أن الطفل قد يلجأ إلى تقليده باستمرار لينال رعاية أبويه.

وبعد نهاية مرحلة الحضانة يجدر بالأبوين تشجيع الطفل على إقامة علاقات طيبة مع الآخرين من أقرانه باللعب المشترك معهم وتقديم الهدايا لهم في مناسبات متعددة، وإذا ثابر الطفل على مخاصمة أقرانه أو إظهار العدوانية تجاههم، أو رفض اللعب معهم أو ثابر على مصادرة ألعابهم واحتيازها أمكن توجيه الأطفال الأكبر سناً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منــه إلى اللعب معه ومسايرتــه إلى أن يبلغ مرحلــة يستطيع فيهــا أن يدرك من خلال اللعب أنه قــادر على أن يتخلص من نزعته الانعزالية، ويتنــازل على «أناه» مقابل اللذة التــي يجنيها مــن الاندماج مــع الآخرين، فهو محتاج إلى الحركة والتواصل. وبمقدار مــا يندمج مــع أقرانه أو إخوتــه في اللعب والدراسة يخــف ارتباطه بالأبوين، ويتنامى تقبله للآخرين.

ويجب عدم قســر الطفل على التصرف كما يشاء الأبوان أو المربون من دون تبصيره بدوافع هذا القســر، فالطفل الذي يخطف لعبــة رفيقه ويرفضــ إعطاءها له لا يعالج سلوكه بانتزاع اللعبة قسراً منه، وإنما يجب إفهامــه أن اللعبة ملك لرفيقه وهي حق له، ليست من لعبه والطفلة التي تغار من قرينتها لأنها ترتدي فستاناً أجمل من فستانها يجب إقناعها بأن لديهــا أشياء تتمنى قرينتها أن تكــون لها، والطالب الذي يحسد زميله لأنه نال درجــات دراسية أعلى من الدرجة التي نالهــا، يوجّــه إلى ضــرورة مضاعفة جهده وبذل ما يستطيــع لمنافسته، وإن كانت هذه المنافسة لا تحقق رغبة الطفل ويمكن إفهامه بأن كل طفل يتميز بصفات خاصة، فإذا كان تحصيله أدنى من تحصيل زميله فإنه يتفوق عليه في أشياء أخرى.

ويمكن التخفيــف من حدة الغيرة والميل العدواني بمساعدة الطفــل على أن يتبصر الموقف في سلوكــه، وربما نهل الطفل ميول الغيرة لديه من البيئة التي يعيش فيها، كأن يكون الأبــوان أو أحدهمــا عدوانياً شديد الغيرة يعبّر عن حســده للناس والغيرة منهم أمــام الطفــل، فيتسرب هــذا السلوك إلى الطفل كالمنافسة بــين الكبار التي تعود إلى شعور الغــيرة والحسد لديهــم ورغبتهم في الانتقاص من الآخرين أو نجاحهم أو إقامة عدوانية ضدهم على مسمع الأطفال.

وعلى الأبوين والمربــين أن يتحاشَوا أي سلوك يهــدد تقدير الطفل نفسه، فيتجنبوا أي سخرية أو تهكم يزيد قلق الطفل وشعوره بالنقصــ، لأن بعض الأطفــال يملكون من رهافة الحس ما يجعلهم يعدّون أي توصية.. أو نقــد يوجه إليهم تأنيبــاً يُشعرهم بأنهم أدنى من الآخرين.

ويجــب على الأوليــاء ألاّ يستهينوا بأثر الغيرة المدمرة في مستقبل أطفالهم، فالغيرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مظهر طبعي للشخصية إذا تمّ توجيهه لكنها مظهر مدمر للشخصية إذا تمّ كبتها بقسوة فإنهـا ستتحول إلى انحـراف خطير يمكن أن يفـرز المجرمين والمحتالـين والإرهابيين والمستبدين، وقد تعجـز التربية عن تكييف أطفالهم، فالقمـع والتسليم المفرط بإعطاء الطفل حقه في عدم الانضباط يمهد له إلى إعداد شخصيته على العدوانية أو التخاذل.. وإن بقاء المجتمع الإنساني واستمراره مرتبط بتعلم الفـرد أن يتكيف مع غيره وأن يعترف بالآخر وحقوقـه، وأن يعمل مع الآخرين في تعاون ووفاق.

إن الأسلوب الذي يسلكه الآباء والمربون في الحيـاة، ويتعاملون به مع الصغار له أثر كبير في تـوازن الشخصية وتكيفها وفي بناء مجتمع سليم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التماثل في وحدة الوجود

«الخطاب العرفاني أنموذجاً»

منير الحافظ *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأتي متقاربات «**التماثل الإلهي**»* من أقانيم عدة، تضافرت على صياغة الخطاب العرفاني بأسلوب رصين، ما لبث الخطاب أن اتخذ نمطاً صوفياً متميزاً، وحفر مساراً شبه ثابت في سياقات الفكر الفلسفي العام، ومن حيث أنه تناول أهم القضايا الأناسية التي شاغلت مخاييل الذهن ونوازع الوجدان حول معنى الوجود وخالقه الواحد من جهة، ووحدة الوجود من جهة أخرى، وأجدني هنا أنساق صوب قضية اشتغل عليها سائر الفلاسفة الذين تناولوا

* باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

في رؤاهم أهم قضية معرفية بُني عليها الفكر الفلسفي،

وهي «وحدة الوجود» والذي دفعني إلى البحث المُعمّق في هذا الشأن، الآية الكريمة، في قوله تعالى: «**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**» (سورة الأنعام- الآية: ١٦٥).(١)

سأتناول من خلال هذه الرؤية القداسية جانباً فلسفياً، يتميز في طرحه لنازع المتجلي الروحي عن سائر الرؤى، من حيث أنه يبحث في خصائص «الفكر العرفاني»، ومن الأهمية بمكان، علينا بيان حقيقة تاريخ نشوء الفكر العرفاني، وأزعم أنه وليد مرحلة متقدمة من مراحل تطور العقل الأناسي، ولعل إشراقاته قد تبلورت منذ تأسيس أدبيات البدء الأسطوري المقدس، فضلاً عمّا طرحه المفكرون الأوائل الذين رأوا فيه، أن ثمة (تماثل) بين الخلق والخالق، والتماثل يعني في النظر العرفاني، ضرباً من النزوع الروحي نحو الخالق، وهو أقرب ما يكون إلى التأمل الصوفي، وقد سادت من قبل اعتقادات مثل (البراهماتية) في فلسفة «الفيدا»* الهندية التي تمَّ تضمينها في أسفار «الأوبانيشاد» وتعتبر أقدم نزوع تأملي في وحدة الله

والوجود، وترتكز على مقولة أوردتها على لسان الخالق «**أني أنا هذا الخلق نفسه، لأني أخرجته من نفسي**» وكان قد برع في هذا المذهب مفكرون سوريون ويونانيون قدماء أمثال «أفلوطين» الأسكندراني الذي رأى أن فكرة الإله الواحد الكامل والعالم الكلي، هو فيض إلهي «وقد استقاها من الفيلسوف «زينون» السوري، كما تأثر أفلوطين بأستاذه «نومينوس» السوري في القرن الثاني الميلادي الذي أطلق أفهوم «الفيض الكوني» عن الإله خالق الوجود، وكذلك الفيلسوف «فورفريوس» الذي جمع أفكار «أفلوطين» في «التاسوعات» وتلاهم محدثون إسلاميون أمثال (ابن رشد والفارابي وابن طفيل وابن سينا.. إلخ) بيد أنني سأعرض في البحث لأهم المفكرين العرفانيين الإسلاميين الذي تناولوا فكرة (التماثل) ووحدة الوجود في فلسفتهم أمثال (ابن مسرّة ومُحيي الدين بن عربي وابن رشد والسهروردي وابن السبعين والحلاج.. وغيرهم).

يخطئ من يعتقد أن أفهوم التماثل إسباني المنشأ، وأن ما يجدر بنا ذكره في هذا السياق، أن فلاسفة «قرطبة» كانوا يعرفون المنطق و«العلم الإلهي» في جوهره الصوفي العرفاني، حيث كانت ثقافتهم راقية في الفلسفة وخاصة «علم اللاهوت» وكان من أبرزهم الأسقف المستعرب «ربيع بن زيد» الذي تأثر بالفلسفة الأفلوطينية وعلى يد هذا الأسقف تتلمذ «محمد بن عبد الله بن مسرّة» (٨٨٣- ٩٣١م) في قرطبة، وكان ابن مسرة سليل أسرة عريقة وثرية، ولعله هاجر طلباً للعلم إلى بغداد والبصرة وحران، حيث اطلع هنالك على خصائص الفكر العرفاني، وألّف فيه كتابين أسماهما (التبصِرة) و(الحروف) وانكبَّ على دراسة الفلسفة اليونانية خاصة (أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس) ودوّن في كتابه «الحروف» أو أسرار الحروف، وتبحّر في نظرية «التاسوعات» لأفلوطين التي تزعم بوجود مادة روحية تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية.

لاقى ابن مسرّة معارضة محمومة من فقهاء المالكية، وكان أبرزهم «أحمد بن خالد» الملقب بـ«الحباب» الذي اتّهمه وجماعته بأنهم يهددون سلامة العقيدة كونهم يؤلهون العقل من دون الله، في حين أن ابن مسرّة يرى في القرآن الكريم دعوة إلى توجيه المؤمنين إلى اتباع طرائق معينة للاتصال المطلق بالله، ورأى أن كلام الله هو عين ذاته، ويُمكّن العقل البشري من كشف القيم الجمالية الإلهية عن طريق التأويل والتأمل، وأشار إلى أن الله خلق آدم على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صورتـه، ويرجعنا قوله إلى ما ورد في كتاب الاستئذان لـ«البخاري» أنه قال: قال رسول الله (ص): «خلقَ اللهُ آدمَ على صورته» وسبق أن رأى «أفلوطين»: «إذا النفس أرادت معرفة الله ينبغي لها أن تتشبه به وأن العالم كائن حي كبير» وقال في هذا الشأن أيضاً في «التاسوعة الأولى»: «أحاول العودة بالإلهي الذي فيّ إلى الإلهي الذي في الكون»[٢].

وتتقارب فكرة «ابن مسرّة» من حالة الخلاص الجسدي للسيد المسيح بوصفه قرباناً خلاصياً للبشرية من إثم الخطيئة الأولى، وتتقارب أيضاً من قول «أحمد بن خابط» أحد مفكري الفرق الإسلامية في قوله: «إن المسيح تدرع جسداً» ناسوتاً «وكان قبل التدرع عقلاً لاهوتاً»[٣].

ورفع الإسلام التماثل من دين معرفي «دنيوي» إلى دين إشراقي إلهي «سماوي» أي ارتقاء الجسد إلى الاندغام بالإله.

قال المستشرق الإسباني «آسين بلاثيوس» عن ابن مسرّه: «رأى البعض فيه وأتباعه أئمة في العلم والتُقى والزهد، وآخرون رأوا فيهم زنادقة وكفاراً ينبغي محاربتهم[٤] والجدير في الأهمية، أن المدرسة الصوفية الأندلسية، تُعنى في علوم العقل والأحوال والأسرار» وقد رأى تلميذه «صاعد بن فتحون السرقسطي» «أنه ينتج الوجود الإلهي كانعكاس الصورة في المرآة، وعند تأليه الإنسان الكامل يصبح خليفة الله في أرضه، ويصبح العالم كله مسخراً له»[٥].

رأى «ابن مسرّة» أن الوجود أزلي مستفيض عن الإله ويلازمه، وأن سائر الكليات التامة هي من روح الله «العقل الإلهي» وقوله: «إن سبب خلق الوجود هو تحقيق لوجوده»، وإن الوجود العياني المنعكس إلى ذهننا هو وجود الله، ولولا وجوده لكان العالم عدماً.

وينهج ابن عربي «مُحيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن عبد الله الحاتمي الطائي الملقب بالشيخ الأكبر» (١١٦٥- ١٢٤٠م) الذي ولد في مُرسية الأندلس نفس النهج، وهو سليل بيت علم وأدب، وتتلمذ على مؤلفات «ابن رشد» (١١٩٨م) و«ابن مسرّة» وهو من أرباب النظر العقلي في الكشف والفيض الإلهي، كما تتلمذ على دستور أهل التصوّف «الرسائل القشيرية» لـ«عبد الكريم بن هوازن» المتوفى (١٠٤٧م) وعلى فلسفة «ديونيسيوس الأريوفاغي» صاحب كتاب «فلسفة التجلي الإلهي» يقول ابن عربي: «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها»[٦] ويقول شعراً:

يا خالقَ الأشياءَ في نفسه
أنت لما تخلُقه جامع

ومن هـذا المنظـور اعتـبر أن التجلي الروحـاني هو حالـة ضبـط اتصالية بين الإنسان وخالقه، وهذا الاتحاد أو الاندغام يحصل حسبما دعاه «ابن عربي» بـ«التماثل» القائـم علـى العقـل أو القيمـة أو الكلمة «اللوغوس».

إن «التماثـل» عنده، هو وجه الشبه بين الإله والإنسـان ليس في الـذات المُجسَّمة، وإنمـا في صـورة العقل المتجلـي في العلم الإلهي، أي تجلٍ معرفي وليس جسمي.

أنـا أزعم أن حالة الاتصال عبر الوحي، هو تجـلٍ روحاني بين الأنبياء والرسل عند الاتصـال المعـرفي مع الله، ولعلـي أرى أن «التماثـل» هو تمثُل القيـم الجمالية العليا معرفيـاً بوصفهـا وعياً إلهيـاً متماهياً في خصائـص الأشيـاء الكونية التـي تدركها خلائـف الأرض إدراكاً متجليـاً حسـب القـدرات العقلية والروحيـة، ومما لا ريب فيـه، أن خلائف الأرض هـم الناس الذين منحهـم الخالـق العقـل والعلـم والإيمان والإبـداع بوصفهـم كائنـات عاقلة خلاقة وإعجازية، قـال تعالى: «وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم»[٧].

فـرّ «ابن عربي» مـن اضطهاد الخليفة «يعقوب المنصور الموحدي» (١١٨٤م) للمتصوفة وتوجه صوب المغرب العربي، وأبرز في كتابه «الدوائر والإحاطة» مضاهاة الإنسـان للخالق والخلائق من خلال أفهوم «التماثـل»، متأثراً بحالات الإشراق الروحي التي مرّ بها «أفلوطين» وكان قد عرف هذا المذهب الباطني زمن الفيلسوف الإسكندري «فيلون» (٢٠ق.م- ٥٤م) ويشاطر «ابن عربي» الرأي «عمر الفارض» (١١٨١- ١٢٣٥م) في قوله: «إن الله والعـالم امتزجا، وأن الله هو القوة الداخلية الفاعلة في هذا العالم».

اتهم فقهاء القاهرة «ابن عربي» بالزندقة نتيجة قوله «كيف يكون الإنسان مسجوناً من حـلَّ الله في ناسوته -جسده-»؟! فسجن ثم أُخلي سبليه ورحل إلى مكة المكرمة.

ومـن الملاحظ، تشابه نـوازع الوجد أو الحب الإلهي لدى «ابن عربي» مع «كليمنت الإسكـندري» المتوفـى (٢٢٠م) في كتابـه «الأمشـاج» كما يتشابه مـع سيدة التصوّف الزاهـدة «رابعة العدويّة» (ت ١٨٥ هـ) التي رأت في حـب الله أنه ليس خوفاً من عقابه، وإنما من أجل الحب الخالص لوجهه الأزلي، وتعبير عن تجاوز المحسوس لكينونة الجسد إلى اللامحسوس، وحالة الهيـام عند تلكم المـرأة التي زهدت عشقاً بالـذات الإلهية، تطلعت نحـو الاندماج في الماهيـة الإلهية، فخاطبت الإله قائلة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحبك حبين، حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراك

أسس «ابن عربي» مذهباً تصوفياً، حيث أنه استفاد من فلسفة التصوّف عند «الكابالة» اليهود، ومن «علم اللاهوت» عند المسيحيين [٨].

ولخص قولاً افتراضياً عن الله الذي يتجسد فيه مفهوم «التماثل»: «خلقتُ العالمَ كي أُعرف» وصنّف المعارف والعلوم الإلهية إلى ثلاثة أبواب يتبعها المرء المؤمن وهي(العقل والأحوال والأسرار) وتقوم جميعها على مبدأ «التماثل».

أخذ عنه المفكر الصوفي العرفاني «أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن قطب الدين ابن السبعين» (١٢١٧-١٢٧١)م الذي ولد في مُرسية الأندلس، وهو من أسرة نبيلة وثرية، درس الفلسفة والعلوم على يد «ابن باجه» و«ابن طفيل» و«ابن رشد» وتعمّق في الفلسفة العرفانية «الهرمزية» و«الرواقية» التي رأت أن العالم ليس خلق الله، بل الله هو العالم بذاته وفي وحدته التي لا تتغيّر [٩] وتشبّه بـ«سقراط» وألّف كتاب «تدبير المتوحد» وكتاب «بُد العارف» وراح ينزع إلى فلسفة الزُهد التي ابتدعها «ديوجين الكلبي».

عُرضت أفكاره من قبل فقهاء المالكية، عند إجابته على «المقولات العشر» خاصة في قوله: «إن العالم كله تماثل، والمتماثل واحد مع مثيله، فالإنسان والعالم واحد».[١٠]

وأوضح «أن الموجودات هي فيض عن الواحد، وهو فيض اتصالي، أي اتصال بين المعلول بعلته»[١١].

رحل إلى مكة المكرمة واعتكف في «غار حراء» ينشد الوحي آملاً تحقيق نزوع «التماثل» الذي يبتغيه، وقد ظهر جلياً عنده في «عقيدة المُحقق المقرّب الكاشف»

وأفصح في «رسالة الإحاطة»: «أن معرفة النفس تأتي من القوى الشاعرة بالقوى التي فيه» وقال: «إن حقيقة الوجود على ما هو عليه موجود». ويتوافق «فرانسوا غريغوار» معه في قوله: «فالله وحده موجود والعالم عقل إلهي، وأن كلَّ القوى العاقلة هي الوعي الذي يبعث الحياة الكونية» [١٢].

والعرفاني الآخر «شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي» المولود في «سهرورد زنجان» غرب إيران، حط رحاله في (حلب) زمن ولاية الملك «الظاهر الأيوبي» لكنه قُتل بأمر من والده «صلاح الدين الأيوبي»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سنة (٥٨٧ هـ) لاتهامه بالإلحاد والزندقة ومعاقرة الخمرة.

ضمّن معظم أفكاره الإشراقية الصوفية شعراً، وجعل من الخمرة رمزاً للحب الإلهي ابتغاء الفوز بحالة التماثل والاتحاد بالله، وكانت تدور سائر مؤلفاته وآثاره الفكرية حول العلوم التأملية لفهم تجربة «حكمة الإشراق» ومشاهدة الأنوار الروحانية في كتابه «المطارحات» وقد رأى فيه «أن السالك عبر الحكمة صوب الأنوار الإلهية هو المتجرد عن اللذة الدنيوية» ويبدو لي أنه يدعو إلى معرفة واجب الوجود من قيم الوجود وممارستها كي يحدث «التماثل» والإشراق من خلال التعمُّق في الحياة الداخلية للإنسان المؤمن، وأن وجود الله عين ماهيته، وهو وجود قيمي لا وجود موضوعي «مادي» في الأشياء، وأنه علم عقلي كمالي في ذاته العليا، ومحيط بكل الأشياء التي أبدعه من تلقاء ذاته، وأنه غير مُدرك حسياً بذاته، كونه ليس متجسداً في صورة الشيء، وإنما في جوهر الشيء بوصفه قيمة كُلانية.

ومن فلاسفة «التماثل» «الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي» (- ٥٤٩ هـ) قد أباح بأفكاره معبراً عن الروح الصوفية وها نحن نتناول جوهرها من دعاء لخصه في قول له أثناء صلبه: «إن قيامي بحقك ناسوتية -جسدية- وقيامكَ بحقي «لاهوتية» -روحية- وبحق قِدمِكَ على حُدثي، وحق حُدثي تحت ملابس قِدمك أن ترزقني شكر هذه النعم التي أنعمت بها عليَّ حيث غيّبت أغياري عمّا كشفت لي من مطالع وجهك، وحرّمت على غيري ما أبحتَ لي من النظر في مكنونات سرِّك»[١٣].

أخذ عليه معارضوه من الفقهاء قول له في دعاء آخر أثناء الصلاة:

«يا هو أنا وأنا هو، لا فرق بين أنيّتي وهويتك إلا الحُدث والقِدم» [١٤].

ويظهر التماثل جلياً في قول له شعراً:

حَويت بكلي كلَّ كُلكَ يا قُدسي
تُكاشفني حتى كأنكَ في نفسي

ورأى أن العالم واحدي، خلقه مبدع واحدي، ويتجسد في وحدة الحقيقة الوجودية، وأن الحب الصوفي القائم على أساس «التماثل» هو ضرب من التوحيد بين الإلهي والإنساني، ويظهر التجلي بأشكال متعددة، بل يحِلُّ الله في الإنسان وكأنه شيء واحد في صورة جوهره القيمي، يقول «الحلاج»: «أنا الحق» ويعني فيه، أنه خاصية الجوهر العقلي القيمي للخلق الإلهي.

وهنالك آراء عديدة تخالف الفكر العرفاني الصوفي، يقول الباحث «محمد الراشد»: «لم يستطع التيار الصوفي تحقيق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التصوّر في بناء الإنسان والحضارة، وإنما سار في الطريق المظلم..» وتابع مردفاً «غدت النظرية ضرباً من الوثنية، فماتت إرادة الوجود موتاً نهائياً على يد المتصوّفة اللاحقين» [١٥].

هذا قول يخلو من حس التأمل في حقيقة ما جاء به هؤلاء السادة من أرباب الفكر العرفاني الذين دعوا تأملاً وبرهاناً إلى التفكُر في نواظم ومعايير الوجود القائمة على وحدة المعنى الوجودي والعقل الإلهي الخلاق كما مرّ معنا في معرض حديثنا عن رؤاهم، وأعتقد أن دعوتهم للإيغال المُعمّق في كُنه الوجود بحثاً عن الماهية الروحية الإلهية المتماهية في خصائص الوجود هي الحجة في أنهم كانوا يدعون إلى تمثّل القيم بهدف تحقيق التماثل مع الإله ومن حيث يجسد الإنسان حقيقة أنه خليفة الله على أرضه، قال تعالى: «هو الذي جعلكم خلائف الأرض» بيد أن «الأنوية الفوقية» المتعصبة من بعض الفقهاء المقربين من الحكام وقتذاك، ألّبت عليهم السلطات والجماهير وساقتهم إلى العدم.

واعتبر الفيلسوف «سبينوزا»: «أن الله وحده هو الموجود بذاته، ولا وجود للعالم إلا به» وكما يقول «ديدرو»: «أن العالم وحده هو الوجود، والخالق ما هو إلا مجموع الكائنات» وسبق أن طرحت المدرسة «الأفلاطونية» والمدرسة «الرواقية»: «أن الله روحُ العالمِ ومنظمه ومُحركه، وتظل موجودةً فيه كونها فيض منه» وكما ترى «الهيجلية»: «أن العالم فكرة أو مثال مطلق» وترى «البراهماتية» الهندية: «أن الاتحاد بالله واتحاد الإله بمخلوقاته تعبير عن وحدة الوجود».

هذه المتقاربات المقارنة كان قد تضمنها الفكر العرفاني الصوفي، فحقق ثورة فكرية معرفية في التجلي من جانب واحدية الإله في واحدية خلقة لوحدة الوجود.

وهاهو «أبو بكر محمد بن يحيى بن باجه» (١٠٨٢-١١٣٨م) الذي يدعو في كتابه «تدبير المتوحد» إلى التأمل الفلسفي بوساطة العقل للوصول إلى مرتبة المعرفة الكلانية المتوحدة، أي إلى مرتبة الإلهية للاتصال بالعقل الفعال، أي بالفيض الإلهي، وهنا يحصل كما نرى «التماثل الإلهي».

ورأى «محمد بن رشد» (٥٢٠-٥٩٥ هـ): «إذا ما حقق الإنسان شرطه العقلي، فإنه يخرق عبر التأمل حجاب الأمور، حيث يجد نفسه مواجهاً للحق الإلهي، وبهذا يحقق الكمال» وأوضح أيضاً: «أن العالم تحكمه قوة روحانية سارية في مكوّناته، وأن القوانين ضابطة لحركته وأن الرابط بين مكوناته أو أجزائه عقل إلهي متعال، وهو محيط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالأجزاء جميعها»[١٦]. هنا رؤية يبغي من ورائها ابن رشد تحقيق «التماثل».

وأخلص إلى القول، إن سريان الروح الإلهية في الكونية هي عربية في قدمها وإسلامية في حداثتها المعرفية ونستشهد بقول «ول ديورانت»: «يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة السارية فيه كله، تمده بالحياة وتسمو عليه متلازمة في وقت واحد»[١٧].

ولذلك فإننا نتعقب في البحث الأثر الروحي«العقلي» المتجسد قيماً جمالية، من حيث أنها معايير خيرة، وبالوقت نفسه، هي دعوة إلى تمثُل هذه القيم وممارستها في علاقاتنا وسلوكياتنا، بوصفها قيماً أخلاقية عليا تعمل على أنسنة الوجود وتسخيره لمنفعتنا وسويتنا وسعادتنا.

المصادر

✿ مفردة مثل، تعني أشبه، والتمثُّل هو الاقتداء أو الاحتذاء، وأما مفردة «التماثل» فهي ممارسة فعل الحكمة الإلهية لتحقيق مبدأ الناس خلائف الأرض.

١- قرآن كريم- سورة الأنعام- آية /١٦٥/.

✿ الفيدا- تعني «الحكمة الكلانية».

✿ التاسوعة- تعني «المقال».

٢- تاريخ الفكر الأندلسي- أنخل جنثالت بالثيا- ص٣٣٠- تر. حسين مؤنس- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٥.

٣- الفرق بين الفِرق- عبد القاهر البغدادي- ص١٦٦- مؤسسة الثقافة الإسلامية- القاهرة- ١٩٤٨.

٤- الطريق من دمشق إلى قرطبة- محمد عبد الحميد الحمد- ص٢٨٢- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقافة- دمشق- ٢٠١٠.

٥- نفس المصدر السابق- ص٢٨٣.

٦- الفتوحات المكيّة- مُحيي الدين بن عربي- ج١- ص ١٥٠- دار الكتب العربية- القاهرة- ١٣٢١ هـ.

٧- قرآن كريم- سورة التين- الآية / ٤/.

٨- الطريق من دمشق إلى قرطبة- محمد عبد الحميد الحمد- ص٢٨٧- الهيئة العامة السورية للكتاب- وزارة الثقاة- دمشق- ٢٠١٠.

٩- تاريخ الفلسفة الغربية- برتراند راسل- ج١- ص٤٠٤- تر. د. زكي نجيب محمود- القاهرة- ١٩٥٧.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٠- المسائل الصقلية- ص٥٠.

١١- تاريخ الإسلام- شمس الدين الذهبي- ج ٢- ص٢٨- دار الكتب العربية- ١٢٥٣ هـ.

١٢- وحدة الوجود في الفكر العربي- محمد الراشد- ص١٠٨- اتحاد الكتاب العرب- دمشق- م.

١٣- أخبار الحلاج- ل. ماسينون وب كراوس- ص٨- مطبعة العلم- باريس- ١٩٣٦ م.

١٤- نفس المصدر السابق- ص٢١.

١٥- وحدة الوجود في الفكر العربي- محمد الراشد- ص٢٢- اتحاد الكتاب العرب- دمشق- ١٩٨٥م.

١٦- تهافت التهافت- ابن رشد- ج٢- ص٦٣٩- تحقيق سليمان دنيا- القاهرة- ١٩٧١م.

١٧- قصة الحضارة- ول ديورانت- ج١٤- ص١٩- تر. محمد بدران- القاهرة- ١٩٦٦م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خليل الهنداوي
في الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاضل السباعي ✿

«هل كنت من تلاميذي؟»:

أذكر أني التقيت، في يوم من أيام العام ١٩٥٦، الأستاذ خليل الهنداوي في محلّ لتوزيع المطبوعات بحلب، أعني «مكتبة الكيالي» المتّخذةَ مقرًا لها في تلك «الجزيرة» من الأبنية (التي أُزيلت فيما بعد) شماليَّ «ساحة باب الفرج». وكان اسمي كاتبًا قد بدأ يظهر في الدوريّات الثقافية، وأخصّ المجلّتين اللبنانيّتين «الأديب» و«الآداب» الأكثرَ انتشارًا في أوساط المثقفين في سوريّة

✿ أديب وروائي وقاص سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

ذيّـاك العهد، هذا - استطـرادًا- إلى أنّ ما ظهر في سوريةمن المجـلات كان بعـد ذلك العام: «الثقافة» (١٩٥٨) و«المعرفـة» (١٩٦٢) و«الموقـف الأدبي» (١٩٧١).

والذي أذكره من ذلك اللقاء العَرَضي، أنّ أديب حلب الكبير بـدا لي حريصًا على أن يسمـع منـي ما إذا كنـت يومًـا بين الطلاب الذين تلقّوا على يديه؟ وإني إن كنـت خيّبت أمله، ذلك أني لم أره يدخـل أيًّـا مـن الصفـوف التي جلست علـى مقاعدها في «ثانوية المأمون»، (وممّـن علّمـوني: صـبري الأشتر ومدير مدرستي الشاعر عمـر يحيى)، فإني بيّنت لـه أني «تتلمـذت» علـى ما قـرأت له في مجلـة «الكِتَاب» (الصـادرة منذ ١٩٤٥ عن دار المعـارف بمصر) وسواهـا من المجلات الأدبية... وخيِّل إليّ أنه اطمأنّ!

قديم وحديث!

كان خليل الهنداوي كاتبًا متعدّد المواهب، يمارس الكتابـة على طريقة أبناء زمانه من الكتّاب، أمثال عباس العقاد والمازني وطه حسين (قبل أن يبرز نجيب محفوظ متفرّغًا للروايـة ومـا في حكمها)، يدبّـج المقالات والدراسـات، ويكتـب القصص، ويؤلّـف المسرحيـات، وينظـم الشعـر، وينشر ذلك كلَّه، منثورًا في الدوريـات أو مضمومًا طيَّ كتـاب، ولا شكّ في أنّ طـلاّب ذلك الزمان قـد استفادوا كثيرا من كتابه الأشهر «تيسير

الإنشاء» (المكرّرة طباعته بضع عشرة مرة).

وكانت في الهنداوي، الأديب العصامي، خصيصةُ الاطلاع على المستحدث من الأدب والفكر فمنحه ذلك سعة الأفق، مثل إكبابه على التراث الذي أسعفه باللغة الفيّاضة، وأغناه بالموضوعات التي يستمدّها من التاريخ البعيد والقريب، العربي والأجنبي، وخير مثال ما ضمّه كتابه المتميّز «سارق النار»، ستّ مسرحيات ذهنية كلٌّ منها في فصل واحد (حلب ١٩٤٥).

وفي مواكبته للحركات الأدبية التي تبدّت له في العالم العربي في منتصف القرن العشرين، ألقى محاضرة، كانت الثانية بين سلسلة المحاضرات (التي أخذ ينظّمها سامي الكيالي مدير دار الكتب الوطنية بحلب)، فتحدث يوم السابع من آذار ١٩٥٢، ليقول قولةَ الراصد المتتبّع إنه يرى في الحركة الأدبية المصرية الأمّ للحركات الأدبية في العالم العربي، وأنها «كانت على أشدّ ما تكون اختباطًا واضطرابا، لأنها تضمّ أدباء مختلفي النزعات، متبايني الثقافات، فمنهم أهل القديم الذي لا يتّسع صدره لأيّ جديد، ومنهم أهل الجديد الذين يَنْفُضون اليد من كلّ قديم، ومنهم الذي ينتصر للأسلوب، ومنهم الذي يجد الأسلوب كساءً أو طلاء ويجعل الأهمية للمعاني... كلّ هؤلاء كانوا يعملون، ويتلاقَون، ويتخاصمون، والأدب لا بدّ هو الكاسب من هذه الخصومة...» («المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢»، منشورات دار الكتب الوطنية بحلب، ١٩٥٢)... وأضيف: إنّ ذلك دليل صحة وعافية وليس عَرَضًا لمرض.

عميد لـ«رابطة الأصدقاء» الأدبية:

في حلب، في منتصف الخمسينيات أو ما تجاوزها، التففنا، نحن الأدباء الشباب، حول خليل الهنداوي، وسمّيناه «عميدًا» لنا فيما أطلقنا عليه يومئذ «رابطة الأصدقاء» (سوف أتحدث عنها عمّا قريب)، فكان لنا راعيًا ومعلّما، كما كان مضيافًا، فكثيرة هي الأمسيات التي سهرنا فيها في بيته العامر في «حي الشيخ طه» (وكذلك دوريًّا في بيوتنا نحن أعضاء الرابطة)، أحاديث في الأدب والحياة، كان فيها اتفاقنا أظهرَ من اختلافنا! ولم يكن يتوانى عن دعوة النازلين في حلب من الأدباء، منهم كوليت خوري (في أول طلعتها ١٩٦٠)، والشاعر اللبناني جورج جرداق (زائر حلب ١٩٦٢)، وتقوم قرينته الفاضلة «ماريّة الهنداوي» بضيافتنا.

ويوم عاد من القاهرة صيف ١٩٦١ «الأكاديميون الحلبيون الأربعة»، محمد خير فارس وتوفيق برّو وعمر الدقاق وعبد الكريم الأشتر، احتفى الهنداوي بهم ودعا

من دعا من الأصحاب، ولم يضق البيت بنا على كثرتنا، والتُقطت الصور، وكان يومًا مشهودا.

مدير للمركز الثقافي ورئيس لفرع الاتحاد:

وأحسب أنّ الهنداوي كان ناجحًا في حياته الأدبية والوظيفية، وقد عُيّن أول أمره، قادمًا من مدينته صيدا (قبل انفصال لبنان عن سورية)، مدرّسًا في دير الزور، ومنها انتقل إلى حلب. وفي أيام الوحدة بين سورية ومصر أُنشئ المركز الثقافي العربي بحلب في «حيّ العزيزية»، وكان مديره مصريًّا والهنداوي معاونًا لمدير المركز، ثمّ إنه عاد إلى التدريس. ومن ناحيتي لا أرى أقتل لموهبة الأديب من أن يعمل في التدريس أو في الصحافة، وقلّةٌ من نَجَوا!

ولما تأسّس اتحاد الكتاب العرب في القطر (العام ١٩٦٩)، شغل الهنداوي منصبَ رئيس فرع الاتحاد بحلب، يعاونه صديقنا جورج سالم. وأذكر احتفاءهما بي، قادمًا من دمشق (التي صرت أعمل فيها موظفًا منذ ١٩٦٦)، بأن يسّرا لي -بتبعيدٍ وتقريب- أن أُحيي أمسية قرأت فيها (يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر نيسان ١٩٧٣) قصة عنوانها «الصمت والموت» (التي نزلت فيما بعد في كتاب صدر في موسكو بالروسية، ١٩٧٧، ضمّ مختارات من القصة السورية، وفي كتابي «الألم على نار هادئة»، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥)...

كتاب «١٢ قصة من حلب»:

وكان قد تراءى لنا، نحن الأدباء الشباب المتحلّقين حوله بحلب، أن نعمل على إصدار كتاب يضم قصة لكلّ منّا، فتعهّد أستاذنا الهنداوي بالإشراف على ذلك العمل (وكان حينئذ في إدارة المركز الثقافي)، وقد تمّ تحرير رسالة إلى من رشّحناهم ليكون لكلّ منهم قصةٌ في الكتاب، ومنهم صباح محي الدين، جوّابُ الآفاق، الذي كان قد غادر باريس إلى الكويت يشرف على تحرير مجلة سمّيت «رسالة النفط»، وقد بادر إلى كتابة ردّ مطوّل يروي فيه طرفًا من سيرته الذاتية. فلما غادر الهنداوي المركز ترك هناك ما تجمّع عنده من أوراق هذا الكتاب، فحملها إليّ جورج، الباقي في المركز، وكان لي الشرف في أني أتممت المشروع.

ثمّ إنّ الكتاب صدر بعنوان «١٢ قصة من حلب» (عن منشورات عويدات، ببيروت ١٩٦٤)، وكانت أولى القصص فيه لعميد الرواية السورية المعاصرة شكيب الجابري وآخرها لـ رُنيه عبودي، وبينهما قصص مظفّر سلطان والهنداوي وصباح محي الدين وفاضل السباعي وفاتح المدرس وجورج سالم

ووليد إخلاصـي وعلي بدور وعبد الرحمن البيـك وعدنان الداعـوق (الحلبيون الذين كانـوا يشغَلون «الساحة القصصية» في تلك الآونة، ومنهم من تابع ناشطًا أو مقلاً ومنهم من صمت).

وأذكر أنّ الكاتب المصري الكبير محمود أمين العالم، قرّظ الكتـاب في مقالة بعنوان «١٢ قصـة من حلـب، وأين تقـف القصة السورية»، نُشرت في مجلة «المصوَّر» القاهرية (عدد السادس من مايو ١٩٦٥)، مشيدًا على وجه الخصوص بثلاث قصص هي ما كتب فاضل وفاتح ووليد.

«فاضل! لن أغادر بيتك!»:

وأذكر -وكـم ذا لي أن أتذكّر وأذكُر- أنّ الهنداوي زارني في يوم من صيف ١٩٧٥ في بيتي بدمشق، وحدّثني، وأفاض، عن رحلته -التي يمكن وصفهـا بالمؤلمة- إلى الولايات المتحدة حيث نزل في بيت ابنه البكر «الدكتور روحـي»، وقرأ لي ما تنزّل عليه من شعر في حقّ هذا الابن!

وفي أثنـاء الزيارة ترامـى إلى أسماعنا صوتُ تفجير قويّ هزّ الأرجاء، ولم تكن بعيدةً عن الذاكرة أيامُ «منـع التجوّل» وتداعيات ذلك المنع، فقـال مازحًا: «فاضل! إن حدث ذلك فإني لن أغادر بيتك!»، وأطلق ضحكته المجلجلـة. والتفجير لم يكـن إلاّ بصدد فتح طريق في كتف جبل قاسيون الذي يقوم بيتي في سفحـه، والطريق اليـوم سالكةٌ يطرقها من يروم الصعود بسيارته إلى ما تحت قمة الجبل.

ما لم يُرضِني.. فيه وفي نفسي:

وأحـبّ أن أفصح عن أنه لم تُرضني منه استجابتُـه لتلك «الموجـة» التي طفت على الأقـلام منذ بدايـات خمسينيـات القرن الماضـي ولم تهدأ ثَوْرتُهـا إلاّ بمرور عقدين من السنين أو ثلاثة، فقد أخذ بعض الكتّاب يتحدثون عن بؤس الطفولة التي عاشوها وفَـرْطِ المعانـاة في الحيـاة، يتزيَّـدون في القول ويُسرفون، تقرُّبًا -يظنّون- من نفوس القراء... فكان أن استجاب أستاذنا الهنداوي لهذه النزعة، فاستهـلّ سيرته الذاتية (التي كان من حُسن حظ الأدب أنه بادر إلى تدوينها في أواخر أيامـه، ومن المؤسف أنها لمّا تنشر حتى اليوم!) بصفحات رصدت أيام طفولته رصدًا ما كان أغناه عنه! ويوم عهدت وزارة الثقافة إلى اثنين من كتّاب حلب بأن ينتخبوا مختارات من نتاج الهنداوي لتصدر في كتاب من جزأين (١٩٨٠)، انتزعوا تلك الصفحات من السيرة، وقدّموها تباهيًا مقصودًا لا أراه محمودًا.

أجل، لم يُرضني ذلك منه... ولكنّ أمرًا بدر مني نحوه، لم يرضني، وقد ندمت عليه وما أزال.

في حوار صحفيّ أُجري معي، نُشر في جريدة «الحوادث» الحلبية (العدد ٤٩٠٥ والتاريخ الرابع من حزيران ١٩٦٢)، كان ممّا سئلت وأجبت، عن رأيي في أدباء حلب، قولي إنّ الهنداوي «ليس قاصًا، وإذا كتب القصة أحيانا فذلك من قبيل معالجة (أو مقاربة) هذا اللون من ألوان الأدب». فلما قرأ الهنداوي ذلك ضجّ وارتفع صوته الجهير قائلاً بمرارة: «القاصّ السباعي يقول إني لست قاصًا، والشاعر سليمان العيسى يقول إني لست بشاعر!!».

ومع أنّ «قولي» هذا لا يبعد عن الواقع كثيرا، ذلك أنّ في قصص الهنداوي، على رقيّ مضامينها، «مباشرةً» تعلو فيها النبرة «الخطابية» (وذلك ما بات غير مقبول في القصة بمفهوم الخمسينيات)، إلاّ أنه لم يكن سائغًا أن أعبّر عن ذلك بهذه الصراحة «الفجّة»! أجل، أعترف بعد مضيّ نصف قرن على ذلك!

ثمّ إنه كان من سعة صدر الهنداوي- الأب، وما يملك من الحِلم الجميل، أنه قَبِل اعتذاري وغفر زلّتي!.

ماريّة.. من أوفى الزوجات:

وهل أترك القلم دون أن أشير الإشارة الجميلة إلى ماريّة الهنداوي (وهي ابنة عمٍّ له، لبنانية الأصل)؟ أنها بعد رحيله (يوم التاسع من حزيران ١٩٧٦)، بذلت من المساعي ما جعل السلطات تطلق اسم «خليل الهنداوي» على الشارع الذي يقطنونه وعلى الساحة التي يطلّ عليها البيت. حدثتني بدمشق عن الجهود التي بَذلت عند أولي الأمر لإقرار ذلك، ثم لتنفيذه على أرض الواقع، فتأكّد لي أنها من أوفى النساء لذكرى زوج ظلّ عمرَه كلَّه يغمس أنامله في حبر الكتابة التي تبقى بعد الرحيل.

رحم الله خليل وماريّة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التلفزيون والحاسوب..
صراع من أجل مقل العين

رحاب محمد ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«إنـــه صراع ضروس تحتـــدم أدواته وأساليبه بين أبـــرز وأخطر جهازين شهدتهما تقنيات العصر، وهو صراع تتعدد معاركه وجبهاته بما يمكن محاكاته للحروب العسكرية التقليدية الشهيرة بين الدول الكبرى.. وهي معارك للسيطرة والاستحواذ على النفوذ في البيوت والشركات والمؤسسات..»، هذا على الأقل مـــا ورد علـــى لسان «يوكيهيرو أيناغـــو» مدير شركة توشيبـــا، وهي من أكبر

✿ ناقدة من سورية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الشركات اليابانية لصناعة الإلكترونيات. أما «بيل غيتس» رئيس شركة مايكروسوفت وكبير مديريها التنفيذيين، وهي أكبر شركات العالم في مجال برمجيات الحاسوب، فإنه يقول: في غضون ما لا يقل عن عشرة أعوام سوف يكون في مقدور الحاسوب الشخصي تمييز الأشخاص والتحدث إليهم وفهم ما يقولون، كما سيكون بمقدور ذلك الجهاز إدراك تعابير الوجه وفهم حركات الأيدي وإشاراتها، ويمكن لهذه المسيرة أن تقود في نهاية المطاف إلى تمكين المستخدم من التحكم بوظائف الحاسوب الشخصي بالنظر إلى شيء ما على الشاشة وتوجيه الأوامر..». ويضيف: «فبإمكانك مثلاً النظر إلى البيدق في لعبة الشطرنج في الحاسوب وأن تخبرها إلى أن تتجه، أو تثبت بصرك إلى إحدى شخصيات لعبة حرب النجوم، وأن توعز إليها بإطلاق النار. وعلاوة على ذلك فإن حاسوب المستقبل الشخصي سيكون قادراً أيضاً على التكيف مع متطلبات مستخدميه، مراعياً في هذا مستوى المهارات وطبيعة الاهتمامات وأسلوب المستخدم في القيام بأعماله، ويمكن لحاسوب المستقبل أن يبلغ من التطور حداً يستطيع معه حتى توقع الرغبات والاحتياجات المتعلقة بطلب عون ما أو الحصول على معلومات».ومثل هذه التوقعات التي لم تعد مجرد خيال جامح، ما هي إلا إشارة البدء فيما بدأت تتضح ملامحه فعلاً وأصبحنا ندركه بسرعة مضطردة، وصار يعرف بـ «معركة من أجل مقل العين»، أو بعبارة أخرى ذلك الصراع في أوساط صناعة أجهزة الحاسوب الشخصي لانتزاع مكانة التلفزيون باعتباره أداة الترفيه المنزلي الأساسية. أما أرباب صناعة الحاسوب فإنهم واثقون من قدرتهم على الحفاظ على وتيرة النمو السنوي لمبيعاتهم وإبقاء معدل النمو عند رقم من خانتين بشكل متواصل حتى العام ٢٠٢٠ إن هم استطاعوا استقطاب اهتمام العملاء المستهلكين، وتحويل أنظارهم عن التلفزيون إلى الحاسوب الشخصي، وبهذا الصدد يقول مدير «إنتل»، وهي كبرى شركات العالم لإنتاج رقائق الحاسوب: «إن لدى المستهلكين فرصة للاختيار، فإما أن يتفاعلوا مع الحاسوب

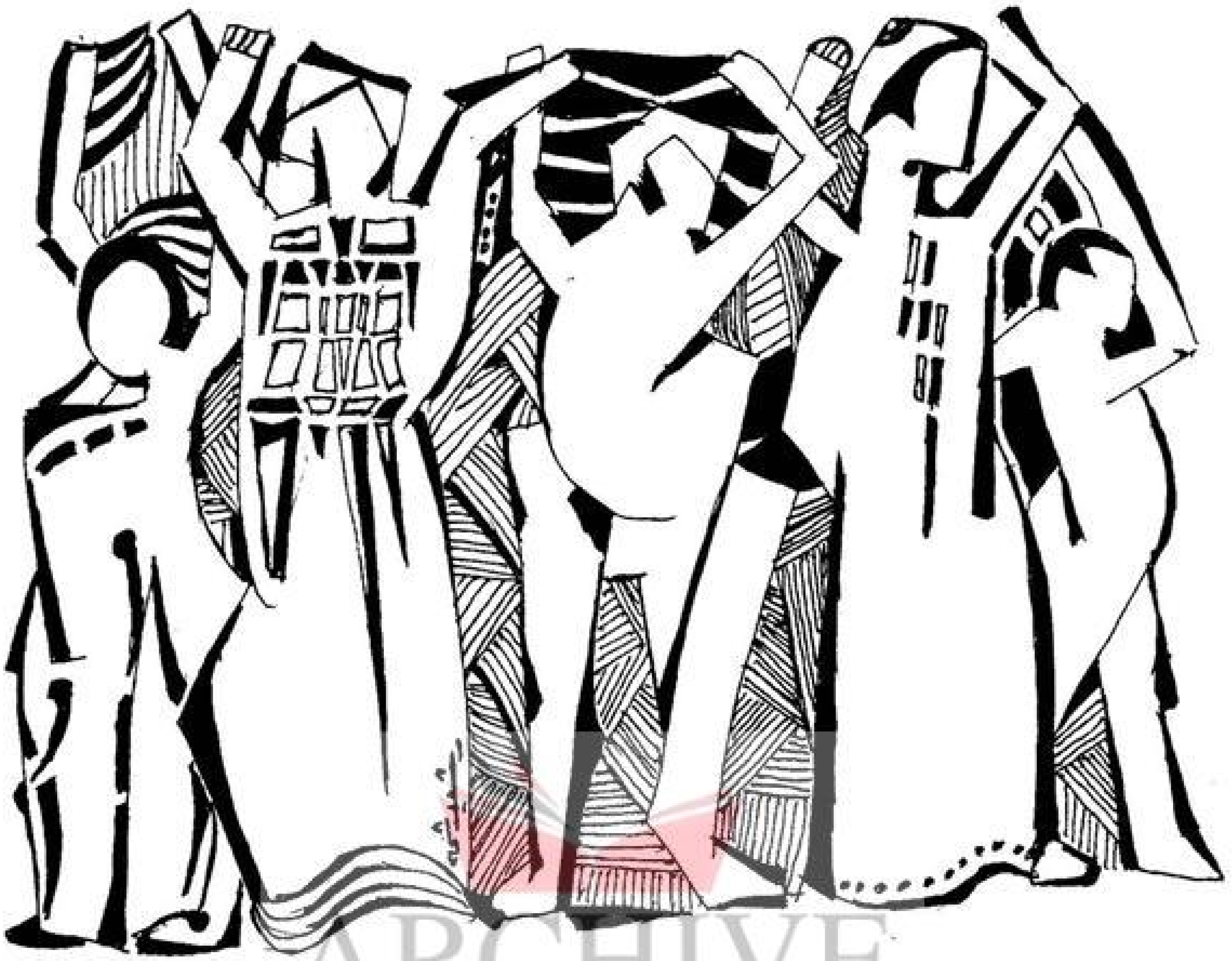

الشخصي المتعدد الوسائط، أو أن يستمتعوا بمشاهدة التلفزيون». ويعتقد مدير «إنتل» كذلك أن على صناعة الحاسوب ابتكار مزايا جديدة لا يمكن مقاومة إغراءاتها إن كانت هذه الصناعة جادة في صرف اهتمام مشاهدي التلفزيون إلى شاشات الحاسوب.

وعلى أية حال فمعركة الحاسوب في مواجهة التلفزيون ليست بالأمر السهل أو الهين، فهناك على امتداد الكرة الأرضية يوجد من أجهزة التلفزيون ثلاثة أضعاف ما يوجد من أجهزة الحاسوب الشخصي تحت الاستخدام، واستعمال التلفزيون أيسر منالاً، كما أنه أقل سعراً من الحاسوب، إضافة لذلك يعاني الحاسوب من نقطة ضعف أخرى وهي كونه جهازاً متلقياً للصور المرئية التي يتم بثها عبر الشركات. غير أن مبيعات الحاسوب، والتي تقترب حالياً من رقم ١٠٠مليون جهاز سنوياً، سوف تفوق مبيعات أجهزة التلفزيون مع نهاية العقد الحالي، وتقوم الشركات المصنعة للحاسوب بتطوير مزايا جديدة للحاسوب، وخصوصاً لمستخدمي الشبكة العنكبوتية وألعاب

الحاسوب، بحيث توفر صوراً أكثر وضوحاً وبتفاصيل أكثر وبأبعاد ثلاثية على شاشات الحاسوب.

ويشير مدير «إنتل» إلى هذا التركيز على تطوير مزايا الحاسوب، فيقول: «إن أكثر مستخدمي الحاسوب تطوراً هم أطفال في العاشرة من العمر باتوا يتطلبون عالماً حقيقياً متفاعلاً وبثلاثية أبعاد ينقل كيانهم إلى تجربة أقرب ما تكون إلى حياتهم الحقيقية ولا يمكن لجهاز التلفزيون تلبية مثل هذه التطلعات، وعلى محور آخر مواز يقوم الباحثون في ورش أبحاث «مايكروسوفت» بتطوير تقنيات جديدة تتيح نقل مشاهد في غاية القرب من تجسيد الواقع المادي، مع إضفاء لمسة الحياة الواقعية وكأن تلك المشاهد بيئة حقيقية فعلاً أو ما يسمى «الواقع الافتراضي»، وكل ذلك على شاشات الحاسوب، ويمكن الاستمتاع بمزايا هذه المؤثرات باستخدام أجهزة حاسوب ذات طاقة ضخمة وباهظة التكاليف مثل تلك الأجهزة المستخدمة حالياً في عمليات التجسيد الإحيائي لأعمال هوليوود.

وينصب هدف «مايكروسوفت» على توسيع نطاق هذه التقنيات حتى تعم الاستفادة من مزاياها حتى أصحاب أجهزة الحاسوب الرخيصة، ولا تدخر مايكروسوفت وسعاً في مجال البحوث، إذ تصل ميزانيتها السنوية في هذا الصدد لما يزيد على خمسة مليارات دولار، وتسعى مايكروسوفت من وراء هذا البذخ في الإنفاق على البحوث لتنفيذ مشاريع لأحد طموحاتها، فهم يهدفون، كما يقول «بيل غيتس»، إلى جعل الحاسوب أكثر خصوصية وسوف يكون الحاسوب قادراً على معرفة ردود أفعالك تجاه الأشياء، ويمكننا في الحقيقة إذا رغبنا بذلك ولربما تمكنا من صياغة أسلوب جديد في الرد على البريد الإلكتروني لن يكتفي بالقول بأنه قد تم قراءة الرسالة بل يصف ردة فعلك تجاهها، كما يقول غيتس أيضاً.

ومن أكثر الخطوات جراءة واقتحاماً لآفاق الاختراع المستقبلية لفتح ثغرة هامة على جبهة التقدم التقني ما تعد به تكنولوجيا الحاسوب من التوصل إلى تمييز الصوت، فحتى الآن لا تزال قدرات

الحاسوب على فهم ما يسمع محدودة، ومع ذلك فإنه خلال السنوات القادمة لن يكون بمقدور الحاسوب أن يفهم ما يقوله الناس فحسب، بل سيتمكن من محادثتهم كذلك، كما يتنبأ غيتس بذلك، ويقول: عندما نلقي استرجاعية على أجهزة الحاسوب الحالية فسنصرخ كما اعتقد قائلين: انظروا أكانت تلك الآلات التي لا تستطيع الإصغاء ولم تقدر على الكلام ولم يكن بوسعها أن ترى. وجنباً إلى جنب مع جهود تطوير أجهزة الحاسوب وتحويلها إلى أجهزة ناطقة ترد على المتحدثين إليها، يجري تدريب تلك العيون على شاشتها لتقوم بما هو أشد تعقيداً وأعظم تطوراً من تلقي صور خيالية ثلاثية الأبعاد. وتقوم مايكروسوفت بتطوير نظام مرئي يمكن في نهاية المطاف أن يجعل مستخدمي الحاسوب قادرين على التحكم بوظائفه بمجرد النظر إلى شيء على الشاشة وإعطاء ما يودون إعطاءه من أوامر.

وما صناعة أجهزة التلفزيون، وقد جوبهت بهذا التحدي الكبير المتمثل في التطور السريع لصناعة الحاسوب، فلم تقف مكتوفة الأيدي، فهاهي خدمات الأقمار الصناعية (البث الفضائي) والكوابل تقدم لجماهيرها قنوات أخرى متعددة وبرامج خاصة تلبي حاجات واهتمامات الجميع، ولسوف يتسع مجال هذه الخدمات كثيراً وتزداد ما تقدمه من ألوان مع دخولنا عصر البث الرقمي، كما أن التطور التكنولوجي يعد بشاشات أكبر وأوضح صوراً، ومع كل الجهد المبذول من قبل صناعة التلفزيون للصمود والمنافسة، لا يبدو أنها ستحسم المعركة لصالحها، فالتلفزيون المتفاعل الذي بدا واعداً بالكثير قبل أعوام، تخلى عنه معظم من كان يقوم بتطويره، وفي الولايات المتحدة استطال أمد النزاع والخلافات الصناعية حول المواصفات العالية الجودة للتلفزيون لما يزيد عن سنتين. ولا يعني هذا أن جهاز التلفزيون سيصبح اختراعاً بالياً مهجوراً، فاستخدام تكنولوجيا الحاسوب، إما عن طريق إضافة أجهزة حاسوب في أعلى هيكل الجهاز، أو بإدماج رقائق حاسوب داخله، يمكن لجهاز التلفزيون أن يصبح شاشة بديلة يمكن أن نشاهد الإنترنت

من خلاله وأن نتصفح برامج تلك الشبكة، ولربما كان هناك دور آخر مشابه لأجهزة ألعاب الفيديو في المستقبل، حيث أصبح بعض أرباب صناعتها يضيفون إليها حالياً جهاز مودم ليتم الاتصال عن طريقها بالإنترنت، كما أن المكالمات التليفونية الخاصة عبر الإنترنت التي يمكن استقبالها وإرسال البريد الإلكتروني هي أيضاً على الطريق وستظهر قريباً.

ويتنبأ مدير شركة «إنتل» بأنه سيكون هناك مئات من الأدوات والتجهيزات المتنوعة التي سيتم ربطها بشبكة الإنترنت في غضون الأعوام القادمة، ورغم ذلك فإن «غيتس» على يقين من أن لاشيء من هذا كله سيشكل تهديداً للحاسوب، فهذه الأداة، كما يقول، لا تزال في الشاشة الكاملة التي تود أن تجلس تجاهها، لتراجع بريدك الإلكتروني ولتجري أعمالك التجارية وحساباتك المالية، ولتقوم بالوظائف المطلوبة منك، فهي الأسلوب الشمولي الأوسع في التعامل. كما يقلل أرباب صناعة الحاسوب من شأن التهديد الذي يمثله الحاسوب الشبكي، الذي هو عبارة عن جهاز يتراوح ثمنه بين (٢٥٠-٥٠٠) دولار، يمكن من خلاله إيصال المستخدمين إلى الإنترنت، وتشمل قائمة مؤيدي الحاسوب الشبكي «لاري إيليسون» وهو مدير شركة «أوراكل» إحدى أكبر الشركات المنتجة للبرمجيات الحاسوبية في الولايات المتحدة، ويرى هؤلاء المؤيدون أن نقطة الضعف هي في قدرة الحاسوب الشخصي منافسة التلفزيون تكمن في غلاء ثمنه وصعوبة استخدامه، وأما مدير شركة «إنتل» فيقول: إن الحاسوب الشبكي يحاول وبنجاح اكتساح السوق الذي كان حكراً بالأمس على الحاسوب الشخصي ومعالج الكلمات والبريد الإلكتروني إلى ما غير ذلك.

ويسعى مناصرو الحاسوب الشبكي للبحث عن سبل لخفض تكاليفه، وإذا ما قدر لصناعة الحاسوب الشخصي أن تتطور بتقنياتها لتستوعب تلك التطبيقات الجديدة، فلسوف تصبح القوة المهيمنة في مجال الترفيه المنزلي، وعندها فقط سيكون لهذه الصناعة أن تطمح إلى رصد مبالغ طائلة

تستثمرها في الأجيال القادمة من معالجات المعطيات التي تفتقر إليها الصناعة للتعامل مع التطبيقات المستقبلية الجاري العمل على تطويرها، وتتوقع شركة «إنتل» أنه بحلول عام ٢٠١٥ سيكون باستطاعتها إنتاج معالجات معطيات متناهية الصغر، وبمقدورها العمل بطاقة ٢٥٠ ضعفاً طاقة أقوى من رقائق الحاسوب الحالية بأداء، وطموحات عملاقة بهذا الحجم لابد وأن تكلف ثروات ضخمة، فتلك المصانع التي سوف تنتج معالجات المايكرو ٢٠١٥، تقدر ما سوف تتكلفه بحوالي ١٠ مليارات دولار للمصنع الواحد، أي أربعة أضعاف ما يكلفه أكثر مصانع إنتاج أشباه الموصلات تطوراً، وحول هذه النقطة يقول مدير شركة «إنتل»: إن الجانب الاقتصادي لصناعتنا يعتمد اعتماداً مصيريّاً على توافر عدد ضخم من المستخدمين الذين يطلبون منتجاتنا التكنولوجية، ولن تفلح صناعة الحاسوب في رصد تلك المبالغ الخرافية المستثمرة في بحوث التطوير إلا باجتذاب مستخدمين جدد لما تنتجه مصانعنا، لذا فالجهود الحثيثة تمضي على مسارين، الأول يسعى لزيادة قاعدة جمهور المستخدمين، بينما يهدف المسار الثاني لتنويع الاستخدامات والتطبيقات لهذه التكنولوجيا، فكما ترصد الأموال لبحوث تطوير منتجات مستقبلية مذهلة على المدى الطويل، فلابد من استمالة عملاء جدد يقبلون على اقتناء تكنولوجيا المستقبل، ولابد مع جهود استقطاب أجيال جديدة من المستخدمين للحاسوب الشخصي، أن تثبت هذه الصناعة أن منتجاتها من أجهزة الوسائط المتعددة ذات قيمة ونفع كبيرين لميادين الأعمال والشركات، فعلى سبيل المثال سيوفر تضافر عاملي تكنولوجيا الوسائط المتعددة وشبكات الحاسوب المجال أمام فرص التدريب في الشركات (أون لاين)، كما سيتيح الوصول والمشاركة عن بعد بذخائر مصادر المعلومات المركزية.

وأما الخطر الأعظم الذي يتهدد صناعة الحاسوب الشخصي، بحسب الخبراء، فهو الضجر والسأم الذي يمكن أن ينتاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المستخدمين، فإذا وقع المحذور فسينجم عنه تقليص في نفقات البحوث، وتباطؤ في مسيرة التطوير للتطبيقات الجديدة، إلا أنه لم تظهر حتى الآن بوادر تشير إلى إمكانية حدوث هذا، وتمضي في غضون هذه التأملات واستعراض الاحتمالات معركة الاستحواذ على مقل العيون قدماً، ولسوف يمتد أثر تلك المعركة قريباً، إلى الحاسوب الشخصي الجاثم أمامك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هو السر الغامض الذي نسميه العبقرية؟!

هبة الله الغلاييني ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعلّ أول نموذج يرد إلى الذهن للعبقرية في القرن العشرين يتمثّل في عبقرية ألبرت أينشتين، ذلك الرجل الذي كان لبصيرته النظرية الإبداعية النفاذة إلى طبيعة المكان والزمان، أثرها في تغيير مداركنا بعمق عن العالم، إن إطلاق صفة العبقرية على الرجل هو اعتراف له بما يتمتع من قوى إبداعية غير عادية، تلك القوى التي تميزه عن غيره من الرجال والنساء الموهوبين، والتي لا يصل إليها يقيناً البقية من أمثالنا البشر العاديين، ويستطيع العلماء

✪ باحثة ومترجمة سورية.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

والرياضيون أن يشرحوا لنا ما قدمه أينشتين من عمل يجبرنا على الحديث عن عبقريته، ويمكن لأصحاب التحليل النفسي البحث عن مصادر هذا الإبداع عن طبيعة مثل هذه القوى المذهلة، ونحن نعزو الخاصية غير العادية لشعر شكسبير وموسيقى موتسارت وتصوير ليوناردو على سبيل المثال إلى عبقرية هذه الشخصيات، لأننا نعلم أن مثل هذه الأعمال لم تكن ببساطة نتيجة للتعلم أو التقنية أو الجهد الشاق المحض، ومن الطبيعي أننا نستطيع تتبع المصادر والمؤثرات، ونستطيع تحليل تأثير عمل من أعمال الفن في ضوء خواصه الشكلية، كمثل تقييم مزايا البصيرة الرياضية أو الاكتشاف العلمي، ولكن لم تتمكن التحليلات بعد من تفسير طاقات هذه الشخصيات نادرة الموهبة، والتي تستطيع أن تنتج عملاً خلاقاً له خاصية وقيمة دائمتان، ولو تساءلنا كيف استطاع موتسارت تأليف موسيقى بمثل هذا النقاء والكمال، لكانت الإجابة: «لأنه كان عبقرياً»، وهي إجابة تماثل تماماً قولنا: إننا لا ندري، ذلك أنه في كل عصر وفي كل فن تستعصي العبقرية على التحليل.

إذاً الضرورة تقتضي اللجوء إلى بعض التعريفات من أجل توضيح معنى العبقرية، ونبدأ بمعجم أكسفورد الإنجليزي:

قوة فكرية من نمط رفيع كتلك التي تعزى إلى من يعتبرون أعظم المشتغلين في أي فرع من فروع الفن أو التأمل أو التطبيق، طاقة فكرية وغير عادية على الإبداع التخيلي أو الفكر الأصيل أو الابتكار أو الاكتشاف، وهي تختلف كثيراً عن الموهبة.

ولاستكشاف أصول هذه الفكرة، ينبغي بادئ الأمر أن ننظر في تطورات معينة مرّ بها تاريخ كلمة عبقرية، فالمصطلح في الاستخدام الحديث مرتبط بالإبداع والأصالة ارتباطاً وثيقاً يعود إلى القرن الثامن عشر، حيث اكتسبت الكلمة لأول مرة معناها المألوف الحديث والمحدّد آنفاً، وهي أيضاً الفترة التي استخدمت فيها الكلمة لأول مرة للدلالة على شخص موهوب بمثل هذه القوى الفائقة كما يبدو في هذه العبارة: «كان نيوتن عبقرياً» ولكن العبقرية قبل القرن الثامن عشر كان لها مجموعة منوعة من المعاني المختلفة والتي لم يطابق واحد منها استخدامنا الحديث للمصطلح، وفي معجم أكسفورد، وبين المعاني القديمة المختلفة التي أوردها عن العبقرية، نجد

ثلاثة معان تتسم بأهمية خاصة وهي:

١- العبقرية روح مرافقة.

٢- العبقرية استعداد ذو سمات مميزة أو ميل طبيعي.

٣- العبقرية قدرة طبيعية أو موهبة فطرية.

والمعنى الأول مشتق مباشرة من كلمة جينيوس «genius» اللاتينية وفي الديانة الرومانية كانت «جينوس» أصلاً هي روح الأسرة (geus) التي كانت عقيدتها كعقيدة الآلهة الحارسة - مثل لارز (Lares) وبيناتس (penates) ومرتبطة بحياة المنزل، وفي أعمال بلوتس (نحو نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد)، تظهر كلمة جينوس لتعني نوعاً من الروح الحارسة داخل كل إنسان، وهي ليست صنواً للإنسان، ولكنها ترتبط ارتباطاً حميماً بشخصيته، وكانت الروح الرومانية الحارسة

ARCHIVE
http://Archive.Sakhrit.com

جينوس شأنها شأن الروح الإغريقية دايمون (daimon) تولد مع الإنسان، وتصحبه خلال رحلة حياته.

وفي القرون التالية نجد كلمة «عبقرية» تستخدم باطراد بمعنى خاصية غير قابلة للتفسير، وفي الشاهد التالي مثال على ذلك، وهو شاهد مقتبس من كتاب تماثل الشعر والتصوير عام (١٦٩٥) لدريدان: وهو شاعر وناقد وكاتب مسرحي إنجليزي.

يقول جون دريدان: (العبقرية السعيدة هبة الطبيعة: إنها تعتمد على تأثير النجوم كما يقول المنجمون، وعلى أعضاء الجسد كما يقول الطبيعيون، وهي هبة خاصة من السماء كما يقول المسيحيون والوثنيون على السواء، أما وسيلة تحسينها، فهو أمر يمكن لكثير من الكتب أن تعلمنا إياه، وأما كيف تحصل عليها، فلا أحد يستطيع ذلك، والكل يجمع على أننا لا نستطيع عمل شيء دونها).

وهذا مثال آخر للشاعر الإنجليزي: ألكسندر بوب، إذ يقول:

(العبقرية الحقة في الشعراء أمر نادر، والناقد القادر على التذوق الحقيقي نادر، كلاهما متشابهان، يتلقيان نورهما من السماء، ذلك الذي ولد لينتقد، وذاك الذي ولد ليكتب).

ورغم ما يبدو لنا وكأننا نقترب من المعنى الحديث للعبقرية في هذين الشاهدين، فإننا نفتقد عاملاً حاسماً في عدم وجود تمييز واضح بين العبقرية والموهبة حتى الآن، ورغم أن المضامين الحديثة للكلمة لم يكن لها وجود قبل القرن الثامن عشر، فإن فكرة امتلاك أفراد معينين قوى خلاقة لهي فكرة تضرب بجذورها في الأدب والفكر في عصر سابق على ذلك، ولقد أقرّ اليونان على أي حال بالطبيعة الغامضة لقدرات الإنسان الخلاقة فيما يتعلق بالشعر.

ومنذ أقدم العصور والشعراء يدعون أنهم يتلقون إلهاماً مقدساً، ولقد كان لمذهب أفلاطون في الإلهام الشعري باعتباره نوعاً من الجنون أو الحماسة، أثره في تكوين اعتقاد نشأ في الثقافة العربية ولأول مرة، بأن العملية الشعرية عملية غير عقلانية، وبقي هذا الاعتقاد موضع اعتبار لعدة قرون تالية، وعجّل بأساليب مهمة معينة، بتكوين بعض الانطباعات التي ارتبطت فيما بعد بفكرة العبقرية.

وفي عصر النهضة، ومع الإيمان العميق بتنوع قدرات الإنسان، وهو الإيمان الذي كان من سمات الحركة الإنسانية الإيطالية، نشهد بزوغ مفهوم جديد مؤداه أن الشاعر مبدع، تماماً كما تبدع الأرباب، وهكذا يبدو الشاعر وكأنه رب من هذه الأرباب (الشاعر واحد من الأرباب) كما جاء في الوصف المؤثّر لسكاليجر، وهو واحد من أعظم علماء عصر النهضة، ويُقال أنه مؤسس حركة النقد التاريخي، يبتدع مادته مكوناً

لها صوراً لأشياء لا وجود لها، والاعتقاد في القدرات الإلهية للفنان يظهر أثره كذلك في صفة «إلهي divino» التي حدث أن أطلقت باطراد على الفنانين خلال القرن الثامن عشر، وكان من أبرز من اتصفوا بها «مايكل أنجلو».

والعبقرية في وقتنا الحاضر، جزء أساسي من معجمنا اللغوي اليومي، إنها الكلمة التي مهما تدنت قيمتها، ستظل تعبّر عن الإيمان بالقدرات البشرية التي هي لبّ حضارتنا، وهي أيضاً شيء جوهري كما يقرر ريتشارد بوارير.

وهناك اتجاه بين النقاد والأكاديميين عامة يميل إلى اعتبار فكرة العبقرية منبتة الصلة ولا علاقة لها بشيء، وأنها مجرد خيال رومانسي تتخذ أساساً ووسيلة لتجنب التحليل الصارم للنصوص، والذي يعد المهمة الحقيقية للنقد. وليس من العسير الوقوف على أسباب هذا الشك، ففكرة العبقرية في الحقيقة فكرة تحيط بها الصعوبات.

فكيف نعرّف العبقرية؟ وكيف نفرّق بينها وبين الموهبة؟ وإذا كانت القوة الإبداعية مقوماً أساسياً من مقومات العبقرية، فما مقدار ما يمتلكه الشخص من هذه القوة كي يكون عبقرياً؟ وفي هذا الخصوص، تُرى من هو المبدع على وجه الدقة؟ فنحن جميعاً يمكن أن نكون مبدعين بدرجات متفاوتة، ولكن ما ذلك الذي يجعل من إنسان عبقرياً؟

لو كانت السمة المميزة لعمل عبقري هو صموده لمعيار الزمن، فهل من الممكن تطبيق الفكرة بأثر رجعي، إن صعوبة الإجابة عن أسئلة كهذه، وشدة غموض العبقرية تجعلان المفهوم أمام الكثير من الناس لا معنى له... والعبقرية فضلاً عن ذلك هي بالضرورة من سمات الصفوة، ليس فقط لما تمنحه من امتياز لأفراد بعينهم، بل لأنها أيضاً تعلي أنواعاً معينة من النشاط فوق أنواع أخرى، فالعبقرية تجبرنا على إصدار أحكام قيمة، وهو أمر قد لا يكون شديد الصعوبة بالنسبة للاكتشافات العلمية أو البراهين الرياضية، ولكنه يجعلنا غير مطمئنين تماماً حين يتصل بالفنون الإبداعية.

ومرة أخرى تثير فكرة العبقرية أسئلة حول دور المبدع ومكانته في المجتمع.

وهل تتيح العبقرية لمن يمتلكها الحق كل الحق في تجاهل قواعد المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يُعامل بمعايير مختلفة تمام

الاختلاف عن تلك التي تطبق على أقرانه؟ ليس من العسير على وجه اليقين أن نفكّر في أمثلة لعباقرة قدّموا أعمالاً رائعة تضيف قيمة للحياة، لكنهم كبشر يتسمون بالحسنة، ومما لا شك فيه أن الاعتقاد في غرابة أحوال المبدعين واختلاف في العبقرية، والتي كانت فيها المعاناة ثمناً يتحتم على العبقري أن يدفعه، لا من أجل قواه البشرية الخارقة فحسب، بل من أجل الحرية الشاملة كذلك، هذه الحرية التي رأى من واجبه ومن مظاهر امتيازه أن يستثمرها. ولقد تجلّى هذا التركيب المعقّد من الأفكار في أسطورة فاوست، تلك الأسطورة التي تمدنا من مارلو إلى توماس مان بأقدم الأمثلة وأكثرها دراما لوجهة النظر الميفيستوفيلية عن العبقرية، متمثلة في صرخة فاوست بوتروني (هبني العبقرية بكل ما فيها من آلام).

وربما يقودنا هذا إلى مشكلة من أشد المشكلات المرتبطة بفكرة العبقرية صعوبة، وهي المشكلة التي تدور حول العلاقة بين الفنان وعمله، ومع أن دراسة العبقرية هي في النهاية دراسة للقوة الإبداعية البشرية، واهتمامها الأساسي منصب على الإنسان المبدع، أكثر من كونه منصباً على العمل الذي يبدعه، إلا أن العمل هو الذي يدفعنا إلى الاهتمام بالفرد المبدع، وتكون هذه المشكلة أقل حدة في حالة الحدوس الرياضية أو الاكتشافات العلمية، حيث إن العمليات العقلية المستخدمة مهما تكن قائمة على الحدس، فإن النتيجة النهائية تحتوي على علاقة ما بالأحداث التي يمكن التحقق منها أو بالحقائق القابلة للملاحظة، بيد أنه في الفنون الإبداعية يعكس العالم المتخيل الذي يبدعه الفنان حتماً عقلية فرد بعينه، ولو بطريقة تتسم بشدة الغموض والتعقيد، وفي حين أنه من الممكن أن نتخيّل أن شخصاً آخر كان يستنبط النظرية العامة للنسبية لو لم يستنبطها أنيشتين فلا يمكن أن نتصور أن تأليف موسيقى بيتهوفن أو شعر شكسبير كان يمكن أن يتم لو أن هاتين الشخصيتين المهمتين لم توجدا.

ولا يعني هذا أن نقول إن أنيشتين كان أقل عبقرية من بيتهوفن أو شكسبير، ولكننا نريد أن نبرز نقطة واضحة، ألا وهي وجود فروق بين طبيعة العبقرية في الفنون وطبيعتها في العلوم، أما ما هو ضروري بالنسبة لتصور العبقرية في أي مجال فهو وجوب أن يكون العمل نفسه دائم الجودة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقيمة، وهذا بوضوح هو السبب في أن فكرة العبقرية لم تطبق أبداً بأي معنى من المعاني على الفنون الأدائية.

العبقرية الموسيقية:

عند مناقشة موضوع العبقرية، يتبين من طبيعة الموضوع، أنه لا يتيسر للمرء أن يتوقع معرفة ما يتحدث عنه امروً آخر، والجذر اللاتيني للكلمة هو genere بمعنى يولّد، ينجب، يخلق، والجني الخرافي (في حكاية) المصباح، لو استطاع إنسان استدعاءه لنشر ضوءاً، وحقق «بطريقة لا يمكن تفسيرها» وفي ومضة تخطف البصر، أغلى الأحلام وأشد الرغبات جموحاً، وأعظم الآمال المنطوية على المخاطر، وفعل التوليد سحر، لأن الخلق وهو مصدر الحياة، هو السحر المطلق، ولقد حوّل الإغريق القدماء هذا إلى أسطورة عن أورفيوس، الذي ربما كان يوماً ما إنساناً حقيقياً – واكتسب بوصفه شاعراً ومؤلفاً موسيقياً وعازف قيثارة وضعاً أسطورياً، وأخذ بذلك يتحدى الآلهة بل الموت ذاته، ومع عصر النهضة اتجهت أوروبة إلى المثل الأعلى اليوناني، والواقع أن عصر النهضة كان ميلاداً جديداً، ويرجع ذلك أساساً إلى أن قيمة تدين للعصور الكلاسيكية القديمة بقدر ما تدين للمسيحية، وعند الحد الفاصل، في عام ١٦٠٧ يأتي أورفيوس مونتفير دي، وهو مؤلف موسيقي إيطالي، الذي سعى في لحنه الجليل «possento spirto» نحو الإنسانية وينجح في بلوغها، وعن طريق عبقريته كشاعر ومغن وعازف قيثارة، يسعى في لحنه نفسه إلى استدعاء قوى الظلام ثم ينتظر عليها باستخدام كل الوسائل الحسيّة البارعة التي كان إنسان عصر النهضة قادراً عليها، فيطلق من حنجرته تنويعات صوتية مذهلة في براعتها، تضاعف منها أو تردد صداها سحان لهجة للحواس وأبواق مقرقعة، مدعومة بوفرة من الآلات المصاحبة التي تشمل بطبيعة الحال الآلات الوترية، غير أن انتصارات أورفيوس على الموت بحد استنفاذ أويريدس المتوفاة بسحر موسيقاه، لم يكن إلا انتصاراً ظاهرياً، وفي هذا تقدير لشجاعة الإنسان البطولية التي لا تستطيع أن تلغي.حقيقة اختلاف الإنسان عن الله بحكم كونه عرضة للزلل والفناء.

وتتحقق النهاية السعيدة فقط على مستوى التمني، حين ينجز أبولو إله الشمس عملية تحول جوهرية لأورفيوس الموقر،

الذي يطل من عليائه إلى أسفل وإلى الخلف ويرى أويريدس المتوفاة الآن مرتين، بعد أن صارت فاتنة، والصورة بطبيعتها وهم.

وبعد ذلك فقط، في عصر الباروك المزدهر (يطلق هذا اللفظ خاصة على شعر القرن السابع عشر بانجلترا، وأوائل القرن الثامن عشر بفرنسا وإيطاليا) أصبح غرور الإنسان وجرأته قويين أو متهورين بدرجة تكفي للتحلل من الميتافيزيقا ومن الوعد بالسعادة السماوية، وقصائد درايدن الاحتفالية الموجهة إلى القديسة سيسليا راعية الموسيقى، وتلحين هاندل لها - فضلاً عن أوبرا الباروك الأوراتوريو بوجه عام - تعادل قوة العبقرية بالاكتمال المادي بل بالاكتمال الجنسي، فلو استطعنا الإيمان بدرجة كافية بما نحن مسيطرون عليه مادياً، فإن ذلك يكفي، وفي ذلك الوقت كان باخ وحده استثناء من هذا، مثلما هو استثناء وأشياء أخرى كثيرة، ذلك أنه بوصفه مؤلفاً موسيقياً لاهوتياً بل صوفياً، بقدر ما هو إنساني النزعة، أعاد وضع الصياغة المسيحية لحكاية أورفيوس بأن جعل قوة العبقرية مساوية لانبلاج النهار في السماء، وبينما تطور المذهب الإنساني من الأوتوقراطية الواثقة المتعلقة بنفسها إلى ما نسميه الآن بالديمقراطية، لم تعد القوة مسألة إلهام (قد يكون دينياً) بقدر ما أصبحت نتيجة للتنوير العقلي لعامة الناس بصورة أساسية.

ورغم أن العبقرية لم يكن لها مجال كبير في المستويات التعليمية العليا لعصر التنوير، فربما تكون قد أثبتت أهميتها الشديدة بالنسبة لحياة أسست على المبدأ الديمقراطي، وهذا هو الذي يشهد به أعظم «عبقريين» في التاريخ الأوروبي، ففي عام ١٧٩١ نجد أوبرا موتسارت الماسونية «الناي السحري» تعيد الحياة لنزعة جلوك التنويرية مع مدّها بأبعاد ميتافيزيقية، كما فعلت العقائد الماسونية بالقوة، وتعالج أوبرا الناي السحري لموتسارت، مثلها في مثل أوبرا أورنيوس لجلوك، محاولة واختباراً، ولكن ما يجري الآن اختباره ليس مجرد قدرة الإنسان على تحمل وتخيل الاكتمال المادي والأخلاقي التي أقرّها المجتمع، بل قدرة النفس الفردية أيضاً - العقل والقلب - على استعادة الكمال الذي يتوقف عليه الإنجاز الخاص (والعام في النهاية)، والأمر الذي له دلالاته أن المرأة عند موتسارت لها

دور أساسي في العملية الإصلاحية، بينما لم تكن كذلك بالنسبة لمونتفيردي.

ولقد آمن كل الناس، وما زالوا على إيمانهم بأن موتسارت طفل عبقري، بل هو مثال للعبقري الذي لا بد أن تكون مواهبه فوق مواهب البشر، لأن كل شيء في فنه يبدو وكأنه يتم في «غمضة عين»، والقصة المألوفة عن الطفل موتسارت الذي دوّن النوتة الموسيقية الكاملة للمزمور الخمسين من مقام الأليجرو، بعد الاستماع إليها مرة واحدة، ربما لا تكون أكثر من عمل خارق للذاكرة السمعية بالنسبة لنا، ومع ذلك فهل يمكن أن تكون مجرد مسألة عقل وأذن يعملان عملاً عقلانياً دون إتقان؟ ألا يجب أن تكون أيضاً تجربة لحظية وحسية، مثلها في ذلك مثل انفجار نفخة مفاجئة من بوق (كانت تصيب الطفل موتسارت بالإغماء) أو شذا الوردة أو التربيت الرقيق لكف قطة؟ وعندما شُبّه موتسارت في عصره بالملاك لم يكن ذلك لأنه كان مشغولاً بالنعمة «السماوية» الفائقة للطبيعة - فهو بالتأكيد لم يعرف نفسه أنه مشغول بشيء من هذا - بل الأصح أن السبب في ذلك هو أن إنسانية قد تحققت بصورة كاملة في الأصوات التي ابتدعها أو استدعاها ونفخ فيها الحياة، وليس من قبيل المصادفة أن يتأرجح موتسارت بين «الكلاسيكية» و «الرومانسية» فعقله المعجز من الناحية الموسيقية يعمل بطريقة حدسية مثل الطفل الحكيم والبدائي النبيل عند روسو، والواقع أن الخيال والعقل والبراءة والتجربة تتفاعل عنده وتتعاون تماماً كما قال عنها بليك معاصر موتسارت.

وهذا هو السبب في أن القول المأثور المبتذل، بأن عشرة في المئة من العبقرية إلهام، وتسعين في المئة منها جهد - يتضمن قدراً من الحقيقة، والشيء نفسه يصدق على بيتهوفن بدرجة أوضح، فمخطوطات مدوناته الموسيقية على العكس من جهود موتسارت المتسمة في وضوح بالكبرياء أو بعدم وجود أي أثر للجهد، تكشف عن عذاب باطني يظهر في عمليات الشطب الوحشية والتعديلات الغاضبة المهتاجة والتصويبات المسعورة.

ولقد رأى جوته - وهو أعظم شعراء العصر كما كان بيتهوفن أبرز مؤلفيه الموسيقيين، أن قوانين الطبيعة وقوانين النفس البشرية متصلة اتصالاً وثيقاً، إن لم تكن متطابقة، ومثل هذه النظرة «المورفولوجية»

عن النمو البشري والإبداع الفني، والتي بمقتضاها يعمل كلاهما في منحنيات عضوية كاللولب أو يتفتح ويزدهر كالنبات، هذه النظرة ستبدو ظاهرة في الأسلوب الذي كان يعمل به بيتهوفن، وتشهد بذلك اكتشافاته وتعليقاته المسجلة، وقد كتب إلى الكونت برونشفيك عام ١٨١٤ يقول: «إن عالمي في الهواء، فكما تدوم الريح كثيراً، كذلك تدوم الأصوات، وكذلك أيضاً تدوم في نفسي».

إن أفكاره الموسيقية يمكن أن تنتزع من الأثير (وتلتقط) في الغابات وفي سكون الليل، وهي لا تتيح له الراحة، لأنها أصوات «تهدر وتحتدم عندما تتحول إلى نغمات موسيقية، إلى أن تتمثل أمامي أخيراً في صورة مدونات (نوتات)»، ولو نظرنا في قطعة منها كذلك اللحن الختامي الذي وضعه للحركة الأولى للمقطوعة الثالثة من آخر سوناتا كتبها للبيانو (العمل ١١١)، فيمكننا أن نقول إن بيتهوفن، رغم أنه لم يكن ليستطيع إنجاز ذلك التحول السحري للعاصفة إلى موسيقى إلا من خلال الصراع المحتدم داخل نفسه، فإن ما تولد في الموسيقى شيء آخر مختلف وأعظم من العقل المبدع، إنها «المعرفة المطلقة للمطلق في حقيقة المطلق» لهيجل، مستقلة عن أي شيء حدث لبيتهوفن، وإن لم تتبدَ بشكل مسموع إلا من خلاله، وليست أزمة بيتهوفن الشخصية هي التي تؤجج «عقله بالدهشة والرهبة» بل ما أسماه هوبكنز «حركة المعنى» في سوناتته النبيلة التي أهداها إلى هنري بورسيل، وفي بعض الفواصل الموسيقية من ذلك المقطع الختامي، نجد أن الحركة الموسيقية هي «الحرية في التطلع للمستقبل، والضرورة في الرجوع إلى الماضي».

والحساسية الموسيقية ليست موهبة فردية، ولكنها إحدى خصائص الإنسان الأساسية، فالإنسان في الموسيقى لا يقدم تعبيراً عن شيء ما (مشاعره)، ولا يبني بناءات أو تركيبات مستقلة، إنه يبدع نفسه، ولا شك في أن بعض الحيوانات «أفضل من غيرها، لأنها فيها من النفس المبدعة قدراً أكبر، ولم يجز إنسان قط قدراً أكبر من النفس من بيتهوفن، ولا أظهر إنسان قدراً أكبر من الفكر في عملية إبداعها».

يقول بيتهوفن:

«تمنحنا الموسيقى مشاعر الأمل والتوقع، وتوحي إلينا بمعارف سماوية، والجزء الذي

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

يدركه العقل منها عن طريق الحواس، هو تجسيد للمعرفة العقلية، ورغم أن العقل يحيا عليها كما نحيا على الهواء، فهي شيء مختلف نعجز عن إدراكه عقلياً، ومع ذلك، فكما تزودت النفس بغذاء الموسيقى، ازداد استعداد العقل للتعاطف السعيد معها، غير أن القلة هي التي تتمكن من بلوغ هذه الدرجة، فكما يتزوج الآلاف من أجل الحب دون أن يتجلى الحب قط لهذه الآلاف، رغم أنهم جميعاً يمارسون الحب، فإن الآلاف يتعاملون مع الموسيقى دون أن تتجلى لهم، إن كل ابتكار حقيقي هو تقدم أخلاقي، والخضوع لهذه القوانين الغامضة بحيث يتم عن طريقها ترويض عقل الإنسان وهدايته حتى تدمن تجليات الفن هذه، هو المبدأ القويم للفن، والذوبان في تجلياتها هو تكريس منّا للقوة الإلهية المقدسة التي تمارس تأثيرها في هدوء في ثورة العناصر الشرسة، وبذلك تضفي على الخيال أقصى قدراته على الفاعلية، ولهذا فإن الفن يمثل دائماً القوة المقدسة، والعلاقة التي تربط الناس بالفن هي الدين، فما نحصل عليه من خلال الفن يأتي من الله، كما أنه إلهام سماوي يحدد هدفاً للملكات والقدرات البشرية، وهو هدف نستطيع أن نبلغه».

وهكذا تدمج رواية بيتهوفن قطبي التناقض في العبقرية الأورفيوسية التي تهبط من عل، ولكنها قد لا تتجسد إلا في صورة بشرية ثم يستطرد في ملاحظاته المهمة فيعترف:

«بأننا لا نعرف ما الذي يمنحنا المعرفة، فالبذرة المغلّفة بإحكام تحتاج إلى التربة الرطبة المشحونة بالكهرباء الدافئة كي تتبرعم، وتفكر، وتعبّر عن نفسها، والموسيقى هي التربة المشحونة بالكهرباء التي تحيا فيها الروح، وتفكر، وتبتكر، والفلسفة تنطلق من روح الموسيقى المكهربة وحاجتها الشديدة إلى تأسيس كل شيء على مبدأ واحد تلبيها الموسيقى، ورغم أن الروح لا سلطان لها على ما تبدعه من خلال الموسيقى، فهي مع ذلك تفرح بعملية الإبداع، بهذا يكون كل إنتاج أصيل في الفن إنتاجاً مستقلاً وأكثر قوة من الفنان ذاته، ويرتد إلى القوة الإلهية حين يتم إنجازه، ولا يرتبط بالناس إلا بقدر ما يشهد على القوة المقدسة التي يكونون هم الوسيط (الذي تتجلى من خلالهم)، والموسيقى تربط الروح بالتناغم، وكما أن الفكرة المعزولة تشعر بأنها مرتبطة بكل الأشياء التي تتصل بالعقل، فكل فكرة في الموسيقى ترتبط كذلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ارتباطاً حميماً وبصـــورة لا تتجزأ بالتناغم الشامـــل بأكمله، وهـــو (الحقيقـــة الكلية) الواحـــدة، إن كل ما هـــو مشحون بالكهرباء يحفز العقـــل للإبداع المتدفق الجياش، وأنا مكهرب بالفطرة..

في هذه الفقرة الرائعة يخاطر بيتهوفن بتجاوز عملية الديالكتيك (الجدل) الهيجلي وتخطي تصور جوته للشكل «المورفولوجي» وهو إذ يمد الاستعـــارة إلى مجال الكهرباء، يسبـــق أحدث النظريات عـــن طبيعة العقل البشري، وهناك ما يوحي بالرهبة في حقيقة أن بيتهوفن باستخدامه إحدى كلمات عصره الأساسية التي أسيء فهمها حينئذ كان يلمح بطريقة تنبُّئية إلى حقائق تأملية به أنا الآن بالـــكاد في إدراك معانيها، لقد تولد إعلاؤه مـــن «شقاء الوعي» والصـــلات الوثيقة بين تعريف هيجل للـــروح ورأي «تسوكر كاندل» عن عملية الإبداع الموسيقي، وجدلية الفكر الموسيقية في أعمال بيتهوفن (خاصة أعماله المتأخـــرة)، كل هذا لا يمكـــن أن يكون أمراً عرضياً.

لقـــد تخلصـــ بيتهوفن من نـــير الذوق الكلاسي والانضبـــاط المسيحي لينجز بناءً مركباً من العقل والخيـــال، ربما يكون أشد إبهاراً حتى مما أنجزه موتسارت وربما يكون نوعاً من اقـــتران السماء والجحيم والحمل والنمـــر الذي تحـــدث عن بليـــك، وهناك معنى للقـــول بأن ربما يكـــون أعظم مؤلف موسيقي «عصري» حيث إن «أشكاله»، على الأقل ابتداءً من الرباعيات (العمل ٥٩) وما يليها تتجاوز عملية الصـــيرورة والتقدم في الزمن لتعانق الآفاق المستقبلية البديلة، كما تعانق «الاعتراف الكلاسيكي، الذي لا يخلو من الدعابـــة، بالأساليب الأخـــرى الممكنة للتجربة»، وقد كان «تفسير» بيتهوفن لرؤيته المتزامنة للآفـــاق المستقبلية البديلة هو أنه أبدع مـــا أبدعه وهو في الحالة التي سمّاها حالة «الانتشاء»، نظراً إلى أنه كان في أثنائها أداة للروح القدس، ولم يكن متلقياً سلبياً لها، حيث إنـــه كان في اللحظـــة نفسها مسلوب اللـــب وسالبه، ومـــن الطريـــف أن أينشتين العـــالم العظيم في ميدانه عظمة بيتهوفن في الموسيقى قد ذهب إلى أن السر هو أن تمارس بذرة كل فن وعلـــم صادق: «إن معرفتنا بأن ما هو مستغلق علينـــا يوجد وجوداً حقيقياً ويتجلى بوصفه أسمى حكمة وأنصع جمالاً، وأن ملكاتنـــا المبتكرة لا يمكـــن أن تستوعب منـــه إلا أكثر صـــورة بدائية هـــذه المعرفة،

هــذا الشعور، هو لب التديّن الحقيقي» وفي ضوء هــذا تكون عبارة بيتهوفــن التي قال فيها إنــه دوّن آخر ثــلاث سوناتات للبيانو دون توقــف أثناء العمل في حركات القداس المهيــب Missa solemins عبارة خالية من المعنى، رغم أن هناك من يبرّر القول بأن السوناتات قد شغلته طوال حياته.

ولقــد ظل بالمثل يكــدح أربعة أعوام في تأليــف القداس، ومع ذلك فإن عظمة سلّمه الموسيقي وإحكام بنائه - بما في ذلك ما نميل إلى تسميتــه بالتفاعلات المركبة «بطريقة لا تصدق» بين الموضوع الدال motif والفكرة الرئيسية theme والإيقاع والتناغم يدلان يقينــاً على وجود مبدأ للتأليف الموسيقي أو وراء نطاق الفهم العقلي.

والحــق أنه لا يوجــد خليفــة حقيقي لموسيقى الحقبة الثالثــة من إنتاج بيتهوفن وكان «فرانز بيترشوبرت»، معاصره الأصغر قليــلاً منه في السن مــع موتسارت بالطبع، أعظم عبقري فطري في الموسيقى، كان يدوّن وهو لا يزال بعد صبياً يافعاً أغاني ملهمة على ظهر قوائم الطعام، وكانت حياته أقصر من حياة موتسارت، ومع ذلك فإنه عندما أبدع روائعــه المعجزة بحق في أواخر سني حياته، لم يجد نفسه في حاجة إلى أسلوب موتسارت أو بيتهوفن العقلي، لأن آخر ثلاث سوناتات للبيانــو كتبها والخماسيــة الوترية الجليلة من مقام سي، كشفت عن الصياغة العقلية الوحيدة الملائمــة لضروراتها التخيلية، ولا شك في أن التمكن التقني فيهما - وإن زاد في «رومانسيته» على موتسارت وبيتهوفن ولم يقلّ مع ذلك عنهما كمالاً - هو لب عبقرية شوبرت.

كلمة وريشة
وصورة تداعب الحلم

د. إسماعيل مروة ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أقطف السحاب

أحدّثه عن الغياب

وأسرق البدر

أكلمه عن الهجر

أشكّل منهما قصيدة

بلون الكحل

٭ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

أغنيها إلى أن ينبت الفجر

ويشرق اللون الأخضر

ويبزغ وجهك الأسمر

هكـذا تبحـث رانيا كرباج عـن الوجه الأسمـر في مكونات الحيـاة (غياب وهجر وفجر) (سحاب وبدر وكحل) (بياض وخضرة وسمرة) من حالة الروح، إلى مكونات الطبيعة إلى ألوان الحياة تشكل لوحة متكاملة لحالة حب ووجدان، لحالـة فقدان ورغبة، لحالة مرجوة تريد الوصـول إليها، لحالة تعيشها تريد أن تنقلها إلينا، وفي كل الحالات كانت الشاعرة الفنانة التشكيلية رانيا كرباج بارعة في تصوير حالة من جوائيات امرأة فوصلت إلى حالة الخضرة، وبرعت في تقديمها.

بين النقد والتشكيل والشعر:

أسمع من مبدعين رغباتهم في أن يكونوا بارعين في ميدان غـير ميدانهم، وهذا فيه الكثير من الصدق، وكم كنت أتمنى لو رسمت أو عزفـت ذات يوم، ولكـن ذلك لم يحدث، وبقيـت الأمنية مجـرد أمنيـة، واحتفظت بالتـذوق وحده.. وحين كنت ألتقي صديقي الراحل المبدع فاتح المدرس في مرسمه كنت أقف علـى القضية المشتهـاة، ففاتح رسام مبدع ورائد، وصاحب رؤية نقدية، وهو قاص موهوب ترك مجموعة (عـود النعنع) وهي من المجموعات المؤثـرة، وترك مع صديقه حسين راجي مجموعة شعرية، وكان مرسمه يغصّ بالأوراق التـي زينتها عبارات شعرية عميقة رائعة أو حكم.. ولا أدري مصير هذه الأوراق اليوم. وما أردته هنا أن أتحدث عن مواهب فـاتح المتعددة، وأضيف إليها عزفه الجميل في الموسيقى- وأنـا أحتفظ بعزفه إلى اليـوم- هذه المواهـب أتاحت لفاتح أن يكـون أكثر عمقاً من شاعـر لا يملك سوى الشعر، ومـن فنان لا يعرف سـوى الرسم، ومن عازف لا يتقن غير العزف. وهل هناك أهـم من شخص يمتلك أكثر من شخص في ذاته؟! يعيش أكثر مـن إنسان أكثر من حياة في أكثر من تجربة..!

عندمـا أطلـع على تجربـة أدبية أقف أمامها باحـترام حتى أعرفهـا وأهضمها، وبعدها أتابع كما يدفعني إحساسي النقدي الفطري.

وبالمصادفة البحتة كنـت عند صديقي الرائع المبدع أحمد المفتي في جلسة صباحية أستمـع إلى شعره، وأرشف فنه وخطه، فإذا بـه يناولني ديوانـاً من الشعـر كل ما فيه مختلف، الغلاف، اللوحة، القياس، الإخراج، الحرف... واسم الشاعرة... وفي اليوم الثاني وصلني مـن الشاعرة (وصايا العطر) قرأت المجموعة بتمامهـا، وعجبت لهذا الاختيار اللائق للعنوان، وحقاً لم يكن الديوان بتمامه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلا قارورة من عطر متعددة الحجرات، لكل حجرة رائحة، ولكل حجرة لون،وكل ذلك ملون بألوان النقاء الشعري الطافح حباً وألقاً وإبداعاً.

بين الأصيل والحديث:

الحديث هنا ليس عن شعر تقليدي وشعر حديث بالمعنى المتعارف عليه، فالدواوين التي تتبع النهج التقليدي أكثر من أن تحصى، ولكنها لم تترك أثراً أو قيمة فنية أو فكرية، وكذلك الدواوين الحديثة التي تخلت عن النهج القديم، وهذا يثبت أن الشكل على أهميته ليس سوى إطار، والأهم هو المحتوى والمضمون والفكر والموسيقى.. فالشعر شعر بغض النظر عن شكله، ولا يجوز بحال من الأحوال التحزب للون من الشعر، ويكفي ما دفع التحزب إلى حياتنا من خراب، ولعلّ أسوأ أنواع التحزب والتحيز هو التحيز الفكري والفني الذي ينفي الآخر ويلغي الكثير من الطاقات والمواهب، وهذا ما أدهشني حقيقة في ديوان (وصايا العطر) فالشاعرة هنا لا تحاول تقليد الشعر القديم، ولا تفتعل الابتعاد القسري عن شكله الشعري القديم المعروف بل إنها لا تلتفت إلا لنداء الشعر والإبداع داخلها، فتقوم بتقديم نص إبداعي مختلف لحالة إنسانية مدهشة، تنظم شعرها كما تتنفس، لذا لو سألتها عن شعرها فقد لا تجد جواباً سوى: هذي أنا.

في غمرة وجنتيك

المسافرتين

في الزمن والمكان

مغامرتين

في حضرة عينيك

الواعدتين

ويديك العارفتين

تلفتُ لألمح فجأة... أنثى

إننا المرآة وأنا هنا

وبعض الذكريات

وبعض الأمل

هــل بالإمكان البحث عــن الشكل هنا؟ وهــل يحسن التعبير بغير هذا الشكل، فأنت أمــام الزمــان والمــكان في حضــرة السفر والحضــور والوعد، أنت مــع العرفان فكراً الــذي يقترب من التصــوف، وقد يكون هو التصوف حقاً، ومــع المعرفة بخبايا الأنوثة وأسرارهــا، أمام هذه الحالــة وتلك تنقلب المعرفــة إلى تصوف، ويتماهى رجل بامرأة، وتنبثق امــرأة من العرفان وتتحول إلى أنثى بين يدين خبيرتين، وهل مثل هذه التحول؟!

الأنوثة بحكم كونها العميق

الأنوثة بما تمثل من خصوبة

الأنوثة بما تكتنز من رغائب

وحين تتكمشــ الأنوثة إلى الداخل يبقى ما نراه ونحن خارج العرفان... تبقى بعض الذكريات والأمل.

وتغيب عنا اللحظات الجميلة الجميلة.

الحاسّة واللون والحلم:

لكل منــا جانب من التصــوف والوجد والتواجــد والذوبــان مع الآخــر حيناً ومع الذات في أحايين كثيرة، وقد لا يكون للذات أي قيمــة من دون التماهــي في الآخر كما ترى رانيا كرباج في العرش الذي صنعته من ورد، ولا يلفت انتباهك من العرش سوى أنك تتعشقه، وترشف كلماته الوردية التي تصنع عالماً لا يشبه سواه.

حين نظرتك يوماً

وأنا على عرش من ورد

حين لمحتك

وأنا أتبرج للقاء دون وجد

استوقفتني

وفي برهة استنبتني

استرسلت خلف حلمي

استخرجت الزخرف من همي

حين تحسست ذاك الجسد

ذاك الرأس

وذاك الصخب

تسمّرت

أعلنت الشوق وتسمرت

حين قبلت ذاك الشطط

في الجبهة

في الأنف الحاني بغضب

تهاويت في لا انتها

تهاديت في انتشا

بين ذاتي مفتونة بها

وبينك

بين ذاتي تجهر بنفسها

وبين فيضك

لا يتمكن المرء من المرور مع هذا الفيض الشعـري بجيـاد فمن النظـر إلى الجلوس والوقوف والاستتبـات واللهاث وراء الحلم والتحسس والصخب، إلى التسمر والتهاوي والتهادي إلى الفيض العشقي المطلق.

ومـن الـورد إلى التبرج إلى الخضـرة والزخرفة إلى ملمس الجسد ولون الشوق وحـرارة الشطط للوقوف على حنو غاضب مع انتهاء ونشوة ومـا يرافقهما من حالات أعمـق من العمـق حلـم لا متنـاهٍ تقدمه الشاعـرة المبدعـة، تقدمه امـرأة معجونة باللـون والإحساس، وفنانة تمهـر بريشتها لتعانـق الفيـض الجـارف، وكان المدى في عناق حرف ولـون وكلاهمـا حاسة للحب وهل تنفصل هذه الحالة عن تصوف وذوبان ونشوة وانتهاء؟

البحث عن حالة تعملق:

يرفضـ أحدنا أن يكون محبـاً أكثر من أن يكـون محبوبـاً، والشاعر بمـا ملك من أنـا متضخمة تجعله أحيانـاً يباهي المتنبي وسواه يمكن أن يبتعد عن رغبته في أن يكون محباً... والمرأة الشاعرة والمبدعة- ويا كثر ما رأيـت وقرأت- تشعر السامع أو القارئ أنها تجاوزت المدى! ومن النادر أن نقرأ لشاعرة عـن حالة ضعـف، أو عن أمنيـة الوصول إلى حالـة ضعف هـي القوة عينهـا، وقد أدهشتني رانيا وهـي تتحدث عن تجربتها العميقة بتواضع جـمّ، وهي لا تتصنّع لأنها تريد الأسمـى، وبعض الشاعرات والشعراء الذين يعجـزون عن صورة ممـا جاءت به يتحدثـون بتنطع... ولكـن عندما أعود إلى ديوان رانيا أدرك ذلك العمق والتصالح بين الشاعرة وداخلها وحرفهـا ولونها والآخر، ففي قصيدة (اعزفني) وهي من النصوص الإشكاليـة موضوعـاً حاولـت إحصـاء استخدام فعل الأمـر الدال على الرغبة في التماهي فوجـدت أن القصيـدة تشبه إلى حد ما عناق أحدب نوتـردام للحسناء بعد قرع جرس الكنيسة، ومن ثم الخلود الأبدي في لحظـة عشـق لا تنتهـي... (اعزفني- حوّلنـي- الفظنـي- لوّني، زيّنـي، ابذرني، حـاورني، حوّرني، ارمقني، اعبق بي...) ولو

وقفنا عند هذه الألفاظ التي جاءت بصيغة الأمر، فهي تحمل الرجاء وأمر الدلّ، ورغبة التماهي في الوقت نفسه، ولا تحمل فكرة الأمر المستعلي:

لوّني
فقد أشبه قوس قزح
وقد أتعلم الفرح
زيني
فقد أصير أحلى
وقد أصير أشهى
ابذرني
علني أنام ولو لبرهة
في بطن التربة
أتعلّم أسرار الأزهار
وأزور قبور الأمطار
حاورني
وحوّرني
إلى أن يبزغ على جبينك اسمي
وتكتمل أحلامك برسمي

ارمقني
واعبق بي
فقد نفوح بالصنوبر
وقد لا نكبر
وقد نفوح بالأخضر
ولا نذبل
وقد نبوح
بكلمات الروح
وقد نرحل... وقد لا نعود
وقد نخلد... وقد لا نموت

في هذا المقطع نقف أمام فكر تحليلي يحترم ذاته ويحترم الآخر، فكلاهما يكمل الآخر، ولا يطغى أحدهما على الآخر، فاسمها على جبينه وأحلامه في رسمها، فكل منهما يعطي الآخر ويكلمه ويكمله حباً وكلاماً ورائحة ورمزاً ولوناً وخصباً وعطاءً.

وصولاً إلى السّمو:

تبحث رانيا كرباج عن حالة لا نعرفها، لا تعرفها، نتشهاها وتتشهاها، ولكن الوصول إليها ضرب من المحال غير الممكن، وإن تحقق، فهو لا يتحقق إلا لمرة واحدة، والحالة التي تبحث عنها وترسمها وتكتبها تقف عند حد لتخرج إلى عوالم غير محدودة تبدأ من الأرض لتصل السماء، ومن اللمس إلى الغناء، ومن الحياة إلى الحلم ومن القبلة إلى خارج حدود الزمن، ومع استخدامها لفعل الأمر أيضاً تبحث بإحساس امرأة شاعرة مرهفة، تبحث عن ذات تحولها إلى ذوات، تنبش الزمن اللاهث في الماضي.

دعني أعبر
على سطح جسدك
باتجاه السما
دعني أرفرف عينيك
وأرتدي يديك
ودعنا نتعلم الغنا

دعني أتنزه على سطح الحياة
حافية الحلم
أتعلم من عيون الأولاد
كيف ينبت الحلم
واتركني أتبدَل مع الغيمات
وأغامر مع النسمات
من فصل إلى فصل
ومن غصن إلى غصن
ألملم القُبَل
من على جبهة الزمن
أتأبطها
ثم أهرول خوفاً من الزمن

السمو الذي تبحث عنه في الذات الأخرى متأصل لدى الشاعرة، وهي التي تكتب كما تتنفس، فتحولت لديها التعابير العادية إلى شعر، وروّضت الكلمات في سياق شعري راق يلهث خلف الصورة وتلهث الصورة خلفه لعلّ أحدهما يلمّ الآخر.

غنَ
وارقص
فقلبي اليوم يعزف
هلَل
غلغل
فذاكرتي اليوم طفلة
ورغبتي المسير
في رحلة الأثير
الشجرة الباقية هنا
ستحفظ عطرنا
فلا تخشى صديقي الغياب
الشجرة العارية هنا
ستمسح حزننا
صديقي المبلَل بالحب
على هدى الكلمات نكبر
يقطفنا الدرب
صديقي
الياسمين يزغرد عطره
والأرض تفضح سرّها
تعال نسترق العشق
ونقترف عمرنا

كثيراً ما أسأل عن وظيفة الشعر، فلا أجد نفسي إلا وراء شعر يغرف من الإحساس والفكر والحياة... وما قرأته من ديوان الشاعرة رانيا كرباج جعلني أقف من القراءة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأولى مدهوشاً أمام روح فياضة لا تعرف حداً يوقف انزياح اللون والحرف والحياة.

كنت أتمنى أن أقف عند القصائد واحدة واحدة، لكنني خشيت من الانسياق وراء العبق فأطيل في الوقت الذي أردت الاختصار، لكن حسبي أنني وعن طريق صديقي أحمد المفتي تعرفت إلى تجربة قريبة من التجارب التي بدأت بها الحديث...

وأعزي نفسي والشاعرة والقراء في زمن لم تعد القراءة بضاعة رائجة، وإن كان النص مستحقاً للقراءة...!!

شكراً للشاعرة التي فتحت عوالم اللغة واللون والروح لتغمر نفوسنا بوصاياها العطرية، فلنغمض الأعين، ولنسرح في عوالم أقل ما يقال فيها: إنها عوالم سحرية مليئة بالجمال والحب والعبق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقوق الملكية الفكرية..
المفهوم والأهداف

٭
د. أحمد غنام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الملكيـــة الفكرية هي ما ينتجه ويبدعـــه العقل والفكر، فهي الأفكار التي تتحول إلى أشكال ملموسة يمكن حمايتها، وتشتمل حقوق الملكية الفكرية على: (حقوق الملكية الصناعية) و(حقوق الملكية الأدبية). وتشمل الملكية الصناعية بنودا متعددة: كالاختراع، والرسوم، والنماذج الصناعية، والعلامات التجارية، والدلائل (المؤشرات) الجغرافية. كما أن الملكية الأدبية تشمل عددا من البنود منها: المؤلفات، وبرامج الكمبيوتر، والتصميمات للدوائر المتكاملة، المعلومات

٭ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

السرية، والفنون، والأشعار، والروايات، والمسرحيات، والأفلام، والمصنفات الفنية مثل: الرسوم واللوحات الزيتية، والصور الشمسية، والمنحوتات والتصاميم الهندسية والمعمارية.

وتشمل الحقوق المجاورة لحق المؤلف حقوق فناني الأداء في أدائهم ومنتجي التسجيلات الصوتية، والهيئات الإذاعية، في برامجها الإذاعية والتلفزيونية.

وتشبه حقوق الملكية الفكرية غيرها من حقوق الملكية، فهي تسمح للمبدع أو مالك البراءة أو العلامة التجارية أو حتى المؤلف بالاستفادة من حماية المصالح المعنوية والمادية الناجمة عن نسبة النتاج العلمي أو الأدبي أو الفني إلى مؤلفه، كما تتقرر له حماية ضد أي تعد من الغير، وتعد هذه الحقوق جميعا ذات قيمة مالية لمالكها التي هي نتاج إبداعه العقلي والذهني، فهي وإن كانت حقوقا غير مادية أو غير ملموسة إلا أنها حقوق ذات قيمة مالية، يدركها جل المتعاملين في التجارة الدولية، سواء على المستوى المحلي أو العالمي، حيث تعتبر عنصراً مهما في أغلب هذه النشاطات.

حماية حقوق الملكية الفكرية

الإبداع الفكري له طابع حضاري متميز، ومن هنا تولد الحرص على ضرورة حمايته وتشجيعه. ولذلك قامت الدول بإعداد القوانين اللازمة لحماية الملكية الفكرية، وانخرطت في العديد من الاتفاقيات الدولية التي توفر الحماية القانونية والقضائية لها، كما أسست من أجل ذلك (المنظمة العالمية لحماية الملكية الفكرية) التي تقوم بدور ريادي في هذا المجال، ويدل على ذلك عدد الدول الأعضاء في هذه المنظمة، وكذلك العدد الكبير من المعاهدات الدولية التي تديرها المنظمة.

لقد أدى التطور في ميدان حقوق الملكية الفكرية إلى تغير النظرة إلى حقوق المؤلف، إذ أصبحت حقوقا تكتسب أهمية دولية، سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي، بل لقد أصبحت هذه الحقوق الآن، أداة فعالة في التنمية الاقتصادية، وما ذلك إلا بسبب القيمة الاقتصادية الهامة للابتكارات والاختراعات. ومع تزايد أهمية الإبداعات والابتكارات، جعل التنافس في المحيط التجاري المعاصر قائما على المعارف والمعلومات والأفكار، فقد تحولت الطاقة الإبداعية والابتكار والمعارف والمعلومات إلى ثروات اقتصادية ثمينة، يقوم على أساسها اقتصاد جديد، مما استوجب توفير متطلبات جديدة لحماية هذه الحقوق بالشكل الكافي، على الصعيد الوطني والدولي. ونظرا لهذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأهمية المتزايدة لحقوق الملكية الفكرية على المستوى الاقتصادي فقد أصبح عدم توفير الحماية للملكية الفكرية من معوقات الاستثمار الوطني والأجنبي.

أهمية حقوق الملكية الفكرية

ظهرت الحاجة إلى توفير حماية للملكية الفكرية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي المنصرم، وذلك مع التطور التقني السريع، وتوافر وسائل المعلومات والاتصال وسرعتها، وقد أصبحت الملكية الفكرية دعامة من دعامات تقدم الإنسانية وانتقال التقنية بين المجتمعات الإنسانية، وستؤدي الملكية الفكرية في المستقبل دوراً تتزايد أهميته على الصعيد الدولي، فالملكية الفكرية وحماية المصنفات، مثل حقوق المؤلف، ما هي إلا تجسيد للنشاط العقلي عند الإنسان وتاريخ الملكية الفكرية سجل لتطور هذا العقل ومدى فاعليته في جميع نواحي الحياة من سياسة واجتماع واقتصاد.

وقد قام مفهوم الملكية الفكرية على الأسس التالية:

أولاً- تقتصر الملكية على ما هو مملوك فقط، لكنها حزمة من الحقوق والعلاقات التي تترتب عليها حقوق الملكية، ولذلك وعلى حد قول المفكر «بروس ريزنيك»، فإن ما يطلق عليه لفظ الملكية هو في الواقع حقوق الملكية وهذه الحقوق هي التي تجيز

للشخص استخدام الشيء والتمتع به أو التخلص منه حسبما يراه مناسبا.

ثانياً- تشتمل الملكية على مجال عريض من الأصول، بعضها أصول مادية كالأراضي والعقارات وبعضها أصول معنوية مثل: أسهم الشركات والحقوق الفكرية والسمعة التجارية للشركة.

وعليه فيمكن تحديد المقصود بالملكية الفكرية بأنها كل ما ينتجه الفكر الإنساني من اختراعات وإبداعات فنية وغيرها من نتاج العقل الإنساني.

وقد جاء في تعريف الملكية الفكرية للمنظمة العالمية الفكرية، تشير الملكية الفكرية إلى أعمال الفكر الإبداعية، أي الاختراعات والمصنفات الأدبية والفنية والرموز والأسماء والصور والنماذج والرسوم الصناعية. وعليه يمكن تقسيم الملكية الفكرية إلى ثلاث فئات، الملكية الصناعية، الملكية التجارية، الملكية الأدبية.

وبينما تعتمد الملكية الصناعية على براءات الاختراع والرسوم والنماذج الصناعية وبيانات المصدر الجغرافية، تشمل الملكية التجارية العلامات التجارية، فيما تشمل الملكية الأدبية حق المؤلف، لذا برزت عدة أسباب دفعت إلى النهوض بالملكية الفكرية وحمايتها:

١ - يكمن تقدم البشرية في قدرتها على إنجاز ابتكارات جديدة في مجالات التقنية والثقافة.

٢ - تشجع الحماية القانونية الممنوحة لتلك الابتكارات الجديدة على إنفاق مزيد من الموارد لفتح المجال لابتكارات أخرى.

٣ - يؤدي النهوض بالملكية الفكرية وحمايتها إلى دفع عجلة النمو الاقتصادي وإتاحة فرص عمل وصناعات جديدة.

أهداف الملكية الفكرية

لما كان تطوير أي منتج أو عمل يتطلب وقتا طويلا واستثمارات مالية ضخمة، لذلك نجد أن المبتكر يطالب بعائد على مجهوده، وذلك بحصوله على «حقوق الملكية الفكرية»، حيث إنها تسمح لهذا المبتكر بوضع قيود على استخدام الملكية الفكرية الخاصة به، فعلى سبيل المثال: لا يتم السماح لأحد باستخدام، أو تصنيع، أو زراعة، أو بيع، أو عرض الابتكار دون أخذ تصريح من المبتكر. وهناك عدة أشكال من الحماية منها حقوق النشر والتأليف، والأسرار التجارية، والعلامات التجارية، وحقوق مربي النباتات، وبراءة الاختراع،.. وغيرها. وتبرز أسباب مختلفة تدفع إلى حماية حقوق الملكية الفكرية:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولاً- يكمن تقدم البشرية ورفاهيتها في قدرتها على إنجاز ابتكارات جديدة في مجال التكنولوجيا والثقافة.

ثانياً- تشجيع الحماية القانونية لتلك الابتكارات الجديدة على إنفاق مزيد من الموارد لفتح المجال لابتكارات أخرى.

ثالثاً- يؤدي النهوض بالملكية الفكرية وحمايتها إلى دفع عجلة التقدم الاقتصادي، ويتيح فرص عمل وصناعات جديدة، ويرفع من نوعية الحياة وإمكانية التمتع بها.

ولذلك تمنح الدول حقوق الملكية الفكرية مكافأة للنشاط الإبداعي والجهود البشرية المبذولة في سبيل النهوض بالتقدم البشري، ومثال ذلك: يتجسد في تقديرات الدراسات التي تشير إلى أن ثلثي التطور الحديث في مجال الطب لم يكن ليتحقق لولا الحماية المضمونة للبراءات، التي تسمح بتمويل الأبحاث بفضل العائد المكتسب، ولولا الحماية الممنوحة بموجب حق المؤلف لما نشأت الصناعات الإعلامية المختلفة والتسجيل والتوزيع، وبرامج الحاسوب التي تحقق مليارات الدولارات، وتمتع الملايين من الأشخاص في جميع ربوع العالم، ولولا الحماية الدولية الوثيقة للعلامات التجارية وإنفاذ القوانين لمكافحة أعمال التقليد والقرصنة لما استأمن المستهلكون شراء المنتجات والخدمات.

إقرار حقوق الملكية الفكرية

تشبه حقوق الملكية الفكرية غيرها من حقوق الملكية، فهي تسمح للمبدع أو مالك البراءة أو العلامة التجارية أو حق المؤلف بالاستفادة من عمله أو استثماره، وتنص المادة ٢٧ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على هذه الحقوق، حيث تؤكد على الحق في الاستفادة من حماية المصالح المعنوية والمادية الناجمة عن نسبة الإنتاج العلمي أو الأدبي أو الفني إلى مؤلفه.

وكان الإقرار بأهمية الملكية الفكرية لأول مرة في اتفاقية باريس بشأن حماية الملكية الصناعية التي وقعت سنة ١٨٨٣، واتفاقية برن بشأن حماية المصنفات الأدبية والفنية سنة ١٨٨٦، وتتولى إدارة المعاهدتين المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الوايبو).

أصبحت حقوق الملكية الفكرية مثل حقوق الاختراع والعلامات التجارية وحقوق التأليف أحد الأصول القيمة التي تزداد أهميتها باستمرار ويؤدي نقص التنظيم إلى فقدان الحافز لتطوير العلامات والأعمال الأدبية والاختراعات، ولهذا السبب تصمم حقوق الملكية الفكرية لحماية قيمة الأصول، ومن ثم فقد زادت الأهمية الحالية للملكية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفكرية حتى أصبحت أداة داعمة للنشاطات التجارية الدولية. ويأتي الاحتفال بيوم الملكية الفكرية العالمية والذي يوافق ٢٦ نيسان من كل عام في كثير من دول العالم والمنظمات الدولية العاملة في هذا المجال، تقديرا لمكانة المبدعين واحتراما لهم، ولولا وجود التشريعات التي تحمي المبدعين وما ينتج عن أفكارهم من اختراعات وإبداعات لما تطوره الأمم والشعوب، ويهدف هذا اليوم إلى زيادة الوعي بمدى تأثير براءات الاختراع وحقوق المؤلف والعلامات التجارية والرسوم والنماذج على الحياة اليومية.

الملكية الفكرية والتجارة العالمية

بدءاً من مؤتمر باريس عام ١٨٨٣ وحتى قيام المنظمة العالمية للملكية الفكرية عام ١٩٧٤ كإحدى الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة، كانت الرغبة في تشجيع الإبداع وحماية الفكر هي الروح الرئيسة الدافعة للارتقاء التنظيمي الدولي في شؤون الملكية الفكرية، وذلك من أجل الصالح المشترك لكل من المبدعين وسائر البشر، في آن واحد، ثم لم يستمر هذا الوضع طويلا حتى فوجئت الدول الأعضاء في مفاوضات اتفاقيات الجات بورقة مقدمة من الشركات العملاقة متعددة الجنسيات إلى سكرتارية الجات في جنيف عام ١٩٨٨ بخصوص تضمين اتفاقيات الجات اتفاقية خاصة بما يسمى: «حقوق الملكية الفكرية المرتبطة بالتجارة».

والجدير بالانتباه هنا أن هذه الشركات فرضت ورقتها على المفاوضات رغم عدم عضويتها في تلك المفاوضات، حيث إن العضوية للدول. والجدير بالانتباه أيضا أن ذلك قد تم من وراء منظمة «وايبو» (المنظمة العالمية للملكية الفكرية والتابعة للأمم المتحدة).

كانت الشركات ذات النشاط الدولي ترغب في تأمين مستويات أعلى من الحماية للملكية الفكرية (وعلى وجه الخصوص لبراءات الاختراع والعلامات التجارية)، وصدرت - بالفعل - اتفاقيات الجات متضمنة اتفاقية لحقوق الملكية الفكرية المرتبطة بالتجارة، والتي يطلق عليها اختصارا اتفاقية «تريبس». ووقعت اتفاقيات الجات في نيسان ١٩٩٤، ونشأت بموجبها منظمة التجارة العالمية، حيث بدأت في الأول من شهر كانون الثاني ١٩٩٥ ممارسة أعمالها في مراقبة أو حراسة تنفيذ اتفاقيات الجات، والتي صارت تعرف الآن باتفاقيات التجارة العالمية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الملكية الفكرية والتنمية الاقتصادية

ويبرز دور الملكية الفكرية في التنمية الاقتصادية في مجال براءات الاختراع، في النهوض بالتنمية الاقتصادية، إذ تمهد المعلومات المتعلقة بالبراءات السبيل أمام نقل التقنية والاستثمار وتشجيع البحث والتطوير في الجامعات ومراكز الأبحاث، وتعمل عمل الحافز للتقنية والمشروعات التجارية الجديدة، وتصبح البراءات إذا استعملت على نحو سليم محركات فاعلة للابتكار والبحث والتطوير، فتعود بالنفع على الاقتصاد. وقد فرضت الملكية الفكرية نفسها في العلاقات التجارية والثقافية بين الدول، كما أصبح لها تأثير مهم من الناحية الاقتصادية والتقنية. والآن بات من أولويات المنظمة العالمية للملكية الفكرية في الدول النامية مكافحة التعدي على الحقوق من أجل تقوية الاقتصاد المحلي وتفعيل الفرص المتاحة للمبدعين لحفظ حقوقهم من أجل تنمية اقتصادية شاملة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحقيق المخطوطات في الرّسائل الجامعيّة

د. سمر روحي الفيصل *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خدمت الجامعات العربيّة حركة إحياء التّراث العربيّ حين سمحت لطلّاب الدّراسات العليا في شهادتي الماجستير والدّكتوراه بأن تتألّف رسائلهم من تحقيق مخطوطٍ، وتقديم دراسةٍ حول صاحبه. وليس من المفيد هنا أن أتوقّف عند الفروق بين المخطوط الصّالح لطالب الماجستير، والمخطوط الصّالح لطالب الدّكتوراه؛ لأنّني أرغب في الانصراف إلى قضيّة تحقيق المخطوطات في الرّسائل الجامعيّة، وهي قضيّة تشمل هذين النّوعين من

---

* أديب وناقد سوري مقيم في الإمارات.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الطّلاب، مهما يكن التّباين بين المخطوط في الشّهادتين كبيراً في القيمة العِلْميّة، وفي عدد الصّفحات. ومن ثَمَّ فإنّني لن أشير، في أثناء الحديث، إلى الفروق بين طالب الماجستير وطالب الدّكتوراه في طبيعة استعداد كلٍّ منهما للعمل في حقل المخطوطات، مكتفياً بالحديث عن المهارات والمعارف التي يتحلّيان بها، والتي يجب أن يتحلّيا بها.

الظّنُّ أنّ هناك ثلاث قضايا متكاملة في تحقيق المخطوطات في الرّسائل الجامعيّة:

- تتعلّق الأولى بالمرحلة السّابقة على التّحقيق.
- وتتصرف الثّانية إلى مرحلة التّحقيق نفسها.
- أمّا المرحلة الثّالثة فهي مرحلة كتابة مقدّمة التّحقيق.

ولا بدَّ، قبل الحديث عن هذه القضايا الثّلاث، من القول إنّ أنظمة الجامعات العربيّة تسمح لطالب الدّراسات العليا بأن يُحقِّق، في رسالة الماجستير أو ما يحلُّ محلّها، ورسالة الدّكتوراه، المخطوط وحدَه إذا كان حجم هذا المخطوط مقبولاً، يمكن إنجاز تحقيقه في المدّة المحدَّدة للشّهادة. كما تسمح الأنظمة نفسها بأن ينهض طالبان من طلاّب الدّراسات العليا، أو أكثر من طالبين، بتحقيق مخطوط واحد، أو جزء من مخطوط، إذا كان المخطوط ضخماً متعدِّد الأجزاء، لا يستطيع طالب واحد إنجاز تحقيقه في المدّة المحدَّدة. وهذه الأنظمة تضع على كاهل الأستاذ المشرف أمر توزيع الأجزاء على الطلاّب، والتّنسيق بينهم؛ ليتوافر الانسجام في التّحقيق، وينتج الطلاب كتاباً ذا روح واحدة.

أوّلاً: قبل التّحقيق

يتعلّق جانب من الحديث عن تحقيق المخطوطات في الرّسائل الجامعيّة بالطّالب وبالأستاذ المشرف عليه، ويرتبط جانب آخر بالمخطوط نفسه. أمّا الجانب الأوّل فهو الاستعداد العلميّ للطّالب للخوض في غمار تحقيق المخطوطات. وهو استعداد تُكوِّنه المهارات، ويصقله التّدريب، وتُرسِّخه الخبرة، وتُعمِّقه المعرفة. والمشكلة أنّ هذه الشُّروط لا تتوافر كلّها في طالب المرحلة الجامعيّة الأولى، ولكنّها يمكن أن تتشكّل في مرحلة الإعداد الأوّليّ للدّراسات العليا؛ تلك المرحلة الفاصلة بين الإجازة (أو: البكالوريوس) وتقديم رسالة الماجستير، أو ما يعادلها بحسب الأنظمة الجامعيّة المختلفة[1]. فهذه المرحلة يجب أن تنصرف إلى غرس مهارات التّحقيق في الطّالب الذي سيُقبِل في المرحلتين التّاليتين على اختيار تحقيق المخطوطات موضوعاً له، بدلاً من انصراف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه المرحلة، كما جرت العادة، إلى الموضوعات الاختصاصيّة وقواعد البحث العلميّ. فالموضوعات الاختصاصيّة ومهارات البحث العلمي يمكن أن تتشكّل بوساطة التّكليفات اللاصفّيّة والحوارات الفرديّة بين الطّالب وأستاذه. أمّا قضايا التّحقيق فتحتاج إلى العمل المباشر، والتّعلُّم من الصّواب والخطأ، والإحالات الدّائمة إلى مصادر التّحقيق ومراجعه. ولهذا السّبب أقترح ألا يزيد عدد طلاب كلّ أستاذ مشرف، في هذه المرحلة، على ثلاثة طلاب؛ ليتمكّن من تدريبهم وصقل مواهبهم، وإرشادهم إلى شؤون المخطوط، من قراءة للخطوط، ومعرفة بالرّموز، وإتقان للقراءة الفاحصة، وخبرة في الهوامش والإحالات... ذلك أنّ رسالة الماجستير (أو ما يعادلها) التي سينصرف الطّالب إليها في المرحلة القابلة ليست مرحلة تدريب فرديّ عشوائيّ على تحقيق المخطوطات، وليست مناسبة لإتقان مهارات التّحقيق، بل هي عمل دؤوب ينتج عنه تحقيق علميّ منهجيّ لإحدى المخطوطات العربيّة،

وتكسب حركة إحياء التّراث بوساطته محقّقاً جديداً. ولعلّ جانباً غير قليل من المآخذ على تحقيق المخطوطات في الرّسائل الجامعيّة نابع من دخول الطّالب حقل المخطوطات من دون أن يكون مزوّداً بالمهارات اللازمة له، كما سأوضّح بعدُ.

أمّا الجانب الثّاني، جانب المخطوط، فلا بدّ من أن ينتقي الطّالب مخطوطاً يستحقّ التّحقيق، وإلا فما قيمة شهادته العلميّة إنْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يُقدِّم فيها تحقيقاً جيِّداً لمخطوط مهمّ في الحقل المعرفي العربيّ. وهذا يعني أنّ الطّالب يجب أن يبحث، بعون من أستاذه المشرف، ومن العارفين بالمخطوطات، ومن المحقِّقين، ومن فهارس الرّسائل الجامعيّة، عن مخطوط يتّصف بالآتي:

١- القيمة العلميّة في الحقل المعرفيّ الذي ينتمي إليه المخطوط والطّالب؛ لأنّ المخطوطات التي حقَّقها طلاّب الدّراسات العليا كثيرة، ولكنّها متفاوتة في مستواها العلميّ. وبعضها، على أقلّ تقدير، لا يستحقّ الجهد الذي بذله الطّالب كما قال مهدي فضل الله[٢]، وبعضها الآخر لا أهمّيّة له في حقله المعرفيّ؛ لتوافر مخطوطات أخرى محقَّقة تُغني عنه. ولأنّ الطّالب يجب أن يختصَّ، من بداية طَلَبه العِلْم، بتحقيق مخطوط في حقل معرفيّ واحد ليس غير، بحيث يعرف المخطوطات المؤلَّفة فيه، ويُصبح بعد سنوات قليلة، أو كثيرة، خبيراً في هذا الحقل، مثل المحقِّقين الذين انصرفوا إلى تحقيق الكتب النَّحْويّة وحدَها، أو كتب التّراجم وحدَها، أو كتب التّاريخ وحدَها...

٢- التّأكُّد من أنّ المخطوط لم يُحقَّق، أو حُقِّق ولكنّ تحقيقه لم يكن علميّاً، أو كان تحقيقه علميّاً ولكن اكتشاف نسخة مخطوطة جديدة يمكن أن يُغيِّر شيئاً في المعارف المتداولة، أو كان تحقيقه علميّاً تقريباً؛ لأنّه مملوء بالأخطاء[٣]. ذلك أنّ الطّالب يجب أن يملك مسوِّغاً مقبولاً لاختياره المخطوط، وإلا فلا معنى لتحقيق مخطوط محقَّق تحقيقاً علميّاً جيِّداً. وهناك مصادر تُرشد الطّالب إلى المطبوع والمخطوط من التّراث العربي[٤]، يتمكّن الطّالب بوساطتها من معرفة حال المخطوط الذي يرغب في تحقيقه. من هذه المصادر[٥]: (معجم المخطوطات المطبوعة) لصلاح الدّين المنجِّد[٦]، و(تاريخ الأدب العربي) لكارل بروكلمن[٧]، و(تاريخ التّراث العربي) لفؤاد سزكين[٨]، و(فهرس المخطوطات المصوَّرة) الذي أصدرته جامعة الدّول العربيّة، فضلاً عن فهارس المخطوطات العربيّة في: جامعة الملك سعود بالرّياض، وجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، ومكتبة جستر بتي[٩]، ودار الكتب المصريّة[١٠]، وخزائن كتب الأوقاف[١١]، ومكتبة الأسد بدمشق التي انتقلت إليها مخطوطات المكتبة الظّاهريّة، وهي من أكثر أمكنة المخطوطات غنىً في الوطن العربي...

٣- البحث عن نُسَخ المخطوط الموزَّعة في مكتبات العالم، واعتماد النُّسخة الأمّ منها، وهي النُّسخة التي كتبها المؤلِّف بيده. ثمّ النّسخة المصدَّقة التي كتبها أحد طلاّب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المؤلِّف أو أحد مريديه، فالنّسخة الموثّقة التي كتبها أحد النُّسَّاخ عن المخطوط الأصليّ (الأمّ)، فالنّسخة المسموعة المكتوبة في عصر المؤلِّف التي أقرّها العلماء، فالنّسخة المنسوبة المكتوبة بعد عصر المؤلِّف، وعليها سماعات تؤيّد نسبتها إلى كتاب المؤلِّف، وغير ذلك من النّسخ السّقيمة والمعيبة...[١٢].

ووظيفة النّاقد، كما نصّ برجستراسر، (أن يُقدِّر قيمة كلّ نسخة من النُّسخ، ويفاضل بينها وبين سائر نسخ الكتاب، متبعاً في ذلك قواعد، منها:

- إنّ النُّسخ الكاملة أفضل من النُّسخ النّاقصة.
- والواضحة أحسن من غير الواضحة.
- والقديمة أفضل من الحديثة.
- والنُّسخ التي قُوْبِلت بغيرها أحسن من التي لم تقابَل)[١٣].

ومسوّغ البحث عن نُسَخ المخطوط وترتيبها هو سعي طالب الدّراسات العليا إلى تقديم نسخة لا يُشَكُّ في نسبتها إلى الكتاب الذي ألّفه المؤلِّف. والسّبيل إلى ذلك مقابلة النُّسخ المخطوطة، بغية تقديم نصّ صحيح النّسبة إلى المؤلّف. على أن ينطلق الطّالب من أنّ مقابلة النُّسَخ ليست هدفاً للتّحقيق، بل هي وسيلة لـ(تصحيح النّصّ وضبطه)، والشّروع بعد ذلك في (توضيحه) أو (شرحه) أو (التّعليق عليه)؛ لأنّ (النّصّ الصّحيح قد لا يبدو صحيحاً من غير توضيح)[١٤].

٤- إذا كان المخطوط كبيراً متعدِّد الأجزاء، وجب على الأستاذ المشرف توزيعه على عدد من الطّلاب، بحيث ينهض كلّ طالب بتحقيق جزء من الأجزاء. ولا بدَّ قبل شروع الطّلاب في العمل من الاتّفاق على منهج التّحقيق، وخصوصاً الأساليب المعتمدة في المقابلة والتّصحيح والتّعليق والتّخريج والتّرجمة[١٥] وإصلاح الأغلاط وتدوين الرّموز وتهيئة موادّ الفهارس، بغية الانتهاء إلى تحقيق لا تتباين أجزاؤه في مستواها العلميّ، سواء أكان هذا المستوى خاصّاً بتصحيح النّصّ أم كان خاصّاً بالتّعليق عليه أم كان خاصّاً بصورته النّهائيّة. فاضطراب التّوثيق، على سبيل التّمثيل لا الحصر، ينتج عن اختلاف طبعات المصادر والمراجع التي رجع إليها كلُّ طالب[١٦]، وتوحيد التّوثيق يحتاج إلى اتّفاق الطّلاب قبل الشّروع في التّحقيق على طبعات محدَّدة للمصادر والمراجع، وعلى أن يتبادلوا الرّأي، في أثناء التّحقيق، حول أيِّ مصدر أو مرجع جديد لم يُتَّفق عليه من قبل؛ لأنّه سيكون على هؤلاء الطّلاب بعد إنجاز التّحقيق صناعة جزء من الكتاب خاصٍّ بالفهارس، يُعبِّر عن اتّفاقهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على المنهـج، وكأنّ هؤلاء الطّلاب المحقّقين طالبٌ واحدٌ ليس غير.

ثانياً: تحقيق المخطوط

تختلـف الرّسائـل الجامعيّة في تجسيد المفهوم العلمـيّ لتحقيق المخطوطات، فهي بين إفـراط وتفريـط حيناً، وبـين إهمال وجهـل حيناً آخـر، وبين توضيـح وضبط أحياناً. والهدف الذي نرنـو إليه هو تنقية هذا الخليط من شوائب الإفراط والتّفريط والإهمال والجهل؛ لإبقاء التّوضيح والضّبط، وهمـا مـن المقاصـد الأساسيّـة للتّحقيق كما نصّ مطـاع الطّرابيشـي[١٧]. والظّنّ أنّ تحقيـق هذا الهدف يحتـاج إلى مراعاة الأمور الآتية:

١- التّأكّد من نسبـة المخطـوط إلى مؤلّفه:

الخطوة الأولى التـي يجب أن يخطوها الطّالـب في التّحقيق، هي التّأكّد من عنوان المخطوط، واسـم مؤلّفه، بغيـة الاطمئنان إلى أنّ المخطـوط الـذي سيحقّقه صحيح النّسبـة إلى مؤلّفـه. فعنوان كتـاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحـازم القرطاجنيّ اتّضح للمحقّـق محمد الحبيب بن الخوجة بعد أن تحقّق من صحّتـه في أثناء تحقيقه الكتاب ليُقدّمه في جامعة باريس لنيل شهادة الدّكتـوراه. إذ كانت هناك نسخة مخطوطة وحيـدة، كُتـب عليها عنـوان شائـع، هو: (المناهج الأدبيّة)، وقد أصابها خَرْم في أوّلها وآخرها، فضـلاً عن تباين كتب التّراجم في الاتّفاق على عنـوان الكتاب. ولكنّ الدّكتور الخوجـة، الطّالـب آنـذاك، بـذل الوقت والجهـد في إثبات صحّـة نسبة الكتاب إلى (حازم القرطاجنيّ)، وصحّة العنوان أيضاً، وهو: (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)[١٨]. وليس التّأكّد من عنـوان الكتاب بالأمر الهيّن كما نصّ عبـد السّلام هـارون[١٩] للخرم الذي أشرتُ إليه في مخطوط مثل مخطوط (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، أو لعدم وضوح العنوان واسـم المؤلّف جزئيّـاً أو كلّيّـاً، أو للتّزييف المتعمَّـد وغيـر المتعمَّد الرّامـي إلى إضفاء القيمة على المخطوط بادّعاء قِدَمه، أو لغير ذلك مـن الأسباب والعوامل. أمّـا أساليب التّأكّد من صحّة العنوان والمؤلّف فمتعدّدة، منهـا الكُتُب التي عُنيت بالمؤلّفات المطبوعة والمخطوطة، كالفهرست لابن النّديم، وكتب التّراجم، والكتب الخاصّة بدراسة الخطوط والأوراق. (وتُعَـدُّ الاعتبارات التّاريخيّة من أقـوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزييفهـا. فالكتاب الـذي تُحْشَد فيه أخبار تاريخيّة تالية لعصر مؤلّفه الذي نُسِب إليه، جدير بأن يُسقَط مـن حساب ذلك المؤلّف. ومـن أمثلة ذلك كتـاب نُسِب إلى الجاحظ،

عنوانـــه: (كتاب تنبيه الملوك والمكايد)، ومنه صورة مودعة بـدار الكتـب المصريّة برقم ٢٣٤٥ أدب. وهـذا الكتاب زيف لا ريب في ذلـك، فإنّكَ تجد مـن أبوابه باب: نكت من مكايد كافـور الإخشيـديّ، ومكيدة توزون بالمتّقي بـالله. وكافور الإخشيديّ كان يحيا بين سنتي ٢٩٢و٣٥٧، والمتّقي بالله كان يحيا بين سنتـي ٢٩٧ و٣٥٧. فهذا كلّه تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات السّنين)[١٩]. وهناك أساليب أخرى للتّحقّق من نسبة الكتاب إلى مؤلّفـه، يجب على طالـب الدّراسات العليا التّمرُّس بها قبل خوضه هذا الحقل المعرفيّ؛ ليتمكّن من تجسيدها في هذه المرحلة.

٢- اعتماد النُّسخة (الأمّ) أصلاً:

هي النّسخة الحاملة اسم المؤلّف وعنوان الكتاب، ومادّتها كلّها بخـط المؤلّف نفسه، أو أملاهـا، أو أجازها. ثمّ النّسخة المأخوذة منها، ثمّ فرعهـا...[٢٠]؛ أي أنّ هناك ترتيباً للنُّسَخ المعتَمَدة يجب على الطّالب التّقيُّد به. وقد لاحظ الدّكتـور عادل فتحي رياض أنّ اعتماد النُّسخة الثّانويّة أصلاً للنُّسَخ الأخرى نابعٌ من جهـل الطّالب، ولاحظ أيضاً خطأً آخر هو ترجيـح نسخة على أخرى من غير مرجّـح[٢١]. ولاحظ غيره التّهاون في فحص تاريخ النَّسْخ، ودراسة المِداد، والتّدقيق في اسم النّاسـخ[٢٢]، وغير ذلك من أمور علميّة تقود إلى معرفة النُّسخة الأمّ، أو النُّسخة القريبة منها. والمفيد بعـد التّقيُّد بالتّرتيب المعتَمَد للنُّسَخ ألا يهمل الطّالب أيّة نسخة مهما تكن قليلـة الشّأن؛ لأنّ النُّسخـة الفرعيّة، مثلاً، مفيدة في أحوال معيَّنة، (فقد يحتفظ الفرع بمـا بلي من الأصل أو ضـاع منه)[٢٣]. وقد تحتفظ نسخـة فرعيّة بكلمات مُحيت بفعل الزّمـن، أو بفعل فاعـل[٢٤]. ولا أشكّ في أنّ التّمييز بين النُّسخ الأصليّة والفرعيّة مهارة أساسيّة يجب أن يتحلّى بها طالب الدّراسات العليـا الرّاغب في تحقيق المخطوطات، وإلا فإنّه لن يكون قـادراً على النّظر الحصيف في نُسَـخ المخطوط الموزَّعـة في دول العالم، ولن يملك الخبرة التي تؤهّله لمعرفة أساليب النّاسخين وفحص النُّسَخ استناداً إليها.

٣- الاعتـدال في تصحيـح النّصّ والتّعليق عليه:

لعلَّ تصحيح النّصّ المخطوط، والتّعليق على بعضـ ما جـاء فيه، بغيـة توضيحه للقـرّاء المعاصرين، كما كان واضحاً بالنّسبة إلى القـرّاء في زمن المؤلِّـف، هو الغاية من التّحقيق. ولكنّ هذه الغاية لم تتحقّق، أحياناً، في الرّسائل الجامعيّة علـى الوجه السّليم، بل جانبها الصّواب للإفراط في التّعليق، أو للتّفريط فيه. ومن ثَمَّ غاب مفهوم الاعتدال،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتضخُّم نصُّ المخطوط نتيجة بعض الأمور الآتية، أو نتيجتها كلّها:

- الإفراط في مقابلة النُّسَخ في الهوامش دون فائدة تُذكَر.

- كتابة ترجمة مفصَّلة للأعلام الوارد ذكرهم في المتن، وإهمال الخُطّة القاضية بكتابة ترجمة موجزة للأعلام غير المعروفين، والإحالة إلى بعض كُتُب التّراجم بالنّسبة إلى الأعلام المشهورين.

- تصحيح ما يظنُّه الطّالب غلطاً في المتن دون بصر بعواقب التّصويب. ذلك أنّ إصلاح الغلط يتحقَّق بالتّنبيه على الغلط في الهامش، ولا يتحقَّق بوساطة التّصويب في المتن. ولذلك وجب الامتناع عن إصلاح المتن لئلا يُفتَح باب التّلاعب بالمتون بدعوى إصلاح الغلط كما نصَّ مطاع الطّرابيشي[٢٥]. والواجب أن يُحَذَّر طالب الدّراسات العليا من الإقدام على تصويب ما يعتقد أنّه خطأ المؤلّف، أو سهوٌ منه، أو عدمُ معرفةٍ بالأمر. إذ إنّ الأمور قد تكون على غير ما ظهر منها، فيسرع الطّالب إلى التّصويب دون دراية بما أراده المؤلِّف. بيد أنّ إصلاح الغلط في المتن ليس محرَّماً تحريماً نهائيّاً، بل يمكن التّصويب في أحوال ضيِّقة جدّاً، كأنْ يكون الغلط في أمر بيِّن لا لبس فيه، كالغلط في رسم إحدى الآيات القرآنيّة، أو العثور على الصّواب بدلاً من الغلط في إحدى النُّسَخ الأخرى المخطوطة؛ لأنّ ذلك يعني أنّ الغلط كان سهواً من المؤلِّف أو النّاسخ، (أو يكون المؤلِّف راوياً للمتون أو مُلخِّصاً للأسفار، فيقع الخطأ في بعض نَقْله، والوهم في بعض تلخيصه، على حين يكون الصّواب ثابتاً في المصدر المنقول منه، أو واضحاً في الكتاب الملخَّص)[٢٦]. وعموماً فإنّ القاعدة هي عدم تصويب الغلط في المتن؛ لأنّه ملك صاحبه، ولا يجوز لغيره أن يُعَدِّل ويُبدِّل فيه.

- إضافة أمور إلى المتن بدعوى التّوضيح المعاصر، كأن يضيف الطّالب عناوين فرعيّة إلى المتن ليزيده وضوحاً وتحديداً. وهذا غير جائز؛ لأنّه تغيير في المخطوط، وتبديل في منهج الكتاب كما وضعه مؤلِّفه.

- التّدقيق في المتن لمعرفة أسلوب المؤلِّف وطبيعة التّأليف عنده، وغرضه من المخطوط. وهذا التّدقيق مفيد، كما نصَّ برجستراسر، في معرفة (ما كان متوقَّعاً أن يقوله المؤلِّف في كلّ موضع من كتابه، فإذا خالف الموجودُ في النّسخ المتوقَّع وجوده استفاد النّاقد من ذلك إصلاح النّسخ)[٢٧]. بيد أنّ التّدقيق في أسلوب المؤلِّف يحتاج إلى خبرة في الأساليب عموماً، وفي أسلوب كلّ مؤلِّف خصوصاً. فهذا المؤلِّف يُقارب بين رسم بعض الحروف، وذاك يجري بحسب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتابة المغربيّة في النَّقْط، فيضع نقطة الفاء تحتها، ويضع للقاف نقطة واحدة فوقها، وآخر يُفضّل الأساليب الخبريّة، ورابع يُطيل الجُمَل، وخامس يُكثر من صيغ التّمريض... وفَهْمُ هذا كلّه أمر عسير، ولكنّ ظاهره بسيط ييسّر على الطّالب الانحراف، والوقوع في الوهم، فيبادر إلى التّصويب انطلاقاً ممّا اعتقده صواباً. ومن ثَمّ وجب تدريب الطّالب على الحذر في أثناء تفسير الدّلالات الأسلوبيّة، وقَصْر هذا التّفسير على الهوامش وحدَها، وعدم الإسراع في محاكمة المتن انطلاقاً منها.

- إثقال المتن بالشّروح، بحيث تُصبح الهوامش معرضاً لثقافة المحقّق، وفهمه المخطوط، وتفسيره أبعاد المؤلّف ومراميه. وهذا الإثقال من عيوب التّحقيق البارزة في الرّسائل الجامعيّة، يجب التّخلُّص منه، والحرص على فهم وظائف الهامش فهماً سليماً لا يجاوز في أكثر حالاته اتّساعاً تقديم المتن كما وضعه صاحبه أوّل مرّة.

- ضبطُ المتن بالشّكل ضبطاً كاملاً، ظنّاً من الطّالب المحقّق بأن ذلك يساعد القارئ على القراءة السّليمة. وهو لا يدري بأنّه يرهق نفسه من دون أن يفيد القارئ في شيء؛ لأنّ الضّبط الكامل يمنع القارئ من توظيف معارفه النَّحويّة والصّرفيّة في أثناء القراءة، فضلاً عن أنّ هذا الضّبط لا يُيَسّر القراءة بل يجعلها أكثر عنتاً، تبعاً لصعوبة متابعة القارئ الكلمات في أثناء القراءة. وخير من ذلك الاكتفاء بضبط الأساسيّات، كعين المضارع، والحرف الذي يُقرَأ على وجهين أو ثلاثة وجوه، وأواخر الكلمات التي يُعين ضبطها على تحديد المعنى أو إزالة اللّبس في السِّياق، والحرف المشدَّد...

ثالثاً: مقدّمة التّحقيق

تُعبِّر مقدّمة التّحقيق عن مستوى الطّالب، وتشرح معرفته بالمخطوط وصاحبه، وتُوضّح منهجه في التّحقيق. وليس هناك خلاف في أن تضمّ المقدَّمة تعريفاً بقيمة المخطوط، ونسبته إلى مؤلِّفه، والنُّسَخ التي توافرت للمحقّق، وترتيب هذه النُّسَخ ورموزها في أثناء التّحقيق وصُور غلافها وبدايتها ونهايتها وبعض صفحاتها، فضلاً عن التّرجمة لصاحب المخطوط، وبيان منهجه في كتابه، وأسلوبه فيه.

بيد أنّ بعض الرّسائل الجامعيّة يهمل جوانب رئيسة في المقدَّمة، ويتّسع في جوانب فرعيّة. فالواجب يُحتم على الطالب المحقّق أن يترجم لصاحب الكتاب، فيدقّق في اسمه ونَسَبه، ويبيّن مؤلَّفاته المطبوعة والمخطوطة، قبل أن يُفصّل القول في المخطوط المحَقَّق. ولكنّ بعض الطّلاب يتّسع في الحديث عن

عصـر المؤلّـف، ويوجز في جوانـب حياته الغامضة، أو يذكر مؤلَّفاته من دون أن يدقّق في مواضعها وأمكنتها وطباعتها واهتمامات المؤلِّف فيها. والواجـب يحتم على الطّالب المحقِّـق أن يُدقِّق في عنـوان الكتاب، ولكنّ بعضـ الطّـلاب يهمل ذلك بدعـوى شيوع هـذا العنـوان، أو توافـره علـى غـلاف المخطوط، مهمـلاً أمور التّزييـف، وخطأ النُّسَّاخ، والتّحريف المقصود وغير المقصود. والواجـب يحتّم على الطّالـب أن يُدقّق في قيمة المخطوط ضمن حقله المعرفيّ، كقيمته في النّحـو ضمن الكتـب النَّحويّة، أو جَمْعه شعـر الشّاعر كلّه أو بعضـه إذا كان ديوان شعر. ولكـنّ بعض الطّـلاب يتجاهل هذا التّقـويم المهمّ علـى الرّغم من أنّـه المسوّغ الرّئيس لتحقيقه المخطوط. والواجب يحتّم على الطّالـب أن يُعلِّل الأسباب التي حفزته إلى اعتماد النّسخة الأمّ، ولكنّ بعض الطّلاب يكتفـي بالإشارة إلى النّسخـة الأمّ من دون توضيح مسوّغاته، ويهمل الحديث عن تواتر الإشـارة إلى صحّة هـذه النّسخة، من نحو توافـر العنوان فيها، مشفوعاً باسم مؤلّفها، وتاريـخ الفراغ منها، أو تاريـخ إملائها، أو إجازتها، أو ذِكرها في كُتُب المؤلِّف الأخرى، ودلالـة ذلك كلّه على صحّـة نسبتها، وعلى فُرَص الاطمئنان إليها.

أقـول إنّ مقدَّمـة التّحقيـق تعبير عن خـبرة الطّالب المحقِّق بالمخطـوط، وإتقانه مهـارات التّحقيق العلمـيّ وقواعده، وبيان أهليّتـه المعرفيّـة والخُلُقيّـة للنّهوض بهذه المهمّـة. ومن ثَمَّ وجب عليـه الاهتمام بهذه المقدَّمة، وإعداد مادّتهـا في (جذاذات) في أثناء تحقيقه المخطـوط، وعدم شروعه في كتابتها قبل فراغـه من التّحقيق، وصناعته الفهارس الوصفيّـة التي تُحيط بمحتويات المخطوط.

أخلص مـن الحديـث عـن تحقيـق المخطوطات في الرّسائـل الجامعيّة إلى أنّ القضايـا الثّـلاث: المرحلـة السّابقة على التّحقيق، ومرحلـة التّحقيق، ومرحلة كتابة المقدِّمـة، ذات شأن في أيّ عمل علميّ يتعلّق بالمخطوطات، فضلاً عـن أنّها وسيلة لا بدَّ منهـا لتدريـب جيل جديد مـن المحقِّقين، يتحلّى بالصّبر والأمانة العلميّة والموضوعيّة والمهـارات الأساسيّـة في التّحقيـق. بيـد أنّ المخطوطـات التـي حُقّقـت في الحقل الجامعـيّ كانـت دائماً حسنـة النّيّة وذات حماسة واضحـة، ولكنّ تدقيقها في المفهوم العلميّ للتّحقيق لم يكن مرضياً أحياناً؛ لجهل الطّالـب، أو لإسراعـه في التّحقيق لإنجاز رسالتـه، أو لضعف مهاراته في التّحقيق، أو لغـير ذلك من الأسباب التي حاولتُ الإشارة إليها، وبيان الرأي فيها.

الإحالات

١- تُسمَّـى هذه المرحلة مرحلة (دبلوم الدّراسات العليـا) في بعض الأنظمة الجامعيّة، تليها في هذه الأنظمة مرحلـة الماجستير فمرحلة الدكتوراه. وهناك أنظمة جامعية أخـرى تتألف مرحلة دبلوم الدّراسات العليا فيهـا من مرحلتين، تُعـادل الأولى مرحلة الدبلوم في الأنظمة السابقة، وتعـادل الثانية مرحلة الماجستير. ويُقدِّم الطّالب رسالة الدكتوراه بعد مرحلة دبلوم الدراسات العليا.

٢- مهدي فضل الله (د): أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٤١.

٣- المرجع السابق نفسه.

٤- حرص الدكتور عبـد العزيز بن محمد المسفر في كتابه: المخطوط العربي وشيء من قضاياه، على إحصاء المصادر والمراجع التي يجب توافرها في مكتبات المخطوطات. انظر ص١٥٧ وما بعد. وانظر أيضاً: مهدي فضل الله (د): أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ص١٤٢ وما بعد.

٥- المرجع السابق، ص١٤٢ وما بعد. و: عبد العزيز بن محمد المسفر (د): المخطوط العربي وشيء من قضاياه، دار المريخ، الرياض، ١٤٢٠/١٩٩٩، ص١٥٧ وما بعد.

٦- يتألف من خمسة مجلدات، تضم المخطوطات التي نُشرت بين ١٩٥٤-١٩٧٠م.

٧- ترجمـه إلى اللغة العربية الدكتور عبـد الحليم النجار، وهو يضمُّ المخطوطات العربية الموزَّعة في كثير من بلدان العالم.

٨- يضـم المخطوطات التي ذكرهـا كارل بروكلمن وإضافاته الكثيرة عليها. مـن طبعاته العلمية الطبعة التي أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٣/١٩٨٣.

٩- وضعه المستشرق آرثر آربري في سبعة مجلدات، تضم نحواً من خمسمئة وألفي مخطوط. طُبع الفهرس عام ١٩٦٤م.

١٠- المراد هنا القائمة التي أعدّها محمد جمال الدين الشوربجي للمطبوعات العربية المحفوظة في دار الكتب المصرية.

١١- أعدَّ محمد أسعد طلس هذا الفهرس للكتب المحفوظة في مديرية الأوقاف العراقيّة، ورتّبه بحسب عناوين الكتب، مع ذكر اسم المؤلف، وعدد النسخ، وأمكنة وجودها.

١٢- انظر، لتفصيل الحديث عن نسخ المخطوط، مهدي فضل الله (د): أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، ص١٤٥ وما بعد.

١٣- برجستراسـر: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ترجمة: د محمـد حمدي البكري، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٢/١٩٨٢، ص١٥.

١٤- مطاع الطرابيشي: في منهج تحقيق المخطوطات، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٣/

١٥- عبـد الله بن عبد الرحيم عسيلان (د): تحقيق المخطوطـات بين الواقع والنهج الأمثل، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٥/١٩٩٤، ص٨٥.

١٦- عدَّ الدكتور عادل فتحي رياض اختلاف طبعات المراجع والمصادر المؤدي إلى اضطراب التوثيق من عيوب التحقيق المشترك. (رسالته الإلكترونيّة إليّ بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣١).

١٧- مطاع الطرابيشي: في منهج تحقيق المخطوطات، ص٢٣.

١٨- حـازم القرطاجنـي: منهاج البلغاء وسـراج الأدباء، تحقيـق: د.محمد الحبيب بن الخوجـة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨١، مقدمة التحقيق. (نوقشت الرسالة عام ١٩٦٤، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٦٦م).

١٩- عبد السلام هارون: تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٣٩٧/١٩٧٧، ص٤٦.

٢٠- المرجع السابق، ص٢٩.

٢١- من رسالته الإلكترونية إليَّ بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣١م.

٢٢- عبد السلام هارون: تحقيق النصوص ونشرها، ص٤١.

٢٣- مطاع الطرابيشي: في منهج تحقيق المخطوطات، ص٤١.

٢٤- روى مطـاع الطرابيشي في المرجع السابـق أن هناك مَنْ مزّق ورقة من نسخة البرزالي من مخطوط تاريخ دمشـق لابن عساكر، وسوَّد السطر المقابل لتلك الورقة من مختصر التاريخ لابن منظور، وهذا ما يدلّ على أن هناك إنساناً قصد إلى ذلك قصداً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢٥- المرجع السابق، ص١٢.

٢٦- المرجع السابق، ص١٧.

٢٧- برجستراسر: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص٥٤.

حوار العـدد

عمر أميرلاي:
وجدت نفسي في السينما

إعداد: عادل أبو شنب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرفته معافى، يمشي رافع الرأس باذخ الجبهة لذلك، وقع نبأ وفاته علي، بجلطة دماغية، يوم ٥ شباط من هذا العام ٢٠١١ وقع الصاعقة، لم أصدقه، لكنها إرادة الله، وكنت أجريت معه هذا الحوار في منتصف كانون الثاني، من العام نفسه، أي قبل عشرين يوماً في مقهى الروضة الدمشقي، وكان وعدني بصورة وبأن نكمل الحوار، لكنه لم يف بوعده، رحل وهو السينمائي القدير،

○○ أديب وقاص سوري

الـذي كان يتمتـع بلغة وحرفيـة سينمائية في هـذا الفن البصري الـذي اختاره ليلقي الأضواء على حياتنـا المعاصرة، وقد أخرج حوالي ٢٥ فيلمـاً تسجيلياً متسلحاً بيسارية اعتنقها فظهرت في أفلامه كلها تقريباً.

وكنـت ذكرتـه برسوم قدمهـا إلي عام ١٩٦٩ ونشرتهـا في مجلة «أسامة» للأطفال، التـي أصدرتهـا وزارة الثقافـة في السنة نفسها، فقال: نعم الرسم من هواياتي، وأحد اهتمامـاتـي، وكم كنت أتمنى لـو كان بيننا الآن، ليرى هذا الحوار الذي أعتقد أنه كان آخر حوار لعمر أميرلاي رحمه الله.

* * *

انضم إلى المسرح

- سألتـه كالعـادة عـن مولـده، ونشأته ودراسته، فأجاب:

• ولدت عـام ١٩٤٤ في دمشق، ودرست المراحل الأولى من الدراسة في مدارس دمشق وثانوياتها، ثم سافرت إلى أوروبة. وكنت أريد أن أسافر إلى باريس، عن طريق برلين، فلما وصلت إلى برلين نزلت من الطائرة بهاجس أن ألتقي بصديـق، كان سبقني بالسفر إلى أوروبة، واستقر به المقام في برلين، كان يدرس الموسيقى في كونسرفتوار، برلين، فانضممت إليـه كطالب أوبرالي، ولما وجـدت أن هذه الدراسة لا تصلح لي ولا أصلح لها، سافرت مجـدداً إلى باريـس تـاركاً الكونسرفتـوار وانضممـت إلى الجمعيـة الدولية للمسرح «مسـرح سارة برنـار» ومركزهـا العاصمة الفرنسيـة، باريس، ورحت أتابـع الدراسة فيها بشغف، سرعان ما فتر.

- في أي سنـة انضممت إلى هـذه الجمعية؟

• سنــة ١٩٦١ وبقيت سنة أدرس فيها ثم تركتها، ولمـا شعرت أن دراستي المسرحية لا ترضيني اتجهت إلى دراسة السينما في باريس أيضـاً، باريس التي أحبهـا، وصار لي فيها أصدقاء.

السينما.. السينما

- أين درست السينما؟

• في معهـد الدراسات السينمائية العليا في جامعـة نانتير، لكنني انتقلـت بعد سنة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أيضاً إلى الجامعة في باريس لمتابعة دراستي السينمائية، وهي الدراسة التي أحببتها.

- من كان مدرسك في الجامعة المذكورة؟

• كان المخرج العالمي «جان بيير بيلغيل»

- أهو فرنسي؟

• فرنسي.. ألم تسمع به؟ إنه مالئ الدنيا وشاغل الناس.

وابتسم ربما لإحساسه بجهلي، فقلت بجدية:

• كلا. لم أسمع به إلاّ الآن ومنك.

رسام كاريكاتير

أنهى المرحوم عمر أميرلاي دراسته السينمائية عام ١٩٦٨ وعاد إلى مدينته دمشق، وذات يوم من عام ١٩٦٩، وكنت مسؤولاً عن مجلة «أسامة» للأطفال، التي أصدرتها وزارة الثقافة كما قلت، زارني عمر في مقر المجلة، وتعارفنا، ولم يقل شيئاً عن دراسته السينمائية، بل قدم رسوماً كاريكاتورية لطيفة، خاصة للأطفال لنشرها في المجلة، فنشرتها. وكنت أتمنى منه المزيد. لكنه لم يأت ثانية، وعرفت أنه اتجه إلى السينما.

يسارية شديدة

الآن، وأنا أسجل نقاط هذا الحوار، خطر لي أن أميرلاي خلال زيارته لبرلين، واشتراكه في الكونسرفتوار. ثم انتسابه لدراسة المسرح، وبعده لدراسة السينما في باريس، ثم برسمه الكاريكاتور في دمشق، تدل على بحثه عن ذاته في هذه الميادين التي ذكرتها، وقد اختار أخيراً السينما التسجيلية التي وجد أنها تصلح له ويصلح لها. فمضى فيها وأنجز الأفلام التي بدت فيها خبراته السينمائية المتميزة، وكان أن اختار نهر الفرات والفلاحين الذين على ضفافه، مكملاً رحلة سينمائية عامرة أخرج خلالها في حوالي ٤٠ سنة حوالي ٢٥ فيلماً تسجيلياً، وضع فيها أفكاره اليسارية التي كانت أكثر يسارية من الأحزاب اليسارية المعروفة، وكان فيلمه هنا هذا الأول الذي عبر فيه عن أفكاره اليسارية، بشكل واضح: كما قال.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سألتـــه قاطعاً حديثه عن السينما سؤالاً أجفله:

- إلى أي حد كنت يسارياً؟

أجاب مع ابتسامة:

• كنت يسارياً وما أزال.. وكفى!

قلت:

- هل أنت يسـاري أكثر من تـروتسكي، أو يساري كماو تسي تونغ؟

ابتسم ولم يجـب، فاحترمت عدم جوابه ولم أكرر السؤال.

فيلم عن السجاد

خيـل إلي أنــه يجب أن يلـزم الصمت، ويطوي هذا الموضوع، فسألته:

- مـا هـو فيلمـك التسجيلـي الأول في سورية؟

• فيلمـــي الأول عـــن السجاد الريفي في سورية. ألم تره؟

عاودت السؤال وسألته:

- هل أصاب نجاحاً؟

• كل أفلامي أصابت نجاحاً.

وردد الجملـــة مرة أخـــرى: كل أفلامي

تركت بصمة في تاريخ السينما السورية.

- لماذا؟

• لأني قدمتهـــا من وجهـــة نظر أربابها، لامستغليهـــا، وهـــذا الفيلـــم كان تجسيداً لأفـــكاري التي آمنت بهـــا منذ بدأت حياتي العملية.

فيلم عن الحريري

لكـــن عمر أميرلاي تنـــازل قليلاً عندما قدم فيلماً عن المرحوم رفيق الحريري، وهو من هو في عالم السياسة والمال.

- ماذا قلت في هذا الفيلم؟

• قدمت فيه قصة هذا الرجل.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أليس إخراج فيلم كهذا مخالف لمبادئك؟

• كلا.. كلا!

فيلم عن القرامطة

كان عمر أميرلاي -رحمه الله- يريد أن يخرج فيلماً عن القرامطة يجسد فيه أفكارهم ويلقي أضواء على بعض زعاماتهم وأفكارهم، وقد اتصل بمملكة البحرين ليصور فيلماً تسجيلياً عن هذه الفئة التي جنحت نحو اليسار قبل قرون عديدة، لكن اتصالاته انتهت بوفاته، ومات مشروع آخر من مشاريعه السينمائية الهامة. وكان فيلمه عن الفرات والفلاحين قد أغضب أولي الشأن، وعدوه فيلماً غير مقبول، مع أن جمهرة السينمائيين السوريين بخاصة قد امتدحوه.

إغراء تتكلم

وسألته:

- ما هو المشروع الذي تعد العدة لإنجازه فيلماً هذه الأيام؟

• فيلم عن الراقصة السورية إغراء، باسم «إغراء تتكلم».

- هل هناك راقصة اسمها إغراء؟

• إنها واحدة من ثنائي راقص باسم «فتنة وإغراء» كان له حضور كبير.

- ماذا تريد أن تقول بهذا الفيلم؟

• أردت أن أقول أن الراقصة عندما تتوقف عن الرقص تصاب بالإحباط كثيراً.

- أهذا موضوع مهم؟

• طبعاً. إن الراقصة تشكو سوء حالها هذه الأيام، وهذا وحده يحمسني على صنع الفيلم.

- لكن هذا الفيلم لم يكتب له الظهور.

• الفيلم لم يصور بعد، إنني أعد العدة له، وسأبدأ مشاريعي به.

كان عمر ينوي تصويره في أقرب فرصة لو لم يصب بالجلطة الدماغية القاتلة.

سينمائي متميز

إن عمر أميرلاي فنان وسينمائي سوري متميز، بلغته السينمائية، وحرفيته، وإذا نحينا جانباً أفكاره التي آمن بها، وهي شيء من تكوينه، لا بد أنه كسبه عندما كان في باريس، فقد كان ذا لغة سينمائية

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

عالية وحرفية مشهود له بها، وإن كان بعض المسؤولين عن السينما في سورية قد هاجموه، رداً على ما كتبه عن السينما السورية في آخر مقال كتبه في جريدة «الحياة» وقد شغلت الصحافة السورية واللبنانية، وخاصة جريدة «تشرين» وزميلتها «الثورة» وجريدة «السفير والحياة» اللبنانية بمقالات عديدة عنه، كواحد من أبرز السوريين الذين عملوا في تصنيع الأفلام التسجيلية، التي تعبر عن فكر واضح وحرفية عالية ممتازة.

لقد وجد عمر أميرلاي نفسه، لكن الموت كان أسبق منه في رحلته السينمائية الحافلة، كان في ذهنه مشاريع كثيرة لأفلام لم يكتب له إخراجها، للأسف.

شاعر أحب أفكاره

أثناء إجراء هذا الحوار كان، يجالسني الشاعر عبد الغني العظمة شقيق الشاعر والأديب الكبير نذير، وقد أعجب بشخصية عمر أميرلاي فشرع بنظم قصيدة فيه، ولما جاءني بها كاملة في جلسة قادمة، كان قد توفي فحزن عليه، وأعطاني القصيدة الجميلة رحمه الله.

• • •

لقطات من حياته

وبعد وفاة عمر أميرلاي

• توفي عن عمر يناهز ٦٥ عاماً.

• رداً على سؤالي عمن تكون إغراء قال عمر إنها بطلة فيلم «الفهد» أمام النجم أديب قدورة، الذي أخرجه نبيل المالح منذ زمن بعيد، وكان من أنجح الأفلام السورية.

عندئذ تذكرتها.

• عندما توفي نعته الأوساط السينمائية في باريس التي درس السينما فيها، ودمشق وحزنت عليه حزناً كبيراً، وكتبت عن حياته واهتماماته السينمائية.

• كتبت جريدة «تشرين» و«الثورة» خبرين مطولين عن وفاته، ومما قالته جريدة «الثورة»: كان الراحل من رواد السينما التسجيلية العرب، عبر تدوينه نصوصاً بصرية غاية في الاحترافية السينمائية. التي بدأت بفيلمه عن نهر الفرات عام ١٩٩٧

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وحتى استعداده لإخراج فيلم عن إغراء.

• قال عنه المخرج هيثم حقي: «وكان خسارة كبيرة للثقافة السورية».

• ومن المؤسف أن حواره هذا لم يكن قد انتهى، عندما استمهلني لإكماله في جلسة قادمة لم تنعقد، لأنه كان قد رحل.

• وكتب في «الحياة» أسامة العارف عن الصديق عمر أميرلاي والسينما العربية الجديدة.

• ورداً على مقال له في «الحياة» كتب محمد الأحمد مدير مؤسسة السينما السورية بث من الفضائية السورية قال فيه: إنه سياسي أكثر منه مخرجاً وأفلامه بلا جمهور وتكشف عن نزقه. ونشر محمد سامر إسماعيل هذا الرد في «الحياة» وكان عمر أميرلاي قد توفي ودفن.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

⊙ أحمد الحسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأبين يوسف الخطيب:

بمناسبة مرور أربعين يوماً على رحيله أقامت وزارة الثقافة حفلاً تأبينياً للشاعر العربي الكبير يوسف الخطيب الملقب بسيف فلسطين وذلك في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

وقال الدكتور رياض عصمت وزير الثقافة: إن رحيل الشاعر الفلسطيني يعد خسارة فادحة للأدب العربي الحديث فقد كان عندليب فلسطين وشريانها والمدافع عن الحق دون كلل أو ملل رافعا راية المقاومة والتحرير.

⊙ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

وأضاف الوزير عصمت أن الراحل في كل ما كتب وأبدع كان شاعراً حقيقياً عبر عن المشهد الثقافي العربي بحس عالٍ مليءٍ بالحيوية التي تمتاز بها روحه الخلاقة المبدعة.

لافتاً إلى أن حضور الخطيب المهم على الساحة العربية ليس ضمن أبناء جيله فحسب، وإنما ضمن الأجيال الشابة التي خلب أسماعها ووصل إلى قلوبها بشعره الجميل شكلاً ومضموناً ومبنى ومعنى فالخطيب كتب عن النكبة والنكسة لكنه ظل قويا بقضيته ثابتا على مواقفه حالما بمستقبل أفضل حتى أصبح شعره مثالاً يحتذى به.

وألقى كلمة آل الفقيد المهندس بادي الخطيب نجل الراحل تحدث فيها عن يوسف الأب والجد ودوره في تربية أبنائه وتشريبهم مشاعر العروبة والمحبة لفلسطين.

بدورها ألقت الفنانة سلاف فواخرجي كلمة الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين نيابة عن الشاعر مراد السوداني التي أكدت خلالها عظمة روح الخطيب الساعية دوما نحو الحق والجمال وثباته الدائم على حبه لفلسطين وتمسكه بها لافتاً إلى تأثير أشعار الخطيب في الجيل الجديد لاسيما أن لغته نطقت دوما بصوت الحق الذي لا يموت.

من جهته تحدث معن بشور الأمين السابق للمؤتمر القومي العربي عن أبعاد التجربة الإنسانية والشخصية لتجربة الخطيب مشيراً إلى أنه يجمع بين الانفعال السريع والبراءة وبين التوتر والبساطة فهو المتدفق في إبداعه والسخي في عطاءاته والمترفع في سلوكه.

وفي تأبين الخطيب قال القاص والكاتب الفلسطيني أنور رجا: إن سيف فلسطين كان وطنا للقصيدة وقصيدة للوطن إذ إنه شارك في تشكيل وعينا وذاكرتنا الحميمية وشوقنا إلى فلسطين وشكل حالة مفصلية في ساحة الشعر الفلسطيني فهو لا يشبه أحدا إذ كان له إيقاعه الخاص النابض بهويته العربية.

بدوره تحدث المخرج خلدون المالح عن ذكرياته مع الراحل الخطيب في الإذاعة وقال إن الراحل كان يمتلك صوتا حلوا وجذابا وكان رسول فلسطين في الإذاعة حيث كان ينشد قصائد من عمر الشباب وكان واثقا بالعودة ومتفجراً كالبركان الوطني طموحا وثقة بالمستقبل.

وعرض خلال حفل التأبين فيلم وثائقي عن حياة الخطيب تضمن أهم المحطات في حياته الأدبية والعملية ومقتطفات من قصائده.

يذكر أن الشاعر يوسف الخطيب ولد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في دورا في جبل الخليل بفلسطين المحتلة عام ١٩٣١، وتعلم في مدارسها الابتدائية، والتحق بكلية الحقوق بالجامعة السورية عام ١٩٥١، وتخرج منها بإجازة في الحقوق ودبلوم اختصاص في الحقوق العامة سنة ١٩٥٥، وإلى جانب كونه شاعراً وقاصاً، عمل الخطيب مذيعاً في سبع إذاعات عربية، هي: السورية والأردنية والسعودية والمصرية، وصوت العرب، والكويتية، والعراقية، إلى أن انتهى به المطاف مديراً عاماً لهيئة الإذاعة والتلفزة العامة في سورية عام ١٩٥٦، وفي عام ١٩٦٦ ترك الخطيب الوظائف الحكومية، وقام بتأسيس دار فلسطين للثقافة والإعلام والفنون، وكان أحد أعضاء الهيئة التأسيسية لاتحاد كتاب العرب، وفي عام ١٩٦٧ شرع الخطيب بإصدار مؤلفه السنوي العالمي بعنوان /المذكرة الفلسطينية/ وهي المطبوعة التي واصل إصدارها لتسع سنوات متعاقبة في كل من اللغات العربية والإنكليزية، والفرنسية، والألمانية والإسبانية، وعن دار فلسطين التي قام الخطيب بتأسيسها أصدر مجموعة من المطبوعات والوثائق الهامة، المتعلقة بالشأن الفلسطيني، من أبرزها: ديوان الوطن المحتل، وفلسطينيات الأعلام، ومشاهد البلدانية الفلسطينية، وسيناريو مذبحة كفر قاسم، وغيرها من المطبوعات الأخرى.

وفي رحيل الخطيب قال الباحث الفلسطيني محمد الخليل: يوسف الخطيب صوت شعري فلسطيني أثر في الساحة الشعرية العربية على مدى نصف قرن، وفي الحقيقة لم يكن شاعراً لفلسطين فقط، فهو شاعر قومي إنساني وطني ثوري.

وقال عنه الناقد الأردني هاشم عودة: برحيله خسرت القصيدة العربية فارساً كبيراً، وبغيابه أظلمت زاوية واسعة في خيمة الشعر العربي المقاوم، لكن تراثه وما تركه بين أيدينا من شعر وقصة وغيرهما من صنوف الكتابة، سيظل مضيئاً في الوجدان العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عرف الخطيب شاعراً عندما فازت قصيدته العيون الظماء للنور مع قصيدة أخرى لشاعر آخر بالجائزة الأولى لمجلة الآداب اللبنانية، عام ١٩٥٤ وفي عام ١٩٥٥ صدر ديوانه الأول وهو يحمل عنوان هذه القصيدة ثم أصدر عام ١٩٥٩ ديوانه الثاني عائدون، فديوانه الثالث واحة في الجحيم عام ١٩٦٤.

وله بعد ذلك ديوانان آخران صدرا عام ١٩٨٨ هما بالشام أهلي والهوى بغداد، ورأيت الله في غزة، وقد أطلق الخطيب

عام ١٩٨٣ ديوان مجنون فلسطين، ليكون بذلك أول ديوان سمعي في الشعر العربي، وفي عام ٢٠١١ صدرت عن دار فلسطين والاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين بدمشق الأعمال الجاهزة للخطيب في ثلاث مجلدات، وللخطيب مجموعة قصصية واحدة، بعنوان عناصر هدامة صدرت عام ١٩٦٤.[1]

خطوط عريضة للإصلاح الثقافي:

أكد وزير الثقافة المغربي بنسالم حميش، أن الوضع الثقافي المغربي «يتمتع بصحة جيدة ومناعة قوية»، موضحا أن المطلوب هو انفتاح أكبر على جل الثقافات الكونية بما يتيح توسيع مجال الثقافة المغربية وامتداداتها.

وأضاف حميش في حديثه خلال ندوة حول موضوع «تأملات في الشأن الثقافي المغربي»، نظمت ضمن فقرات مهرجان مكناس وليلي الملتئمة فعالياته بالعاصمة الإسماعيلية إلى غاية ٢٠ يوليو/تموز الجاري، أن هذه الامتدادات تجعل من الثقافة فاعلة ومؤثرة كما هو الحال بالنسبة للاقتصاد.

واعتبر أن البحث الميداني في وزارة الثقافة كفيل بالمساهمة في الدفع بتطور الأداء الثقافي وجعل الوزارة رافعة حقيقية للتنمية البشرية، مبرزا أن الإصلاح الذي رفعته الوزارة كشعار لها يستلزم تغيير بعض النصوص القانونية والمراسيم التي أضحت تعرقل السير الجيد لكل ما هو ثقافي.

وأضاف وزير الثقافة أن هذا الإصلاح مر عبر الوقوف على واقع الوزارة وتقييم حاجياتها وخصوصياتها ووضع اليد على النقائص التي تعتريها ومعالجتها.

من جانبه، أبرز الباحث عبد الرحمن بن زيدان في مداخلته، أن العديد من اللقاءات والندوات التي نظمت بالمغرب حول الشأن الثقافي وانبثقت عنها مجموعة من التوصيات «ظلت حبرا على ورق»، متسائلا عن أسباب عدم تفعيلها، وأكد على أهمية الفعل الثقافي في إبراز القيم ونشرها، معتبراً الثقافة جزءاً هاماً من الحركية التي يشهدها العالم العربي.

أما سعيد بنكراد أستاذ السميائيات بكلية الآداب بالرباط، ومدير مجلة «علامات» التي تصدر بمكناس، فاعتبر أن وزارة الثقافة هي المكلفة بإدارة الشأن الثقافي، مؤكدا على أهمية الرفع من مستوى الأداء الثقافي بعيدا عن هاجس الربح السريع الذي تعتمده بعض المؤسسات، ورأى أن الوضع الثقافي في المغرب يعيش حالة من التردد والتراجع على مستوى المنظومات الفكرية والقيم الجميلة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتميز اللقاء بتقديم آخر إصدار لبنسالم حميش بعنوان «الإصلاح الثقافي أيضا»، والذي صدر باللغتين العربية والفرنسية، واستهل بمدخل عن الثقافة كتمثل وممارسة، إلى جانب إرفاقه بملحق يهتم بحصيلة وزارة الثقافة منذ سنة ٢٠٠٩، والذي يشمل في محتواه الخطوط العريضة للإصلاح الثقافي، وتنويع مصادر الوزارة من خلال محاورة الفاعلين الاقتصاديين ومضاعفة الجهود لاستثمار علاقة التعاون الثنائي والمتعدد الأطراف.(٢)

رحيل الفنان لوسيان فرويد:

توفي في لندن لوسيان فرويد الذي كان من أكبر الرسامين البريطانيين وأبلغهم تأثيرا وأشدهم إثارة للجدل.

وأعلن وفاة فرويد في منزله عن ٨٨ عاماً صاحب الغاليري المتخصص ببيع لوحاته في نيويورك وليام أكوافيلا.

وشهدت أعمال الرسام الواقعي الذي كان حفيد العالم النفسي سيغموند فرويد، صعودا مذهلا في أسعارها خلال السنوات الأخيرة.

وفي عام ٢٠٠٨ بيعت لوحته التي تصور امرأة عارية كبيرة الحجم مستلقية على كنبة مقابل ٢٧,٧ مليون دولار، وهو سعر قياسي لعمل فنان ما زال على قيد الحياة.

ولد فرويد في برلين وانتقل إلى بريطانيا في عام ١٩٢٣ مع عائلته حين كان في العاشرة من العمر. وبعد أن درس في كلية الفنون نال اعترافا بموهبته في معرض شخصي أقامه حين كان في الحادية والعشرين من العمر، ومارس تدريس الفن في كلية سليد في لندن. اشتهر فرويد خلال حياته الفنية التي امتدت ٥٠ عاما بتصويره نساء عاريات في لوحات كانت دائما موضع نقاش وجدل.

ونقلت صحيفة الغارديان عن نيكولاس سيروتا مدير متحف تيت للفنون في لندن أن حيوية لوحات فرويد العارية وحدة أعماله التي تصور حياة جامدة وحضور بورتريهات أفراد عائلته وأصدقائه تضمن له موقعا فريدا بين فناني القرن العشرين.

واعتبر سيروتا أن لوحات فرويد الأولى أعادت تحديد الفن التشكيلي في بريطانيا وأعماله اللاحقة تضاهي أعمال الفنانين التشكيليين الكبار في أي حقبة.

ولخص مدير متحف الفن الحديث في نيويورك ستار فغويرا فن فرويد قائلاً إن الذين لا يقدرونه يجدون صعوبة في النظر إلى أعماله ويرونها متناشزة مع ما يجري في العالم وكانوا يجدون مشقة في تنسيبه إلى مدرسة معينة.

ومن أعمال فرويد التي كثر استنساخها

بورتريه ملكة بريطانيا التي وقفت أمامه بملابس كاملة. وجرى التبرع بهذه اللوحة إلى مجموعة الملكة الفنية وهي تعتبر من أكثر الأعمال التي تصور الملكة إليزابيث إثارة للجدل.(٣)

اليونسكو تنفي اعتماد القدس عاصمة لإسرائيل:

أصدرت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونيسكو» برئاسة أرينا بوكوفا، بيانا تنفي فيه الادعاءات التي شاعت مؤخراً حول «اعتراف» المنظمة بالقدس عاصمة لإسرائيل، وقالت المنظمة في بيانها: تود اليونيسكو أن تؤكد مجددا، وخلافا للادعاءات التي ذكرت مؤخراً، أنه لم يحصل أي تغيير بالنسبة إلى موقفها حيال مدينة القدس وأن القدس القديمة مدرجة على قائمة التراث العالمي والتراث العالمي المهدد بالخطر.

وأوضحت المنظمة في بيانها وفقا لقرارات الأمم المتحدة أن القدس لا تزال جزءا من الأراضي الفلسطينية المحتلة ووضعها النهائي يجب أن يناقش ضمن مفاوضات الحل الدائم، وأن اليونسكو تعمل على ضمان احترام القيمة العالمية الاستثنائية للتراث الثقافي لمدينة القدس القديمة.

يذكر أن بيان اليونيسكو جاء رداً على الانتقادات التي وجهتها لها حركة حماس بعدما زعمت أن المنظمة قامت بإدراج مدينة القدس على أنها عاصمة لإسرائيل ضمن قائمة التراث العالمي وناشدت منظمة المؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية بضرورة التدخل، كما انتقد مفتي الجمهورية الدكتور علي جمعة موقف اليونيسكو هذا واعتبره انتهاكا لحقوق الشعب الفلسطيني وانحيازاً واضحاً للاحتلال الإسرائيلي.(٤)

ملتقى النحت الدولي في دمشق:

اختتم ملتقى النحت على الخشب فعالياته في قلعة دمشق، حيث شارك به كل من النحات الإيطالي فرانشيسكو بانشيري.. اليوناني أنطونيوس ميريدياس.. الإسبانيان فرناندو الفايس.. وفرانسيسكو رودريغز ريميزيرو.. القبرصي خريستوس مارتينيس.. الروسي أندريه بالاشوف.. الإيراني طاهر شيخ الحكماء.. والسوريان محمد بعجانو وأبي حاطوم.

وقال الدكتور رياض عصمت وزير الثقافة: إن هذا الملتقى يؤكد أن سورية مهد الحضارة لافتاً إلى أن الفنانين المشاركين قدموا جهداً نرى نتائجه أعمالاً فنية جميلة والمرأة المحور الرئيسي لها وهذا له دلالة كبيرة ويؤكد أن سورية بخير وتستعيد الأمن والأمان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من جانبه قال الفنان أكثم عبد الحميد مدير الملتقى: إن مادة الخشب التي قام عليها هذا الملتقى لديها خواصها وتقنيتها التي يتعامل معها النحات بما ينسجم مع الموضوع ويحقق التوازن بين الفكرة والخامة ليشعر المتلقي في النهاية أن المنحوتة خرجت من خصوصية مادة الخشب وليس من خامة أخرى كالبيتون أو المعدن وغيرها ولكي تعطى هذه الخامة حقها في الحياة التشكيلية السورية المعاصرة رغم أنها ليست جديدة على حياتنا الثقافية والفنية التشكيلية.

وقال الفنان محمد الوهيبي: إن الملتقى هو أول ورشة عمل فني تشكيلي ينوب عن الحجر في تكويناته العالية الضخمة حيث يشكل الخشب معطى جديداً لتزيين الصالات والأروقة بعيداً عن صالات المدن الكبرى عبر الاعتماد على محاكاة جسد المرأة وسيكولوجيتها بنقلها إلى الخشب السوري بعيداً عن أي فكرة أدبية بل انعكاس لفكرة بصرية محضة تمثل الطبيعة الأم والمرأة ككائن فوق طبيعي يرمز إلى الوطن وتجلياته في مواد لها حساسيتها الخاصة، موضحاً أن الملتقى بمثابة صدى لأفكار الفنانين المشاركين عبر هواجس فنية متشعبة ومختلفة وواسعة في تناولها لموضوعة المرأة الأم عكست روح المثاقفة الإبداعية بين الفنانين السوريين والضيوف من إيران وإسبانيا وقبرص واليونان وروسيا وإيطاليا حيث زاوجت أعمال هؤلاء بين المحلية والمعاصرة بعيداً عن الرؤية التقليدية المستقاة من الماضي.

وعن عمله النحتي قال الفنان الإسباني فرانسيسكو رودريغز ريميزيرو: إن المرأة العارية التي أنحتها بأسلوب واقعي تقدم رمزا للمرأة الضعيفة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها وعلى الرغم من ذلك هي تحاول إظهار نوع من القوة من خلال السكين الذي تحمله بيدها، مضيفاً أن مادة الخشب تتمتع بخصوصية عالية وتتضمن إحساسا خاصا رغم أنه عمل مع خامات عديدة في النحت منها الرخام والمعدن والفايبر كلاس ولكنه يفضل العمل مع الخشب.

وأوضح النحات الإسباني أن أهمية المشاركة في هذا الملتقى تأتي من كونه يقام في سورية التي تمثل بالنسبة له مدرسة الثقافة والعمارة الإسلامية والعربية التي عشقها وتربى فنيا وبصريا على وجودها في الأندلس كما أن العمل إلى جانب أسماء نحتية مهمة على المستوى العالمي يعتبر شيئا مهما بالنسبة له ولتجربته الفنية القصيرة نسبياً.

بدوره قال النحات الروسي آندريه

بالاشوف: إن شغلي على موضوع المرأة في ملتقى دمشق كان من صميم إيماني بجمالية المرأة وكينونتها الخاصة في فضاء العمل التشكيلي فالمرأة ككائن نافست الرجل على مدى العصور بجاذبيتها وبكتلتها في فراغ هذا العالم لكن الأهم برأيي كان لقائي وحواري المستمر مع النحاتين المشاركين حيث كما كل ملتقيات النحت في العالم نجحت مجموعتنا في تكوين خبرات جديدة متبادلة أفضت إلى ما قدمه هذا الملتقى في دورته الثانية.

أما النحات السوري محمد بعجانو فقال: إن أهمية الملتقيات النحتية سواء في سورية أو خارجها تأتي بالدرجة الأولى كفرصة للنحات المتعطش للعمل على خامات كبيرة ليتمكن من تقديم أعماله وأفكاره التي يصعب عليه تقديمها في مرسمه الخاص لظروف ومعوقات كثيرة لها علاقة بالمساحة وتوفر الخامة والمعدات ومن ثم التكلفة وتسويق هذا العمل وعرضه للناس في الأماكن العامة والساحات.

وأضاف: إن إقامة ملتقى النحت على الخشب تستجيب لحاجة ملحة لدى النحاتين في سورية ولدى الكثير من النحاتين العالميين لأن الخشب كخامة تنتمي للشجرة ذلك الكائن الحي المفعم بالإحساس والتفاصيل الموحية ما يجعل منها كتلة متناغمة في تكويناتها مع أدوات النحات المبدع الذي يحولها بموهبته إلى عمل فني حقيقي مستفيداً من كل طاقاتها الروحية والجمالية.(٥)

أقدم منظر لملك مصري:

صرح زاهي حواس وزير الدولة لشؤون الآثار أن بعثة جامعة ييل الأميركية وجامعة بولونيا الإيطالية شمال غرب أسوان بمنطقة الكاب كشفتا عن أقدم منظر لملك يرتدى تاج الوجه القبلي، وهو ضمن مجموعة من المناظر الملكية التي ترجع لعصر الأسرة (صفر) وبدء الكتابة الهيروغليفية (٣٢٠٠ ق.م)، وأضاف: إن الكشف يتكون من العديد من المناظر والكتابات الهيروغليفية، والتي تظهر أول تصوير فريد يصور احتفالاً ملكياً مكتملاً يشبه تماماً ما كان معروفاً في العصور الفرعونية المختلفة، والتي يظهر فيها الفرعون مرتدياً تاج الوجه القبلي وبصحبته (أتباع حورس) أو ما يسمى بالبلاط الملكي، كما هو معروف في مصادر عصر الأسرات المبكر.

وقالت الدكتورة ماريا كارميلا جاتو رئيسة البعثة: إن هذا الكشف يعد استكمالاً للموقع الذي اكتشفه في منتصف القرن الماضي عالم المصريات الشهير (د.لبيب

حبشي) بالقرب من نجع الحمدولاب على الضفة الغربية للنيل شمال مدينة أسوان.

وقد كشفت هذه الدراسة الجديدة والتي ترجع لعصر نهاية حضارة نقادة المنتمية لعصر ما قبل التاريخ بالتحديد بين عصر الملك العقرب، أو أول ملوك الأسرة صفر وهي الفترة نفسها التي تؤرخ فيها مقبرة (ودج) (٢٨٨٠-٢٨٧٣ ق.م) في أبيدوس ونعرمر، أحد ملوك الأسرة الأولى (٢٩٦٠-٢٧٧٠ ق.م).

وأضافت أن أهمية هذا الكشف تأتي لتفرد وأهمية المناظر المكتشفة في أسوان والتي تظهر منقوشة مثبتة على الصخر من لحظة الانتقال من الموضوعات المصورة في عصر ما قبل الأسرات، وتمثل مواكب القوارب والحيوانات كرموز للسلطة الملكية إلى المصادر المميزة لعصر الأسرات والتي تشير فيها الأحداث من خلال صورة الملك الموضوعة في وسط المشهد؛ مما يؤكد أن سلطة الملك تحديداً هي أبرز ما يظهر من مناظر نجع الحمدولاب، حيث يصور بملابس الكاهن الأكبر كرمز للسلطة الدنيوية والإلهية.

ويمكن التعرف عليه في المنظر من خلال الشارات الملكية المميزة له وهي تاج الوجه القبلي الأبيض والموثق في أقدم أشكاله.

وقال محمد البيلي مدير عام آثار أسوان والنوبة: إن النقوش الصخرية في نجع الحمدولاب هي امتداد لسلسلة من الصور المختصرة ضمن مجموعة أشمل من الصور تتضمن مناظر صيد.

وعلى الرغم من استمرار ظهور اليوبيل الملكي ومناظره خلال عصر الأسرات، فإن سلسلة اليوبيل بنجع الحمدولاب تمثل مزيجا متفردا، حيث تعرض العديد من صور الحيوانات في نقوش نجع الحمدولاب، والتي تتضمن إحداها شكلاً لسكين عريض النصل مصنوع من الظران الذي يستخدم في مجال الصيد والذبح.

ويشير المنظر إلى شخص يحمل ريشة على رأسه منبطحاً على الأرض وأسيرا يقوده رجل يحمل قوسا إلى إخضاع الخارجين عن سلطان المملكة المصرية، ونتائج الحملات العسكرية، وتتضمن المناظر قوارب متطورة الشكل، وهي العنصر العام الموحد في مناظر الاحتفالات المنتمية لعصر ما قبل الأسرات، وقد قامت البعثة بعمل ترميم للمنظر الرئيسي الذي لحقه التلف مؤخرا بشكل كبير، ومن خلال توافر الصور الفوتوغرافية الأصلية التي التقطها الدكتور لبيب حبشي، التي كانت موجودة لدى معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو، تم عمل تصوير

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

رقمي حديث لتوضيح كل المناظر التي كانت موجـودة وقت الاكتشاف في منتصف القرن الماضي.(٦)

بابل عاصمة للثقافة الأثرية:

أعلن مجلس محافظـة بابل عن موافقة مجلس الوزراء العراقـي على إعلان مدينة بابل (٨٥ كلم جنوب بغداد) عاصمة للثقافة الأثريـة، وتخصيصـ مبلغ عشـرة ملايين دولار لتطويـر مواقعهـا الأثرية، وذلك من أجل إعادة وهج هـذه المدينة وإبراز دورها التاريخـي، بما يليـق بسمعتها كموقع أثري عالمي.

وقال محافـظ بابل محمد المسعودي: إن مجلس المحافظة سيشكل فريق عمل لتطوير المدينـة الأثريـة وفقا لتوجيهـات منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

من جهتـه أكـد الناطق باسـم مجلس محافظـة بابل مراد بكـري أن المجلس قرر إعـلان المدينة -التي تعتـبر من أقدم المدن التاريخية في العالم- عاصمة للثقافة الأثرية، لغرض إعـادة تأهيل آثـار المدينة وتشجيع السياحـة إليهـا، وأضاف أنـه ضمن هذا السيـاق سيتم تشكيل لجـان متعددة تتولى مهاما محددة، فهناك لجنة لتنظيم وترتيب شوارع المدينـة، وأخرى تشرف على المناطق الأثريـة المنتشـرة في المحافظـة، وإعـادة تأهيلها بشكل يليـق ببابل كعاصمة للثقافة الأثرية، ولجنة ثالثة تتولى تنظيم الفعاليات التي تقدم على مسارح وقاعات مدينة بابل الأثرية.

وعن أهمية إعلان بابل عاصمة للثقافة الأثريـة يقول مدير إعـلام وزارة السياحة والآثـار عبد الزهـرة الطالقـاني: إن بابل مدينة ذات صيت على صعيد التراث العالمي، وقـد سعت الحكومـة وبالتنسيق مع مجلس المحافظة لتطويرها بمـا يتناسب وسمعتها العالميـة، وجـرت عدة لقـاءات مع منظمة اليونسكو للتنسيق المشترك لصيانة المناطق الأثريـة وتطويـر المدينة وفـق المواصفات العالميـة، مؤكداً أن موافقـة الحكومة على تسميـة بابل عاصمة للثقافة الأثرية سيعزز من تطوير السياحـة في المدينة التي تحوي العديد مـن المواقع الأثريـة، أهمها مدينة بابل المركز، والمعابد التي تنتشر فيها، كذلك تشتهر بابـل بالزقورة، وتمثـال أسد بابل، والجنائن المعلقة.

ويشير الطالقـاني إلى أن الوزارة مهتمة بتطويـر المدينـة وجعلها عاصمـة للثقافة الأثرية بمـا يعزز مكانة العـراق السياحية والأثريـة، ويكشـف عـن مشاريـع جديدة ستشمل الكثير من المناطق الأثرية في عموم

محافظات العراق أهمها نينوى وذي قار وكركوك.

ويشي خبير الآثار العراقي بهنام أبو الصوف على إعلان بابل عاصمة للثقافة الأثرية مؤكدا قيمتها التاريخية، حيث كانت عاصمة البابليين، وحكمت سلالة البابليين الأولى تحت حكم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق م) معظم مقاطعات ما بين النهرين، موضحاً أن بابل بلغت أوج عظمتها في زمن الملك نبوخذ نصر (٦٠٥ -٥٦٣ ق م) الذي شيد الجنائن المعلقة، وهي تعد حاليا من عجائب الدنيا السبع، كما ورد ذكر بابل في القرآن الكريم، وفيها الكثير من الآثار والمواقع والمعابد التاريخية، التي شغلت اهتمام الكثير من الباحثين والمهتمين بالآثار، وهي جديرة بأن تكون عاصمة للثقافة الأثرية لهذا السبب، وطالب أبو الصوف بتنظيم فعاليات تركز على أهمية وتاريخ هذه المدينة من خلال المحاضرات والبحوث وعرض أفلام تبين تاريخ هذه المدينة ودورها الحضاري والإنساني.

يذكر أن آثار مدينة بابل قد تعرضت إلى التدمير بعد الغزو الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، بسبب اتخاذها معسكراً للقوات الأميركية، التي دمرت عجلات دباباتها الكثير من المواقع الأثرية.[٧]

معرض فن الكتابة الألماني:

احتضنت ألمانيا مؤخراً معرض «فن الكتابة» الذي يستعرض الأعمال الفنية المختلفة لطليعة الفنانين الذين استخدموا الحروف في رسم لوحاتهم الفنية، وشارك في هذا المعرض فنانون من شرق آسيا وأوروبة والعالم العربي.

وتضمن المعرض لوحات فنية على أعلى مستوى من الجودة. حيث إنه يهدف لتقديم مشاهد أقرب للمسات الفنية والتداخل الحرفي والتي تبين كيفية التواصل بين الثقافات المختلفة وبعضها، وتدخلنا إلى عالم الفن ولكن بلغة مكتوبة.

وعلى الرغم من تنوع الثقافات المختلفة المشاركة في المعرض مثل الشرق الأقصى والجزيرة العربية بما في ذلك أوروبة أيضا إلا أن هناك شيئاً واحداً مشتركاً وهو «الكتابة» التي سمحت لهم بالتعبير عن ثقافتهم وهويتهم كطريقة مختلفة للتطور والتواصل وشكل جديد من أشكال التعبير الفني للدخول في تكافل وثيق مع الثقافات المختلفة.

ومن الفنانين العرب المشاركين في المعرض يوسف أحمد وعلي حسن الجابر من قطر ومهدي قطب وحلمي غزالي من المغرب وحسن مسعودي وطه حسين وإيمان محمود

من العراق ومليحة أفنان من فلسطين ولولوة الحمود من السعودية وعبدالله السعدي من الإمارات وخالد الساعي وأحمد علي من سورية وفتحي حسن وأحمد مصطفى وسوزان خفونة من مصر ونجا المهداوي من تونس وزليخة بوعبدالله ورشيد قريش من الجزائر.

وفي هذا السياق قال الفنان علي حسن حول مشاركته في هذا المعرض: «شاركنا في السابق في متحف «كونست» في مدينة بون الألمانية عام ٢٠٠٥ حيث اختار المتحف ٢١ فناناً خليجياً من قبل لجنة مختصة وانتقل المتحف بعد ذلك إلى مدينة باريس الفرنسية عام ٢٠٠٦ ثم نظم بعد ذلك في أبو ظبي عام ٢٠٠٧»، لكن هذه المشاركة تعتبر الأكبر كونها تضم عدداً كبيراً من الفنانين من مختلف قارات العالم.

وعن مشاركته كفنان عربي في معرض يضم فنانين من جميع أنحاء العالم قال: «يسعدنا أن نساهم في تقديم ثقافتنا وتراثنا وتاريخنا العريق عبر لوحاتنا وإبداعاتنا الفنية. وما يثير الإعجاب أن القائمين على المعرض يتكفلون بكل التكاليف والتفاصيل الخاصة به وكذلك المطبوعات الإعلانية ويدفعون بسخاء لتقديم الفنون التي يقدرون قيمتها».

وأضاف قائلا: «إن العرب لديهم رغبة كبيرة في تقديم أعمالهم للجمهور العالمي وليس العربي فقط. خاصة أصحاب التجارب المتطورة والمتقدمين في أبحاث الفن الإسلامي، ولاسيما «الحروفية» حيث إن هذا الفن الفريد من نوعه يمثل جسرا للتواصل والتعارف بين فناني الشرق والغرب، خصوصاً وأن فن الحروف يتميز به فنانو العالم العربي والإسلامي بشكل خاص. وهو الأمر الذي جعل كل المشاركات العربية من حيث التفرد والتنوع تكتسح المعرض وتكون في صدارة المنافسة مع اللوحات العالمية».[٨]

اكتشاف تمثال مفقود:

اكتشف مسؤولون إيطاليون تمثالاً كبيراً يعتقد أنه للإمبراطور كاليجولا، وقالوا إنه استخرج بشكل غير قانوني من موقع جنوبي روما ربما كان أحد قصوره.

وعثر على التمثال الذي جرى تكسيره إلى عدة قطع كبيرة مع الرأس في البداية الشهر الماضي عندما أحبطت الشرطة محاولة لتهريبه إلى خارج البلاد بوساطة قارب في ميناء قرب روما، وقادت العملية إلى القبض على اثنين ممن يسمون (نابشي القبور) الذين ينقبون عن الكنوز الأثرية في الريف لبيعها في السوق السوداء، لكن الأكثر أهمية هو أن القبض على الاثنين قاد

الشرطة إلى الموقع قرب بحيرة نيمي جنوبي روما حيث يعتقد أن أحد قصور كاليجولا كان بها.

ويظهر التمثال أجزاء لرجل يرتدي ثوبا جالسا على عرش به تفاصيل دقيقة مثل الإله زيوس عند اليونان.

يشار إلى أن كاليجولا حكم في الفترة من عام ٣٧ إلى عام ٤١ ميلادية واشتهر في التاريخ بحبه الشديد للسلطة وجبروته ووحشيته.(٩)

سينما الأقصر تعيد فتح أبوابها في باريس:

عرفت دار سينما الأقصر الباريسية، التي شيدت عام ١٩٢١، أوج مجدها في النصف الأول من القرن العشرين، وتميزت بهندسة معمارية على الطريقة المصرية وبإيحاء فرعوني واضح من الداخل والخارج.

في بداياتها، عرضت «الأقصر قصر السينما»، كما أطلق عليها لاحقاً، أحدث الأفلام الهوليودية والفرنسية، بيد أن موقعها في أحد أكثر الأحياء شعبية وازدحاماً، خصوصاً بالمغتربين العرب، حوّلها مع الوقت سينما مصرية تعرض أشهر أفلام فريد الأطرش وسعاد حسني وعبد الحليم حافظ وهند رستم ونادية الجندي.

في العام ١٩٨١ وإثر رغبة بعض المتمولين في اقتناء السينما وتحويلها إلى سوبر ماركت، قرّرت وزارة الثقافة الفرنسية تصنيفها ضمن المباني الباريسية الأثرية، ما أبعد عنها كل المخططين لتغيير شكلها وديكورها، لكن انتشار الفيديو لم يرحم وقضى تجارياً على «الأقصر قصر السينما» وأرغمها على إشهار إفلاسها وإغلاق أبوابها بعدما امتلكتها بلدية باريس في منتصف ثمانينيات القرن الماضي. ولا تزال أبواب السينما مغلقة منذ أكثر من ربع قرن، بيد أن جمعية تأسست تحت اسم «أصدقاء الأقصر»، سعت بشتى الطرق القانونية إلى فتح أبواب الدار، ونجحت أخيراً في تأمين دعم مادي للمشروع، وإعادة ترميمه، مع الحفاظ على هوية الدار المصرية، على أن تفتتح في ربيع ٢٠١٣.

وتتكوّن «الأقصر» الجديدة من ثلاث صالات لعرض الأفلام، وقاعة كبيرة للمعارض ومقهى، وترغب الجمعية التي ستدير السينما في ألا تنحصر البرمجة في الأفلام المصرية مثلما كانت الحال سابقاً، بل تعد بالعمل على تنويع أعمالها واستضافة ندوات لمخرجين سينمائيين.(١٠)

مهرجان التانغو العالمي:

أحيت مونتريال «مهرجان التانغو العالمي» بتقديم استعراضات راقصة أمام حوالي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

خمســة آلاف شخص مــن محبي هذا الفن الذي يتزايد الإقبال عليه سنة بعد سنة، ما جعل مونتريال المدينــة الرابعة في احتضان مهرجان للتانغو بعد بوينس آيرس وبرلين وأمستردام.

وتعتبر رقصة التانغو من الفنون الشعبية الأميركية -اللاتينية ومنبتها التاريخي مدينة بوينس آيرس الأرجنتينية، وقد ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر وتلقحت منذ ذلك الحين بألوان وإيقاعات موسيقية أوروبية وأميركيــة - لاتينيــة وإفريقيــة، وتعرضت في تطورهــا إلى مراحل صعــود وركود إلى أن استعــادت مكانتها الفنيــة، لاسيما على خشبــات المســارح وفي المهرجانات العالمية، كما خصصت لها مدارس وبات لها محترفون وهــواة وعشاق من الجنســين ومن مختلف الأعمار.

ويــرى جــيرارد فانسي، المديــر الفني للمهرجــان، أن أكــثر مــا يجــذب عيــون المشاهديــن إلى رقصــات التانغــو، علــى اختلاف أنماطهــا وإيقاعاتها الموسيقية هو أناقــة الراقصين وليونة أجسادهم وجاذبية المرأة المفعمة بالمشاعر المرهفة والانفعالات العاطفية، مقابل حضور قوي للرجل وتناغم عميق بين تناقضاتهما.

وتعتــبر رقصة التانغــو، في نظر العديد من النقاد الفنيين، أكثر من مجرد رقصة أو موسيقى خاصة بشعب أو منطقة معينة، إنما هي جزء من تراث فني ثقافي إنساني. ولهذا الاعتبــار تقدمــت الأرجنتــين والأورغواي من الأونيسكو بطلــب الحفاظ على التانغو وحمايــة هذا الفــن من خطــر الانقراض والــزوال، فاعترفت به المنظمة الدولية عام ٢٠٠٩ جزءاً من التراث الإنساني غير الملموس في العالم، وموروثاً من جيل عن جيل يساهم في تشكيــل هوية الجماعــة ويجسد التنوع والحوار الثقافي.(١١)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»

WWW.SANA.ORG.

٢- وكالة المغرب العربي للأنباء

WWW.MAP.CO.MA

٣- موقع إيلاف

WWW.ELAPH.COM

٤- شبكة المعلومات العربية المحيط

WWW.MOHEET.COM

٥- موقع العرب أونلاين

WW.ARABONLINE.CO

٦- وكالة أنباء الشرق الأوسط

WWW.MENA.ORG.EG

٧- موقع البوابة

WWW.ALBAWABA.COM

٨- وكالة أنباء الإمارات

WWW.WAM.ORG.AE

٩- موقع آكي

WWW.ADNKRONOS.COM/AKI/ARABIC

١٠- موقع القناة

WWW.ALQANAT.COM

١١- وكالة رويترز

WWW.REUTERS.COM

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب الشهر

الجوانب الإنسانية والظواهر الفنية في شعر نازك الملائكة

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ٭

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن الحراك الاجتماعي في تزمنه التاريخي، يشكل معبراً هاماً يساق باتجاه إنتاج منظومتين اقتصادية وفكرية، تساير أو تخالف أو تسبق الحراك الاجتماعي.

وفي البنية الفكرية للمجتمع العربي الحديث، أُنتج منظومة معرفية تساوقت مع التراث العربي الإسلامي ومع الميراث العالمي النهضوي. وكانت

٭ باحث سوري.

نازك الملائكة أحد الروَّاد الذين عبروا بالأدب العربي نحو ما يسمى بالشعر الحر أو قصيدة النثر أو شعر التفعيلة في قطيعة شبه تامة مع الميراث الأدبي العربي. هذا الكتاب «الجوانب الإنسانية والظواهر الفنية في شعر نازك الملائكة» لمؤلفته «سامية صادق ديوب» والصادر عن وزارة الثقافة السورية للعام /٢٠١١/ يدور في محوره العام حول هذا التحول الأدبي في نمطية إنتاج القصيدة العربية وهو ما سنحاول تقديمه في عجالتنا هذه.

مدخل..

شكلت نازك الملائكة مع زميليها بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ظاهرة فنية جديدة، من خلال التغييرات الجريئة، فيما يتعلق بنظام القصيدة من حيث الإيقاع والوزن. وتفردت نازك الملائكة بمحاولة وضع الأسس النظرية التي بنيت عليها حركة التجديد تلك.

ولدت نازك الملائكة في بغداد عام ١٩٢٣ في أسرة مثقفة، غذت فيها حب العلم، والاستقلال في الرأي، والثقة في النفس. درست اللغة العربية في دار المعلمين العالية في بغداد وتخرجت منها عام ١٩٤٤. وحصلت على درجة الماجستير في الأدب المقارن من أمريكا، ودرّست في جامعات بغداد والبصرة والكويت، وأصدرت مجموعة من الدواوين الشعرية، والكتب النقدية. وقد منحتها جامعة البصرة شهادة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٩٢. عاشت آخر فترات حياتها في القاهرة إلى أن توفيت في شهر حزيران ٢٠٠٧م.

الجوانب الإنسانية في شعر نازك الملائكة.

- الموت والحياة: طغت فكرة الموت على ذهنية نازك الملائكة وهي في ريعان الشباب، وانعكس ذلك في شعرها، ورافقها عبر مراحل حياتها، وخاصة في ديوانها الأول. ففي هذا الديوان قلق وتشاؤم وتساؤلات لا تنتهي، ولاتجد أجوبة لأنها تتعلق بالقدر، وبالحياة، وبالموت، وبمصير الإنسان بعد الموت.

تقول في ديوانها «مأساة الحياة وأغنية للإنسان».

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

عبثاً تحلمين شاعرتي ما

من صباح لليل هذا الوجود

عبثاً تسألين لن يكشف السر

ولن تنعمي بفك القيود

والشاعرة ساخطة على حكم القدر لأنه يتحكم بالناس وبمصائرهم بلا رحمة، مثيرة قضية الجبر والاختيار. فالإنسان مسير لا مخير:

هكذا جئت للحياة وما أد

ري إلى أين سوف تمضي الحياة

وسأحيا كما يشاء لي المجـ

ـهول حيرى تلهو بي الظلمات

ولعل الأكثر من ذلك هو تساؤل الشاعرة عن مصيرها ما بعد الموت:

هل فهمت الحياة كي أفهم المو

ت وأدنو من سره المكنون

لم يزل عالم المنية لغزاً

عز حلاً على فؤادي الحزين

- الحزن والسعادة: بحثت الشاعرة عن السعادة طويلاً، لكن الخيبة كانت نصيبها، فلاذت بالاستسلام حيناً، والبحث حيناً

آخر. وصور لها بعض الناس السعادة على باب الغنى وآخرون في الصوم والزهد وتخيلها الآثمون في الإثم والدناءة، وآخرون في الريف وبساطته. والبعض في العزلة والفن، وأحياناً في الحب. رغم كل ذلك لم تجد السعادة ولاذت بالحزن والإثم وهو ما عبرت عنه الشاعرة بإحساس الشاعر تجاه أحزان الآخرين.

عجباً كيف تُسهر الشاعرَ المد

ـهم أحزانٌ من عن الحزن ناموا

كيف ترقا مدامع الورد في الحقـ

ـل ويبكي على أساها الحمام

آه يا شاعري المعذب ماذا؟

أكذا تصرف الحياة عنينا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في سبيل الوحي السماوي تحيا

شاحب الوجه متعباً محزونا

- الحرية والقدر: تنطلق الشاعرة أمام قضية الحرية والقدر من منطلق المستسلم اليائس. وأمام هذا العبث تنتفض الشاعرة محتجة على قدرية الإنسان. وبالتالي تطرح في ذهنيتها مشكلة العلاقة بين الإنسان والحياة بعد الموت. وبالتالي فإن الحرية الوحيدة التي نقدر عليها هي محاولة التحرر من أسر المشاعر والعواطف لتفادي ما قد يخبئه القدر لنا من حرمان وآلام. تقول الشاعرة:

يا لحكم الأقدار يا راعي الأغـ

ـنام يا ظلم ما تريد الصروف

كيف تفنى الأشواك حارسة الزهـ

ـر ويبقى الورد والرقيق الضعيف

- الرجل والمرأة: تفضل الشاعرة الاحتراق بحرارة دمعها على أن تبوح بأسرار قلبها خشية المهانة، أو للحفاظ على هيبة المشاعر وجلالها. فترسم لوحة للجمود وانعدام الحس. ولهذا السبب تريد نازك حلاً يحفظ كبرياءها المعتدة به، فتتظاهر بالقوة والصلابة، وبالجمود والتبلد، والهدف واحد: حماية قلبها، وتحصين مشاعرها من أي هوان.

وها أنذا عمري احتقار وأدمع

وفي نفسي الولهى لظى وتمرد

أحن إلى حبي الجميل وإن يكن

أشاح عن التمثال جفني المسهَد

وماذا تبقَى الآن؟ شلو حجارة

تضيق بها نفسي وصخر ممدَد

- الزمان والمكان: في الأدب العربي الحديث مواقف لا يمكن أن تنفصل عن فكرة الزمن أبداً، كما أن هناك إلماحاً إلى جدل العلاقة بين الزمن والإنسان فالمكان يتغير بتغير الزمن، ولا يبقى إلا الواقع:

كنت عرشي بالأمس ياتلّي الر

ملي والآن لم تعد غير تلّ

وللتخلص من الزمن وقيمه تحاول الشاعرة حرق مذكراتها للتخلص من الماضي:

أحرقيها، لم أعد أعباً، لن أبكي شذاها

إنها يا نار، ذكرى لليالٍ لن أراها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكما أن المكان ليس جميلاً بحد ذاته، ولكن نضفي عليه من أنفسنا، كذلك الزمان لا فائدة من مروره بلا حب، لأن الحب هو الذي يعطي اللحظات قيمتها.

- **اللون والحركة:** قد تكمن بعض أسرار شخصية الإنسان في تفضيله لون على لون آخر. وقد لا يقل عنصر الحركة إيحاءً عن عنصر اللون وتدمج الشاعرة نازك الملائكة الحركة باللون لإخراج هذه الصورة مجسدة انبثاق اللون. وإعطاءه صفة لمسية تتضمن حركة متجلية في استشعار النعومة ثم تستكمل اندماج اللون بالحركة:

وعلى رأسها جدائل بيض الـ

ـعطر من زنبق غريب الرواء

وتسوقان ركب أحلامنا الحو

راء نحو الضياع والانطفاء

وفي قصيدة (نداء إلى السعادة) نلاحظ استخدام الحركة ولكن الحركة المدركة بصرياً، مع حاسة أخرى هي غالباً حاسة الشم:

يا ضباباً من الشذى الشفاف

يا جمالاً بلا حدود

يا رفيفاً معطراً في ضفاف

ليس يدري بها الوجود

* * *

الظواهر الفنية في شعر نازك الملائكة.

- **بناء القصيدة:** لابد بداية من الإشارة إلى أن أنواع البناء الفني يمكن أن تصنف في مجموعات بعد الأخذ بعين الاعتبار أموراً معينة مثل طريقة إنهاء القصيدة، ووجود عامل الزمن في القصيدة، ووجود أكثر من حركة في القصيدة.

وإذا بدأنا بطريقة التصنيف الأول -أي انتهاء القصيدة- وجدنا ثلاثة أنواع للبناء:

١- البناء الدائري المغلق.

٢- البناء الذي ينتهي نهاية مفتوحة.

٣- الشكل الحلزوني.

أما بحسب وجود الزمن فإن بناء القصيدة يتمحور حول ثلاثة أنواع:

١-الهيكل المسطح.

٢-الهيكل الذهني.

٣-الهيكل الهرمي.

- **أساليب التعبير:** هي الطرق التي عبرت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بهـا الشاعرة عـن أفـكار قصائدها. ومن أهمها سمة الغنائية لأنها أكثرت من العزف على أوتار الـذات، والذي أنتج شعراً رائعاً. وعلى الرغم مـن اعتمادها على الذاتية في التعبير، إلا أنّهـا استخدمت وسائل تعبيرية جديدة، وسائل ترتبط بالتفكير الدرامي، في تناقضات الحياة، ومن خلال ثنائيات. فقد أدركـت الصراع ومتناقضـات الحياة. ومن هذه الأساليب:

١-أسلوب القص.

٢-الحوار الداخلي (المونولوج).

٣-الحوار الخارجي (الديالوج).

٤-تعدد الأصوات.

- الصورة الفنية: الصورة أساس في بناء القصيدة. ونازك الملائكـة على الرغم من إدراكهـا أن الصـورة وسيلة لنقـل الفكرة، إلا أنهـا ظلت تقليدية، مـن مهامها: الشرح والزخرفة والمبالغة. وهـي تضاف في هذه الحـال إلى القصيدة إضافـة. وهي تعتمد أيضاً على التشبيه والاستعارة. ومن صورها التشبيهية:

ممعناً في الجمود والصمت كالمو
تى يناجي الفضاء يرعى الغيوما

وهي صـورة لدهشة الراعـي وجموده عندما دهم الذئب صديقه فقتله.

- البنـاء اللغـوي: تقدم لنا نازك الملائكة تأكيـداً على عـدم الانفصال بـين الشكل والمضمون في نصوصها. ودراسة البناء اللغوي تتطلب بالضرورة دراسـة طاقاته الجمالية وجميع إمكاناته الدلالية والإيقاعية. وعند دراسة الألفاظ المشكلـة للبناء اللغوي عند نـازك، تستوقفنـا ثلاث مجموعـات كبيرة وواضحة من الألفاظ:

١-الألفاظ الدالة على الألم والحزن.

٢-ألفاظ الطبيعة.

٣-الألفاظ الدالة على الزمن بتقسيماته المختلفة.

- الإيقاع والموسيقى: أول ما يلفت انتباهنا في شعر نازك المنظوم على البحور الخليلية معرفتهـا الواسعـة بخصائـص البحـور وإمكاناتها:

يا ضباباً من الشذى الشفاف
يا جمالاً بلا حدود
يا رفيفاً معطراً في ضفاف
ليس يدري بها الوجود

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد رفضت الشاعـرة تعدد البحور في القصيدة الواحدة، إلا إذا استدعت الحاجة ذلك، كما هو الحال في الشعر المسرحي. كما التزمت بالقافية في شعرها الخليلي والحر. ولا شـك في أن تنويـع الشاعرة في المصادر الموسيقيـة في شعرها ناتج عـن إدراكها أن الإيقـاع لا يقتصر على الصوت، إنه النظام الـذي يتوالى أو يتناوب بموجبه مؤثر ما هو نظام أمواج صوتية ومعنوية وشكلية.

الخاتمة:

لقـد جوبهـت نـازك بالنقد سـواء في بداياتها أو التعديلات التي أضافتها. لكنها كانت بعيدة عن المجال النقدي. ولعل بعض هـذه الانتقادات كانت ناتجـة من تقديمها النظرية والنموذج معاً. ومع ذلك فقد وصلت في بعضـ قصائدها إلى قمم الإبداع. فكان لها مكانتها المميزة شاعرة، وناقدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهي بذلك ترفع من قيمة الإنسان ومستواه الاجتماعي والفكري والاقتصادي، والثقافة حصيلة معلومات متنوعة ومتراكمة، وأساليب في التفكير تتسع وتضيق بحكم ارتباطها بقضايا الإنسان عموماً، والمثقف غير العالم المتخصص، هو الشخص الذي يكون واعياً عن طريق حسّه الاجتماعي بإنسانيته، سواء تعلّق الأمر بعصره أو خارجه، وهذا هو الجانب الإنساني في الثقافة..

قال محدثي: ولكن الثقافة تختلف من مجتمع إلى آخر، وهي ليست محايدة؟!

قلت: هذا صحيح، هي سلاح ذو حدين، إذ يمكن أن تستخدم أداة للتغيير، ويمكن استخدامها في الوقت ذاته أداة لتثبيت الوضع القائم، ويمكن للثقافة أن تكون وسيلة لاجترار الماضي، أو قاطرة للمستقبل، ويمكن لها أن تكون سياج الانغلاق على الذات أو نافذة الانفتاح على الثقافات الأخرى، ولكل مجتمع ثقافته الخاصة، وهي مجمل أساليب حياته، والمفروض أنها تصقل العقل وترهف الحس وتقوي الوعي والإدراك..

قال محدثي: وماهي علاقة السياسة بالثقافة؟!

قلت: تتأثر السياسة الثقافية في معظم الأحوال بالمشاركة ووعي الشعوب، فإذا لم يشارك أبناء الشعب في وضع سياسته الثقافية وفي تنفيذها، فإن مردودها سيكون محدوداً، وإن عدم تطابقها مع حاجات الفرد والمجتمع، وعدم مواكبتها

لتطورات العصر الذي يعيش فيه يعود في معظم الأحيان إلى قصور في البرامج التعليمية والتربوية..

قال محدثي: ماهو الفرق بين الثقافة والحضارة؟!

قلت: عندما تبلغ أمة من الأمم مستوى القمة في المجال الثقافي، في مرحلة معينة من تاريخها، يقال إن هذه الأمة ذات حضارة، ومعنى ذلك أن الثقافة قد حققت في هذه الأمة الحيوية والاعتداد والثقة بالنفس.. ويعد بعض العلماء أن الثقافة جسرٌ للحضارة، وهذا يعني أن الحضارة أعلى درجة من الثقافة، وأكثر تقدماً وأعظم رقياً، ويمكن القول أيضاً: إن الحضارة نسق من التفكير والإنتاج والسلوك والمعاملة، ناتج عن أرضية ثقافية بمعتقداتها وخلفياتها التاريخية وتراثها الشعبي، تولدت عنه مفاهيم وقوالب ومعايير خاصة ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية متميزة، إذ تكشف كل حضارة عن وجودها من خلال ما ينبع من ذاتها من فنون وتراث وعطاء علمي وفكري وثقافي على مرّ السنين، بل ومن خلال ما تقدمه من إبداع في مختلف المجالات الأدبية والفنية والاجتماعية.

قال محدثي: ما هي علاقة الثقافة بالتراث؟!

قلت: يعد التراث مظهراً من مظاهر الإبداع الفردي والجماعي للأمة خلال تاريخها الطويل، كما يعد التراث أفضل تعبير عن الهوية الثقافية للأمة وذاتيتها الثقافية، ويشمل التراث أشكالاً متعددة ثقافية وفنية وفكرية متوارثة من ماضي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمة القريب والبعيد، وهو عطاء من صنع الإنسان يختلف باختلاف الأزمنة والأماكن، لذلك يعد التراث من أهم الوسائل الفعالة في ترسيخ الهوية الثقافية، ولهذا فإن دراسته دراسة نقدية هادفة هي أمر مفيد يندرج ضمن سبل العناية به، والثقافات التي لديها الجرأة على القيام بنقد ذاتي لتاريخها، والاستفادة من الدروس المستخلصة من تراثها، يمكنها أن تصوغ تراثها المستقبلي بروح خلاقة لمواكبة التغيّر من دون التخلي عن أصالتها، وإن الذين يستوعبون تراثهم اكتشافاً ودراية ونقداً يكونون أكثر استعداداً للحفاظ على التواصل من خلال التغيير، والنظر إلى الزمن القادم ببصر جديد، ونظر ثاقب، بغية تصور الواقع المقبل، انطلاقاً من شرفة الواقع الحاضر، هو ما يطلق عليه اسم «استشراف المستقبل».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com